II

فاسيلي غروسمان

الحياة والمصير

ترجمة: ثائر زين الدين وفريد الشحف



دار سؤال؟

اهداء لأصدقاء مكتبة ..

دارا محمد إيناس حسين علي

رحمة الحداد هيفاء ليلى محمود

لروح الوالد قيس علي خير الله

الحياة والمصير

الجزء الثاني

مكتبة | 744
سُر مَن قرأ

فاسيلي سيميونوفيتش غروسمان

الحياة والمصير

رواية

الجزء الثاني

ترجمة:

د. ثائر زين الدين   د. فريد حاتم الشحف



دار سؤال ؟

العنوان الأصلي للكتاب

Жизнь и судьба

Васи́лий Семёнович Гро́ссман

الطبعة الأولى، 2021

عدد الصفحات: 520

القياس: 5 .14 × 5 .21

دار سؤال للنشر

لبنان - بيروت

بيروت - النويري - شارع سيدي حسن - بناية غلاييني - الطابق السادس

ص.ب: 58-360-11

هاتف: 883687 81 00961

www.darsoual.com

@darsouall2014

dar_souaal@outlook.com

Dar Soual

ISBN: 978-614-8020-83-4

الجزء الثاني

1

عندما يرى الناس في الداخل حركةَ القوافلِ العسكريَّةِ المتَّجِهةِ إلى الجبهة، تتملكهم لهفةُ السرور - يبدو أنّ هذه المدافع بالتحديد، وهذه الدبابات المطليّة حديثاً مُخصّصة للأمر الرئيسي المنشود، الذي سيقرّب سريعاً نتيجةَ الحربِ السعيدةَ.

ينشأ عند أولئك الذين يغادرون الاحتياط، ويُحَمَّلون في القوافل، توتّرٌ خاصٌّ في دواخلهم. تتراءى لآمر الفصيل الشاب أوامرُ ستالين الواردة في المظاريف المختومة. . . بالتأكيد لا يفكر الناس من ذوي الخبرة في أي شيء من هذا، يشربون الماء المغلي، ويضربون صرصوراً مرهقاً يمرُّ فوق الطاولة أو على الحذاء، وهم يناقشونَ حياة الرائد الخاصة، وآفاق تبادل البضائع في أقرب محطة تقاطع للقطارات. لقد رأى ذوو الخبرة من الناس كيف يحدث ذلك: حيث يُفَرَّغُ جزء في الخط الأمامي، في محطة نائية معروفة للقاذفات الألمانية فحسب، وعند أوّل قصف يفقد الجنود الجدد قليلاً من المزاج الاحتفالي. . . لا يسمحونَ للناس الذين تورّموا في الطريق من جرّاء النعاسِ أن يناموا ولو لساعة، والمسيرُ استمرّ أيّاماً، ولا وقت للشرب، وتناول الطعام، وقد أصابهم الصداع بفعلِ هدير المحركات ذوات الحرارة المرتفعة، وأصبحت أياديهم غير قادرة

على الإمساك بأدوات التحكم. كان القائد قد قرأ الشيفرات، وتعب من سماع الشتائم عبرَ جهاز اللاسلكي - تريد القيادة سدّ الثغرة بسرعة، ولا أحد يهمّه ما هي مؤشرات الرمي التعليمي بالأسلحة عند القطعة الجَديدة. «هيّا، هيّا، هيّا». هذه هي العبارة الوحيدة المستقرّة في أذني قائد القطعة، الذي يأمرهم بعدم التأخّر - ويلاحقهم على نحوٍ مستمر. ويحدث أنّ جزءاً يدخل المعركة مباشرة، دون أن يستطلع المنطقة، ويعلو صوتٌ ما متعب وعصبيّ: «هجومٌ مضادٌّ فوراً، ولا شيءَ لدينا على طول هذه المرتفعات، وهو يلاحقنا في كلّ شيء، ويرسل الجميع إلى الجحيم».

اختلطَ في رؤوس السائقين الميكانيكيين، وعاملي اللاسلكي، والهدَّافين الطرقُ وهديرُ الطريق الذي استغرق عدّة أيّام مع صفيرِ الغارات الجويّة الألمانية وصوت انفجارات القذائف.

هنا على نحوٍ خاصٍّ يصبحُ جنونُ الحرب مفهوماً - مرّت ساعة، وها هو ذا الجُهدُ الضخم: الدُّخانُ يتصاعد من الآليّات المحترقة والمدمّرة مع الأسلحة المنقلبة، وقد نُزِعت مفاصلها المُثبّتة.

أين أشهُرُ الدراسة بلا نوم؟ وأين العمل الصعب الذي بَذَلَهُ عمّالُ لحام المعدن، والكهربائيون؟

ويرسلُ القائدُ الأعلى إلى القيادة تقريراً روتينياً بغيةَ إخفاء تَسَرُّعِه غير المدروس في إلقاءِ القطعة العسكريّة التي وصلت لتوِّها من الاحتياطي إلى المعركة، فالتستّرُ على الأمرِ هلاكٌ من دون فائدة تقريباً: «قتال القطعة التي وصلت لتوّها من الاحتياط، أوقفَ تقدُّم العدو لبعض الوقت وسمحَ لي بإعادة تجميع القوّات الموكلة إليّ».

لو أنّه لم يصرخ: هيّا، هيّا، ولو أنّه أعطى فرصةً لاستطلاعِ

المنطقة، ولم يدفع بتلكَ الدباباتِ إلى حقل ألغام، فقد كان في إمكانها أن تقاتلَ وتسبب مشكلةً للألمانِ وتَعُوقَهم مع أنها ما كانت لتحسمَ الأمر.

توجّه فيلق نوفيكوف للدبابات إلى الجبهة.

بدا لشباب الدبابات الساذجين الذين لم يصابوا، أنّهم هم بالتحديد من سيشاركون في حسم المسألة. سخرَ منهم محاربو الجبهة العارفون بجوهرِ الأمور - يدركُ قائدُ اللواء الأوّل ماكاروف وقائد كتيبة الدبابات فاتوف - وهو الأفضل في الفيلق - جيّداً كيف تكون الأمور جميعها، فقد شاهدا ذلك أكثر من مرّة.

إنّ المشككين والمتشائمين هم أناسٌ واقعيون، أناسٌ من ذوي خبرةٍ مريرةٍ، أغنوا فهمهم للحرب بالدم والمعاناة. هذا هو مَصدَرُ تفوقهم على المتأتئين حليقي الشوارب. لكن الناس من ذوي الخبرة المريرة قد أخطؤوا هذهِ المرَّة. ستشارك دبابات العقيد نوفيكوف في المسألة التي ستحددُ مصيرَ الحرب وحياةَ مئات الملايين من الناس بعد الحرب.

2

كان نوفيكوف قد أُمِرَ أن يَتَّصِلَ بممثل الأركان العامّة عند وصوله إلى كويبيشيف، الجنرالَ - الملازمَ ريوتين، للإضاءة على عدد من المسائل التي تهمّ القيادة.

اعتقد نوفيكوف أنّهم سيستقبلونه في محطة القطار، لكن الرائدَ قائدَ المحطة قال بنظرة بريَّة شاردةٍ وناعسة تماماً إنَّ أحداً لم يسأل عن نوفيكوف. لم يتمكّن في المحطة من الاتصال بالجنرال، فقد كان هاتفه سرّيّاً إلى درجة تجعلُ من المستحيل فعل ذلك.

مضى نوفيكوف سيراً على الأقدام إلى مقر قيادة المقاطعة.

شعر بالخجل في ساحة المحطة، ذلك الخجل الذي كان قادة الوحدات القتالية، يحسون به عندما يجدون أنفسَهم فجأة في بيئة مدنيّة غير عادية. انهار شعوره بوضعه المركزي في الحياة؛ ما من عاملِ هاتفٍ هنا يمدُّ له السمّاعة وما من سائق يندفع بسرعة أمامَه لتشغيل السيارة.

ركض الناس على امتداد شارع مرصوف بالحصى، إلى الطابور الذي شُكِّلَ حديثاً أمام الموزِّع: «مَن الأخير؟... أنا بعدك...».

بدا أنه ما من شيءٍ أكثرَ أهميَّة لهؤلاء الناس الذين يقرقعونَ

«بالبيدونات» من الطابور عند بابِ محل المواد الغذائية المدمَّر. كان الجنودُ القادمونَ غاضبين خصوصاً من نوفيكوف، وكان الجميع تقريباً يحمل حقيبة وصُرَّةً في يده. فكّر: «هل أجمعهم جميعاً، أولاد الكلبة هؤلاء، في قافلة وأسوقهم إلى الجبهة؟».

أيُعقلُ أن يراها اليوم؟ مشى في الشارع وفكر فيها. جينيا، ألو!

كان الاجتماعُ مع الجنرال ريوتين في مكتب قائد المنطقة قصيراً؛ فبمجرد أن بدأ الحديث بينهما استُدعيَ الجنرال عبر الهاتف من هيئة الأركان العامة؛ طلبوا إليهِ الحضور على وجه السرعة إلى موسكو.

اعتذر ريوتين إلى نوفيكوف واتصلَ مستخدماً الهاتف الأرضي.

- ماشا، لقد تغير كل شيء. تغادر طائرة «دوغلاس» فجراً، أخبري آنّا آريستارخوفنا. لا يوجد متّسع من الوقت لأخذ البطاطا، الأكياس في السفخوز... - تجعّد وجهه الشاحب مُمتعضاً ومُعانياً، وهو يقاطعُ على ما يبدو سيلَ الكلمات الذي تَدفَّقَ إليه عبر الهاتف: - «حسناً، هل تأمرينَ بإبلاغ القيادة بأني لن أتمكن من الطيران بسبب عدم إنجاز خياطة معطفِ السيدة؟».

وضع الجنرال السمّاعة وقال لنوفيكوف:

- هل تعتقد أيّها الرفيق العقيد أنَّ جزءَ الحركةِ في الآليّة يرضي المتطلّبات التي وضعناها أمام المصمّمين؟.

لقد حمّلَ هذا الحديثُ نوفيكوفَ عبئاً. تعلّم خلال الأشهر التي أمضاها في الفيلق أنّ يحدّد بدقةٍ الناسَ، والأصحّ أوزانهم الوظيفيّة. لقد قيّم من قبلُ فوراً ومن دون أخطاء قوّة أولئك المفوّضين، ورؤساء

اللجان، والممثلين والمفتشين والمصمّمين الذين حضروا إليه في الفيلق.

كان يعلمُ معنى الكلمات الهادئة: «لقد طلب مني الرفيق مالينكوف أن أخبرك. . .» - وكان يعلم أن هناك أشخاصاً يحملون أوسمة ويرتدون الزي الرسمي، فصيحين وصاخبين، عاجزين عن الحصول على طن من وقود الديزل، وتعيين أمين مخزن وطرد كاتب من العمل.

لم يكن ريوتين يعمل في الطبقةِ الرئيسةِ للمجمّع الحكومي الضخم. كان يعمل في مجال الإحصاء والتمثيل، للإحاطة العامّة. أخذ نوفيكوف ينظر إلى الساعة وهو يتحدّث إليه.

أغلق الجنرال دفتر الملاحظات الكبير. وقال:

- للأسف، أيّها الرفيق العقيد، لقد حان الوقت، سأطيرُ فجراً إلى هيئة الأركان العامّة. هذهِ مصيبة، إنّهم يَستدعونَك حتى إلى موسكو.

قال نوفيكوف ببرود:

- نعم أيها الرفيق الجنرال، حتى إلى موسكو، مع الدبابات التي أقودها.

ودّع أحدهما الآخر. طلب ريوتين إبلاغَ الجنرال نيودوبنوف تحياته، الذي خدم معه ذات مرة. مشى نوفيكوف على سجادة الطريق الخضراء في المكتب الفسيح، وسمع ريوتين يقول عبر الهاتف:

- صِليني برئيس السفخوز رقم واحد.

فكّر نوفيكوف: «إنه يطلب حصّته من البطاطا».

ذهب إلى يفغينيا نيقولايفنا. في ليلة صيفية حارّة وصلَ إلى بيتها في ستالينغراد، وصل من السهب، الذي يغطّيه الدخان وغبار الانسحاب. وها هو ذا من جديد يسير إلى بيتها، وبدا أنّ هوّةً تتوضّع بين ذلك الشخص وهذا، لكنَّهُ سار هو نفسه، إنّهُ وحده ذلك الشخص.

فكّرَ: «ستكونين لي، ستكونين لي».

3

كان منزلاً قديماً مكوّناً من طابقين، من تلكَ المنازل التي لا تواكب بحرارتها أوقات السنة، المنازل العنيدة ذوات الجدران السميكة التي تحتَفظُ برطوبة باردة في فصل الصيف، ولا تنفصل في برد الخريف عن الدفء المحبوس والمُغبرّ.

قرعَ الجرسَ، وفاحت عليه عبر الباب الذي انفتح رائحةُ هواء مخزون، ورأى في الممر المملوء بالسلال والصناديق المضغوطة يفغينيا نيقولايفنا. . . لقد رآها ولم يُبصر منديلاً أبيضَ على شعرها ولا فستاناً أسودَ، ولا عينيها ووجهها، ولا ذراعيها وكتفيها. . . ويبدو أنه لم يرَها بعينيه، بل بقلبٍ أعمى. أمّا هي فتأوّهت ولم تتراجع قليلاً كما يفعلُ من أصابتهم الدهشةُ فجأة.

ألقى التحية عليها، وأجابته بكلمات ما.

خَطا نحوها، وأغمضَ عينيه، وشعر بسعادة الحياة، وبالاستعداد أن يموتَ هنا الآن مباشرة، وقد مَسَّهُ دفؤُها.

وكي يعيشَ ذلكَ الشعور الذي لم يَعِشْهُ من قبل - السعادة، اتَّضَحَ أنّهُ لا يحتاجُ إلى نظر، ولا إلى أفكارٍ وكلماتٍ.

سألته عن أمرٍ ما وأجابها، سائراً خلفها في ممرٍّ مظلمٍ، وممسكاً بيدها كأنّه صبيٌّ خائفٌ أن يبقى وحيداً بين جموع الناس.

فكّر: «إنّه ممرٌّ واسعٌ جداً. ويمكن أن تمرّ عبرهُ قيادةُ جيش».

دخلا غرفةً ذات نافذةٍ تطلُّ على جدارٍ مسدودٍ لمنزلٍ مجاور.

كان ثمَّةَ سريران بجانب جداري الغرفة - أحدهما مع وسادة مسطحة مدعوكة ومغطّى ببطانية رمادية، والثاني تحت غطاء من الدانتيل الأبيض، مع وسائد بيضاء مُمَهَّدة. عُلّقت على السرير الأبيض بطاقات تهنئة بمناسبتي رأس السنة وعيد الفصح، رُسمَت عليها صيصان جميلة بثياب رسمية، تخرج من قشر البيض.

وكان في زاوية الطاولة أوراقٌ بيضاء ملفوفة على شكل أنبوب، وقطعة خبز، ونصف بصلةٍ ذابلة، وزجاجة زيت نباتي.

قال:

- جينيا.

نظرتُها، التي عادة ما تكون مرحةً ومراقبة، كانت خاصّةً وغريبة، قالت:

- ألست جائعاً، وقد وصلت من سفر؟

أرادت على ما يبدو كسرَ وتحطيمَ ذلك الشيء الجديد، الذي نشأ ومن غير الممكن كسره. لقد أصبحَ مختلفاً، وليس ذلك الشخص الذي كانَه، بعد أنْ غدا ذا سلطةٍ على المئات من الناس وعلى آلات الحرب المتجهّمة، أصبحت عينا الشاب شاكيتين حزينتين. حارت بسبب عدم التوافق هذا، وأرادت أن تُجرّب شعور التنازل أو التساهل نحوه، وحتى شعور الأسف، وألّا تفكّر في قوّته. كانت الحرّيةُ سعادَتَها. لكن الحريّة غادَرَتها، ومع ذلك كانت سعيدة.

قال فجأة:

- ما بك، أيُعقل أنّك لم تستوعبي! وتوقف من جديد عن سماع

كلماتها وكلماته. وبزغَ داخلَهُ من جديد إحساسٌ بالسعادة، وشعورٌ مرتبطٌ به؛ لو يموت الآن. عانقتهُ، ولامسَ شعرُها جبهتَه وخدَّه مثل مياهٍ دافئة، ومن خلال شعرها الداكن المبعثر رأى عينيها.

همسُها كتمَ صوتَ الحرب، وصرير الدبابات. . .

شربا مساءً ماءً مغليّاً، وأكلا خبزاً، وقالت جينيا:

- لقد نسيتَ أيّها المدير الخبز الأسود.

أحضرت مقلاة من عصيدة الحنطة السوداء عن حافةِ النافذة؛ وكانت الحبوب الكبيرة من الحنطة السوداء المتجمّدة قد تحولت إلى اللونين الأرجواني والأزرق. وعلقت بها حباتُ عرق بارد.

قالت جينيا:

- مثل الليلك الفارسي.

جرّب نوفيكوف الليلك الفارسي، وفكّر: «شيء فظيع!»

قالت من جديد: لقد نسي المديرُ الحنطةَ السوداء، وفكّر هو بدوره: «إنه لأمر جيد أنه لم يُطعْ غيتمانوف، ولم يجلب أيَّ مواد غذائية».

قال:

- لمّا بدأت الحرب، كنت في ضواحي مدينة بريست في فوج طيران. اندفع الطيارون إلى المطار وسمعت إحدى البولونيّات تصرخ: «من هذا؟»، وأجابها صبيّ بولوني: «هذا عسكري روسي» - وشعرت على نحوٍ خاص: روسي، روسيّ أنا. . أنت تعرفين، أنّني علمتُ طوال حياتي بأنّني لستُ تركيّاً، وهنا نغّمت روحي: روسيّ أنا، أنا روسيّ. أقول بصدق، لقد ربّونا بروح مختلفة قبيل

الحرب. . . اليوم، والآن بالتحديد، أفضل أيّامي؛ هأنذا أنظر إليك من جديد، كما كان الأمر حينها - حزنٌ روسيٌّ، سعادة روسية. . . هذا ما أردت أن أقوله لك. . . ، سألها: - ما الذي يشغلك؟

ومض أمامها رأس كريموف الأشعث. يا إلهي، أيعقل أنّي تركته إلى الأبد؟ وبدا لها في هذه اللحظات السعيدة بالتحديد فراقُه الأبديُّ أمراً لا يطاق.

وللحظةٍ بدا لها أنها في هذا اليوم على وشك أن تربطَ بين كلماتِ شخص اليومِ الذي قبّلها، وذلكَ الزمن الذي مضى، وقد تفهم فجأة المسار السرّي لحياتها وترى ما لا يُقدّر لها أن تراه: أعماق قلبها، هناك، حيثُ يحدّدُ مصيرُها.

قالت جينيا:

- هذه الغرفة تعود لامرأة ألمانية، كانت قد آوتني. هذا هو سريرها الملائكي الأبيض. لم أرَ في حياتي شخصاً مُسالِماً ولا حول ولا قوّة له أكثر منها. . . غريب أن يحدثَ ذلك في أثناء الحرب مع الألمان، وأنا على ثقةٍ بأنّها الأكثر طيبةً وودّاً في هذه المدينة. غريب، أليس الأمر غريباً؟

سألها:

- هل ستأتي قريباً؟

- لا ، لقد انتهت الحرب عندها، لقد نفوها.

قال نوفيكوف:

- الحمد لله.

أرادت أن تُحَدِّثه عن شفقتها على كريموف الذي تركته، ولا أحد

يكتب له رسائل، ولا أحد يسعى إليه، ما تبقّى له غير الشوق والحنين اليائس، والشعور بالوحدة.

واختلطت بذلكَ أيضاً الرغبة في الحديث عن ليمونوف، وشاروغوردسكي، عن الجديد وغير المفهوم، والمثير للفضول، الذي يربط بين هؤلاء الناس. وأرادت التحدّث كيفَ أنَّ جينيا غينريخوفنا كتبت في الطفولة كلماتٍ مضحكةً قالها أبناء شابوشنيكوف الصغار، وأن دفاتر الملاحظات تلك ظَلَّت على الطاولة، ويمكن قِراءتها. أرادت أن تحدّث عن قصة تسجيل الإقامة وعن رئيس مكتب الجوازات، لكنها لم تكن تثقُ به، وخجلت منه. وهل يحتاج إلى ما ستقوله؟

وما يثير الدهشة... أنها بدت كما لو أنّها عاشت مجدداً فترة قطع علاقتها مع كريموف. كان يتراءى لها دائماً في أعماقِ روحها، أنَّ من الممكن تصحيحَ تلكَ العلاقة، وإعادة الماضي. وهذا ما كان يهدئُها. والآن حين شعرت بالقوّة الكبيرة التي استولت عليها، أصابها قلق مؤلم؛ هل حقاً أنّ ما مضى لا يمكن تصحيحه، إلى الأبد؟ مسكينٌ نيقولاي غريغوريفيتش، مسكين. لماذا عليه أن يعاني كل تلك المعاناة؟

قالت:

- كيف ستتطوّر الأمور؟

قال:

- ستصبحين: يفغينيا نيقولايفنا نوفيكوفا.

أخذت تضحك وتحدّق في وجهه، وقالت:

- غريب، أمر غريب تماماً. من تكون في الواقع؟

- هذا ما لا أعرفه. أمّا أنت فستصبحين - نوفيكوفا يفغينيا نيقولايفنا.

عادت إلى رُشدها. سكبت الماء المغلي في فنجانه، وسألت:

- المزيد من الخبز؟

وقالت فجأة:

- إذا حدثَ أمرٌ ما لكريموف، وشوّهوا سمعته أو وضعوه في السجن، فسأعود إليه. كن على علم بذلك.

سأل متجهّماً:

- ولماذا يضعونه في السجن؟

- هناك كثيرٌ من الأسباب، إنّه من أتباع الكومنترن القدامى، وقد عرفه تروتسكي، وقال وهو يقرأ مقالته: «من المرمر!»:

- جرّب أن تعود، إنّه سيطاردك.

- لا تقلقي. هذا سيكون شأني.

قال لها إنّها ستصبح بعد الحرب ربّةَ بيتٍ كبير، وسيكون البيتُ جميلاً، ومن حولهِ حديقة.

أيعقل أن يكون ذلك على الدوام، ومدى الحياة؟

أرادت ولسبب ما، أن يفهم نوفيكوف بوضوح، أن كريموف كان ذكيّاً وعبقريّاً، وأنها مرتبطة بكريموف، وماذا يمكن أن تقول عن الحبّ؟ لم تكن تريده أن يشعر بالغيرة من كريموف، لكنها هي نفسها لم تفهم ذلك، لقد فعلت كل شيء لتستدعي غيرته. لكنها أخبرته، هو الوحيد، ما قاله لها هي وحدَها كريموف ذات مرة عن كلمات تروتسكي: «لو أنَّ شخصاً آخر قد عرف عن هذا الحادث في ذلك

الوقت، فما كان كريموف ليتمكَّنَ من النجاة في عام 1937». تطلّب شعورها تجاه نوفيكوف أعلى درجات الثقة، وهي قد عهدت إليه مصير الشخص الذي أغضبته.

كان رأسها ممتلئاً بالأفكار، كانت تفكر في المستقبل، وفي اليوم، واليوم الذي قبله، كانت شابة، سعيدة، خجولة، حريصة، حنونة، مرتعبة. إنّ أمّها وأخواتها وأبناء أخواتها، وفيرا، والعشرات من الناس مرتبطون بالتغيير الذي حدث في حياتها. ومهما تحدَّثَ نوفيكوف إلى ليمونوف، واستمع إلى أحاديث حول الشعر والرسم. إنّه لا يشعر بالخجل، على الرغم من أنه لا يعرف شاغال وماتيس... إنّه قويّ، قويّ، قويّ. ولهذا قدّمت له الطاعة. إنّ الحرب ستنتهي. أيُعقل، أيعقل أنّها لن ترى نيقولاي أبداً. أيّها الربّ، أيهّا الربّ، ماذا فعلت. لا حاجة إلى التفكير في الأمر الآن. فمن غير المعروف ما الذي سيحدث، وكيف ستتطوّر الأمور.

- لقد فهمت الآن بالتحديد: أنا لا أعرفك على الإطلاق. أنا لا أمزح: أنت شخص غريب. منزل، وحديقة - لماذا كل ذلك؟ هل أنت جادّ؟

- أتريدين أن أتسرّح من الخدمة بعد الحرب وأذهبَ إلى ورشة بناء مسؤولاً عن عشرة عمّال، في مكان ما في شرق سيبيريا، ونعيش في مهجع عائليّ؟

هذه الكلمات كانت صحيحة، لم يكن يمزح.

- ليس بالضرورة أن يكون عائلياً.

- ضروري جداً.

- لقد جُننتَ. لماذا هذا؟ - وفكّرت: «كولينكا[1]».

سأل خائفاً:

- كيف لماذا؟.

وهو لم يفكر في المستقبل ولا في الماضي. لقد كان سعيداً. لم تُخفه فكرة أنهما سيفترقان بعد بضع دقائق. جلس بجانبها، ونظر إليها... يفغينيا نيقولايفنا نوفيكوفا... لقد كان سعيداً. لم يكن يَحتاجُ أن تكونَ ذكيةً وجميلةً وشابّةً. لقد أحبها حقاً. لم يجرؤ في البداية على أن يحلم بأنها ستصبحُ زوجته. ثم حلم لسنوات طويلة بذلك. لكن حتى اليوم لا يزال يلتقطُ بتواضعٍ وخجلٍ ابتسامَتَها وعبارةً مازحة منها. لكنّه لاحظَ أنَّ شيئاً جديداً ظَهرَ.

راقبت كيف كان يحضّر نفسه للمغادرة، وقالت:

- حان وقتُ المضيِّ إلى القطعة العسكرية المقرفة، وترمينني إلى الموجة القادمة.

لمّا ودّعها نوفيكوف أدركَ أنها ليست قوية إلى تلك الدرجة، وأن المرأة هي امرأة دائماً، حتى لو كان اللّه قد وهبها عقلاً ساطعاً وساخراً.

قالت:

- كم أردتُ أن أقول، لكنّي لم أقل شيئاً.

لكن الأمرَ لم يكن على هذا النحو - فالشيءُ المهم الذي يقرّر حياة الناس بدأ يتحدد في أثناء وقت لقائهما. لقد أحبّها بالفعل.

---

(1) اسم فيلم يتحدّث عن عائلة، كان معروفاً في ذلك الوقت. (المترجمان).

4

سار نوفيكوف إلى محطة القطارات.

. . . جينيا، همسُها الحائر، وقدماها العاريتان، ووشوشَتُها اللطيفة، ودموعها لحظات الفراق، وسلطتها عليه، وفقرها ونظافتها، ورائحة شعرها، وحياؤها اللطيف، ودفءُ جسدها، وجَلُه هو لإدراكِهِ بساطَتَه العمّالية - العسكرية واعتزازه بانتمائه إلى تلك البساطة العمّالية - العسكرية.

مشى نوفيكوف في طريق السكّة الحديديّة، إبرةٌ خارقة دخلت غيمةَ أفكاره القاتمة - خوف الجندي في الطريق - ألم تغادر القافلة.

رأى المنصّات من بعيد، وزوايا الدبابات مع العضلات المعدنيَّة المنتفخة من تحت القماش المشمّع، والحراس الذين يرتدون خُوَذاً سُوداً، وعربة القيادة ونوافذها وستائرها البِيض المعلّقة.

دخل إلى العربة من جوار الحارس المناوب الواقف.

وضع المعاونُ فيرشكوف الغاضب من نوفيكوف، لأنّه لم يأخذه معه إلى كويبيشيف، شيفرةَ القيادةِ على الطاولة بصمت: التوجّه إلى ساراتوف، ومن ثمَّ تفرّع أستراخان.

دخل المقصورة الجنرال نيودوبنوف، ونظر ليس إلى وجه نوفيكوف، بل إلى البرقية في يديه، وقال:

- حدّدوا الطريق.

قال نوفيكوف:

- نعم، ميخائيل بتروفيتش، ليس الطريق، بل حدّدوا المصير: ستالينغراد - ثم أضاف قائلاً: - حَمَّلني الجنرال - الملازم ريوتين سلاماً لك.

- أ-أ- أ - قال نيودوبنوف وكان من المستحيل فهم على ماذا تعود تلك اللامبالاة «أ-أ- أ»، إلى سلام الجنرال، أم إلى مصير ستالينغراد.

كان شخصاً غريباً، وقد خشيه نوفيكوف: مهما حدث في الطريق: تأخير بسبب قطار قادم، تعطّل المحاور في إحدى العربات، عدم تلقي إشعار بحركة القافلة من مُرسل المسار - وتابَعَ نيودوبنوف مُنتعِشاً:

- اكتبوا اسم العائلة، اسم عائلةِ ذلكَ المُخرّب المُتعمّد الذي يتسببُ بذلك، يجب إيداعُ النذلِ السجنَ.

كان نوفيكوف لامبالياً في أعماقهِ ولم يتعامل بحقدٍ مع أولئك الذين يسمّونهم أعداء الشعب، والكولاك، وأتباع الكولاك. وما ظهرت لديه البتّةَ الرغبةُ في سجن أحد ما، وتقديمه إلى المحاكمة، وفضحه أثناء الاجتماعات العامّة. لكن هذه اللامبالاة الطيّبة، أتت بحسب اعتقاده، من نقص وعيه السياسي.

وقد رأى نوفيكوف في نيودوبنوف، وهو ينظر إلى الرجل، الذي أبدى مباشرة وقبل كل شيء اليقظة، وفكّر بريبة: «آخ، ألست عدوّاً أنت أيّها الرفيق العزيز؟». فقد حدّث نوفيكوف وغيتمانوف قبيل ذلك

عن المخرّبين - المعماريين، الذين حوّلوا شوارع موسكو وطرقها الرئيسة إلى مهابط للطيران المعادي.

- هذا هراء، في رأيي، - قال نوفيكوف - وجهل بالأمور العسكرية.

تحدّث الآن نيودوبنوف إلى نوفيكوف في الموضوع الثاني المُفضّل عنده؛ الحياة المنزلية. ولمّا لمسَ أنابيب التدفئة في العربة، أخذ يحدّث عن التدفئة البخارية التي جهّزها في البيت الريفي قبل الحرب بفترة قصيرة.

بدا هذا الحديثُ مثيراً للاهتمام على نحوٍ غير متوقع لنوفيكوف، فطلب إليهِ أن يرسم مخططاً لتسخين البخار في البيت الريفي، ثمَّ طوى الورقة التي رُسم عليها المخطط، ودَسَّها في الجيب الداخلي للسترة، قائلاً:

- قد تلزم.

دخل المقصورة بعد وقت قصير غيتمانوف وحيّا نوفيكوف ببهجة وحفاوة قائلاً:

- ها نحن مع القائد من جديد، وقد كنّا نرغب في اختيار زعيم جديد، واعتقدنا أن ستينكا رازين قد ترك جماعته(1).

تحرّك وهو ينظر بارتياح إلى نوفيكوف، الذي ضحك بدوره لمزاح المفوّض، وقد ظهر في داخله شعورٌ بالتوتّر أصبحَ معتاداً.

كان مزاح غيتمانوف ينطوي على ميزةٍ غريبة، لكأنّه يعرف كثيراً

(1) نسبة إلى ستيبان تيموفييفيتش رازين، المعروف ستينكا رازين، قائد أكبر انتفاضة في روسيا ما قبل بطرس الأوّل (1670- 1671). (المترجمان).

عن نوفيكوف، وقد لمّح في مزاحه بالتحديد إلى ما يشي بذلك. وها هو ذا الآن يكرّر كلماتِ جينيا لمّا افترقا، لكن ذلك بالتأكيد كان مصادفة.

نظر غيتمانوف إلى ساعته وقال:

- حسناً أيّها السادة، حان دوري كي أذهبَ إلى المدينة، هل من اعتراض على ذلك؟

قال نوفيكوف:

- تفضّل، نحن هنا لن نشعر بالملل من دونك.

قال غيتمانوف:

- هذا أمرٌ مؤكّدٌ، أنت أيّها الرفيق قائد الفيلق، لا تشعر بالملل في كويبيشيف.

وفي هذه المزحة لم تكن ثمّةَ مصادفة.

سأل غيتمانوف، وهو واقف في باب المقصورة:

- كيف حال يفغينيا نيقولايفنا، بيوتر بافلوفيتش؟

وجه غيتمانوف كان جادّاً، لم تبتسم عيناه.

أجابَ نوفيكوف:

- شكراً لك، إنّها جيّدة، تعمل كثيراً، ورغبة منه في تغيير الحديث، سأل نيودوبنوف: ميخائيل بتروفيتش، لماذا لا تذهب إلى كويبيشيف مدة ساعة؟

قال نيودوبنوف:

- ما الذي لم أره هناك؟

جلسا متجاورَينِ، وتفحّص نوفيكوف الأوراق، وهو يستمع إلى نيودوبنوف، ويضعها جانباً، ويقولُ من وقت إلى آخر:

- حسناً... حسناً... حسناً، تابع...

كان نوفيكوف يقدّم تقاريرَ إلى القيادة طوالَ حياته، وكانت القيادةُ تتفحّصُ أوراقاً، وتقول بغموض:

- حسناً... حسناً، تابع... - وهذا ما كان دائماً إهانة لنوفيكوف، وبدا لهُ أنّه لن يفعل ذلك البتّة...

قال نوفيكوف:

- اسمع هذه المسألة؛ نحتاج إلى تقديم طلبٍ يوجَّهُ إلى قسم الإصلاح، لمهندسي الإصلاح، لدينا عجلات، لكن اتضَحَ أنّه لا توجد جنازير تقريباً.

- لقد كتبته، أعتقد أنَّ من الأفضل توجيهه مباشرة إلى الجنرال-عقيد، فالطلب سيصل إليه في جميع الأحوال لأجلِ الموافقة.

قال نوفيكوف:

- حسناً، حسناً، حسناً - وقّعَ الطلبَ وقال: - يجب التحقق من الأسلحة المضادة للطيران في الألوية، قد نتعرَّضُ لغارات جويّة بعد ساراتوف.

- أعطيتُ الأوامرَ للمقرّ.

- هذا لا ينفع، إنَّها مسؤولية قادة القوافل، يجب إبلاغي قبل الساعة الرابعة عصراً. شخصيّاً، شخصيّاً.

قال نيودوبنوف:

- استلمنا الموافقة على تعيين سازونوف رئيساً لأركانِ اللواء.

قال نوفيكوف:

- برقيّاً، بسرعة.

لم ينظر نيودوبنوف جانباً هذه المرّة، ابتسم، مدركاً انزعاج نوفيكوف وحرجه.

عادةً لم يجد نوفيكوف في نفسه الشجاعة للدفاع عن الأشخاص المناسبين خصوصاً، حسب رأيه، لمناصب قياديّة، وطالما كان الأمرُ يتعلَّقُ بالموثوقيّةِ السياسيَّةِ للقادة، فقد تغاضى، وبدت فجأةً صفاتُ الأشخاص العمليَّة غير مهمّة.

لكنّه غضبَ الآن. لم يرغب اليومَ في التهاون. نظر إلى نيودوبنوف وقال:

- إنّه خطئي، لقد ضحّيت بالمهارةِ العسكرية مقابلَ البياناتِ الشخصيّةِ. سنقوم بتصويب ذلك في الجبهة؛ لن نقاتل هناك وفقاً للبيانات الشخصّية. وفي أيّ حال سأنقله إلى الجحيم في اليوم الأوّل.

رفع نيودوبنوف كتفيه قائلاً:

- أنا شخصيّاً ليس لديّ اعتراضٌ على هذا الكالميكي باسانغوف، لكن الأفضلية يجب أن تعطى للرجل الروسي. الصداقة بين الشعوب شيءٌ مقدّس، لكنّك تعرف أن النسبة الأكبر من أبناءِ القوميات لديهم مزاجٌ معادٍ، ومهزوزون وأناس غامضون.

- كان علينا أن نفكر في الأمر في السنة السابعة والثلاثين - قال نوفيكوف - كان عندي صديق كهذا، ميتكا إيفسيف. كان دائماً يصرخُ: «أنا روسي، قبل كل شيء». حسناً، لقد أعطوه كشخصٍ روسيٍّ؛ ووضعوه في السجن.

أجابَ نيودوبنوف:

- لكلّ نوع من أنواع الخضرة موسمه. لكنّهم عندنا يزرعون الأوغاد والأعداء. وهم لا يزرعونهم عبثاً. لقد وقعنا صلح بريست ذات مرّة مع الألمان، وفي هذا كانت البلشفيّة، والآن دعا الرفيق ستالين إلى القضاء على الألمان - المحتلين جميعهم، حتى آخر واحد فيهم، دخلَ وطنَنا السوفييتي - وفي هذا تتمَثَّلُ البلشفيّة.

وأضاف بصوت تعليمي:

- في وقتنا هذا البلشفي قبل كلّ شيءٍ، هو الروسيّ الوطنيّ.

أزعج نوفيكوف ذلك: هو، نوفيكوف، كان قد عانى من مشاعره الروسيَّة في الأيام الأولى للحرب، ويبدو أنّ نيودوبنوف قد بدّلها في أحد المكاتبِ أو الدوائر، التي لم يكن نوفيكوف قد دخلَها.

تحدث إلى نيودوبنوف، توتَّرَ، وفكَّر في كثيرٍ من الأمور، قَلِقَ. والتهبَ خدَّاه، كما بتأثيرِ الريح والشمس، وكان قلبه ينبض بصوت عالٍ، وبقوّة، ولا يريد أن يهدأ.

بدا أن الفوج كان يسيرُ وفقَ دقّات قلبه، بصوت عال، وجماعيٍّ كان صوت طرق الأحذية يقول: «جينيا، جينيا، جينيا، جينيا».

نظر فيرشكوف إلى داخل المقصورة وقال بصوت مستعطف بعد أن طلب الإذن من نوفيكوف:

- أيّها الرفيق العقيد، اسمح لي أن أخبركم، لقد عذّبني الطبّاخ: يقولُ لي للمرّة الثالثة إنّ الطعام تحت البخار.

- حسناً، حسناً، لكن بسرعة فحسب.

وهُرِعَ الطبّاخُ المتعرّقُ من فوره إلى داخل المقصورة، ومضى

تكسو وجهَهُ تعابيرالمعاناةِ والسعادةِ والاستياءِ يوضّبُ صحون مخللاتِ الأورال.

قال نيودوبنوف بفتور:

- وأنا أحضر لي زجاجة بيرة.

قال الطبّاخ السعيد:

- حالاً، أيّها الرفيق الجنرال - رائد.

شعر نوفيكوف أن الرغبة في تناول الطعام بعد صيام طويل جعلت الدموع تطفر من عينيه. وفكّر مُتذكِّراً الليلك الفارسي البارد الأخير: «لقد تعوّد الرفيق القائد».

نظر نوفيكوف ونيودوبنوف في الوقت نفسه عبر النافذة: جندي دبابة مخمور، يحمل بندقية على حزام من القماش المشمّع، يمشي بجانب السكة، يسنده شرطي وهو يصرخ ويتمايل ويتعثّر. حاول جندي الدبابات أن يتحرر ويضرب الشرطي، لكنّ الشرطيَّ أمسك به من كتفيه، يبدو أنَّ رأس الجندي المخمور كان مشوَّشاً تماماً - حيث قام بتقبيل خدّ الشرطي فجأة، ناسياً الرغبة في ضربه.

قال نوفيكوف للمعاون:

- تحقق فوراً، وقدّم لي تقريراً عن هذه الشناعة.

قال نيودوبنوف وهو يسحب الستارة:

- يجب إطلاق النار على هذا اللقيط والفوضوي.

عكس وجه فيرشكوف الذي لا يُفَسَّرُ شعوراً مُعَقّداً. حزن قبل كل شيء، لأن قائد الفيلق أفسد شهيته. لكنه في الوقت نفسه شعر بالتعاطف مع جندي الدبابة، فقد احتوى هذا الشعور أحاسيسَ كثيرة

مختلفة - الابتسامة، والتشجيع، والإعجاب الرفاقيّ، والحنان الأبوي، والحزن والقلق الجدّي. وقال مستجيباً:

- حاضر، التحقُّق والإبلاغ - وأضاف قائلاً في اللحظةِ نفسها:

- أمُّهُ تعيش هنا، وهل يقدّرُ الشخصُ الروسي الكميّةَ التي يشربها، كان منزعجاً، وحاول أنّ يودّع أمَّهُ العجوزَ بحرارة وحنوٍّ ولم ينتبه للكمية التي جَرَعَها.

حكّ نوفيكوف قفا رأسه، وقرّب الصحن نحوه، وفكّر متوجّهاً إلى المرأة التي كانت تنتظره: «اللعنة مرّتين على الشيطان، لن أغادر القافلة ثانيةً».

عاد غيتمانوف قبيل انطلاق القافلة، مَرِحَاً ومُحمَرَّ الوجه، رفض العشاء، أمر فقط المكلّفة بالخدمةِ بفتح زجاجة مياه البرتقال المفضلة عنده.

نزع الحذاء وهو يئنّ واستلقى على الأريكة، أقفل باب المقصورة بإحكام، بقدمه غير منزوعة الجورَب.

أخذ يُحِّدثُ نوفيكوف بالأخبار التي سمعها من رفيق قديم، هو سكرتير اللجنة الإقليمية، - لقد عاد ذلك الرفيق من موسكو قبيل ذلك، وكان قد استقبله أحد الأشخاص الذين صعدوا الضريح أيام الاحتفالات، لكن لم يقف على الضريح بالقرب من الميكروفون إلى جوار ستالين. الشخص الذي نقلَ الأخبار، بالتأكيد، لم يعرف كل أمر ولم ينقُل كلَّ شيء، وبطبيعة الحال، لم يُخبر بكل ما يعرفه، لقد أخبرَ سكرتيرَ اللجنة الإقليمية، الذي كان على معرفة به منذ أن عمل مدرّباً في لجنة المقاطعة في مدينة صغيرة على نهر الفولغا ببعض ما سمعه. ومما سمعه من سكرتيرِ اللجنة الإقليمية، بعدَ أن وزنَ مُحاوِرَهُ

بميزانٍ ذي مقاييس كيميائية غير مرئية، أخبرَ مفوَّضَ فيلق الدبابات قليلاً. وبطبيعة الحال، فإنّ القليلَ مما سمعه من سكرتير اللجنة الإقليمية، نقلهُ غيتمانوف إلى العقيد نوفيكوف. . .

لكنه تحدث في ذلك المساء بنبرة الثقة الخاصة، تلكَ التي لم يتحدث بها من قبل إلى نوفيكوف. يبدو أنه افترض أن نوفيكوف كان يعرف تماماً السلطة التنفيذية الضخمة لمالينكوف، وأنه باستثناء مولوتوف، كان لافرينتي بافلوفيتش فقط يُخاطبُ الرفيق ستالين بـ «أنت»، وأن الرفيق ستالين لا يحب التصرفات التعسفيَّة، وأن الرفيق ستالين يحب جبن السلوجوني، وأن الرفيق ستالين يغمس الخبز في النبيذ بسبب حالِ أسنانه السيئة، وأنه، بالمناسبة، مُصابٌ بالجُدَري بسبب مرض الجدري الذي عانى منه في الطفولة، وأن فياتشيسلاف ميخائيلوفيتش لم يعد الشخص الثاني في الحزب منذ فترة طويلة، وأن يوسف فيسارونيوفيتش لا يشتكي كثيراً في الفترة الأخيرة لنيكيتا سيرغييفيتش، حتى إنّه شتمه في حديث حول القطع العسكرية في الآونة الأخيرة.

إنّ نبرة الثقة في الحديث عن أشخاص من هرم السلطة العليا، كلمة ستالين المبهجة، ورسم إشارة الصليب وهو يضحك في حديث مع تشرشل، واستياء ستالين من غطرسة أحد المارشالات، بدا أكثر أهمية من الكلمات نصف التلميحيّة التي جاءت من رجل وقف على الضريح، - الكلمات، التي كانت روح نوفيكوف تتوق إليها وتناسبها، لقد حان الوقت للقفز إلى الأعلى! فكّر بابتسامة داخلية سخيفة، كان نوفيكوف نفسه يخجل منها: «ياه، لقد دخلتُ الطبقةَ العليا».

وسرعان ما انطلق القطار من دون أجراس، ومن دون إعلانات.

خرج نوفيكوف إلى مدخل عربة القطار، وفتح الباب، ونظر إلى الظلام الذي خيّم فوق المدينة. ومرة أخرى صاحَ المشاةُ بصوتٍ عال: «جينيا، جينيا، جينيا». وسُمعت من ناحية المحرك ومعَ أصواتِ الطرق والقرقعة كلمة « Ермака - يرماكا» مطوّلَةً.

قرقعةُ العجلات الفولاذية على القضبان الفولاذية، وصليل العربات الحديدية المندفعة نحو الجبهة، وكتلُ الدباباتِ الفولاذيَّةُ، والأصوات الشابة، والرياح الباردة القادمة من نهر الفولغا، والسماء الواسعة الممتلئة بالنجوم، أثّرت فيه بصورةٍ جديدةٍ، لم تكن نفسها قبل لحظة، وليس كما كان الأمرُ خلالَ هذا العام بأكمله منذ اليوم الأول للحرب، - وَمَضَت في داخله فرحةٌ متغطرسةٌ وسعادةٌ قاسيةٌ، وبهجةٌ من جراءِ الشعور بالقوة العسكرية الهائلة والرهيبة، كما لو كان وجهُ الحربِ قد تغيَّر، وأصبحَ مختلفاً، وليس مشوّهاً بالعذاب والكراهية وحدهما... بحزنٍ وكآبة امتدَّت الأغنية من الظلام وتلوَّنت بالرهبة والعجرفة.

لكن الغريب أن سعادته اليوم لم تُثِرْ فيه الطيبة، والرغبة في التسامح. تلكَ السعادةُ أثارت فيه الكراهية والغضب والرغبة في إظهار قوّته وتدمير كل ما يقفُ في طريق تلك القوَّة.

عاد إلى المقصورة، واستولى عليه كما من قبل سحر ليلة خريفية، واحتضنه هواء العربة، ودخان التبغ، ورائحة الزبدة البقريّة المحترقة، والشمع الذائب المنكمش، وروح عساكر مكتب القيادة المتعرّقين والحيويين. كان غيتمانوف في منامتهِ المفتوحة على صدر أبيض، متكئاً على الأريكة.

- حسناً، هل سنقتل التيس؟ الجنرالات أعطوا موافقتهم.

أجاب نوفيكوف:

- حسناً، هذا ممكن.

قال غيتمانوف، قلقاً وهو يتجشّأ بهدوء:

- ربما، عندي في مكان ما قرحة، ما إن آكلُ حتى تؤلمني الحرقة على نحوٍ رهيب.

قال نوفيكوف:

- لم تكن ثمَّة حاجة إلى إرسال أطبّاء من الدرجة الثانية.

وكما لو أنّه يغيضُ نفسه؛ فكَّرَ: «أردتُ ذات مرة أن أُعيِّنَ دارينسكي، فعبس وقطَّبَ فيودورينكو - وأنا تراجعتُ. قلتُ ذلك لغيتمانوف ونيودوبنوف، فعبس الاثنان: ما حاجتُنا إلى سجين سابق، وخفت. اقترحتُ باسانغوف - لماذا نحتاج إلى شخص غير روسي، وتراجعتُ مرَّةً أخرى... لا أعرف أموافق أنا، أم لا؟»، وفكّر وهو ينظر إلى غيتمانوف في دفعِ فكرتهِ عن قصد إلى السُّخفِ والعَبَث: «اليوم يضيّفني الكونياك الذي يعود لي، وغداً ستأتي امرأتي، وسيبدي الرغبة في النوم معها».

لكن لماذا لا يشك في قُدرَتِهِ على كسر العمود الفقري للآلة العسكرية الألمانية الضخمة، ويبقى يشعر بضعفه وجبنه في الحديث مع غيتمانوف ونيودوبنوف؟

في هذا اليوم السعيد طفا عنده الغضبُ والشر على نحوٍ رهيب، على السنوات الطويلة من حياته الماضية، وعلى الوضع الذي أصبحَ شرعيّاً بالنسبة إليه، لمّا استمعَ الشبابُ الجاهلون بالشؤون العسكرية، المعتادون على السلطة والطعام والأوسمة، إلى تقاريره، واهتموا

بلطفٍ أن يُمنَحَ غرفةً في منزل الضباط القياديين، وقدّموا له المكافآت. إنّ الأشخاص الذين لا يعرفونَ عيار المدفعية، والذين لم يعرفوا قراءة الخطاب المكتوب والمعدِّ لهم بخط شخص آخر، بصوت عالٍ وعلى نحوٍ صحيح على المنبر، والذينَ يخطئون في الخريطة، وفي لفظِ كلماتٍ من قبيل «النسبة»، و«القائد البارز»، و«برلين»، كانوا يقودونهم دائماً. ولهؤلاء هو يُقدِّمُ تقريرَه. إنّ أميّتَهم ليستْ مرتبطةً بمنشئهم العمّالي، فوالده هو كان من عمال المناجم، وجدُّهُ كان منهم، وكان شقيقُه عاملَ منجم. بدت الأميّةُ، في بعض الأحيان، قوّةً لهؤلاء الناس، وحلّت مكان التعليم عندهم؛ كانت معرِفتُهُ وحديثُهُ الصحيحُ والواضحُ والاهتمام بالكتب هي نقاطَ ضعفه. بدا له قبل الحرب، أن هؤلاء الناس لديهم إرادة وإيمان أكثر مما كان لديه. لكن الحرب أظهرت أن الأمر ليس كذلك أيضاً.

دفعته الحرب إلى منصب قيادي رفيع. لكن اتضح أنه لم يصبح صاحب قرار. انصاع، كما في السابق، للقوة التي كان يشعر بها باستمرار، دون أن يستطيعَ فهمها. وها هما اثنان من الأشخاص تحت قيادته، ممن لا حقَّ لهم في القيادة، يعبِّران عن تلكَ القوّة. وها هو ذا تغمرهُ السعادة لمّا تقاسم معه غيتمانوف قصصاً عن ذلك العالم، حيث كان من الواضح أنّه المكان الذي تتنفّس فيه تلكَ القوّة، التي لا يمكن إلّا أن تطيعها.

ستُظِهرُ الحربُ لمن تُدين روسيا؟ لأمثاله، أم لأمثال غيتمانوف.

ما كان يحلُمُ به قد تحقق: المرأة التي أحبّها سنوات عديدة، ستصبح زوجته... وفي اليوم نفسه صدرت الأوامر لدباباته بالتوجّه إلى ستالينغراد.

- بيوتر بافلوفيتش، - قال غيتمانوف فجأة - أتعلم، نشأ خلاف هنا، أثناء سفرك إلى المدينة، ما بيني وبين ميخائيل بتروفيتش.

واستقامَ في جلستهِ منزلقاً عن ظهر الأريكة، وشرب بيرة ثمَّ قال:

- أنا شخص بسيط التفكير، وأريد أن أخبرك مباشرةً: بدأ حديثٌ حول الرفيقة شابوشنيكوفا. شقيقُها غرق سنةَ سبعٍ وثلاثين، وأشار غيتمانوف بإصبعه نحو الأرض - اتضح أن نيودوبنوف عرفه في ذلك الوقت، حسناً، لكنني أعرفُ زوجَها الأول، كريموف، هذا، كما يقولون، نجا بأعجوبة. كان في مجموعة محاضري اللجنة المركزية. ويقول نيودوبنوف: عبثاً يربط الرفيق نوفيكوف، الذي منحهُ الشعبُ السوفييتي والرفيق ستالين ثقة عالية، حياتَه الشخصيَّةَ بشخصٍ ذي بيئة اجتماعيةٍ وسياسيةٍ غير واضحة.

أجابَ نوفيكوف:

- وما شأنه بحياتي الشخصيّة؟

قال غيتمانوف:

- بالضبط. هذا كله بقايا السنة السابعة والثلاثين، يجب أن ننظر على نطاق أوسع في مثل هذه الأمور. لا، لا، أنت تفهمني على نحوٍ صحيح. نيودوبنوف شخص رائع، صافٍ كالكريستال، وشيوعيٌّ ستالينيٌّ لا يلين. لكن ثمَّةَ خطيئة صغيرة يرتكبُها؛ لا يرى أحياناً البراعمَ الجديدةَ، ولا يشعر بها. الشيءُ الرئيسيُّ بالنسبة إليه، هو اقتباساتٌ من الكلاسيكيين. ولا يبصرُ دائماً ما تُعلِّمُه الحياةُ. يبدو أنَّهُ لا يعرفُ في بعض الأحيان، ولا يفهم في أيِّ دولةٍ يعيش، إلى هذا أوصَلَتهُ اقتباساته الكثيرة. لكن الحربَ تعلمنا كثيراً بطريقة جديدة. الفريق روكوسوفسكي، والجنرال غورباتوف، والجنرال بولتوس،

والجنرال بيلوف - كانوا جميعاً في السجن. ووجد الرفيق ستالين أنَّ من الممكن إسناد القيادة لهم. اليوم أخبرني ميتريتش، وكنت أزوره، كيف أُرسِلَ روكوسوفسكي من معسكر الاعتقال إلى القيادةِ مباشرةً: كان يقف في غرفة الغسيل يغسل لفافاتِ رجليه، ركضوا نحوه قائلين: هيّا أسرع! اعتقد أنّهم لا يسمحون له بغسلِ اللفافات، وكان قد استجوبه أحد المسؤولين في اليوم السابق وعذّبه قليلاً. أخذوه مباشرة إلى طائرة «دوغلاس» - ومباشرة إلى الكرملين. كم نحتاجُ إلى استخلاص بعض الاستنتاجات من هذا. أما صديقنا نيودوبنوف فمتحمّس للسنة السابعة والثلاثين، إنسانٌ سطحيٌّ لا يمكن أن تُزيحَهُ عن موقفه هذا. ومن غير المعروف ما هو ذنب شقيق يفغينيا نيقولايفنا، وربما أطلقَ الرفيقُ بيريا سراحَه الآن، ويخدمُ قائداً في الجيش. . . وكريموف موجود في القوات المُسلَّحة. الرجل بخير ويحمل بطاقة حزبية. أين تكمُنُ المشكلة؟

لكن هذه الكلمات بالتحديد هي التي فجّرت نوفيكوف.

- أنا أبصق على هذا كلّه! - قال ذلك بصوت عال وفُوجِئَ لمّا سمع لأوّل مرّة هذا الدويّ في صوته. - وما شأني إن كان شابوشنيكوف عدوّاً أم لم يكن؟ أنا لا أعرفه البتّة! لقد قال تروتسكي عن مقالة كريموف هذا إنّها كُتبت بالمرمر. وما شأني أنا؟ مرمر وليكن مرمراً. وليحبّه تروتسكي وريكوف وبوخارين وبوشكين حتى العمى - حياتي ما شأنها بهذا كلِّه؟ أنا لم أقرأ مقالاته المرمريَّة. وما شأن يفغينيا نيقولايفنا هنا؟ هل كانت تعمل في الكومنترن قبل السابعة والثلاثين؟ أن تكون قائداً، هذا ممكن، لكن جرّبوا أيّها الرفاق أن تحاربوا، جرّبوا! كفى أيّها الشباب! لقد سئمنا!

التهبت وجنتاه، وكان قلبه ينبض بصوت عال، وأفكاره واضحة وغاضبة ودقيقة، أمّا في رأسه فقد خيّم ضباب: «جينيا[1]، جينيا، جينيا».

لقد استمع إلى نفسه وشعر بالدهشة - أيعقل أنه هو وفي هذه المرة الأولى من حياته يُحطّب من دون خوف وبهذه الحريّة، متوجّهاً بكلامهِ إلى موظف حزبي كبير؟ نظر إلى غيتمانوف، وشعر بالفرح، وهو يقمع الندم والخوف.

قفز غيتمانوف فجأة عن الأريكة، ولوَّح بيديه السميكتين قائلاً:

- بيوتر بافلوفيتش، دعني أحضنك، أنت رجل حقيقي.

حضنه نوفيكوف مرتبكاً، وتبادلا القبل، وصاح غيتمانوف في الممر:

- فيرشكوف أعطنا كونياكاً، إن قائد الفيلق سيشرب مع المفوض الآن، نخب الصداقة والمخاطبة بصيغة المفرد!

---

(1) تصغير لاسم يفغينيا نيقولايفنا. (م)

5

فكرت يفغينيا نيقولايفنا بارتياح، وهي تُنهي تنظيف الغرفة: «حسناً، هذا كل شيء»، كما لو أنه في الوقت نفسه رُتِّبَت الغرفةُ التي يوجد فيها السرير ولم تعد الوسادة مدعوكة، ولا روح يفغينيا نيقولايفنا كذلك. فإذا ما اختفى الرمادُ بالقرب من رأس السرير وأُزيل آخر عقب سيجارة من حافة خزانة الكتب، أدركت جينيا أنها كانت تحاول خداع نفسها وأنها لا تحتاج إلى أيِّ شيء في العالم سوى نوفيكوف. أرادت أن تتحدث عمّا حصل في حياتها، أن تتحدَّث إلى صوفيا أوسيبوفنا، بالتحديد إليها، وليس إلى والدتها، وإلى أختها. وفهمت على نحوٍ ضبابيّ سبب رغبتها في التحدث عن هذا مع صوفيا أوسيبوفنا.

قالت جينيا بصوت مسموع:

- آه، سونشكا، سونشكا، ليفينتونيخا.

ثم فكّرت أن ماروسيا غير موجودة. لقد فهمت أنها لا تستطيع العيش من دونه، وضربت بيدها يائسةً على الطاولة. ثم قالت: «ليسَ مهمّاً، لا أحتاجُ إلى أحد»، وبعد ذلك ركعت أمام المكان الذي عُلِّقَ عليه معطفُ نوفيكوف العسكريّ أخيراً وقالت: «فلتبقَ على قيد الحياة».

ثُمَّ فكرت: «تمثيل سيّئ، امرأة فاحشة أنا».

بدأت تُعذب نفسها عن قصد، وألقت خطاباً موجَّهاً بصمت إلى نفسها بالنيابة عن مخلوقٍ سافل ودنيء، لا هو أنثى ولا هو ذكر:

- لقد اشتاقت السيدة... من دون رجل، وهذا واضح، اعتادت على الدلال ولكن ها هي ذي سنواتٌ غريبة... تركت أحدهم، طبعاً، من هو كريموف، لقد أرادوا طرده من الحزب. وهذا في قيادة الفيلق، يا له من رجل! يمكن أن تشتاق إليه أيُّ امرأة، وكيف لا؟ كيف يمكنكِ الاحتفاظ به الآن، لقد سلّمتِه نفسك، هاه؟ هذا واضح، والآن ليالٍ من دون نوم؛ إما أنهم قتلوه، أو أنه وجدَ لنفسه عاملة مقسم في التاسعة عشرة من عمرها، وعند الإمعانِ في التفكير ظهرت فكرة تجهلها جينيا نفسها، مخلوق دنيء وساخر، أضافَ قائلاً: - لا بأس، لا بأس، سوف تهرعينَ إليه قريباً.

ها هي ذي لا تُدركُ سببَ توقفها عن حبّ كريموف. وهنا لا حاجة إلى الفهم - لقد أصبحت سعيدة.

فكّرت فجأة، أنّ كريموف يعيق سعادتها. إنّه يقف طوال الوقت ما بينها وبين نوفيكوف، ويسمّم فرحتها. يستمر في تدمير حياتها. لماذا يجب أن تتعذّب باستمرار، ولأجل ماذا تعذيب الضمير هذا؟ ما العمل، لم تعد تحبّه! ما الذي يريدُه منها، ولماذا يلاحقها من دون كللٍ؟ إنّها تملك الحق في أن تكونَ سعيدة، إنّها تملك الحق في أن تحب من تشاء. لماذا يبدو لها نيقولاي غريغوريفيتش ضعيفاً وعاجزاً ومربَكاً ووحيداً إلى هذه الدرجة؟ إنّه ليس ضعيفاً! وليس طيِّباً جدّاً!

اجتاحَها غضبٌ على كريموف. لا، لا، لن تُضحّي بسعادتها من أجله... إنّه متعصّب جداً، وضيّقُ الأفق وقاس. وهي لن

تستطيع التسامح البتَّة مع لامبالاته بالمعاناة الإنسانية. كم كان ذلكَ غريباً عليها وعلى أمّها و والدها... قال لمّا مات الآلاف من النساء والأطفال من جرَّاء عذاب الجوع الرهيب في قرى روسيا وأوكرانيا: «لا يرحمونَ الكولاك[1]». وقال خلال زمن يجوف وياغودا «إنهم لا يسجنون الأبرياء». ولمّا حدَّثت ألكساندرا فلاديميروفنا كيف نقلوا إلى البارجة التجارَ وملاكي المنازل مع أطفالهم وأغرقوهم في نهر الفولغا في كاميشين عام 1918 - من بينهم كان أصدقاء ورفاق ماروسيا في المدرسة - المينايفيين، والغوربونوفيين، والكاساتكينيين، والسابوزنيكوفيين؛ قال نيقولاي: «وماذا يمكنك أن تفعل لكارهي ثورتنا، تطعمهم الفطائر؟». لماذا إذاً لا يحق لها السعادة؟ لماذا يجب أن تعاني وتأسف على رجل لم يحزن على الضعفاء؟

وعَرفت وهي تستعرُ غضباً وقسوةً في أعماقها أنّها ليست على حق، لأنّ نيقولاي غريغوريفيتش لم يكن قاسياً إلى تلك الدرجة.

خلعت تنورتها الدافئة، التي بدّلتها في بازار كويبيشيف، وارتدت فستانها الصيفي، وهو الوحيد الذي نجا بعد حريق ستالينغراد، والذي وقفت وهي ترتديهِ مساء مع نوفيكوف على جسر ستالينغراد، عند النصب التذكاري لخولزونوف.

سألت جينيا غينريخوفنا قبل نفيها بفترة وجيزة، عما إذا كانت قد وقعت في الحب في أي وقت مضى.

---

(1) هم فئة الفلاحين والمزارعين؛ وكان معظمهم ضد أخذِ أرضهم وإقامة الكولخوزات وأمثالها، سيرد هذا المصطلح كثيراً، كما وردَ من قبل.(م)

شعرت جينيا غينريخوفنا بالحرج وقالت: «نعم، أحببتُ فتى ذا شعرٍ ذهبيٍّ مجعّد، وعينين زرقاوين. كان يرتدي سترة مخمليّةً وياقة بيضاء. كان عمري أحد عشر عاماً، ولم أكن أعرفه». أين هو ذلك الفتى المخملي ذو الشعر الأجعد الآن، وأين جينيا غينريخوفنا الآن؟

جلست يفغينيا نيقولايفنا على السرير، ونظرت إلى ساعتها. عادة ما تزورها في هذا الوقت شاراغورسكايا. أوه، إنها لا تريد أحاديث ذكية اليوم.

ارتدت معطفاً بسرعة ووشاحاً. لكن لا معنى لذلك - لقد غادرَ القطارُ منذ فترة طويلة.

تحرك حشد من الناس بالقرب من جدران المحطة، جالسين على الأكياس والصُّرر. تجولت يفغينيا نيقولايفنا في الشوارع الخلفية للمحطة، وسألتها امرأة عن كوبونات خبز الأرز، وآخر حول كوبونات الصعود إلى القطار... نظر بعض الناس إليها في حالة من النعاس والشك. مرّ قطار الشحن بصعوبة على طول المسار الأول، ارتجفت جدران المحطة، وارتجّ الزجاج في نوافذها. بدا لها أنَّ قلبها يرتجف. أبحرت منصات البضائع المكشوفة بجانب سور القطار، وفوقها الدبابات.

شعور سعيد استولى عليها فجأة. كانت الدبابات جميعاً تُبحرُ، تُبحرُ، وفوقها جلس رجالُ الجيش الأحمرِ في الخوذ كقطعٍ من الجصّ، والرشاشات على صدورهم.

سارت نحو المنزل، وهي تلوح بيديها للصبيان، فتحت معطفها، ونظرت إلى فستانها الصيفي. أضاءت شمسُ المساء فجأةً الشوارعَ، وبدت المدينةُ الباردةُ المغبرّةُ، الغاضبةُ والمتسخةُ التي تنتظر فصل

الشتاء، ورديّةً ومشرقةً. دخلت المبنى، قالت غلافيرا ديميتريفنا مبتسمةً، وهي الأقدم في الشقة، وكانت قد رأت العقيد في الممرّ بعد الظهر، حين زار جينيا:

- رسالة لك.

- «نعم، لقد تحوّل كل شيء نحو السعادة» - فكرت جينيا وفتحت الظرف، وكانت الرسالة من كازان، من والدتها.

قرأت الأسطر الأولى وصرخت بهدوء، ونادت ذاهلةً:

- توليا، توليا!

6

شكلتِ الفكرةُ، التي أدهشت شتروم فجأة في الشارع وفي الليل، أساسَ النظريةِ الجديدة. المعادلاتُ التي اشتقَّها على مدى عدةِ أسابيع من العمل لم تكن على الإطلاق امتداداً للنظرية الكلاسيكيّة التي قبلها الفيزيائيون ولم تصبح مكمّلةً لها. على العكس من ذلك، فقد أصبحت النظرية الكلاسيكية نفسها مجرد حالة خاصة في الحل الجديد الواسع الذي طوره شتروم. وشملت معادلاته في داخلها، ما بدا أنّها نظرية مُتكاملة.

لم يعد شتروم مؤقتاً يذهبُ إلى المعهد، وترأَّسَ المختبرَ سوكولوف. شتروم لم يغادر المنزل تقريباً، ذرعَ الغرفةَ جيئةً وذهاباً، وقضى ساعاتٍ على الطاولة. كان يتنزَّهُ في بعض الأحيانِ مساءً، واختارَ شوارع مقفرة حول محطة القطار، حتى لا يلتقي أحداً من المعارف. كان يعيش في المنزل كالمعتاد - يأكُلُ، ويغسِلُ، ويمزحُ على المائدة، ويقرأ الصحف، ويستمع إلى تقرير مكتب الإعلام السوفييتي، تحرّش بناديا، وسأل ألكساندرا فلاديميروفنا عن المصنع، وتحدث إلى زوجته.

شعرت لودميلا نيقولايفنا أن زوجها بدأ يشبهها هذه الأيام، وقد فعل كل ما هو معتاد، ومكشوف، دون أن يشارك داخلياً في حياة

عاشها بسهولة فقط لأنه كان على دراية بها. ولكن هذا الجمع لم يجعل لودميلا نيقولايفنا أقرب إلى زوجها، بل كان هذا ما يبدو فحسب. أسبابٌ مُتعاكسة حدّدت مباشرة عزلتهما الداخلية عن البيت - الحياة والموت.

لم يشكك شتروم في نتائجه. مثل هذه الثقة لم تكن متأصلة فيه. لكن الآن بالتحديد، لمّا صاغ الحل العلمي الأكثر أهمية والذي وجده في الحياة، لم يشك أبداً في صوابيَّتِهِ. شعر في تلك الدقائق التي وصلت إليه فيها الفكرة حولَ نظام المعادلات التي سمحت بتفسير جديد لمجموعة واسعة من الظواهر الفيزيائية، ولسبب ما، ومن دون شكوكه الخاصّة وتردُّده، أن هذه الفكرة كانت صحيحةً تماماً.

والآن، مع اقتراب نهاية عمله الرياضي المعقّد جداً، وفحصه مراراً وتكراراً مسارَ استدلالاته، لم يشعر بثقة أكثر مما حصلَ في تلك اللحظات التي أدهشه فيها حدسه المفاجئ في أحد الشوارع المقفرة.

حاول أحياناً فهم المسار الذي كان يتبعه. ظاهرياً بدا كل شيء بسيطاً جداً.

كان من المفترض أن تؤكد التجارب في المختبر توقعات النظرية. ومع ذلك، هذا لم يحدث. التناقض بين نتيجة التجربة والنظرية يثير بطبيعة الحال الشكوك حول دقة التجارب. إنّ النظرية المستمدة من العمل الذي استمر عشر سنوات لكثير من الباحثين، والتي فسّرت بدورها كثيراً من الأعمال التجريبيّة الجديدة، بدت ثابتة. والتجارب المتكررة مراراً أثبتت أن الانحرافات التي تعيشها

الجسيمات المشحونة المشاركة في التفاعل النووي، كما في السابق، لا تتوافق مطلقاً مع تنبؤات النظريّة. إنَّ مُختلف تصحيحات عدمِ دقة التجارب وأكثرها سخاءً، بسبب عيوب أجهزة القياس وحساسيّة أجهزة الالتقاط الضوئي في تصوير الانفجارات النووية، لم تستطع أن تفسّر عدم التوافقات الكبيرة تلك.

ثم أصبح من الواضح أن نتائج التجارب لم تكن موضع شك، وحاول شتروم أن يتخلى عن النظرية، وأدخل فيها افتراضات إراديّة، الأمر الذي جعل من الممكن إخضاع النظرية للمواد التجريبية الجديدة التي حُصِلَ عليها في المختبر. انطلق كل ما فعله من الاعتراف بالرئيسي والأساسي: النظرية مشتقة من التجربة، وبالتالي لا يمكن أن تتناقض التجربة مع النظرية. لقد أُنجِزَ عملٌ ضخم في تحقيق الربط بين النظرية والتجارب الجديدة. لكن النظرية المحتاجة إلى تصويب، والتي بدا من غير المعقول الابتعاد والتخلي عنها، لم تساعد بعد في تفسير المزيد من البيانات التجريبية المتضاربة. إنّ النظرية الخاضعة للتصويب بقيت عاجزة، مثلها مثل النظريّة المكتملة.

وحينها بالتحديد جاءت الجديدة! ونزع شتروم الرتب عن كتفي الجنرال!

لم تعد النظرية القديمة هي الأساس، والقاعدة، والهدف الشامل. لم يتبيّن أنّها خاطئة، ولم يتبيّن أنّها متاهة سخيفة، لكنّها دخلت كحلٍّ خاصّ النظريةَ الجديدة. . . أرملة الملك المتوفى انحنت أمام زوجة الملك الجديد. كل ذلك حصل بلحظة.

لمّا بدأ شتروم يُفكِّرُ في كيفية ظهور النظرية الجديدة في دماغه، أدهشته المفاجئة.

اتضح حينها أنه لم يكن ثَمَّةَ أي منطق بسيط يربط بين النظرية والتّجربة. هنا، كما لو أن الآثار على الأرض قد انتهت، لم يستطع فهم الطريق الذي كان يسير فيه.

بدا له في السابق دائماً أن النظريةَ تنشأ من التجربة: والتجربةُ تولّدها. ورأى شتروم أنَّ التناقضات بين النظرية والأدلة التجريبية الجديدة ستؤدي على نحوٍ طبيعي إلى نظرية جديدة أوسع.

لكن الأمر المذهل - أنّهُ اقتنعَ أن كل شيء كان يحدث ليس كما يجب إطلاقاً. لقد حقق النجاح على وجه التحديد عندما لم يحاول ربطَ التجربةِ بالنظرية ولا النظرية بالتجربة.

لقد بدا أنّ الحالةَ الجديدة لم تنشأ من التجربة، ولكن من رأس شتروم. لقد فهم هذا بوضوح مذهل. نشأت النظريةُ الجديدة بحرّية. الرأسُ ولّدَ النظريةَ. لأنَّ منطقها، وصلاتها السببية لم تكن مرتبطة بالتجارب التي أجراها ماركوف في المختبر. بدا أنّ النظرية، قد ظهرت من تلقاء نفسها ومن لعب الفكرةِ الحر، وكأنّ لعبة الفكرة هذه المنزوعة عن التجربة، سمحت بتوضيح غنى المادة التجريبية القديمة والجديدة كلّه.

كانت التجربةُ بمثابة قوة دافعة خارجية أجبرت الفكرةَ على العمل. لكنّها لم تحدد محتوى الفكرة.

كان ذلك مذهلاً. . .

كان رأسه مملوءاً بالعلاقات الرياضية والمعادلات التفاضلية وقواعد الاحتمال وقوانين الجبر العليا ونظرية الأعداد. كانت هذه الروابط الرياضية موجودة في حد ذاتها في اللاشيء، خارج عالم

النوى الذريّة والنجوم، خارج الحقول الكهرومغناطيسية وحقول الجاذبية، خارج المكان والزمان، خارج التاريخ البشري والتاريخ الجيولوجي للأرض. . . لكنها كانت في رأسه. . .

وقد كان رأسُه، وفي الوقت نفسه، مملوءاً بالصلات والقوانين الأخرى - التفاعلات الكموميّة، وحقول القوة، والثوابت التي تحدد الجوهر الحي للعمليات النووية، وحركة الضوء، وتسطيح وتمديد الزمان والمكان. والأمرُ المدهشُ أنَّ في رأس عالم الفيزياء النظرية، كانت عملياتُ العالم المادي مجردَ انعكاسٍ للقوانين التي أُنشِئت في الصحراء الرياضية. لم تعكس الرياضياتُ في رأس شتروم العالمَ، لكن العالمَ كان إسقاطاً من المعادلاتِ التفاضليّة، وكانَ انعكاساً للرياضيات. . .

وفي الوقت نفسه، كان رأسُ شتروم طافحاً بقراءات العدادات والأجهزة، وبخطوطٍ منقطة تصوّر حركة الجزيئات والانفجارات النووية في المستحلب وعلى ورقة فوتوغرافية. . .

وعاشت في رأسه في الوقت نفسه خشخشة الأوراق، وضوء القمر، وعصيدة القمح مع الحليب، وأزيز النار في الموقد، وشظايا الألحان، ونباح الكلاب، ومجلس الشيوخ الروماني، وتقارير مكتب الإعلام السوفييتي، وكراهية العبودية وحبّ بذور اليقطين. . .

وهكذا خرجت النظرية من هذا الخليط، وخرجت من الأعماق حيث لا رياضيات، أو فيزياء، أو تجارب في مختبر فيزيائي، أو تجربة حياتيّة، حيث لم يكن ثمّةَ وعي، بل فحمٌ مُشتعلٌ في اللاوعي. . .

وانعكسَ منطقُ الرياضيات، غير المرتبط بالعالم، وتَجلّى

مُتجسداً في واقع النظرية الفيزيائية، وترابطت النظرية فجأة بدقة إلهية مع نمط معقَّدٍ منقَّط مطبوع على ورق فوتوغرافي.

وأجهشَ الرجلُ الذي حدثَ في رأسه هذا الأمرُ برمّته، وهو ينظر إلى المعادلات التفاضلية وقطع الورق الفوتوغرافية التي تؤكد الحقيقة التي ولّدها، بالبكاء ومسح عينيه الدامعتين السعيدتين. . .

ومع ذلك؛ لو لم تكن هناك هذه التجارب غير الناجحة، وتلكَ الفوضى والسخافة اللتانِ ظهرتا، لكانَ مع سوكولوف قد صححا النظريةَ القديمةَ ورمَّماها بطريقة ما ولوقعا في الخطأ.

يا لها من سعادة، أنَّ تلكَ السخافة لم تَفلَّ من عزيمتهم.

ومع ذلك، وعلى الرغم من أن التفسير الجديد قد ولد من الرأس، إلا أنه مرتبط بتجارب ماركوف. ومن الصحيح أنّ تلكَ النوى الذريّة والذرات لو لم تكن موجودة هناك في العالم، لما كانت موجودة في الدماغ البشري. نعم، نعم، وما كانَ هناك ماركوف اللامع، والميكانيكي نوزدرين، ولم يكن هناك نافخو الزجاج العظام البوتيشكوفيون، ولم تكن المحطة الكهربائية، والأفران المعدنية وإنتاج المفاعلات النقيّة، لم تكن هناك تنبؤات بواقع الرياضيات في رأس الفيزيائي - النظري.

ما أدهش شتروم أنه حقَّقَ أعلى نجاح علمي له في الوقت الذي كان يعاني فيهِ من مصيبة، ولمّا كان الشوق الدائم يضغط على دماغه. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟

ولماذا وجد حلاً لكل ما هو غير قابل للحل فجأة وفي لحظات قصيرة، بعد الأحاديث الخطيرة الجريئة والحادة التي أثارت اهتمامه، والتي لم يكن لها علاقة بعمله؟ لكنَّ ذلكَ بالتأكيد مُصادفة فارغة.

كان من الصعب التعامل مع كل هذا. . .

انتهى العمل، وأراد شتروم التحدث عنه؛ قبل ذلك لم يفكر في الأشخاص الذين سيشاركهم أفكارَهُ.

أراد أن يرى سوكولوف، ويكتب لتشيبجين، أخذ يتخيّل كيف سيستقبِل ماندلشتام، وإيوفي، ولانداو، وتام، وكورشاتوف معادلاتِه الجديدة، وكيف سيتصوَّرُها موظفو قسمه، وقطّاعه، ومختبره، وما هو الانطباع الذي ستحدثه على سكان لينينغراد. وأخذ يفكر ما هو الاسم الذي سينشر العملَ به. وفَكّرَ كيفَ سيكون رد فعل الدانماركي الكبير عليه، وماذا سيقول فيرمي. أو ربما سيقرؤه آينشتاين نفسه، ويكتب له بضع كلمات. من سيكون خصمه، وما هي المسائل التي ستساعد في حلّه.

لم يكن يريد التحدث عن عمله إلى زوجته. كان في العادة قبل إرسال رسالة عمل يقرؤها على لودميلا بصوت مسموع. وعندما يلتقي أحد الأصدقاء على نحوٍ غير متوقع في الشارع، كان تفكيره الأول: ستتفاجأ لودميلا. وعندما يتجادل مع مدير المعهد ويلفظ عبارة حادّة، يقول: «هنا سأخبر لودميلا كيف صَدَمتُه». لم يكن يتصوّر كيف يمكن مشاهدة فيلم، والجلوس في مسرح وهو لا يُدركُ أنَّ لودميلا بجانبه، وكيفَ يمكن أن يهمس لها: «يا رب، يا لها من سخافة». كان يُصارحُها بكلِّ ما يزعجُهُ كثيراً، حتى لمّا كان طالباً، قالَ لها: «تعرفين، يبدو لي أنني أبله».

لماذا إذاً صمت الآن؟ لعلَّ ضرورةَ اقتسام حياتِه معها استدعت الاعتقادَ بأنها تعيش حياتَه أكثر مما تعيشُ حياتها، وأن حياتَهَ هي

حياتُها؟ والآن مَضت هذه الثقة. هل توقفت عن حبه؟ أم أنَّهُ ما عادَ يُحبُّها؟

لكنَّه مع ذلك أخبر زوجته عن عمله، على الرغم من أنه لم يرغب في التحدث إليها.

- تعرفين - قال لها - يا لهُ من شعور مدهش: مهما حدثَ لي الآن، ففي قلبي شعورٌ بأنني لم أعش حياتي عبثاً. تعرفين، الآنَ بالتحديد هي المرة الأولى في حياتي التي لا أخاف فيها الموت، ولو في هذه اللحظة، فها هي ذي الآن موجودة، لقد وُلدت!

وأشار إلى الصفحة المصحّحة أمامها على الطاولة.

- أنا لا أبالغ: هذه نظرة جديدة إلى طبيعة القوى الذرّية، مبدأ جديد، مبدأ صحيح، صحيح، هذا هو مفتاحُ كثيرٍ من الأبواب المقفلة... تعرفين، في الطفولة، لا، لا، ليس هذا، ولكن تعلمين، أشعر وكأنّ زنبقة ماء قد بزغت فجأة من قلب المياه المظلمة الهادئة، آه يا إلهي...

- أنا مسرورة جداً، أنا مسرورة جداً، فيتينكا - قالت ذلك وابتسمت.

رأى أنها كانت تفكر في شؤونها، ولا تعيش فرحه وإثارته.

ولم تخبر والدتها أو ناديا بما قاله لها، نسيت الأمرَ على ما يبدو.

مساءً، ذهبَ شتروم إلى سوكولوف.

أراد التحدُّث إلى سوكولوف ليس فقط عن عمله. أراد أن يشاركه مشاعره.

بيوتر لافرينتييفيتش سوف يفهمه، إنه ليس ذكياً فحسب، بل لديه روح طيّبة ونقيّة.

وتخوّف في الوقت نفسه، من أن سوكولوف سيبدأ بإلقاء اللوم عليه، ويتذكر كيف كان شتروم يائساً. سوكولوف يحب أن يشرح تصرفات الآخرين بكلام تعليمي كثير.

لم يزرْ سوكولوفَ منذ فترةٍ طويلة. لا بدَّ أنَّ الضيوفَ اجتمعوا ثلاث مرات هذه الفترة عند بيوتر لافرينتييفيتش. للحظة تخيّل عينَي مادياروف المنتفختين. وفكّر: «إنّه شيطان شجاع». من الغريب أنّه خلال كل هذا الوقت لم يتذكّر تقريباً التجمُّعات المسائيّة. نعم والآن لم يكن يرغب في التفكير فيها. لقد ارتبط نوع من القلق والخوف بها، وتوقع كارثة وشيكة من جرّاء تلك الأحاديث المسائيّة. صحيحٌ أنهم باحوا كثيراً. قلقلوا وقلقلوا، ولكن ستالينغراد صمدت، توقَّفَ الألمان، وعاد الذين تمّ إجلاؤهم إلى موسكو.

كان قد أخبر لودميلا قبيل ذلك أنّه لا يخاف الموت الآن، حتى في هذه اللحظة بالتحديد. ولكنَّ تذكُّرَ انتقاداته كان مُخيفاً. ومادياروف هذا انفلت لسانُه من عِقالِهِ تماماً. إنه لأمر فظيع أن يتذكر. والشكوك حول كاريموف مروعة جداً. ماذا لو كانَ مادياروف عميلاً حقاً؟

فكّر شتروم «نعم- نعم، الموت ليس مخيفاً، لكن الآن أنا ذاك البروليتاري الذي لديه شيء يخسره، وليس فقط السلاسل. فظاعة».

كان سوكولوف يجلس في سترة منزلية يقرأ كتاباً على الطاولة.

- وأين ماريا إيفانوفنا؟ - سأل شتروم مندهشاً، وهو نفسه فوجئ بمفاجأته. كان في حيرةٍ من أمره لأنّهُ لم يجدها في المنزل، كما لو

أنّهُ لم يكن يريد التحدث إلى بيوتر لافرينتييفيتش عن الفيزياء النظرية، بل إليها.

وضع سوكولوف النظارات في المحفظة، وقال مبتسماً:

- وهل ماريا إيفانوفنا ملزمة دائماً أن تظلَّ في المنزل؟

وهكذا أخذ شتروم يطرح أفكاره على سوكولوف، ويشتق معادلاته، خالطاً الكلمات، قلقاً، يتأتئ ويسعل.

كان سوكولوف أول شخص يتعرف إلى أفكاره، وشعر شتروم بما حصل بطريقة جديدة وخاصة تماماً.

قال شتروم:

- حسناً، هذا كل شيء، وارتجف صوته، فقد شعر بقلقِ سوكولوف.

صمتا، وبدا هذا الصمتُ جميلاً لشتروم. جلس حانياً رأسه، وعبس، وهز رأسه بحزن. أخيراً، نظر سريعاً إلى سوكولوف، - بدا له أنَّ ثمَّةَ دموعاً في عيني بيوتر لافرينتييفيتش.

في هذه الغرفة الفقيرة، وخلال حرب مروّعة اجتاحت العالم بأسره، جلس شخصان وكانَ ثمَّةَ علاقة رائعة تربطُ بينهما وبين أولئك الذين يعيشون في بلدان أخرى، وأولئك الذين عاشوا منذ مئات السنين، وثمَّة فكرة نظيفة حاولت أن تبلغَ أسمى وأروع، ما قُدِّرَ للإنسان أن يبلُغَه.

أراد شتروم أن يبقى سوكولوف صامتاً. كان في هذا الصمت ما هو إلهي...

صمتا فترةً طويلةً. ثم اقترب سوكولوف من شتروم، ووضع يده على كتفه، وشعر فيكتور بافلوفيتش بأنه سيبكي الآن.

قال بيوتر لافرينتييفيتش:

- رائع، إنّها معجزة، يا لهُ من أمرٍ رائعٍ أخّاذ. أهنئك من أعماق قلبي. يا لها من قوة مذهلة، ومنطق، وأناقة! حتى إن استنتاجاتك مكتملة جمالياً.

فكّر شتروم مباشرة، بعد أن سيطر عليه التوتّر: «آه، يا إلهي، أيّها الربّ، إنّ هذا هو الخبز، والمسألة لا تكمن في الأناقة».

قال سوكولوف:

- حسناً، أرأيت فيكتور بافلوفيتش، كم كنتَ مخطئاً، ومعنوياتك منهارة، أردتَ أن تؤجّل كل شيء حتى تعود إلى موسكو - وبلهجةِ معلم قانون الربّ، التي لم يطقها شتروم، تابعَ يقول-: إنّ إيمانك قليل، وصبرك قليل. وهذا غالباً ما يعيقك...

قال شتروم مُتَعَجِّلاً:

- نعم، نعم. أنا أعلم، لقد كنت أشعر باكتئاب شديد بسبب هذا الطريق المسدود، وشعرت بالإقياء.

بدأ سوكولوف يطرحُ تقييماته، وكل ما كان يقوله لم يعجب شتروم، على الرغم من أن بيوتر لافرينتييفيتش أدرك من فوره أهمية عمل شتروم وقيّمَهُ بدرجات عالية جداً. لكن فيكتور بافلوفيتش رأى أنَّ أي تقييمات هي مزعجة وغير دقيقة.

«إنّ عملك يعد بنتائج ملحوظة.» يا لها من كلمة سخيفة «يعد». شتروم ومن دون بيوتر لافرينتييفيتش يعرف أنَّ عمله «يعد». ولماذا: يعدُ بالنتائج؟ هو نفسهُ النتيجة، فلماذا هنا: يعد؟ «لقد استخدمتَ طريقة الحل الأصلية.» لا، ليست المسألة هنا بالأصلية... إنّه الخبز، الخبز، الخبز الأسود.

تحدث شتروم عمداً عن العمل الحالي للمختبر.

- بالمناسبة، نسيت أن أخبركَ بيوتر لافرينتييفيتش، تلقيت رسالة من الأورال، سيتأخر تنفيذ طلبنا.

- هكذا إذاً، - قال سوكولوف - ستأتي المعداتُ ونكون نحن قد أصبحنا في موسكو. وفي هذا عنصر إيجابي. وفي كازان لن نُركِّبَها على أي حال، وسوف يلوموننا على إعاقة برنامج تطوير الموضوع.

وتحدث باسترسال عن الأمور المخبَريّة وعن تنفيذ الخطة الموضوعاتيّة. وبينما نقل شتروم بنفسه الحديثَ إلى شؤون المعهد الحالي، فقد كان غاضباً من أن سوكولوف ترك الموضوع الرئيسي الكبيرَ بسهولة.

أحسَّ شتروم بوحدته بقوّة خلال هذه الدقائق.

أيعقل أن سوكولوف لا يفهم حقيقةً أننا نتحدث عن أمرٍ أكبر من موضوعات المعهد المعتادة؟

ربما كان هذا هو أهم حلّ علمي توصّل إليه شتروم؛ وسيؤثّر في الرؤى النظرية للفيزيائيين. أدرك سوكولوف، من تعابيرِ وجه شتروم، أنّهُ انتقلَ بسهولة ويُسرٍ إلى التحدث عن الأمور الجارية؛ فقال:

- إنّه لأمر مثير للفضول، لقد أثبتَّ بطريقة جديدة تماماً هذا الشيءَ بالنيترونات والنواة الثقيلة - وقام بحركة بكفّه، تشبه النزول السريع لمزلقة على منحدر حاد - وهنا ستساعدنا الأجهزة الجديدة.

قال شتروم:

- نعم، ربّما. لكن يبدو لي أنها ستساعدُ جزئيّاً.

قال سوكولوف:

- حسناً، لا تقل ذلك، هذه الجزئيّةُ ضخمةٌ بما فيه الكفاية، وافقني، إنّها طاقة عملاقة.

قال شتروم:

- آه، حسناً، لِيَكُنِ اللّهُ معها. ما يثير الاهتمام هنا، كما يبدو لي، تغيير وجهة النظر إلى طبيعة القوى الصغيرة. هذا يمكن أن يرضي شخصاً ما، للتخلّص من التخبّط الأعمى.

قال سوكولوف:

- حسناً، وليكونوا سعداء. تماماً كما يفرح الرياضيون عندما يُحطِّمُ شخصٌ ما، وليسَ هم، رقماً قياسيّاً.

لم يجب شتروم. تطرّق سوكولوف إلى موضوع الجدال الأخير في المختبر.

أكد سافوستيانوف خلال هذا الجدال أن عمل العالم يشبه التدريب الرياضي - حيث يستعد العلماء ويتدربون، ولا يختلف التوتّر عند حل المشكلات العلمية عن الرياضة. وكذلك تجاوز الأرقام القياسية.

غضب شتروم وكذلكَ سوكولوف على نحوٍ خاص من سافوستيانوف بسبب هذا القول.

حتى إن سوكولوف ألقى كلمة، وصف فيها سافوستيانوف بأنه شاب ساخر وتحدث عن العلم كما لو أنّهُ أقرب إلى الدين، وكأنّ التعبير في العمل العلمي يشبه طموح الشخص في الوصول إلى الربّ.

أدرك شتروم أنه كان غاضباً في ذلكَ الجدال من سافوستيانوف

ليس لأنّهُ لم يكن مُحِقّاً فحسب، فهو نفسه كان يشعر أحياناً بالفرح الرياضي، وبالحسد والإثارة الرياضيّة، لكنه عرف أن الغرور والحسد والإثارة والشعور بالرقم القياسي والإثارة الرياضية لم تكن هي الجوهر بل كانت فقط سطح علاقته بالعلم. لقد كان غاضباً من سافوستيانوف ليس لأنّهُ كان مُحقّاً فحسب، بل ولأنّهُ لم يكن مُحقّاً أيضاً.

ما كان قد تحدَّثَ إلى أيٍّ شخص، حتى إلى زوجته، عن شعوره الحقيقي بالعلم، الذي نشأ في روحه ذات يوم لمّا كانت فتيّة. وسُرَّ أنَّ سوكولوف تحدث على نحوٍ صحيح، وبكل سموٍّ عن العلم في جداله مع سافوستيانوف.

لماذا الآن بدأ بيوتر لافرينتييفيتش يتحدث فجأة عن حقيقة أن العلماء مثل الرياضيين؟ لماذا قال ذلك؟ ما الذي تفوَّهَ بهِ وعلى وجه التحديد في لحظة استثنائية خاصة بالنسبة إلى شتروم؟

شاعراً بالارتباك والاستياء، سأل سوكولوف بحدّة:

– وأنت، بيوتر لافرينتييفيتش، أيعقل أن تكون غير سعيدٍ حقاً بما كنا نتحدث عنه، لأنك لم تُسجِّلِ الرقم قياسي؟

كان سوكولوف في تلك اللحظة يفكِّرُ: إلى أيِّ درجة كان الحل، الذي وجده شتروم بكل بساطة، موجوداً بالفعل في رأسِ هو، وعلى وشك التعبير عنه حتماً؟

أجابَ سوكولوف:

– نعم، تماماً مثلما كان لورنتز غير سعيد لأن آينشتاين، وليس هو نفسه، من قام بتحويل معادلات لورنتز.

بساطة هذا الاعتراف كانت مذهلة؛ إلى درجة أن شتروم ندم على مشاعره السيِّئة.

لكن سوكولوف أضاف من فوره:

- هذه نكتة، بالتأكيد، تبقى نكتة. لورنتز لا علاقة له بالأمر. ولا أفكِّرُ أنا هكذا. ومع ذلك أنا على صواب وليس أنت، لكنني لا أفكِّرُ بهذِهِ الطريقة.

قال شتروم:

- بالتأكيد، لا تفكِّر هكذا، بالتأكيد - غير أنَّ الغضب لم يزل ولم يختف، وأدرك شتروم بحزم أن هذا بالضبط ما اعتقدَهُ سوكولوف.

«لا صدقَ عندهُ اليوم،- فكّر شتروم - وهو نقي كطفلٍ يظهرُ عليهِ الكذبُ مباشرةً».

قال:

- بيوتر لافرينتييفيتش، هل سيجتمعون عندكَ كالمعتاد يوم السبت؟

حرّك سوكولوف أنفه الغليظ، واستعد لقول كلامٍ ما، لكنه لم ينبس ببنت شفة.

نظر شتروم إليه متسائلاً.

قال سوكولوف:

- فيكتور بافلوفيتش، الكلام بيننا، لم تعد جلسات الشاي هذه تعجبني.

والآن نظر إلى شتروم متسائلاً، على الرغم من أن شتروم ظلَّ صامتاً، فقال:

- لماذا تسأل؟ أنت تفهم. . . هذه ليست مزحات. لقد انفلتت ألسنتهم.

قال شتروم:

- أنت لم ينفلت لسانك، لقد كنت الأكثر صمتاً.

- حسناً، لعلَّ المشكلة تكمن هنا.

قال شتروم:

- تفضّلوا، تعالوا إليَّ، سأكون سعيداً جداً.

أمرٌ غير مفهوم! لكنّهُ لم يكن صريحاً! لماذا كذب؟ لماذا كان يجادل سوكولوف، وهو بداخله مُتَّفق معه؟ ثُمَّ إنّه كان يخاف تلكَ اللقاءات، ولا يريدها الآن.

سأل سوكولوف:

- لماذا عندك؟ الحديث ليس عن ذلك. نعم، وسأخبرك بصراحة، تشاجرت مع ابن عمي، مع المتحدث الرئيسي مادياروف.

رغب شتروم جداً في أن يسأل: «بيوتر لافرينتييفيتش، هل أنت متأكد من أن مادياروف رجل صادق؟ هل يمكنك أن تضمنه؟».

لكنه قال:

- ما الخطأ هنا؟ لقد أقنعتم أنفسكم بأن الدولة ستنهار من كل كلمة جريئة. من المؤسف أنك تشاجرت مع مادياروف، أنا أحبّه. كثيراً!

قال سوكولوف:

- ليس من المشرّف أنّ ينتقدَ الروسُ، في الأوقات الصعبة التي تمرّ بها روسيا.

أراد شتروم أن يسأل من جديد: «بيوتر لافرينتييفيتش، الأمر خطير، هل أنت متأكد من أن مادياروف ليس مُخبراً؟».

لكنه لم يطرح هذا السؤال، بل قال:

- اسمح لي، أصبحَ الآن الوضع أسهل. ستالينغراد: استدارت نحو الربيع. هنا أعددنا معاً قوائمَ لإعادة المهجّرين. هل تذكر، قبل نحو شهرين؟ جبال الأورال، التايغا، وكازاخستان - هذا ما يدور في خَلَدي.

- تماماً - قال سوكولوف - فلا أرى أساساً للنعيق.

سأل شتروم:

- نعيق؟

- نعيق بكل ما في الكلمة من معنى.

- ما الذي تقولهُ بيوتر لافرينتييفيتش لا قدّر اللّه؟ - عقَّبَ شتروم.

ودّع سوكولوف، لكنَّ شعوراً بالحيرة والكآبة ظلَّ مُعشِّشاً في أعماقِهِ.

سيطر عليه إحساسٌ بالوحدة لا يطاق. بدأ يعاني منذ الصباح، وفكّر أن يلتقي سوكولوف شاعراً بأنّه سيكون لقاءً خاصاً. لكنَّ كل ما قاله سوكولوف بدا له تقريباً تافهاً وغير صادقٍ.

وهو أيضاً لم يكن صادقاً. الشعور بالوحدة لم يتركه، وأصبح أقوى.

خرج إلى الشارع، وناداه صوت أنثوي هادئ عند الباب الخارجي. كان شتروم يعرف هذا الصوت.

إنّه وجه ماريا إيفانوفنا مضاءً بمصباح الشارع، يلمع جبينُها

وخداها بفعلِ رطوبة المطر. ترتدي معطفاً قديماً، ولفّت رأسها بشالٍ صوفيٍّ، بدت هي زوجة الدكتور في العلوم والبروفيسور، تجسيداً واضحاً للفقر الذي سببهُ الإجلاء العسكري.

فكّر: كأنّها «قاطعة تذاكر».

سألت، وهي تنظرُ بعينيها الداكنتين إلى وجه شتروم:

- كيف حال لودميلا نيقولايفنا؟

لوّح بيده وقال:

- لا تزال على حالها.

قالت:

- سآتي إليها غداً باكراً.

- أنت ومن دون ذلك طبيبها الذي يحميها - قال شتروم - حسناً، هل يحتمل بيوتر لافرينتييفيتش ذلك؟ إنّه كالطفل، لا يستطيع العيش ساعةً من دونك، وأنت غالباً ما تزورين لودميلا نيقولايفنا.

استمرت تنظرُ إليه بعمق، كما لو كانت تسمع كلماته ولا تسمعها، وقالت:

- اليوم لديك وجه خاص جداً، فيكتور بافلوفيتش. هل من أمورٍ جيدة حدثت؟

- لماذا قررت ذلك؟

قالت على نحوٍ غير متوقع:

- عيناكَ ليستا كما هي الحال دائماً، أمرٌ جيّد في عملك، أليس كذلك؟ حسناً، أرأيت؟ وكنتَ اعتقدتَ بسبب مصيبتك الكبيرةِ، أنَّكَ لم تعد تقدرُ على العمل.

سألها:

– من أين عرفت ذلك؟ وفكر: «أوه، يا للمرأة الثرثارة، هل تكون لودميلا قد حدّثتها بذلك؟».

سألها، وأخفى توتّره في نبرة ساخرة:

– لكن ما الذي ترينه في عيني؟

توقفت مؤقتاً، فكرت في كلماته، وقالت بجدّية، وهي ترفضُ النبرةَ الساخرةَ التي اقترحها:

– في عينيكَ ثمَّةَ معاناة دائماً، أمّا اليوم فالأمرُ مختلف.

وبدأ فجأةً يقول لها:

– ماريا إيفانوفنا، كم غريبٍ كل شيء. أنا أشعر أنّني حققت الآن المسألة الرئيسية في حياتي. لأنّ العلم هو خبز، خبز الروح. وكان أن حدث الأمرُ في مثل هذا الوقت العصيب والمرّ. يا للغرابة! كيف يتشابك كل شيء في الحياة؟ آه، كم كنت أتمنّى لو... لا شيء، ماذا عساهُ يكون؟

استمعت وهي تنظر إلى عينيه، وقالت بهدوء:

– لو كان في استطاعتي إبعاد الحزن من عتبة بيتكم.

قال شتروم وهو يودعها:

– شكراً لك، عزيزتي ماريا إيفانوفنا.

هدأ فجأة، وكأنّه كان ذاهباً إليها، وقال لها ما أراد أن يقوله.

وبعد دقيقة خطا في شارع مظلم ناسياً سوكولوف، تسلَّلَ برد من تحت البوابات السوداء، وحرّكت الريح عند مفترق الطرق نصف معطفه. ضمّ شتروم كتفيه إحداهما نحو الأخرى، وقطّبَ جبهته – أيعقل حقاً ألّا تعرف أمي البتّة، البتّة، بما أنجزهُ ابنُها من أعمالٍ الآن؟

7

جمع شتروم طاقم المختبر - علماء الفيزياء: ماركوف، سافوستيانوف، آنّا نعومنا فيسبابير، والميكانيكي نوزدرين، والكهربائي بيريبيليتسين وأخبرهم أن الشكوك حول عيوب المعدات لا أساس لها. إنّ دقة القياس الخاصة هي التي أدت إلى نتائج موحدة، بغض النظر عن مدى اختلاف الظروف التجريبية.

كان شتروم وسوكولوف مُنَظِّرَين، وأجرى ماركوف العملَ التجريبيَّ في المختبر. كانَ ذا موهبة مذهلة في حلِّ المشكلات التجريبيّة شديدةِ التعقيد، وتحديد مبادئ المعدات المعقدة الجديدة بدقة.

أُعجبَ شتروم بالثقة التي امتلكها ماركوف وهو يتعامل مع جهاز غير معروفٍ له من قبل، دونَ أن يستخدمَ أيّ توضيحات، كان يستوعب بنفسه وخلال بضع دقائق، المبادئ الأساسية والتفاصيل الخفيّة. كان يتعامل مع الأجهزة الفيزيائية على ما يبدو كجسدٍ حيّ - فقد بدا له طبيعيّاً، أن ينظر إلى القطة ويرى عينيها، وذيلها وأذنيها، ومخالبها، ويجسّ نبضات قلبها، ليصفَ كل عضوٍ ووظيفته في جسد القطة.

لمّا كان يُصَمَّمُ جهازٌ جديدٌ في المختبر، ويُحتاجُ إلى التفكير بمزايا أفضل لعمل ذلكَ الجهاز، يصبح الميكانيكيُّ المتكبّرُ نوزدرين الملكَ الرابحَ.

لقد قال سافوستيانوف المرح ذو الشعر الأشقر عن نوزدرين ساخراً: «عندما يموتُ ستيبان ستيبانوفيتش، سيأخذون يديه للدراسة في معهد الدماغ».

لكن نوزدرين لم تعجبه النكاتُ، وتعامل مع الموظفين العلميين بتعال، كان يدركَ أنَّ العمل في المختبر لن يسير من دون يديه القويّتين العاملتين.

محبوب المختبر كان سافوستيانوف، أعطوه المسائل النظرية والتجريبية بسهولة.

وقد أنجزَ كل شيء مازحاً وبسرعة ومن دون جهدٍ يذكر.

بدا شعره الأشقر القمحي وكأنّه مضاء بنور الشمس حتى في أحلك أيام الخريف. اعتقد شتروم، الذي يحبّ سافوستيانوف، أن شعره كان أشقرَ لأن عقله كان واضحاً ومشرقاً. وسوكولوف كان يقدِّر سافوستيانوف أيضاً.

يسميّ المخبريون الأذكياء آنّا نعومنا «الدجاجةَ الجبّارة»، فقد امتلكت قدرة على العمل والصبر لاإنسانيين - اضطرّت ذات مرّة أن تجلس مدةَ 18 ساعة خلف المجهر، لدراسة طبقات صور المستحلب.

يعتقد كثيرٌ من رؤساء أقسام المعهد أن شتروم كان محظوظاً، ذلكَ أنَّ الموظفين في مختبره اختيروا بنجاح كبير. واعتادَ شتروم أن يقول مازحاً: «كل رئيس قسم لديه الموظفون الذين يستحقهم. . .».

قال شتروم:

- توتّرنا جميعنا وشعرنا بالاستياء، والآن يمكننا أن نفرح معاً - أجرى التجاربَ بدقة البروفيسور ماركوف. والفضل هنا بطبيعة الحال، لكلّ من الورشة الميكانيكية والمخبريين، الذين أجروا عدداً ضخماً من المتابعات، وقاموا بمئات وآلاف العمليات الحسابية.

قال ماركوف بسرعة وهو يسعل:

- فيكتور بافلوفيتش، أريد أن أسمع وجهة نظرك بالتفصيل قدر الإمكان.

ثم خفض صوته وأضاف:

- قيل لي إن عمل كوتشكوروف في المجال المرافقِ يثير آمالاً عملية. وأخبروني أنهم طلبوا في موسكو على نحوٍ غير متوقع وصفاً لنتائجه.

عادة ما كان ماركوف يعرفُ خلفيةَ أنواع الأحداث كلها. فقد حملَ ماركوف إلى العربة، لمّا أُجليَ موظفو المعهد بالقطار، الكثيرَ من الأخبار: عن الاختناقات المرورية، وتغيير القطار، ونقاط بيع المواد الغذائية في الطريق.

قال سافوستيان ذو الذقنِ غير المحلوقة مهتمّاً:

- لا بدّ لي من شرب كحول المختبر كلّها في هذه المناسبة.

قالت آنّا نعومنا الناشطة الاجتماعية الكبيرة:

- ترون، يا لها من سعادة، فقد اتهمنا بالخطايا المميتة في الاجتماعات الإنتاجية وفي اللجنة المحلّية.

وصمت الميكانيكي نوزدرين، وهو يُمسّد وجنتيهِ الغارقتين.

أمّا الكهربائي الشاب ذو الرجل الواحدة بيريبيليتسين فقد احمرّت جبهته ببطء ولم ينطق بأيِّ كلمة، وسقطَ عكازهُ على الأرض مُحدثاً صوتاً قويّاً.

كان شتروم سعيداً ومُبتَهجاً بهذا النهار.

تحدّث إليهِ في الصباح رئيس المعهد الشاب بيمينوف، وقال له كثيراً من الكلمات الطيّبة. وسافر بيمينوف بالطائرة إلى موسكو - كانت الاستعدادات الأخيرة تجري لأجلِ عودة أقسام المعهد جميعها تقريباً إلى موسكو.

قال بيمينوف مودّعاً:

- فيكتور بافلوفيتش، أراك قريباً في موسكو. أنا سعيد، وأفتخر بأني كنتُ مديراً للمعهد في الوقت الذي أنجزتَ فيه دراستك الرائعة.

كان كلُّ شيءٍ لطيفاً جداً بالنسبة إلى شتروم، في اجتماع موظفي المختبر.

عادة ما كان ماركوف يسخرُ من العادات المُتَّبعة في المختبر، ويقول:

- أيّها الدكاترة والبروفيسرات، لدينا فوج من الباحثين العلميين المرشحين والمبتدئين، لدينا كتيبة والجندي الوحيد هو نوزدرين! - انطوت هذه النكتة على عدم ثقتِهِ بعلماء الفيزياء النظرية. - نحن، مثل الهرم الغريب - يوضح ماركوف - الواسع والفسيح في الأعلى والذي يضيقُ نزولاً إلى القاع. نحن مُزعزعون ومتردّدون، نحتاج إلى قاعدة عريضة - فوج من النوزدريين.

وقال ماركوف بعد تقرير شتروم:

- حسناً، هذا هو الفوج لك، وهذا الهرم لك.

أمّا عينا سافوستيانوف، الذي بشّر أنّ العلم يشبه الرياضة، فأصبحتا لطيفتين على نحوٍ مدهش بعد تقرير شتروم: سعيدتين وطيّبتين.

أدرك شتروم، أنّ سافوستيانوف نظر إليه في هذه اللحظات ليس كلاعب كرة قدم ينظرُ إلى مدرّبه، بل كمؤمن إلى الرسول.

تذكّر حديثه الأخير مع سوكولوف، وتذكر جدال سوكولوف مع سافوستيانوف وفكّر: «ربّما أفهم شيئاً ما في طبيعة القوى الذرّية، لكنني لا أفقه شيئاً في الطبيعة البشريّة».

دخلت آنّا نعوموفنا في نهاية الدوام مكتبَ شتروم، وقالت:

- فيكتور بافلوفيتش، الرئيس الجديد لإدارة شؤون الموظفين لم يدرجني في عملية إعادة الإجلاء. قبلَ قليلٍ نظرت في قائمة الأسماء.

قال شتروم:

- أعلم، أعلم، لا يوجد ما يدعو إلى الانزعاج، لأن إعادة الإجلاء ستتم وفق قائمتين، أنت ستذهبين في القائمة الثانية، بعد بضعة أسابيع فحسب.

- لكنني الوحيدة من مجموعتنا، التي لم يندرج اسمها في القائمة. أعتقد سأصاب بالجنون، أشعر بالاشمئزاز من هذا الإجلاء. إنّي أرى موسكو كلّ ليلة في حلمي. ثم كيف ستسير الأمور: هذا يعني أنّهم سيبدؤون تركيب الأجهزة في موسكو من دوني؟

- نعم فعلاً. لكن كما ترين، تمت الموافقة على القائمة، ومن الصعب جداً تغييرها. تحدث سفيتشين من المختبر المغناطيسي

بالفعل عن بوريس إيزرايليفيتش، والقصة هي نفسها كما هي الحال معك، ولكن تبيّنَ أنّ التغييرَ صعب جداً. ربما من الأفضل أن تنتظري.

فجأة ثار وصرخ:

- الشيطانُ وحده يعرفهم، ويعلمُ من أيّ مكانٍ يُفكرون، لقد حشوا في القائمة الأشخاص غير الضروريين، وأنت التي سنحتاجُ إليك من فورنا للتثبيت الرئيسي للأجهزة، نسوكِ لسببٍ ما.

قالت آنّا نعومنا:

- لم ينسوني، وكانت عيناها ممتلئتين بالدموع - بل هناكَ ما هو أسوأ...

قالت آنّا نعومنا، التي كانت تتلفَّتُ حولها، وتنظرُ نظراتٍ غريبة وسريعة وخجولة إلى الباب نصف المفتوح:

- فيكتور بافلوفيتش، لسبب ما حُذِفت أسماء يهودية فقط من القائمة، وأخبرتني ريما، سكرتيرة إدارة شؤون الموظفين، أنَّ أسماء اليهود جميعاً تقريباً في أوفا، حُذِفت من قائمة الأكاديمية الأوكرانية، ما أبقوا سوى حملة شهادة الدكتوراه في العلوم.

حدّق بها شتروم للحظة، وفمه نصف مفتوح، ثم انفجر ضاحكاً:

- هل جُننت يا عزيزتي! نحن والحمد للّه لا نعيش في روسيا القيصرية. أي نوع من مُركَّبِ عقدِ النقص الدونيّةِ؟! ارمي هذا الهراء من رأسك!



8

الصداقة! كم هي متنوِّعة.

الصداقة في العمل. الصداقة في العمل الثوري، والصداقة في رحلة طويلة، والصداقة ما بين الجنود، والصداقة في سجن العبور، حيث المدة بين التعارف والانفصال يومان أو ثلاثة أيام، وتُخَزَّنُ ذاكرة هذه الأيام سنواتٍ عديدةً. الصداقة في السرَّاء والضرَّاء. الصداقة في المساواة وعدم المساواة.

أين تكمن الصداقة؟ هل جوهر الصداقة في من يجمعهم العمل والمصير فحسب؟ إنّ الكراهية في الواقع تكون أحياناً بين أناس أعضاء في حزبٍ واحدٍ، ممن تختلف وجهات نظرهم فقط في الشكليات، وهي أكبر مما هي بين هؤلاء الناس وأعداء الحزب. وأحياناً يكره الناس الذين يشاركون معاً في المعركة بعضهم بعضاً، أكثر مما يكرهون عدوّهم المشترك. وأحياناً تكونُ الكراهية بين السجناء أكبر من كراهية هؤلاء السجناء لسجّانيهم.

من الطبيعي أن تقابل أصدقاء في معظم الأحيان بين الناس ذوي المصير المشترك، والمهنة الواحدة، والأفكار المشتركة، ومع ذلك من السابق لأوانه الاستنتاج أنّ مثل هذا الجامع يحدّد الصداقة.

يمكن في الواقع أن تتكوّن صداقات، ما بين بشرٍ توحّدهم كراهيّةُ مهنتهم. يتصادق ليس أبطال الحرب وأبطال العمل فحسب، بل يتصادق الفارّون من الحرب ومن العمل. ومع ذلك فإنّ أساس الصداقة عند هؤلاء وأولئك يكون الجامع المشترك.

هل يمكن لشخصين طباعهما متناقضة أن يُصبحا صديقين؟ بالتأكيد!

الصداقة في بعض الأحيان علاقة غير مصلحيّة.

الصداقةُ أنانيةٌ أحياناً، وأحياناً تكون في منزلة التضحية بالنفس، ولكن من المدهش أن أنانيّة الصداقة تفيد على نحوٍ غير أناني الشخص الذي تُصادِقُه، والتضحية بالنفس في الصداقة هي أنانيّةٌ في الأساس.

الصداقة هي المرآة التي يرى فيها الشخص نفسه. تتحدث أحياناً إلى صديق، فتتعرف نفَسك: تتحدث إلى نفسك، وتتواصل مع نفسك.

الصداقة هي المساواةُ والتشابه. ولكن في الوقت نفسه الصداقةُ هي عدم المساواة وعدم التشابه.

الصداقة تكون عمليّة وفعّالة، في العمل المشترك، وفي الكفاح المشترك من أجل الحياة، ومن أجل قطعة من الخبز.

ثمَّةَ صداقةٌ من أجل المثل الأعلى، صداقة فلسفيّة بين مُتحدِّثينِ مُتأمِّلين، صداقة أشخاص يعملون بطرق مختلفة، وعلى نحوٍ منفصل، ولكنهم يحاكمون الحياةَ معاً.

وقد تجمع الصداقة العليا ما بين الصداقة الفعّالة، صداقة العمل والكفاح مع صداقة المتحاورين.

يحتاجُ الأصدقاءُ دائماً بعضهم إلى بعض، لكنهم لا يتلقَّونَ دائماً من الصداقة المقدارَ نَفسه. ولا يريدُ الأصدقاءُ دائماً من الصداقةِ الشيء نفسه. يصادق أحدُهم ويهدي الصديقَ الخبرة، والثاني يغني خبرته بالصداقة. أحدهم يساعد الصديقَ الضعيف عديم الخبرة، الفتيّ، ويتَعرَّف قوَّتَه، ونضجَهُ، والآخر الضعيف يتعرَّف في صديقِهِ مثلَه الأعلى: قوّتَه وخبرته ونضجه. وهكذا أحدهم في الصداقة يهدي، والآخر يفرح بالهدايا.

ويحدُثُ أن الصديقَ هو مرجعٌ صامت، بمساعدته يتواصل الشخص مع ذاته، ويجد الفرح في نفسه، وفي أفكاره التي تُسمع بوضوح، وتُرى بفضل انعكاسها في صدى روح الصديق.

عادة ما تتطلب صداقةُ العقلِ، التأملية، الفلسفية، من الناس وحدةَ وجهاتِ نظرٍ، لكن هذا التشابه قد لا يكون شاملاً. وتتجلى الصداقةُ أحياناً في الجدال، وفي تباين الأصدقاء.

إذا كانَ الأصدقاءُ متشابهين في كل شيء، وإذا كانوا يعكسون بعضهم بعضاً، فإن الجدالَ مع الآخر هو جدالُ الشخصِ مع نفسه.

إنّ الصديق هو ذلك الشخص الذي يسوِّغُ نقاطَ ضعفك وأوجه قصورك وحتى عيوبك، والذي يثبِتُ أنك محق وموهوب وجدير.

الصديق هو ذلك الشخص الذي، ومن حبّه لك، يفضح نقاط ضعفك وأوجه قصورك وعيوبك.

ترتكزُ الصداقةُ إذاً إلى أوجه التشابه، ولكنها تتجلى في الاختلافات والتناقضات وعدم التشابه أيضاً. وهنا يسعى شخصٌ في الصداقة على نحوٍ أنانيّ للحصول من الصديق على ما لا يملكه هو. وهنا يحاول شخص في الصداقة أن يقدّم بسخاء ما يملك.

الرغبة في الصداقة متأصلة في الطبيعة البشرية، والشخص الذي لا يعرف كيفية تكوين صداقات مع الناس يصادق الحيوانات: الكلاب والخيول والقطط والفئران والعناكب.

إنّ الكائن القوي بالمطلق لا يحتاج إلى صداقة، مثل هذا المخلوق على ما يبدو، لا يمكن أن يكون سوى الربّ نفسه.

إنّ الصداقة الحقيقية غير مرتبطة بمسألةِ أن صديقك على العرش أو خُلِعَ عن العرش، ووجد نفسه في السجن، إنّ الصداقة الحقيقية تتوجّه إلى الميزات الداخلية للروح ولا تبالي بالمجد، والقوة الخارجية.

تتنوعُ أشكالُ الصداقة، وتكثرُ مضامينُها، لكن ثمةَ أساساً ثابتاً للصداقة لا يتزعزع - هو الإيمان بعدم خيانةِ الصديق، وهو الإخلاص للصديق. وبالتالي الصداقة رائعة على نحوٍ خاصّ حيث الشخصُ يخدمُ السبتَ[1]. عندما يُضحّى بالصديق والصداقة من أجل المصالح العليا، ويُعلَنُ الشخصُ عدواً للمثلِ الأعلى، ويفقدُ أصدقاءَهُ جميعاً، يؤمن عندها أنه لن يفقد صديقه الوحيد.

---

(1) عبارة مأخوذة من التلمود: «السبت يجب أن يخدمكم، لا أن تخدموا أنتم السبت». (المترجمان).

9

رأى شتروم عند وصوله البيتَ معطفاً مألوفاً على المشجب - كان كاريموف بانتظاره.

وضع كاريموف الصحيفة جانباً، واعتقد شتروم أنّ لودميلا نيقولايفنا ما أرادت، على ما يبدو، التحدّث إلى الضيف.

قال كاريموف:

- جئت إليكم من الكولخوز، لقد حاضرت هناك - وأضاف - لا تقلق من فضلك، لقد أطعموني كثيراً في الكولخوز، فشعبنا مضياف كثيراً.

واعتقد شتروم أن لودميلا نيقولايفنا لم تسأل كاريموف ما إذا كان يريد شرب الشاي.

لاحظ شتروم، عند تفحّصه باهتمام، وجهَ كاريموف المتجعّد ذا الأنف العريض، انحرافاً خفيّاً تكادُ تلحظه بصعوبة عن النمط السلافي الروسي المعتاد. وفي لحظة قصيرة، عند التفاتةٍ غير متوقَّعة للرأس، تتوحّد هذه الانحرافات كلّها ويتحوّل الوجه إلى وجه منغولي.

بالطريقة نفسها يميِّزُ شتروم في الشارعِ أحياناً اليهود من بعض

الناس ذوي الشعر الأشقر، والعيون الملوّنة، والأنوف الخُنس. شيءٌ ما تلحظه بصعوبة يميّز الناس ذوي الأصول اليهودية - ربمّا الابتسامة في بعض الأحيان، وأحياناً طريقة تجعّد الجبين المفاجئة، وربّما الحول، وأحياناً ضم الكتفين.

أخذ كاريموف في الحديث عن لقائه مع الملازم الذي وصل إلى والديه في القرية مصاباً بجروح بالغة. من الواضح أن كاريموف جاء إلى شتروم، لأجل هذه القصة.

قال كاريموف:

- إنّه فتى جيد، لقد قال كل شيء بصراحة.

سأل شتروم:

- باللغة التتريّة؟

قال كاريموف:

- بالتأكيد.

فكّر شتروم أنه إذا قابل مثل هذا الملازم اليهودي الجريح، فما كان ليتحدَّثَ إليه بالعبريّة؛ لم يكن يعرف أكثر من عشر كلمات عبريّة، كان يستخدمها ليمازحَ محاورَهُ، مثل «بيكيتسير» (لا أعرف) و«هالويميس» (هراء).

وقع الملازم في الأسر خريفَ عام 1941، بالقرب من كيرتش. وأرسله الألمان لجمع القمح المغطى بالثلوج - لإطعام الخيول. استغلّ الملازم الفرصة، فاختفى في غسق الشتاء، وهرب. وآواه السكان الروس والتتار.

قال كاريموف:

- أنا الآن كلّي أمل في رؤية زوجتي وابنتي، تبيّن أن عند الألمان، مثلنا، بطاقات من فئات مختلفة. يقول الملازم إن كثيراً من تتار القرم يمضونَ إلى الجبال، على الرغم من أن الألمان لا يمسّونهم.

قال شتروم:

- لقد تسلّقتُ جبال القرم يوماً ما، لمّا كنتُ طالباً - وتذكَّر كيف أرسلت له أمّه النقود من أجل هذه الرحلة - وهل رأى ملازِمُك يهوداً؟

أطلّت لودميلا نيقولايفنا برأسها من الباب وقالت:

- أمّي لم تأت بعد، وأنا قلقة عليها.

قال شتروم غاضباً:

- حسناً، حسناً، وأين يمكن أن تكون؟

ولمّا أغلقت لودميلا الباب، سأل مرّة أخرى:

- ماذا يقول الملازم عن اليهود؟

- رأى كيف اقتادوا عائلة يهودية، امرأةً عجوزاً، وفتاتين لإعدامهم رمياً بالرصاص.

قال شتروم:

- يا إلهي!

- نعم، عدا عن ذلك، فقد سمع عن بعض المعسكرات في بولندا، حيث يُنقل اليهود ويُقتلون ويُمَثَّلُ بجثثهم، كما في المسالخ. لكن هذا الكلام على ما يبدو محضُ خيال. سألته على وجه التحديد عن هؤلاء الناس، كنت أعرف أن هذا يعنيك.

فكّر شتروم: «لماذا يعنيني أنا فحسب؟ أيعقل أن الآخرين لا يهمّهم ذلك؟».

فكّر كاريموف للحظة وقال:

- نعم، لقد نسيت، أخبرني أيضاً أن الألمان كانوا يأمرون بإحضار أطفالٍ يهود حديثي الولادة إلى مكتب القائد، ويطلونَ شفاههم بتركيبة عديمة اللون، فيموت بعدها الأطفال من فورهم.

سأل شتروم:

- حديثي الولادة؟

- يبدو لي أن هذا أيضاً هو تلفيقٌ للأخبار، مثل التصوّرات الخيالية عن تلكَ المعسكرات، حيث يقطّعون الجثث.

ذَرعَ شتروم الغرفةَ قائلاً:

- عندما تفكر في حقيقة أنهم يقتلون الأطفال حديثي الولادة هذه الأيام، فإنَ جهود الثقافة كلها تبدو غير ضرورية. حسناً، ماذا علَّم غوته و باخ الناس؟ قتل الأطفال حديثي الولادة!

قال كاريموف:

- نعم، هذا فظيع.

رأى شتروم تعاطف كاريموف، لكنه لحظَ أيضاً توتّره الفرح، فقد عزّزت قصة الملازم أمله في مقابلة زوجته. لكن شتروم عرف أنه بعد النصر لن يلتقي بأمه.

كاريموف استعدَّ للعودة إلى بيته، وأسف شتروم لفراقه، لذلك قرّر مرافقته.

قال شتروم فجأة:

- أتعرف، نحن العلماء السوفييت، أناس سعداء. ما الذي يجب أن يشعر به الفيزيائي الألماني أو الكيميائي الصادق، عندما يعرف أن اكتشافاته تذهب لخدمة هتلر؟ هل تتخيل عالماً فيزيائياً يعرفُ أنّهم يقتلون أقاربه هكذا كالكلاب المسعورة، ويبقى سعيداً باكتشافه، وهذا الاكتشاف يمنح القوة العسكرية للفاشية من دون إرادته؟ يرى كل شيء، ويفهم، ولكن لا يسعه إلا أن يفرح لاكتشافه العلمي. يا للفظاعة!

قال كاريموف:

- نعم، نعم، لكن الشخص المفكر لا يستطيع إجبار نفسه على عدم التفكير.

خرجا إلى الشارع، فقال كاريموف:

- لا أشعرُ بالراحةِ لمرافقتكَ لي. الجو فظيع، وقد وصلت لتوِّكَ إلى البيت وها أنت ذا تخرج مرة أخرى.

أجاب شتروم:

- لا بأس، لا باس. سأرافقك إلى الزاوية فقط.

ونظر إلى وجه رفيقه وقال:

- يسرني أن أمشي معك في الشارع، على الرغم من أن الطقس سيِّئ.

مشى كريموف بصمت، وبدا لشتروم أنه يفكر ولم يسمع ما قاله له. لمّا وصلا إلى الزاوية، توقف شتروم وقال:

- حسناً إذاً، دعني أودّعك هنا.

شدَّ كاريموف على يده بقوّة، وقال ماطّاً الكلمات:

- قريباً ستعود إلى موسكو، وسنضطر إلى فراقك. وأنا أقدّر جداً لقاءاتنا.

قال شتروم:

- نعم، نعم، نعم، صدقني، هذا ما يحزنني.

سار شتروم في اتجاه المنزل ولم ينتبه أنَّ أحدهم يناديه.

نظر إليه مادياروف بعينين داكنتين. ياقة معطفه كانت مرفوعة.

سأله:

- ما الذي حصل، توقفت اجتماعاتُنا؟ واختفيتَ تماماً، وبيوتر لافرينتييفيتش يلومني في ذلك.

- نعم، هذا مؤسف بالتأكيد - قال شتروم - ولكننا قُلنا بتسرّعٍ كثيراً من الأشياء الغبيَّة، أنت وأنا.

قال مادياروف:

- ومن يهتم بالكلمة المنطوقة عند الغضب.

قرّب وجهه من شتروم، وأصبحت عيناه الواسعتان الكبيرتان الكئيبتان داكنتين أكثر، بل وأكثر حزناً، وقال:

- ثمَّةَ إيجابيات حقاً في أنَّ اجتماعاتنا قد توقفت.

سأل شتروم:

- لماذا؟

تحدّث مادياروف بضيق نفس:

- يجب أن أخبرك، يبدو لي أنَّ كاريموف العجوز يعمل... مفهوم؟ وأعتقد أنك تقابله كثيراً.

قال شتروم:

- لن أصدق أبداً. هذا هراء!.

- ألم تُفكِّر: أصدِقاؤهُ جميعاً، وأصدقاءُ أصدقائه جميعاً قد مُسِحوا تماماً منذ عشر سنوات، لا يوجد أي أثر لبيئته بأكملها، بقي وحده ولا يزال يزدهر: إنّه دكتور في العلوم.

سأل شتروم:

- حسناً، وماذا في ذلك؟ أنا أيضاً دكتور، وأنت دكتور في العلوم.

- نعم، هذا هو الشيء نفسه. فكر في هذا المصير العجيب. أنا آمل ذلك، وأنت يا سيّد لستَ صغيراً.

10

قالت لودميلا نيقولايفنا:

- فيتا، وصلت أمي للتو.

جلست ألكساندرا فلاديميروفنا إلى المائدة واضعة وشاحاً على كتفيها، سحبت فنجانَ الشاي نحوها، ودفعته فوراً بعيداً عنها، وقالت:

- حسناً، لقد تحدثت إلى رجل رأى ميتيا قبيل الحرب مباشرة.

ولأنها كانت متوتّرة، فقد تحدّثت بصوت هادئ رزين أنّ شخصّاً زارَ جيران زميلتها في العمل، موظّفةَ المَخبر، وهو ابن منطقتهم ليقضي بضعةَ أيّام. وذكرت هذه الزميلة مصادفة اسم عائلة ألكساندرا فلاديميروفنا في حضوره، فسأل الضيف: ألا يوجد قريب لألكساندرا فلاديميروفنا اسمه ديميتري؟

قصدت ألكساندرا فلاديميروفنا بعد العمل عاملةَ المخبر في بيتها. وهنا اتضح أن هذا الرجل قد أُطلِقَ سراحُه أخيراً من معسكر الاعتقال، كان يعمل مصححاً، وقد قضى سبع سنوات في السجن لأنه ارتكبَ خطأً مطبعيّاً في افتتاحية الجريدة - لقد أخطأ مصفّفُ الحروف بحرف واحد في اسم الرفيق ستالين. ونُقلَ قبلَ الحرب، لانتهاك الانضباط في السجن، إلى جمهورية كومي المستقلة

السوفييتيّة الاشتراكية إلى معسكر اعتقال تأديبي في الشرق الأقصى، ضمن منظومة معسكرات اعتقال البحيرات، وهناك كان شابوشنيكوف جاره في المهجع.

- أدركت من الكلمة الأولى أنّه ميتيا. قال: «يستلقي على سريره وهو يصفر أغنية - «تشيجيك بيجيك، أين كنت... [1]». جاءني ميتيا قبل الاعتقال وابتسم ابتسامة عريضة، وأجاب عن أسئلتي جميعاً صافراً: «تشيجيك»... يجب أن يسافر هذا الرجل مساء إلى لايشيفو حيث تعيش أسرته، على متن شاحنة نقل بضائع، قال: ميتيا كان مريضاً بمرض نقص فيتامين سي، وقلبه ليس على ما يرام، وقال: إن ميتيا لم يثق بأنهم سيُفرجون عنه، وأخبره عني، وعن «سيريوجا». ميتيا يعمل في المطبخ، وهذا كما يرى الكثيرون عمل رائع.

قال شتروم:

- لأجل هذا كان يجب التخرج في معهدين!

قالت لودميلا:

- علينا ألّا نأمن جانبه، قد يكون محرّضاً مدسوساً؟

- من يحتاج إلى تحريض امرأة عجوز؟

- لكن فيكتور في مؤسسة معروفة، ويهتمّون به بما فيه الكفاية.

قال فيكتور بافلوفيتش بتوتّر:

- يا لودميلا، هذا هراء.

سألت ناديا:

---

(1) أغنية هزلية، بدايتها تقول: «تشيجيك بيجيك أين كنت، كنت عند النافورة اشرب الفودكا...». (المترجمان).

- لماذا خرج من السجن، ألم يوضّح؟

- ما قاله لا يصدق. يا لهذا العالم الضخم، يبدو لي نوعاً من الهوس. إنه بالتحديد رجل من بلد آخر. لديهم عاداتهم الخاصة، وتاريخهم تاريخ القرون الوسطى والجديدة، ولديهم أمثالهم الخاصّة...

سألته عن سبب إطلاق سراحه - فوجئ كيف لا أعرف، لقد قاموا بتنشيطي؛ أنا مرة أخرى لم أفهم، اتضح أنّهم يطلقون سراح المشرفين على الموت. لديهم نوع من التقسيم داخل معسكر الاعتقال - عمال الأعمال الشاقة، معتوهون، بائعات الهوى... سألته: ما نوع الحكم بعشر سنواتٍ من الاعتقال من دون حق المراسلة، الذي صدر بحق الآلاف من الناس في السنة السابعة والثلاثين؟ قال إنه لم يقابل أيّ شخص محكومٍ بهذا الحكم، وقد كان في عشرات المعسكرات. أين هؤلاء الناس؟ يقول: لا أعرف، إنهم ليسوا في معسكرات الاعتقال.

قاطعو الأشجار. المحكومون بسنوات سجن كثيرة جداً. والمهجّرون عنوة... لقد صَبَّ عليّ كآبة هائلة. ميتيا عاشَ هناك، وقال أيضاً: ويعيشُ المشرف على الموت، المعتوه، بائعات الهوى... تحدث عن طريقة انتحار - إنهم يمتنعونَ عن الأكل في مستنقع كوليما ويشربون الماء عدةَ أيام، ويموتون من الوذمة، ومن الاستسقاء، ويُسمّى ذلك عندهم - شُرْبَ الماء، الانتقالَ إلى شرب الماء، طبعاً وهم مرضى قلب.

رأت وجه شتروم المتوتر والكئيب، وحاجبي ابنتها المتجهمين المقطَّبين.

تابعت تقول متوترة، وقد شعرت أن رأسها يحترق وفمها يجف:

- قال إنّ الطريق والقطار أكثر رعباً من معسكر الاعتقال، هناك المجرمون هم الأقوى، يجرّدون الناس من ثيابهم، ويستولون على المواد الغذائية، السياسيون يخسرون حياتهم في ورق اللعب، والضحية لا يعرف حتى اللحظات الأخيرة أنّ حياته قد لعبوا بها في الشدّة، أحد اللاعبين يقتل الشخص السياسيَّ بسكين، . . . والفظيع أيضاً أن جميع وظائف القيادة للمجرمين - هم المسؤولون في المهاجع، والمسؤولون في قطع الأشجار، السياسيون محرومون من الحقوق، يخاطبونهم بصيغة المفرد «أنت»، المجرمون سمّوا ميتيا فاشيّاً. . . القتلة واللصوص سمّوا ميتيا فاشيّاً.

قالت ألكساندرا فلاديميروفنا بصوت عالٍ، كما لو كانت تخاطب الشعب:

- نقلوا هذا الرجل من المعسكر حيث كان ميتيا، إلى سيكتيفكار. وفي سنوات الحرب الأولى قدمَ إلى المعسكر حيث بقيَ ميتيا رجلٌ من المركز اسم عائلته كاشكيتين فنظَّمَ إعدامَ عشرة آلاف سجين في السنة الأولى من الحرب.

قالت لودميلا نيقولايفنا:

- يا إلهي، أريد أن أفهم: هل يعلم ستالين بهذا الرعب؟

قالت ناديا غاضبة وهي تكرّر نبرة والدتها:

- أو، يا إلهي، أيعقل أنّك لا تفهمين؟ لقد أمرهم ستالين بالقتل.

صاح شتروم:

- ناديا، كفّي عن هذا!

وكما يحدث مع الأشخاص الذين يشعرون أن شخصاً ما من الخارج يفهم ضعفهم الداخلي، وصل شتروم فجأة إلى حالة الغضب الشديد، وصاح بناديا قائلاً:

- لا تنسي أنّ ستالين هو القائد الأعلى للجيش الذي يقاتل ضد الفاشية، وكانت جدتك تعلّق آمالاً على ستالين حتى آخر يوم من حياتها، كلنا نعيش ونتنفس لأن هناك ستالين والجيش الأحمر... أنتِ تعلّمي أن تمسحي أنفك أوّلاً، ومن ثم انتقدي ستالين، الذي أغلق الطريق أمام الفاشية في ستالينغراد.

أجابت ناديا:

- ستالين يجلس في موسكو، وأنت تعرف من أوقفَ الألمان في ستالينغراد؛ لا يمكن فهمك، أنت نفسك عندما أتيت من عند سوكولوف قلت الكلامَ نفسه الذي أقوله أنا...

شعرَ بموجةِ غضبٍ جديدة تجاه ناديا، وبدت له موجةً عارمة إلى درجة أنها ستكفيها حتى نهاية حياتها.

وقال:

- لم أقل شيئاً مماثلاً، عندما أتيت من عند سوكولوف، لا تخترعي من فضلك.

قالت لودميلا نيقولايفنا:

- لماذا نتذكَّرُ كل هذا الرعب في الوقت الذي يموت فيهِ الأطفال السوفييت من أجل وطنهم في الحرب؟

وهنا أعربت ناديا عن فهمها للسرّية والضعف اللذين يعششان في نفسِ والدها.

فقالت:

- نعم، طبعاً، أنتَ لم تقل أي شيء. ولا سيما الآن، عندما أصبح لديك مثل هذا النجاح في عملك. الألمان أُوقِفوا في ستالينغراد. . .

قال فيكتور بافلوفيتش:

- كيف يمكنك قول ذلك؟ كيف تجرُئِين على الشك في نزاهة والدك! لودميلا، هل تسمعين؟

انتظر مساندةَ زوجتِهِ، لكنّ لودميلا نيقولايفنا لم تسانده.

قالت:

- ما الذي أدهشك؟ لقد سمِعَتْ ما فيه الكفاية، عندما تحدثتَ إلى صديقك كاريموف، وإلى ذلكَ الماديااروف المقرف. وأخبرتني ماريا إيفانوفنا عن أحاديثكم. أنتَ نفسك تحدثت بما فيه الكفاية في البيت. أوه، فلنعدْ بسرعة إلى موسكو.

قال شتروم:

- كفى، أعرف مسبقاً كُلَّ ما تريدين إخباري به من أمور لطيفة!

صمتت ناديا، وبدا وجهها كهلاً، ذابلاً وقبيحاً، واستدارت عن والدها، حتى إذا التقطَ نظرتها، صُدمَ بسبب حجم الكراهية الذي حوته تلكَ النظرة.

أصبح الجوّ خانقاً، مُشبعاً بكثيرٍ من الثقل والسوء. كل ما كانَ قد عاش في الظلِّ سنواتٍ في كل أسرة تقريباً - مُنذِراً بالخطر، ويهدأ متسامحاً بالمحبة والثقة الروحيَّة - ظهرَ الآن على السطح، انتفض، وانسكب على نطاق واسع، وملأ الحياة، كما لو أن سوءَ الفهمِ

والشكوكَ والغضبَ والتوبيخَ فحسب هي الأمور الموجودة بين الأب والأم والابنة.

أيعقل أن يكون الخلافُ والنفورُ قد ولّدا مصيرهم المشترك؟

قالت ناديا:

- جدّتي!

نظر شتروم ولودميلا إلى ألكساندرا فلاديميروفنا في الوقت نفسه - جلست وهي تضغط بيديها على جبينها كما لو كانت تعاني من صداع لا يطاق.

كان ثمَّةَ ما هو بائس لا يوصف في عجزها، بدت هي وحزنها لا حاجة إليهما، وإنّما شجعا الخلاف العائلي، ووتّراهُ وخدماه، هي التي كانت طوال حياتها قوية وقاسية، جلست في تلك اللحظة وحيدة وعاجزة.

ركعت ناديا فجأة على ركبتيها، وضغطت جبهتها على رجلي ألكساندرا فلاديميروفنا وقالت:

- جدتي، العزيزة والطيّبة، جدّتي...

اقترب فيكتور بافلوفيتش من الجدار، وشَغَّلَ الراديو، فأزّ ميكروفونه المصنوعُ من الورق المقوى، وعوى، وصفر. وبدا أن الراديو كان يبث حالة الطقس الليلية الخريفية السيّئة، التي ارتفعت فوق خط المواجهة، فوق القرى المحترقة، وفوق قبور الجنود، وفوق كوليما وفوركوتا، والمطارات الميدانية، والأسطح القماشية التي تغّطي أسقف مستوصفات الكتائب الطبيّة المبللة بالماء البارد والثلوج.

نظر شتروم إلى وجه زوجته العبوس، واقترب من ألكساندرا فلاديميروفنا، فأخذ يديها في راحتي كفيّه، ومضى يُقَبِّلهما، ثم انحنى ومسّد رأس ناديا.

بدا أنَّ شيئاً لم يتغير في هذه اللحظات القليلة، وكان الأشخاص أنفسهم في الغرفة، يضغط الحزن نفسه عليهم، ويقودهم المصير نفسه. وهم وحدهم من عرفوا كيف ملأت الحرارةُ الرائعة قلوبهم الشرسة في تلك الثواني...

ظهر فجأة صوتٌ مدوٍّ في الغرفة يقول:

«خاضت قواتنا معارك مع العدوّ في منطقة ستالينغراد، وفي الشمال الشرقي من توابسي وفي منطقة نالشك. ولم تحدث أيُّ تغييرات على الجبهات الأخرى».

11

أُدخِلَ الملازمُ بيتر باخ إلى المستشفى بسبب إصابته بعيار ناريٍّ في كتفه. لم يكن الجرح خطيراً، وهنأه الرفاق الذين اصطحبوهُ إلى العربة الصحيّة على حظّه الجيّد.

توجّه باخ بمساندة الممرض للاستحمام وهو يشعر بالنعيم، ويئنّ في الوقت نفسه من الألم.

كانت المتعة من ملامسته المياه الدافئة عظيمة.

- أفضل مما كانَ عليه الوضعُ في الخنادق؟ - سأل الممرّض، رغبةً منه في قول كلامٍ لطيف للجريح، وأضاف-: عندما تخرج من المستشفى، سيكون على الأرجح كل شيء على ما يرام.

ولوّح بيده في الاتجاه الذي جاء منه صوت رشقة رصاص.

سأله باخ:

- لم يمض وقت طويل على وصولك إلى هنا؟

أجابَ الممرّض الذي كان يفرك ظهر الملازم بالليفة:

- لماذا قررت أنني هنا منذُ وقتٍ قريب؟

- لأنّ أحداً هنا لا يعتقد أن القضية ستنتهي قريباً. يعتقدُ الجميعُ أن الأمور لن تنتهي قريباً.

نظر الممرّض إلى الضابط العاري في الحمام. فتذكر باخ: كان ثَمَّةَ تعليمات يتلقّاها العاملون في المستشفيات بالإبلاغ عن مزاج الجرحى، وكلمات الملازم أظهرت عدم ثقته بقدرةِ القوات المسلحة. ولكن باخ كرّرَ على نحوٍ منفصل:

- نعم، أيّها الممرض، لا أحد يعرف كيف ستنتهي الأمور.

لماذا كرر هذه الكلمات الخطيرة؟ الشخص الذي يعيش في إمبراطورية شمولية يستطيع أن يفهم هذا فقط.

كرّر هذه الكلمات بسبب التوتر من جرّاء خوفه لأنّه نطقها لأول مرة. تكريرها كان بهدف دفاعي، ليخدَعَ بلامبالاته المخبرَ المفترضَ.

ثم تابعَ يقول من أجل تدمير الانطباع الضار لمعارضته:

- إنّ القوّة التي جمعناها هنا ليس لها مثيلٌ على الأغلب منذ بدء الحرب. صدقني، أيّها الممرّض.

ثم شعر بالاشمئزاز من اللعبة المدمّرة المعقدة هذه، وانغمس في متعة الأطفال: فحاول ضغط ماء الصابون الدافئ في يده - فانقذَفت المياه إلى حافة الحوض، وإلى وجه باخ نفسه.

قال للممرّض:

- إنّه مبدأ قاذف اللهب.

كيف نحل جسمه؟! لقد تفحص ذراعيه العاريتين وصدره وفكّر في الشابة الروسية التي قبلته قبل يومين. هل فكَّرَ أنه ستكون لديه علاقة غرامية مع امرأة روسية في ستالينغراد؟ في الحقيقةِ، من الصعب تسميتها علاقة غرامية. إنّها مجرّد اتصال عسكري عشوائي.

بيئة غير عادية ورائعة، كانت موجودة في القبو، وذهب إليها بين الأنقاض، على ضوء الانفجارات. يمكن وصف هذه اللقاءات جيداً في كتاب. أمس كان من المفترض أن يأتي إليها. لعلّها قرّرت أنه قد قُتل. بعد الشفاء، سوف يذهبُ إليها مرة أخرى. وتساءل من سيحل محله. الطبيعة لا تتحمّل الفراغ. . .

أرسلوه بعد فترة وجيزة من الحمام، إلى غرفة الأشعة السينيّة، ووضع اختصاصي الأشعة باخ أمام شاشة آلة الأشعة السينيّة.

- هل الجو حار هناك، أيّها الملازم؟

- الحرارةُ أكثر ارتفاعاً عند الروس - أجاب باخ راغباً في إرضاء الطبيب والحصول على تشخيص جيد، يساعدُ في إجراء العملية بسهولة ومن دون ألم.

دخل الطبيب الجراح. ونظر الأريّان إلى داخل جسم باخ واستطاعا أن يُبصِرا كل شرور المعارضة التي كانت كامنة في صدره في السنوات الماضية.

أمسك الجراح باخ من ذراعه وبدأ يلفها، وأخذ يقرّبها من الشاشة أو يبعدها عنها. كان منشغلاً بشظايا الجرح، أمّا أن الجرح كان مرتبطاً بشاب حاصلٍ على تعليم عالٍ فهذا أمرٌ عارضٌ لا قيمة له.

تحدث الأريّان مازجين الكلمات اللاتينية بالشتائم الدعابيّة الألمانية، وأدرك باخ أنه في حالة جيدة، وستبقى يده معه.

قال الجراح:

- جهّزوا الملازم للعملية، وسأنظُرُ في حالة صعبة هنا - وهي جرحُ جمجمةٍ حادٌّ.

نزع الممرّض الرداء عن باخ، وأمرته الممرضة الجراحيّة بالجلوس على الكرسي الصغير.

قال باخ بائساً مبتسماً وخجلاً من عورته:

- يا للشيطان، يجب عليك، فريلين، تدفئة الكرسي قبل أن يجلس عليه مشارك في معركة ستالينغراد بمؤخرةٍ عارية.

أجابته من دون ابتسامة:

- ليس لدينا مثل تلك الوظيفة، أيّها المريض - وأخذت تُخرِجُ الأدوات من الخزانة الزجاجية، التي بدا منظرها لباخ مرعباً.

إلّا أن نزع الشظايا مرّ بسرعة وبسهولة. حتى إنّ باخ قد غضب من الطبيب - لأنّ احتقاره للعملية التافهة، قد انسحبَ على الجريح نفسه.

سألت الممرضة الجراحيّة باخ ما إذا كان في حاجة إلى اصطحابه إلى الجناح.

أجابها:

- سأصل إلى هناك بنفسي.

قالت بنبرة مريحة ومُهدّئةٍ:

- لن تبقى طويلاً عندنا.

أجاب:

- رائع، وإلا فإنني بدأت أشعر بالملل.

ابتسمت.

تخيّلت الممرضة، على ما يبدو، الجرحى من خلال مراسلات الصحف، حيث كتب فيها الكتّاب والصحفيون عن الجرحى الذين

فرّوا سراً من المستشفيات إلى كتائبهم وفصائلهم؛ كان عليهم إطلاق النار على العدو بالضرورة، ومن دون ذلك ما كان في حياتهم حياة.

ربما يكون الصحفيون قد عثروا على أولئكَ الأشخاص في المستشفيات، لكن باخ شعر بنعمة خجولة عندما استلقى على سرير مغطى بشراشف جديدة وأكل صحناً من عصيدة الأرز ودخّن سيجارة (ممنوع التدخين تماماً في الغرفة) ودخل في أحاديث مع الجيران.

كان في الجناح أربعةُ جرحى، ثلاثة من ضباط الجبهات، والرابع موظّف بصدر مجوّف وبطن منتفخ، وصل في رحلة عمل من الداخل وتعرض لحادث سيارة في منطقة غومارك. بدا عندما كان مستلقياً على ظهره، ويداه مطويتان على بطنه، أنّهم وضعوا على سبيل المزاح كرة قدم تحت غطاء العم النحيف.

لذلك، لقّبه الجرحى على ما يبدو بـ«حارس المرمى».

كان حارس المرمى هو الوحيد من بين الجميع الذي تأوّه، ذلك أن الجرح قد أخرجهُ من الصفوف. تحدّث بلهجة نبيلة عن وطنه وجيشه وواجبه وأنّه فخور بالإصابة التي تلقاها في ستالينغراد.

تعاملَ ضباطُ الجبهة الذين سفكوا الدماء من أجل الشعب مع وطنيته بسخرية.

قال قائد سرّية الاستطلاع، وهو رجلٌ شاحبُ الوجه، وذو شفتين غليظتين، وعينين بنيتين منتفختين، للجريح المستلقي على بطنه نتيجة لجرح في المؤخرة:

- أنت، على ما يبدو، من أولئكَ الحراس الذين لا يقذفون الكرة بعيداً، ويصدّونها عن المرمى فحسب.

كان ضابطُ الاستطلاع مهووساً بالأمور الجنسية - تحدّث على نحوٍ أساسي عن العلاقات الجنسية.

سأل حارس المرمى، الذي كان يرغب في إحراج الجاني:

- لماذا لم تُلوِّحكَ الشمس؟ لعلكَ تعملُ في الديوان؟

لكن كراب لم يعمل في الديوان.

قال:

- أنا طائر ليلي، صيدي يحدُثُ في الليل. مع النساء، بعكسكَ أنت، وأنام في أثناء النهار..

وبّخوا في العنبرِ البيروقراطيين الهاربين بسياراتهم من برلين إلى البيوت الريفية في المساء؛ وشتموا مسؤولي المؤن الذين تلقوا أوسمةً أسرع مما تلقاها المحاربون على الجبهة؛ وتحدثوا عن مصائب عائلات المقاتلين الذين دُمِّرت منازلهم بالقصف؛ ووبّخوا ذكورَ الخيل المتسلّلين ليلاً إلى زوجات المقاتلين في الجيش؛ وشتموا أكشاكَ الجبهةِ حيث يبيعون هناكَ شفرات الحلاقة والكولونيا فحسب.

رقدَ بجوار باخ الملازم غيرني، الذي بدا لباخ أنّ منشأه من النبلاء، لكن اتضح فيما بعد أن غيرني كان فلاحاً، وهو أحد أولئك الذين قدّمهم الانقلاب الاشتراكي الوطني. شغل منصب نائب رئيس أركان الفوج وأصيب بشظية قنبلة طيران ليلي.

عندما نُقلَ حارس المرمى لإجراء عملية جراحية، قال رجل بسيط يرقد في الزاوية، هو الملازم أول فريسير:

- يطلقون عليَّ النار منذ عامِ تسعةٍ وثلاثين، لم أصرخ أبداً مُتباهياً بوطنيّتي. يطعمونني، ويسقونني، ويلبسونني، وأنا أحاربُ من دون فلسفة.

قال باخ:

- لا، لماذا؟ توجد في سُخريةِ محاربي الجبهة من نفاق حارس المرمى فلسفةٌ خاصة.

- هكذا إذاً! - قال غيرني - هذا مثير للاهتمام، وما هذه الفلسفة؟

شعر باخ من خلال تعابير وجه غيرني غير الودِّيّة، أنّه شخصٌ يكره مُثقَّفي ما قبل الهتلرية. لقد قرأ باخُ كثيراً وسمع عباراتٍ تفيدُ بأنّ الفئة المثقفة القديمة تميل إلى البلوتوقراطية الأمريكية، التي تتعاطف مع التلمود والتجريد اليهودي، والأسلوب اليهودي في الفن التشكيلي والأدب. سيطرَ الغضب عليه. الآن وقد أصبح جاهزاً للرضوخ لقوة الأشخاص الجدد الغاشمة، لماذا يُنظَرُ إليه بشكوكٍ ذئبيّة؟ ألم يأكله القمل؟ ألم يحترق في الصقيع مثلهم؟ هو، الضابط المقاتل على الجبهة، لا يعتبرونه ألمانياً! أغلق باخ عينيه واستدار نحو الحائط...

تمتم غاضباً:

- لماذا هذا القدر من السمّ في سؤالك؟

قال غيرني بابتسامة ازدراء وتعالٍ:

- وكأنّك لا تفهم؟

أجاب باخ بتوتّر:

- قلت لك لا أفهم - ثم أضاف - لكنني أتوقع.

ضحك غيرني بالتأكيد.

صاح باخ قائلاً:

- إذاً، الازدواجية؟

قال غيرني فرحاً:

- بالضبط، إنّها الازدواجية.

- العجز الطوعي؟

هنا أخذ فريسير يضحك. أمّا كراب، فقد ارتفع على كوعيه، ونظر بوقاحة لا توصف إلى باخ.

- مُتأخِّران، - قالَ باخ بصوت مدو - هذان الاثنان خارج نطاق التفكير البشري، لكنك أنت، غيرني، وصلت بالفعل إلى منتصف المسافة ما بين القرد والرجل... دعنا نتحدث بجدية.

بردَ بسبب الكراهية، وضغط عينيه المغلقتين.

- يكفيكم أن تكتبوا كتيِّباً متواضعاً عن أي سؤال صغير، وعندها فإنكما تكرهان بالفعل أولئك الذين وضعوا الأساس وشيدوا جدران العلم الألماني. في إمكانكما كتابة قصة رقيقة، تبصقون فيها على مجد الأدب الألماني. يبدو لكما أن العلم والفن يشبهان الوزارات، فموظفو الجيل القديم لا يمنحونكما الفرصة للحصول على مرتبة عليا؟ ويصبح المكان ضيّقاً بكما وبكتيّبكما، وسيزعجكما كوخ، ونيرنست، وبلانك، وكيليرمان... العلم والفن ليسا ديواناً، إنهما قمّةٌ بارناسيّة تحت سماء فسيحة، إنهما دائماً هناك، هناك مساحة كافية لجميع المواهب عبر تاريخ البشرية حتى تظهرا هناك مع ثماركما النحيلة. إنّه ليس ضيق المكان، أنتما وبكل بساطة ليس لكما مكان هناك. وأنتما ستسرعان إلى تطهير الموقع، ولكن بذلك، فإنّ رداءتكما وبالوناتكما غير المنفوخة جيّداً، لن ترتفع متراً واحداً. وإذا

رميتما آينشتاين، لن تحتلا مكانه. نعم - نعم آينشتاين، وبالتأكيد، هو يهودي، ولكن المعذرة فإنّه شهم ونابغة. لا توجد قوة في العالم يمكن أن تساعدكما في شغل مكانه. فكّرا في الأمر - هل يستحق الموضوعُ إنفاق كثير من الطاقة على تدمير من تبقى أماكنهم فارغة إلى الأبد؟ إذا كانت الدونية لديكما تعوقكما عن السير على الطرق التي اكتشفها هتلر، فأنتما فقط المسؤولان عن هذا، ولا توجِّها الشرّ إلى الأشخاص المكتملين. من المستحيل أن تفعل الطريقةُ البوليسيَّة شيئاً في مجال الثقافة! هل تريان مدى عمق فهم هتلر وجغيبيلز لذلك؟ إنّهما يعلماننا بقدوتهما لنا. كم من الحب والصبر والكياسة يُظهران لتعزيز العلم الألماني، والفن التشكيلي، والأدب. هنا خذا مثالاً منهما، وسيرا على طريق التوحيد، ولا تجلبا الانقسام إلى قضيتنا الألمانية المشتركة!

فتح باخ عينيه، بعد أن ألقى صامِتاً كلمته المُتَخَيَّلة. الجاران كانا مستلقيين تحت البطانيات.

قال فريسير:

- أيها الرفاق، انظروا هنا. وبحركة ساحر، سحب من تحت الوسادةِ زجاجة لتر من الكونياك الإيطالي ذي العلامة التجارية «الشباب الثلاثة».

أصدر غيرني صوتاً غريباً من حنجرته - السكيرُ الحقيقي فقط، والسكيرُ الفَلّاح بالتحديد، يمكنه النظر إلى الزجاجة بمثل هذا التعبير.

فكر باخ، وخَجِلَ من حديثه الهستيري المنطوق وغير المنطوق: «ليسَ شخصاً سيِّئاً، من الواضح بالدلائلِ أنّه ليسَ سيِّئاً».

قفز فريسير في هذه الأثناء على رجل واحدة، وسكب الكونياك في الكؤوس الموضوعة على الكراسي الصغيرة.

قال الاستطلاعي مبتسماً:

- أنت وحش.

وقال غيرني:

- هذا هو الضابط المقاتل.

قال فريسير:

- أحد موظَّفي الصحّةِ لاحظ زجاجتي وسأل: «ماذا لديك في الجريدة؟». قلت له: «هذه رسائل من أمّي، لن أتخلّى عنها أبداً».

رفع كأسه:

- وهكذا، مع تحيات خط المواجهة، الملازم الكبير فريسير!

وشرب الجميع.

قال غيرني، الذي أراد من فوره أن يشرب من جديد:

- آه، يتعين علينا وداع حارس المرمى.

سأل كراب:

- ليكن الشيطان، مع حارس المرمى؛ صحيح، أيّها الملازم؟

قال فريسير:

- دعه يقوم بواجبه أمام وطنه، أمّا نحن فلنشرب بكل بساطة. إنّ كلّ واحد منّا يريد البقاء على قيد الحياة.

قال الاستطلاعي:

- عادت الحياة إلى مؤخرتي تماماً. والآن ينقصني سيدة متوسطة السمنة.

شعر الجميع بالمتعة والسرور.

رفع غيرني كأسه قائلاً:

- حسناً، بصحّتكم.

شربوا مرة أخرى.

- من الجيد أننا التقينا في جناح واحد.

- وأنا ما إن نظرتُ حتى حدَّدتُ من فوره: «هؤلاء شبابٌ حقيقيون، محاربو جبهة متمرّسون».

قال غيرني:

- أما أنا والحق أقول لكم فقد كانت لدي شكوك حول باخ. اعتقدت: «حسناً، هذا رفيق حزبيّ».

- لا، أنا غير حزبيّ.

استلقوا، وتغطّوا بالبطانيات. شعر الجميع بالحرّ. ودار الحديث حول مسائل الجبهة.

قاتل فريسير على الجهة اليسرى، بالقرب من قرية أوكاتوفكا.

قال:

- الشيطانُ وحده يعرفهم. الروسُ غيرُ قادرين تماماً على الهجوم. ولكن ها هي ذي بداية تشرين الثاني (نوفمبر) ونحن أيضاً لا نتقدّم. كم شربنا من الفودكا في آب (أغسطس)، وجميع الأنخاب كانت تقول: «دعونا لا نفقد بعضنا بعضاً بعد الحرب، يجب أن ننشئ جمعية من المقاتلين السابقين من أجل ستالينغراد».

قال الاستطلاعي الذي قاتل في منطقة المصانع:

- إنهم قادرون على الهجوم جيداً. ولكنهم لا يعرفون كيفية

التحصين. يطرُدُوننا من المبنى، ويذهبون من فورهم إما إلى النوم وإمّا يبدؤون بتناول الطعام، أمّا القادة فيسكرون.

قال فيسير غامزاً:

- أنفقنا على هؤلاء الهمجيين في ستالينغراد حديداً أكثر مما أنفقناه على أوروبا كلّها.

قال باخ:

- ليس الحديد فحسب. بل عندنا في الفوج من يبكون بلا سبب ويصيحون صياح الديكة.

قال غيرني:

- إذا لم تُحل المسألةُ قبل فصل الشتاء، فستبدأ الحرب الصينية. حرب تزاحم وتدافع لا معنى لها.

قال الاستطلاعي بصوت خافت:

- أتعرفون، نُعدُّ لهجومنا في منطقة المصانع، جُمِّعَ عدَدٌ من القوات لم يُجمَع من قبل. كل هذا سيحدث ضجة في الأيام المقبلة. سننام جميعاً في 20 تشرين الثاني (نوفمبر) مع فتيات ساراتوف.

سُمع من خلف ستائر النوافذ هديرُ مدفعيَّةٍ واسعٍ ومهيب، وطنينُ طائرات ليلية.

قال باخ:

- ها هي ذي الطائراتُ الخشبيّةُ الروسيّةُ تهتز. يقصفون في هذا الوقت. بعضهم يسمّيهم منشار الأعصاب.

وقال غيرني:

- ويسمّونهم عندنا في المقرّ: ضابط الصف المناوب.

رفع الاستطلاعي إصبعه قائلاً:

- صمت! تسمعون إنّها عيارات رئيسية!

وقال فريسير:

- أمّا نحن فنشرب الخمر في جناح الجروح الطفيفة.

وللمرة الثالثة في اليوم شعروا بالسرور.

تحدثوا عن النساء الروسيات. كان لدى كل شخصٍ ما يقوله. باخ لم تُعجبه مثل هذه الأحاديث.

ولكن في ليلة المستشفى هذه، تحدَّث باخ عن زينا، التي تعيشُ في قبو منزل مدمّر، تحدثَ بغضب، وضحك الجميع.

دخل الممرض، ونظر إلى الوجوه البشوشة، وأخذ يجمع الشراشف عن سرير حارس المرمى.

سأل فريسير:

- أُخرِجَ البرليني المدافع عن الوطن كمتظاهر؟

قال غيرني:

- أيّها الممرض، لماذا تصمت؟ نحن هنا جميعاً رجال، فإذا كان قد حصل أمرٌ ما، فأخبرنا!

أجابَ الممرّض:

- مات. توقف قلبه.

قال غيرني:

- أرأيتم إلى أين تصل الأحاديثُ الوطنيّة بأصحابها؟

قال باخ:

- ليس من الجيد التحدُّث عن الموتى هكذا. لم يكذب ولم يكن لديه مبرّر للكذب علينا، يعني كان صادقاً. سيّئ ما تفعلونه أيها الرفاق.

قال غيرني:

- أوه، لم يكن عبثاً اعتقادي أن الملازم جاء إلينا بكلمة حزبيّة. لقد أدركتُ من فوري أنه من سلالة أيديولوجية جديدة.

12

في الليل لم يستطع باخ النوم، كان مرتاحاً جداً. وكان من الغريب أن يتذكّر الملجأ والرفاق ووصول لينارد - تأمَّلوا معاً غروب الشمس من خلال باب الملجأ المفتوح، وشربوا القهوة من الترمس، ودخنوا.

عانق بالأمس لينارد بيده السليمة على كتفه وهو جالس في عربة الإسعاف، ونظرَ كلٌّ منهما في عيني صاحبه، وضحكا.

هل خطرَ بباله أنه سيشرب مع رجل قوات الأمن الخاصة في مخبأ ستالينغراد، وسيمشي بين الأنقاض التي أضاءتها النيران إلى عشيقته الروسية!

حدث أمرٌ مدهش له. لسنوات عديدة كان يكره هتلر. وعندما استمع إلى الأساتذة الجامعيين، ذوي الشعر الرمادي، الذين لا يخجلون وقد ادعوا أن فاراداي وداروين وأديسون مجموعة من النصابين الذين سرقوا العلم الألماني، وأن هتلر كان أعظم العلماء في كل العصور والشعوب، فكر بسرور غاضب: «حسناً، إنّه الجنون. وكل هذا سينفجر». وهذا الشعور استحضر في ذاكرته الروايات، التي وُصف فيها بكذبٍ هائل الأشخاصُ الخالون من العيوب، وسعادةُ العمال الأيديولوجيين والفلاحين الأيديولوجيين،

والعمل التربوي الحكيم للحزب. آه، أيُّ قصائدَ مثيرة للشفقة نُشرتْ في المجلات! لقد شعر بالضيق من جراء ذلك - فهو نفسه كان قد كتب الشعر في سنوات المدرسة.

وها هو ذا في ستالينغراد يريد الانضمام إلى الحزب. عندما كان صبياً خَشيَ أن يقنعه والده بحججهِ، لذلك كان يغطي أذنيه بيديه، ويصرخ: «لا أريد أن أسمع، لا أريد، أنا لا أريد. . .» لكنه استمع! لقد دار العالم حول محور.

هو لا يزال يشعر بالغثيان من المسرحيات والأفلام الخالية من المواهب. ربما ستمر بضع سنوات أو عقد من الزمن ويستغني الشعب عن الشعر، ما العمل؟ ولكن حتى اليوم ثمَّةَ فرصة لكتابة الحقيقة! إنّ الروح الألمانية هي الحقيقة الرئيسية، ومعنى العالم. وقد كان عباقرة النهضة قادرين على التعبير في الأعمال التي كلفهم بها الأمراء والأساقفة عن أعظم قيم الروح. . .

تابع الاستطلاعي كراب نومه وشارك في الوقت نفسه في المعركة الليلية، صرخَ بصوتٍ عالٍ حتّى إنّ صراخه ربما كان يسمع في الشارع: «قنبلة يدوية، ارمه بقنبلة يدوية!». أراد أن يزحف، لكنّه استدار بطريقة غير مريحة، وصرخ من الألم، ثم غفا من جديد، وشخر.

حتى عمليات الانتقام من اليهود التي أثارت عنده الرجفان، بدت الآن له بطريقة جديدة. أوه، وكأنّه بسلطته سيوقف المذبحة فوراً. وعلى الرغم من أنَّ لديه كثيراً من الأصدقاء اليهود لكن يجب القول بصراحة: إنّهُ ذو طبيعة ألمانيّة وروح ألمانيّة، وإلى جوار ذلك توجدُ الطبيعةُ اليهوديّةُ والروحُ اليهوديّة.

الماركسية انهارت! من الصعب أن يتوصل إلى هذه الفكرة رجل كان والده وأعمامه ووالدته ديمقراطيين اجتماعيين.

ماركس مثل فيزيائي أسَّسَ نظرية بنية المادة على قوى التنافر وأهمل قوة الجذب العالمي. حدد قوى التنافر الطبقي؛ وكان أفضل من تتبعها على مدى تاريخ البشرية. لكنه، كما يحدث غالباً مع الأشخاص الذين حققوا اكتشافاً كبيراً، تخيَّل أن قوى الصراع الطبقي التي حددها هي الوحيدة التي تقرر تطور المجتمع ومسار التاريخ. لم ير القوى الجبّارة القومية المتقاربة التي هي فوق الطبقات، كما أن فيزياءَه الاجتماعية المبنيّة على تجاهلِ قانون الجاذبية القومية العالمية، عبثيةٌ.

الدولة ليست نتيجة، الدولة سبب!

قانونٌ غامضٌ ومدهشٌ يحدد ولادة الدولة القومية! إنّها وحدة حية، وهي تعبّر عن أمرٍ واحد، أي ما هو موجود في ملايين الأشخاص جميعهم، وله قيمة خاصّة خالدة - الشخصية الألمانية، والموطن الألماني، والإرادة الألمانية، والتضحية الألمانية.

استلقى باخ لبعض الوقت، مُغمضاً عينيه. وكي ينام، أخذ يتصوّر قطيعاً من الأغنام - الأولى بيضاء والثانية سوداء، ومن جديد بيضاء، ومن جديد سوداء، ومن جديد بيضاء، ومن جديد سوداء...

كتب في الصباح بعد الفطور رسالة إلى والدته. قطّب جبهته، وتنهّد - إنّ كلّ ما كتبه غير سارّ بالنسبة إليها. لكن يجب أن يكتب لها بالتحديد، بكل ما يشعر به في الفترة الأخيرة. لم يقل لها شيئاً، عندما كان في إجازة. لكنّها رأت توتّره، وعدم رغبته في سماع الذكريات اللامتناهية عن والده - كلُّ شيءٍ يتكرّر.

ستفكر أنّه مرتدّ عن العقيدة الأبويّة. لكن لا. إنه يرفض الردّة تماماً.

استلقى المرضى، الذين تعبوا من الإجراءات الصباحية، بهدوء. وضعوا في الليل، على سرير حارس المرمى الفارغ رجلاً مصاباً بجروح خطيرة. لقد كان فاقداً الوعي، ومن المستحيل معرفة من أيِّ قطعة عسكرية جاء.

كيف سيشرح لأمّه أن الناس في ألمانيا الجديدة أقرب إليه اليوم من أصدقاء الطفولة؟

دخل ممرّضٌ الجناح وقال مستفسراً:

- من الملازم باخ؟

قال باخ، وغطى الرسالة التي بدأ يكتبها براحة يده:

- أنا.

- سيّدي الملازم، فتاة روسية تسأل عنك.

- عنّي أنا؟ - سأل باخ متفاجئاً، وأدرك أنّها زينا، إحدى معارفه من ستالينغراد. كيف استطاعت أن تعرف أين هو؟ ثم أدرك أنّ سائق سيارة الإسعاف التابعة للكتيبة أخبرها بذلك. فرحَ متأثّراً بالأمر؛ لأنّها اضطرّت إلى الخروج في الظلام والوصول بسيّارة عابرة، والسير من ستة إلى ثمانية كيلومترات. وتخيّل وجهها الشاحب وعينيها الكبيرتين، وعنقها النحيل، والمنديل الرمادي على رأسها.

علت قهقهةٌ في الجناح.

قال غيرني:

- هذا هو الملازم باخ!، هذا هو العمل بين السكان المحليين.

نفض فريسير يديه، كما لو كان ينفضُ الماءَ عن أصابعه، وقال:

- أيّها الممرّض، نادِها إلى هنا. لدى الملازم سرير واسع إلى حد ما. سوف نزوّجهما.

وقال الاستطلاعي كراب:

- المرأة، مثل الكلب، تتبع الرجل.

امتعض باخ فجأة. ماذا تَخيّلتْ؟ كيف يمكن أن تأتي إلى المستشفى؟ يُمنع الضباط من التواصل مع النساء الروسيات. ماذا لو كانَ أحد أفرادِ عائلته، أو أصدقائه من عائلة فورستر يعملون في المستشفى؟ على خلفية هذه العلاقات البسيطة، حتى الألمانية ما كانت لتجرؤ على زيارته...

بدا أن الجريح ذا الإصابة الخطرة والذي هو في غياهب النسيان، قد ابتسم بابتذال.

- أخبر هذه المرأة أنني لا أستطيع الخروج إليها - قال ذلك عابساً، وكي لا يشارك في حديث فرح، أخذ قلم الرصاص من فوره، وبدأ بإعادة قراءة ما كتب.

«... شيء مدهش، لسنوات عديدة اعتقدت أن الدولة تقمعني. والآن أدركت أنّها هي على وجه التحديد المُعبّرة عن روحي... لا أريد مصيراً سهلاً. إذا لزم الأمر، فسوف أنفصل عن الأصدقاء القدامى. أعرف أن أولئك الذين سوف أحضر إليهم لن يعتبروني أبداً صديقهم حتى النهاية، لكنني سألوي نفسي من أجل الشيء الأهم، أي الموجود في داخلي...».

استمر المرح في الجناح.

قال غيرني:

- هدوء، لا تزعجوه. إنّه يكتبُ رسالةً إلى عَرُوسِه.

أخذ باخ يضحك. وللحظة، كان الضحك المقيّد يذكّر بالتنهّد، وفَكَّرَ أنّ في استطاعته أن يبكي، مثلما يضحك الآن.

13

اعتقد الجنرالات والضباط، الذين لم يروا كثيراً قائد جيش المشاة السادس، باولوس، أنّه لم يكن ثمّة تغيير في أفكار الجنرالِ - العقيد ومزاجه. يُشير ثباتُهُ ورزانتُهُ وطبيعة الأوامر والابتسامة التي كانت تعلو وجههُ وهو يستمع إلى الملاحظات الخاصة البسيطة والتقارير الجادة، إلى أنّ الجنرال - العقيد لا يزال يخضع لظروف الحرب.

وفهم فقط الأشخاصُ الذين كانوا مقربين على نحوٍ خاص من القائد؛ مساعده العقيد آدمز، ورئيس أركان الجيش الجنرال شميدت، مدى تغيّر باولوس منذ بدء معارك ستالينغراد.

لا يزال في إمكانه أن يكون ذكياً ومتسامحاً، سواء أكان متكبراً أم ودوداً يدخل في ظروف حياة ضبّاطه، كما كان من قبل، وكان مسؤولاً عن إدخال الأفواج والكتائب في المعركة، ورفع وخفض الرتب، وتوقيع الجوائز، ولا يزال يدخّن السيجار المعتاد. . . ولكن الأهم من ذلك، أن الحالة النفسية الخفيّة تغيرت يوماً بعد يوم وكانت تستعد للتغيير تماماً.

لقد غادره الشعورُ بالسلطة على الوقت والظروف. حتى وقت

قريب، كان ينظر بهدوء إلى تقارير إدارة الاستخبارات في مقر الجيش - أليس سيّان ما يتصوره الروس، وهل حركة احتياطياتهم مهمّة؟

رأى آدمس الآن: أنَّ القائدَ أخذ أولاً من مجلد التقارير والوثائق، التي وضعها له على الطاولة في الصباح المعلومات الاستخباراتية عن تحرّكات الروس الليلية.

غيّر آدمس مرةً واحدةً ترتيبَ الأوراقِ المكدَّسة، فوضع أوّلاً تقارير قسم الاستطلاع. فتح باولوس المجلد، وحدَّقَ في الورقة الموضوعة في الأعلى. رفع حاجبيه الطويلين، ثم أطبق المجلد.

أدرك العقيد آدمس أنَّ تصرّفه لم يكن لبقاً. لقد أدهشته نظرة الجنرال - العقيد السريعة، والتي بدت حزينة.

قال باولوس لمعاونه مُبتسماً، بعد بضعة أيام، عند النظر في التقارير والوثائق الموضوعة بالطريقة المعتادة:

- أيّها السيّد المبتكر، يبدو أنك شخص ملتزم.

توجّه الجنرال شميدت في هذا المساء الخريفي الهادئ، إلى باولوس في مزاج رسمي إلى حد ما، لتقديم تقريره. . .

مشى شميدت إلى منزل القائد على طول شارع عريض، مستنشقاً بكل سرور الهواء البارد الذي يُنظِّفُ بلعومه المدخن بالتبغ الليلي، وينظرُ إلى السماء المعتمةِ بألوان غروب شمس السهوب. كان مرتاحا نفسياً، ففكر في الرسم، وفي أنّ تَجَشُّؤَ فترة ما بعد الظهر توقف عن إزعاجه.

كان يخطو في شارع مسائي هادئ ومهجور، وقد حوى رأسُه، تحت القبعة ذات الواقي الثقيل والكبير، كل ما يجب أن يظهر في

أشد المعارك التي أُعدَّ لها يوماً ما خلال حربِ ستالينغراد. هذا هو بالضبط ما قاله عندما دعاه القائد إلى الجلوس، واستعدّ للاستماع.

- بالتأكيد، حدث في تاريخ سلاحنا تعبِئة عدد أكبر من المعدات من أجل الهجوم. لكن في مثل هذا الجزء الضئيل من الجبهة ومثل هذه الكثافة على الأرض وفي الهواء، لم يحصل أن أنشأتُ أنا شخصيّاً ما يعادلُ ذلك على الإطلاق.

جلس باولوس في أثناء الاستماع إلى رئيس الأركان، مرخياً كتفيه، وليس بطريقة الجنرالات، كان يدير رأسه على عجل وبصرامة متتبّعاً إصبع شميدت، التي تغرز في أعمدة الرسوم البيانية ومربّعاتِ الخريطة. لقد صمم باولوس هذا الهجوم. وباولوس حدّد مقاييسه. لكن الآن، وهو يستمع إلى شميدت، رئيس الأركان شديد الذكاء، الذي اضطر إلى العمل معه، لم يتعرَّف إلى أفكاره في تفاصيل تطور العملية القادمة.

يبدو أن شميدت لم يطرح تصوّرات باولوس المفصّلة في البرنامج القتالي، بل فرض إرادته عليه؛ وفيما يعارضُ رغبةَ باولوس حَضَّرَ لضرب كتيبة المشاة، والدبابات، وكتائب القنّاصة.

- نعم، نعم، الكثافة - قال باولوس - إنها تتركُ انطباعاً خاصّاً عندما تقارنها بالفراغ الموجود على جبهتنا اليسرى.

قال شميدت:

- لا يمكنك فعل شيء، هناك كثيرٌ من الأراضي في الشرق، أكثر من عدد الجنود الألمان.

- هذا لا يقلقني أنا فحسب، قال لي فون وييخس: «لم نضرب

بقبضاتنا، بل بأصابعنا المتفرّقة، التي امتدت عبر الفضاء الشرقي الذي لا ينتهي». هذا يقلق ليس ويبخس فحسب. هذا لا يقلق أيضاً. . .

لم يُكمل كلامه.

كل شيء سار كما يجب، وكل شيء سار كما لا يجب.

لقد بدا في أسابيع القتال الأخيرة العرضية غير الواضحة والأشياء الصغيرة الشريرة، أن الجوهر الحقيقي للحرب كان على وشك أن يُكشَفَ بطريقة جديدة تماماً، بلا سعادةٍ وبلا أمل، جوهر الحرب الحقيقي.

ويبلِّغُ الاستطلاعُ بعناد عن تركيز القوات السوفييتيّة في الشمال الغربي. الطيران عاجز عن منعها. لا يمتلك ويبخس احتياطيات ألمانية على أجنحة جيش باولوس. يحاول ويبخس تضليل الروس من خلال تثبيت محطات اللاسلكي الألمانيّة في القطعات الرومانيّة، لكن هذا لن يجعل الرومانيين ألماناً.

إن بداية الحملة الإفريقية التي بدت نصراً مؤزّراً؛ والثأر الرائع من البريطانيين في دونكيرك، وفي النرويج، واليونان، واحتلال الجزر البريطانية غير المنتهي؛ والانتصارات الهائلة في الشرق، والاختراق مسافة ألف كيلومتر إلى نهر الفولغا، الذي لم يكتمل بالهزيمة النهائية للجيوش السوفييتية؛ دائماً يبدو - أنّ الشيء الرئيسي قد أُنجِزَ بالفعل، وإذا لم تُنهَ القضية حتى خِتامها، فهذا مجرد تأخير عشوائي فارغ. . .

ماذا تعني بضعُ مئاتٍ من الأمتار التي تفصله عن الفولغا،

والمصانع نصف المدمّرة والمتفحّمة، وصناديق المباني السكنيّة الفارغة مقارنة بالمساحات الضخمة التي استُوليَ عليها خلال الهجوم الصيفي؟ وماذا تعني كيلومترات قليلة من الصحراء تفصلُ رومل عن الواحة المصرية؟ وللانتصار الكامل في فرنسا المهزومة كان يلزمُ بضعُ ساعات إلى دونكيرك وعدد من الكيلومترات. . . دائماً وفي كل مكان تلزمُ بضعة كيلومترات فحسب لتحقيقِ هزيمةٍ نهائيّةٍ للعدو، دائماً وفي كل مكان أجنحة فارغة، ومساحات شاسعة خلف القوات المنتصرة، وعدم كفاية الاحتياط.

الصيف الماضي! من الواضح أن ما عاشه في تلك الأيام هو تجربة تُمنَحُ مرّة واحدة فحسب في الحياة. لقد شعر بأنفاس الهند على وجهه. إذا كانت ثمَّةَ غابات تمحوها انهيارات جليدية، وتضغط من قاع النهر، قادرة على الإحساس، لكانت قد أحسّت تماماً بما شعر به في تلك الأيام بالتحديد.

وَمَضتْ في هذه الأيام، فكرة أنّ الأذن الألمانية اعتادت اسمَ فريدريك - طبعاً هي فكرة مازحة غير جادة، لكنّها كانت كذلك. في هذه الأيام بالتحديد صَرَّت حُبيبة رمل صلبة غاضبة لا هي تحت القدم ولا هي على الأسنان. خيّم توتر احتفالي وسعيد في المقر. تلقى تقارير من قادة الوحدات مكتوبةً، وتقارير شفوية وأُخرى إذاعية، وأخرى هاتفية. بدا أنه لم يكن عملاً حربيّاً صعباً، بل تعبيراً رمزياً عن الانتصار الألماني. . . التقط باولوس الهاتف. «السيد الجنرال - العقيد. . . » عرفَ المتكلِّمَ من صوته، إنّ نبرة الحياة اليومية العسكرية لم تنسجم على الإطلاق مع الأجراس في الجو وفي البثِّ.

أبلغ قائد الفرقة ويللير أن الروس في قطاعه شنّوا هجوماً،

وتمكنت وحدة مشاتهم، وهي كتيبة معززة تقريباً، من الاختراق إلى الغرب واحتلال محطة قطارات ستالينغراد.

مع هذا الحادث الضئيل ارتبطت بقوّة ولادةُ شعورٍ مضنٍ.

قرأ شميدت بصوت مسموع مشروع الأمر القتالي، وقام بتسوية كتفيه قليلاً ورفع ذقنه، في إشارة إلى أن الإحساس بالرسميات لم يتركه، على الرغم من وجود علاقة شخصية جيدة بينه وبين القائد.

وعلى حين غِرَّة وعلى نحوٍ مفاجئ قال الجنرال - العقيد بصوتٍ خفيض، وليس بالطريقة العسكرية البتّة، ولا بأسلوبِ الجنرالات، كلماتٍ غريبةً أقلقت شميدت:

- أنا أؤمن بالنجاح. لكن أتعرف؟ إنّ حربنا في هذه المدينة غير ضرورية على الإطلاق، وليس لها أي معنى.

قال شميدت:

- هذا مفاجئ بعض الشيء، ذلكَ أنهُ يُسمَعُ من قائد الجيوش في ستالينغراد.

- هل تعتقد - غير متوقع؟ إنّ ستالينغراد ما عادت مركزاً للاتصالات وللصناعات الثقيلة. ماذا سنفعل هنا بعد ذلك؟ يمكن دَفع الجناح الشمالي الشرقي للجيوش القوقازية على طول خط أستراخان - كالاتش إلى الوراء. ليسَ لستالينغراد حاجةٌ إلى هذا الغرض. أنا أؤمن بالنجاح، شميدت: سنسيطرُ على مصنع الجرارات. لكننا بهذا لن نحمي أو نؤمّن جناحنا. لا يشك فون ويبخس في أن الروس سيضربون. التحايل لن يمنعهم.

قال شميدت:

- يتغيّر معنى الأحداث في حركتها، لكن الفوهرر لم يتراجع البتّة من قبل من دون حل المهمّة حتى النهاية.

بدا لبولوس أن المشكلة كانت على وجه التحديد في حقيقة أن الانتصارات الأكثر إشراقاً لم تؤتِ ثماراً، لأنها لم تُنجز بالمثابرة والتصميم حتى النهاية؛ في الوقت نفسه، بدا له أنه برفض حل المهام التي لا معنى لها، تظهر القوة الحقيقية للقائد العسكري.

ولكن قال وهو ينظر إلى عينَي الجنرال شميدت الذكيتين والمُلحَّتين:

- لسنا نحن من يفرض إرادته على الاستراتيجي العظيم.

أخذ نص أمر الهجوم عن الطاولة ووقّعه.

قال شميدت:

- أربع نسخ، آخذين في الاعتبار السرّية الخاصّة.

14

كانت الوحدة التي وصل إليها دارينسكي من مقر قيادة جيش السهوب تقع على الجهة الجنوبية الشرقية لجبهة ستالينغراد، في رمال بحر قزوين.

بدت السهوب الواقعة بالقرب من البحيرة ومياه النهر لدارينسكي وكأنها تشبه أرض الميعاد - نما هناك نبات العذم[1]، ونمت الأشجار في بعض الأماكن، وصهلتِ الخيول.

استقر الآلاف من الناس، الذين اعتادوا الهواءَ الرطبَ، والندى عند الفجر، وحفيفَ القش، في سهل رملي صحراي، الرملُ يلسعهم على بشرتهم، ويتسلّق إلى آذانهم، ويصرّ على القمح والخبز، والرمل في الملح، وفي سبطانة البندقية، وفي آليّة الساعات، الرمال في أحلام الجندي. . . عناءٌ هنا على الجسم البشري، والخياشيم، والحنجرة، وسيقان الأرجل. عاش الجسد هنا، كالعربة، التي خرجت من المسار المحفور وتصرّ زاحفة خارج الطريق.

---

(1) العذم (باللاتينية: Stipa) جنس نباتي يتبع الفصيلة النجيلية ويضم نحو 300 نوع من الأعشاب المعمرة. تنتشر معظم أنواع العذم في المشرق والمغرب العربيين، وحوض البحر الأبيض المتوسط وأوروبا والقوقاز. (المترجمان).

جال دارينسكي طوال اليوم على مواقع المدفعية، وتحدث إلى الناس، وكتب، والتقط صوراً، وفحصَ البنادقَ، ومستودعات الذخيرة. كان مرهقاً، بحلول المساء، ورأسه يطن، وساقاه تؤلمانه، لم يكن معتاداً المشيَ على التربة الرمليّة الرخوة.

لاحظ دارينسكي منذ فترة طويلة أنه في أيام التراجع، ينتبه الجنرالات على نحوٍ خاص لاحتياجات المرؤوسين؛ يظهر قادةُ المجالس العسكريّة وأعضاؤها بسخاء النقد الذاتي والشك والتواضع.

لا يظهر البتَّة هذا العدد من الأذكياء، ومن البشر الذين يفهمون كل أمر في الجيش، كما هي الحالُ زمنَ الانسحاباتِ القاسية وتفوق العدو وغضب القيادة، التي تبحث عن المسؤولين عن الإخفاق.

لكن هنا، في الرمال، هيمنت لامبالاة النعاس على الناس. لقد اقتنعَ رؤساءُ الأركانِ وقادةُ المقاتلين بأن لا شيءَ يهتمون به في هذا العالم، سيكون في جميع الأحوالِ غداً وبعد غد وبعد سنة: رملاً.

دعا المقدَّمُ بوفا، رئيسُ أركان فوج المدفعية، دارينسكي لينامَ الليلة عنده. كان بوفا، على الرغم من اسمه البطولي، شديد انحناء الظهر، ضعيف السمع في إحدى أذنيه، وصل مقرَّ مدفعية الجبهة للخدمة، وأدهش الجميع بذاكرته غير العادية. يبدو أنه في رأسه الأصلع، المزروع على كتفين ضيقتين مُنحدرتين، لا يوجد شيء ما عدا الأرقام، وأعداد البطاريات وقادة الفرق، وأسماء القرى، وأسماء القادة، وتحديد المرتفعات.

عاش بوفا في كوخ خشبي ذي جدران مغطاة بالطين والسماد، وكانت الأرضية مغطاةً بألواح تسقيفٍ ممزقة. لم يكن هذا الكوخُ مختلفاً عن مساكن القادة الأخرى المنتشرة في السهل الرملي.

قال بوفا بوقاحة وهو يصافحُ دارينسكي:

- آه عظيم!... جيد، هاه؟- وأشار إلى الجدران قائلاً - هنا نقضي الشتاء في بيت الكلب المغطى بالقرف.

قال دارينسكي، وقد فوجئَ بأنّ بوفا الهادئ أصبح مختلفاً تماماً ولا يشبه نفسه:

- نعم، الغرفة ليست على ما يرام!

جلس دارينسكي على صندوق كان يحتوي الأغذية المعلبة الأمريكية وسكبَ الفودكا في كوب مغبّش، ملطخةٍ حوافه بمعجون الأسنان الجاف، ودفع له حبّة بندورة خضراء ملقاة على ورقة صحيفة «مجعلكة».

قال:

- تفضّل، أيّها الرفيق المقدّم النبيذ والفواكه!

شرب دارينسكي قليلاً وبحذر، مثله مثل غيره ممن لا يشربون، وضع الكأس بعيداً عنه، وبدأ يسأل بوفا عن شؤون الجيش. لكن بوفا ابتعد عن الأحاديث العملية.

قال:

- أوه، أيّها الرفيق المقدم، لقد ملأت رأسي أنا بالخدمة، ولم يكن يصرف انتباهي أيّ شيء، يا لتينكَ النساء الجميلات هناك عندما كنا في أوكرانيا، وفي كوبان، يا إلهي... قدمنَ أنفسهنّ عن طيب خاطر، ما كان عليك سوى أن تغمزهنّ! وأنا كنت أحمقَ، أدسُّ مؤخّرتي في قسم العمليات، ووجدتُ نفسي بعد فوات الأوان، بين الرمال!

غضب دارينسكي بداية، لأن بوفا لا يريد الحديث عن متوسط كثافة القوات في الكيلومتر الواحد في الجبهة وعن أفضلية مدافع الهاون على المدفعية الأخرى في الصحراء الرملية، وظلَّ مهتماً بالمنعطف الجديد للحديث.

- بالتأكيد، وكيف لا،- أجاب دارينسكي- النساء في أوكرانيا مثيرات للاهتمام على نحوٍ رائع. قابلتُ في السنة الحادية والأربعين، عندما كان المقر الرئيسي في كييف، امرأةً أوكرانيَّة مميّزة، كانت زوجة موظف في مكتب المدعي العام، كانت فاتنة!

وقف، ورفع يده، ولامس بأصابعه السقف المنخفض، وأضاف:

- بخصوص كوبان، لن أخالفكَ الرأي أيضاً. يمكن وضع كوبان ضمن هذه الأفكار في أحد الأماكن الأولى، نسبة عالية على نحوٍ غير عادي من الجمال.

كان لكلمات دارينسكي تأثير كبير في بوفا.

لعن وصرخ بصوت متباكٍ:

- والآن الكالميكيات، تفضّل!

- لا تقل ذلك! - قاطعَهُ دارينسكي وألقى خطاباً موزوناً حول سحر النساء السمراوات ذوات الجبين العالي، المشبعاتِ بروائح الشيح ودُخَان السهوب. لقد تذكر آلّا سيرغييفنا من مقر قيادة جيش السهوب وأنهى خطابه:- نعم، وعموماً أنت مخطئ، ثمَّة نساء في كل مكان. لا يوجد ماء في الصحراء، هذا صحيح، لكن هناك سيدات.

لكن بوفا لم يُجبْهُ. ثم لاحظ دارينسكي أن بوفا كان نائماً، وأدرك في تلك اللحظة فقط، أن مضيفه كان مخموراً تماماً.

نام بوفا وأخذ يشخر، وذكَّره ذلك بأنين رجل على فراش الموت. كان رأسه متدلّياً عن السرير. قام دارينسكي، بصبر وودّ خاصّين يظهران عند الرجال الروس نحو السكارى، ووضع تحت رأس بوفا وسادةً، وصحيفةً تحت قدميه، ومسحَ لعابه عن فمه، أخذ ينظر حوله، أين يمكنه أن ينام؟

وضع دارينسكي معطف مضيفه على خصره، وألقى معطفه فوق مضيفه، ووضع حقيبته المنتفخة تحت رأسه، تلكَ التي خدمته في مهمّات العمل والمكتب، وكمستودع للمواد الغذائية، ووعاء لمستلزمات الغسيل.

خرج إلى الهواء الطلق، وتنفّس نسيمَ الليل البارد، تأوّه، ونظر إلى اللهب غير الدنيوي في السماء الآسيويّة السوداء، تبوَّلَ، وهو ينظر طوال الوقت إلى النجوم، وفكر: نعم، إنّه الفضاء، ثم ذهب إلى النوم.

استلقى على معطف مضيفه، وتغطّى بمعطفه، وبدلاً من أن يغلق عينيه، فتحهما على وسعهما - صدمته فكرة غير سارّة.

الفقر اليائسُ يحيط به! وها هو ذا يستلقي على الأرض، وينظرُ إلى بقايا البندورة المخلّلة، وإلى حقيبة من الورق المقوى، فيها على الأرجح منشفة صغيرة مهترئة عليها بقع سوداء كبيرة، وياقات مجعّدة، وحافظة مسدّس فارغة، وصابونة مضغوطة.

الكوخ في فيرخني بوغرومني، حيث أمضى الليلة في الخريف،

يبدو له غنياً اليوم. وفي غضون عام، سيبدو كوخ اليوم هذا فخماً، وسيتذكَّرهُ في حفرة ما، حيث لن يكون هناك شفرات حلاقة، ولا حقائب، ولا قطع قماش ممزقة.

حصلت تغييرات كبيرة في نفسه، خلال الأشهر التي كان يعمل فيها في مقر المدفعية. إنّ التعطش إلى العمل، الذي كان ضرورة قوية مثل الرغبة في الغذاء، قد أشبَعَهُ على أكمل وجه. وما عاد يشعر بالسعادة لأنه يعمل، فالرجل المتخم بشيءٍ ما باستمرار لا يشعر بالسعادة منه.

لقد عمل دارينسكي جيداً، ورؤساؤه في غاية الامتنان له. بداية كان يسرّه هذا - وهو لم يعتدْ أنّهم يَعُدُّونَهُ ضرورياً لا غنى عنه. بل اعتاد على مر السنين، عكسَ ذلك.

لم يفكر دارينسكي لماذا لم يولّد فيه الإحساسُ بالتفوق على زملائه الإحسانَ المتسامحَ تجاه رفاقهِ في العمل - وتلكَ من ملامح أناس أقوياء بالفعل. لكن من الواضح أنه لم يكن قوياً.

غالباً ما كان يتوتّر ويصرخ ويشتم، ثم ينظر بألم إلى الأشخاص الذين أساء إليهم، لكنه لم يطلب منهم الغفران مطلقاً. وقد غضبوا عليه، لكنهم لم يَعُدُّوهُ شخصاً سيئاً. لقد عاملوه على الأغلب، في مقر جبهة ستالينغراد أفضل من معاملتهم لنوفيكوف في المقر الجنوبي الغربي. قالوا إن صفحات كاملة من خطاباته كانت تُستخدم في تقارير الأشخاص الكبار أمام أشخاص أكبر في موسكو. اتضح أنَّ عقله وعمله في الأوقات الصعبة كانا مهمّين ومفيدين. لقد تركته زوجته، قبل خمس سنوات من الحرب، معتقدةً أنه كان عدواً للشعب، استطاع أن يخفي عليها حقيقته الضعيفة المزدوجة. وهو لم يستطع

الحصول على وظيفة بسبب سوء البيانات الشخصية على الأغلب، سواء من جانب الأب أو من جانب الأم. شعر بالإهانة في البداية عندما علم أنهم أخذوا في المكان الذي رُفِضَ فيه شخصاً تميّز بالغباء أو الجهل. ثم تصوّر دارينسكي أنه لا ينبغي أن يعهد إليه بعمل تنفيذي مسؤول. بدأ بعد معسكر الاعتقال يشعر جدّياً بالنقص.

لكن تبيّن خلال الحرب المروعة، أن الأمر لم يكن كذلك.

شعرت ساقاهُ من فورهما بالهواء البارد القادم من الباب، عندما سحب المعطف إلى كتفيه، فكّر دارينسكي أنه الآن، بعد أن أصبحت هناك حاجة إلى معرفته وقدراته، يستلقي على الأرض في حظيرة الدجاج، يسمع رغاء الجمل المُثير للاشمئزاز، هو على أيّ حال لم يحلم بالمنتجعات والمساكن الصيفيّة، بل بزوج نظيفٍ من الملابس الداخلية وإمكانية الاغتسال بالصابون.

كان فخوراً بأن ترقيته لم تكن مرتبطة بأي شيء مادي. لكن أزعجته في الوقت نفسه.

ثقته بنفسه وغروره الذاتي كانا مُلازمين للحياء المعيشي الدائم. وبدت لدارينسكي نِعَم الحياة وكأنّها لم تكن مُقدّرة له.

هذا الشعور بعدم الأمان المستمر والثابت، أصبح اعتيادياً، والحاجة المالية، والشعور الأبدي بملابسه الفقيرة القديمة كانت مألوفة له منذ الطفولة.

والآن، وفي وقت النجاح، لم يغادره هذا الشعور.

ملأته بالرعب فكرة مفادها أنه سيدخلُ مطعمَ المجلس العسكري وستقول له نادلة: «أيّها الرفيق المقدم، عليك تناول الطعام في مطعم

التجارة العسكري». ثم، سيقول له جنرالٌ مَزوحٌ في مكان ما في الاجتماع، غامزاً: «كيف حساء البورش الغني بالمرق في مطعم المجلس العسكري أيّها المقدم؟». لقد كان مندهشاً دائماً من ثقةِ سيّدِ المكان، التي لم يكن الجنرالات فحسب يمتلكونها، بل أيضاً مصوِّرو الصحف، الذين أكلوا وشربوا وطالبوا بالبنزين والثياب الرسمية والسجائر في تلك الأماكن التي لم يكن مخصّصاً لهم فيها لا بنزين ولا سجائر.

هكذا سارت الحياة - لم يستطع والده الحصول على وظيفة لسنوات، وكانت الأم التي عملت خبيرةَ تصويرٍ هي المعيلةُ الدائمة للأسرة.

توقف بوفا عن الشخير في منتصف الليل، وقلق دارينسكي، وهو يستمع إلى الهدوء القادم من سريره.

سأل بوفا فجأة:

- أنت لست نائماً أيّها الرفيق المقدَّم؟

أجاب دارينسكي:

- لا، لم أستطع النوم.

قال بوفا:

- أنا آسف لأني لم أرتب لك مكاناً أفضل للنوم، لقد سكرت. الآن صحوت تماماً، وكأنّي لم أشرب أي شيء. تعرف، أنا أستلقي وأفكر: كيف وجدنا أنفسنا في هذه التضاريس الرهيبة. من ساعدنا في الوصول إلى مثل هذه الحفرة؟

أجاب دارينسكي:

- من ساعد، الألمان طبعاً.

قال بوفا:

- تعال إلى السرير، وأنا سأستلقي على الأرض.

- لا عليك، أنا مرتاح هنا.

- ليسَ هذا جيّداً نوعاً ما، وفقاً لعادات القوقاز، لا يُسمح: أن يشغلَ المضيفُ السرير، والضيف ينام على الأرض.

- لا يهم، لا يهم، نحن لسنا قوقازيين.

- إنّنا تقريباً قوقازيون، سفوح القوقاز قريبة منّا. تقولُ: الألمان ساعدوا، ولكن ليس الألمان وحدهم، نحن أيضاً ساعدنا أنفسنا.

ومن الواضح أنّ بوفا نهض؛ فقد صرّ السرير بقوّة.

وهمهم الرجلُ:

- هم-م-هم.

قال دارينسكي من الأرض:

- نعم- نعم-نعم.

لقد دفع بوفا الحديثَ إلى مجرى خاصّ وغير عادي، وكلاهما ظلَّ صامتاً، متسائلاً ما إذا كان يجب بدء مثل هذا الحديث مع شخص غير مألوف. أدى هذا التفكير، على ما يبدو، إلى استنتاج مفاده أنه لا ينبغي إجراء مثل هذه الأحاديث مع شخص غريب.

أشعل بوفا سيجارة.

عندما اشتعل عود الثقاب، رأى دارينسكي وجه بوفا، وبدا متجعّداً ومتجهّماً، وغريباً.

دخّن دارينسكي أيضاً.

رأى بوفا وجه دارينسكي الذي ارتفع على مرفقه، عند اشتعال عود الثقاب، وبدا بارداً، وعابساً، وغريباً.

بعد ذلك، ولسبب ما بدأ حديث، كان لا ينبغي طرحه.

قال بوفا:

- نعم - لكن هذه المرة ليس بطريقة مطوّلة بل قصيرة وحادة - لقد ساعدتنا البيروقراطية والبيروقراطيون في الوصول إلى هنا.

وقال دارينسكي:

- البيروقراطية شيء سيّئ. قال سائقي: قبل الحرب في القرية، كانت هناك بيروقراطية إلى درجة أنه من دون نصف لتر فودكا، لن يكتب أحد شهادة في الكولخوز.

قاطعه بوفا قائلاً:

- لا تضحك، المسألةُ لا تُضحك، كما تعلم، البيروقراطية ليست مزحة، لقد أوصلت الناس في زمن السلم، الشيطان وحده يعرف إلى أين. ويمكنُ أن تكون البيروقراطية أسوأ في ظروف الخطوط الأماميّة. هذه حالة في وحدات الطيران: قفز الطيار من الطائرة المحترقة، وسقطت «الميسِر»، ونجا الطيّار، لكنّ سرواله احترق. لم يعطوه سروالاً! الفضيحة واضحة، رفض نائب مدير التموين قائلاً: لم تنته فترة اهتلاك القطعة، وانتهى! ولثلاثة أيام جلس الطيار من دون سروال حتى وصلت المسألة إلى قائد القاعدة.

قال دارينسكي:

- عفواً، هذا هراء. بسبب أحمق تردد في مكان ما عن تقديم بنطال، لم يتراجعوا عن مدينة بريست إلى صحراء بحر قزوين. روتين- فارغ.

ولول بوفا بحدّة قائلاً:

- وهل قلت إنه كان بسبب السروال. إليك هذه الحالة: وحدة المشاة كانت محاصرة، وبدأ الناس يتضورون جوعاً. تلقت إدارة الطيران طلباً بإسقاط منتجاتها بواسطة المظلة. ورفضت قيادة التموين إعطاء المنتجات - نحتاج، كما قالوا، إلى التوقيع على بوليصة الشحن، وكيف يوقّعونها في الأسفل، إذا كانت تلك الأكياس ستُرمى من الطائرة؟ عناد قائد التموين لم يسمح بذلك. أجبروه - بنظام الأوامر.

ابتسم دارينسكي قائلاً:

- حالة هزلية، ولكن مرة أخرى هي حادثةٌ تافهة. إنّها تحذلق. يمكن في ظروف الخط الأمامي، أن تثبت البيروقراطية نفسها على نحوٍ رهيب. هل تذكر الأمر: «لا خطوة إلى الوراء»؟ هنا يطحن الألمانيُّ المئات من الناس، وفيما لو نُقلوا بعيداً عن المنحدر الخلفي للمرتفع، فسيصبحُ الأشخاص آمنين، ولن تكون هناك خسارة تكتيكية، وتُحفَظُ الآليات والمعدّات. ولكن هناك أمر: «لا خطوة إلى الوراء»، فتبقيهم تحت مرمى النيران وتُدمَّر المعدَّات، ويُقتلُ الناس.

قال بوفا:

- صحيح، هذا صحيح تماماً، أرسلوا من موسكو، في السنة الحادية والأربعين، عقيدين للتحقق من هذا الأمر بالتحديد: «لا خطوة إلى الوراء». ولم يكن لديهم سيارة، ونحن لثلاثةِ أيّامٍ هربنا على بعد 200 كيلومتر من غوميل. أخذت العقيدين إلى شاحنتي حتى لا يأسرهما الألمان، وكانا يهتزان في الخلف ويسألانني: «أعطنا

موادَّ تثبتُ تنفيذ الأمر: لا خطوة إلى الوراء »... تدقيق حسابات، لا يمكنك فعل شيء.

ملأ دارينسكي صدره بالهواء، كما لو كان على وشك الغوص عميقاً، ويبدو أنّه قد غاص، وقال:

- البيروقراطية أمر مخيف، عندما استُشهدَ رجل الجيش الأحمر، رامي الرشاش، الذي دافعَ عن مرتفع وحده ضد سبعين ألمانيّاً، وأخّر الهجوم، انحنى الجنودُ أمامه حاسري الرؤوس، أمّا زوجته المريضة بداء السلّ فقد طردوها من الشقة، وصاح رئيس المجلس الإقليمي بها: اخرجي يا وقحة! والبيروقراطية: هي، كما تعرف، أن يُطلَبَ من شخصٍ ملءُ أربعٍ وعشرين استمارة استبيان، ويعترف في النهاية في الاجتماع: «أيها الرفاق، أنا لست رجلكم». وذلك عندما يقول شخص ما: نعم، نعم، الدولة هي دولة العمال والفلاحين، وأبي وأمي من النبلاء، لستُ عُنصراً عُمّالياً، أيّها الأوغاد، ادفعوني من رقبتي، وحينها سيكون كل شيء على ما يرام.

اعترض بوفا قائلاً:

- لكنني لا أرى بيروقراطية في هذا، في الواقع، الدولة هي عمال وفلاحون ويحكمها العمال والفلاحون. ما هو السيئ في ذلك؟ هذا عدل. فالدولة البرجوازية لا تثق بالفقراء.

دُهش دارينسكي، وبدا لهُ أن المحاور كان يفكر في اتجاه آخر تماماً.

أشعل بوفا عود الثقاب، دون أن يُشعلَ سيجارة، ووجّه الضوءَ في اتجاه دارينسكي.

حدّق دارينسكي بشعورِ من يقع في ساحة المعركة، تحت ضوء كشّاف غريب.

قال بوفا:

- أنا من أصل عمّالي خالص، والدي كان عاملاً، وكان جدي عاملاً. وملفّي الشخصي نظيف كالزجاج. لكن اتضح أنني قبل الحرب أيضاً لم أكن لائقاً.



سأل دارينسكي:

- لماذا لم تكن لائقاً؟

- لا أرى بيروقراطية إذا تعاملت دولة العمال والفلاحين بحرص شديد مع النبلاء. ولكن لماذا أمسكوني قبل الحرب، أنا العامل، من قفا رقبتي؟ لم أكن أعرف ما إذا كنت سأذهب لانتقاء البطاطا في مستودع اتحاد الخضار والفواكه أو لكنس الشوارع. أنا تَحدَّثتُ من وجهة نظر طبقيّة: انتقدت المسؤولين، فقد كانوا يعيشون بصورةٍ رائعة، لكنّهم ضربوني على رقبتي. هنا، في رأيي، يكمن السبب الرئيسي للبيروقراطية: إذا كان العامل يعاني في دولته.

شعر دارينسكي من فوره بأن المُحاور لمسَ في كلماته شيئاً مهماً جداً، وكما يُقالُ الحديثُ يدور عمّا يقلقك، وبالتالي يُحرِّكُ الروح، أحسَّ بأمرٍ جيد لا يمكن التعبير عنه: السعادة من دون التلفّت، من دون خوف من التحدث علانيّة، والنقاشُ حول ما يقلق العقل على نحوٍ خاص، وما يثيره وما هي النتيجة بالضبط لما يقلق ويثير، هو لم يتحدث من قبلُ مع أي شخص في ذلك.

لكن هنا، على الأرضِ، وفي كوخ، ليلاً وفي حديثه مع جندي في الجيش الأحمر، متواضعٍ شرب الخمرَ وصحا، شعر بوجود

أشخاصٍ من حوله انتقلوا من غرب أوكرانيا إلى هذه الصحراء، وبدا أن كل شيء مختلف. وتلكَ الرغبة البسيطة، والطبيعية، والضرورية، التي لا يمكن الوصول إليها، ولا يمكن تصورها - وهي حديث صادق من رجل إلى رجل - قد تحقّقت!

قال دارينسكي:

- بماذا لم تكن محقاً؟ البرجوازية لا تسمح للرعاع بالوصول إلى مجلس الشيوخ، وهذا صحيح، لكن إذا أصبح الفقيرُ مليونيراً، فيُسمح له بالوصول إلى مجلس الشيوخ. عائلة فورد من منشأ عمالي. عندنا لا يُسمح للبرجوازيين وملاكي الأراضي بالوصول إلى مواقع القيادة، وهذا صحيح. لكن إذا وضعوا ختم قابيل[1] على عامل كادح فقط لأن والده أو جده كان كولاكاً أو قسّاً، فهذا أمر مختلف تماماً. لا توجد هنا وجهة نظر طبقيّة. هل تعتقد أنني لم أقابل عمال بوتيلوفيين وعمال مناجم من دونيتسك أثناء محنتي في المعسكر؟ أعداداً كبيرة! البيروقراطية لدينا أمر فظيع، وعندما تفكر: هي ليست كتلة نمت على جسد الدولة - يمكن استئصالها. إنه أمر مخيف عندما تفكر: البيروقراطية هي الدولة. وخلال الحرب لا يريد أحد أن يموت من أجل رؤساء إدارات شؤون الموظفين. يمكن أن تكتب على أيّ طلب «مرفوض» أو يمكن طرد أرملة جنديٍّ من المكتب. ولكن من أجل طرد ألماني، يجب أن تكون شخصاً قويّاً وحقيقياً.

---

(1) يشير مصطلح «ختم قابيل» إلى علامة خاصة، علامة، فرضها اللّه على قابيل، ابن آدم وحواء، بعد أن ارتكب جريمة قتل الشقيق. ويستخدم هذا التعبير «ختم قابيل» عادة بالمعنى المجازي عندما يكون الحديث عن شيء شرير مُختبئاً في لبوسِ شخص ما. (المترجمان).

قال بوفا:

- صحيح تماماً.

- أنا لست مستاءً. أنحني لك، أنحني لك حتى الأرض. وشكراً! أنا سعيد! لكن هنا ثمّةَ أمرٌ آخر سيّئ: لكي أكون سعيداً وأعطي قوتي لروسيا، يجب أن يأتي هذا الوقت الرهيب - المرّ. ثم ليكن الله معها، مع سعادتي هذه - عليها اللعنة.

شعر دارينسكي بأنه لم يصل إلى الشيء الرئيسي، جوهر حديثهما، والذي من شأنه أن يضيء الحياة بنور واضحٍ وبسيط، لكنه فكّر وتحدّث عن الأشياء التي لم يفكر فيها عادة ولم يتحدث عنها، وهذا ما جلب له السرور. وقال لمحاوره:

- أتعرف، لن أندم أبداً في حياتي على هذا الحديث الليلي معك، بغض النظر عن كيفيّة تطوّر الأمور لاحقاً.

15

قضى ميخائيل سيدوروفيتش موستوفسكي أكثر من ثلاثة أسابيع في غرفة العزل المنفرد وتحت الحراسة المشدّدة. لقد أطعموه جيداً، وفحصه طبيب قوات الأمن الخاصة مرتين، ووصف له تسريب الجلوكوز.

أنّب ميخائيل سيدوروفيتش نفسه من دون انقطاع في الساعات الأولى من سجنه، وهو ينتظر الاستجواب: لماذا تحدّثَ إلى إيكونيكوف؟ من الواضح أنّه أحمق وشى به، ودسّ له أوراقاً مشبوهة قبيل التفتيش.

مرت الأيام، ولم يستدعوا موستوفسكي. فكر في موضوعات الأحاديث السياسية التي جرت مع السجناء، وفكّر أيٌّ منهم جذبه للمشاركة في العمل. ألّفَ ليلاً، عندما لم يستطع النوم، نصوصَ المنشورات، واختار كلمات لكتيّب العبارات الشائعة في المعتقل لتسهيل التواصل بين الناس من قوميات مختلفة.

تذكّر قواعدَ العمل السرّي القديمة، لتلافي إمكانية الإخفاق الشامل في حالة وشاية المحرّضين.

أراد ميخائيل سيدوروفيتش أن يُناقشَ مع إيرشوف وأوسيبوف

الخطوات الأولى للمنظمة: لقد كان واثقاً من أنه قادر على التغلب على قناعة أوسيبوف المسبقة تجاه إيرشوف.

بدا له تشيرنيتسوف مثيراً للشفقة، يكره البلشفية وفي الوقت نفسه يتوق إلى انتصار الجيش الأحمر. كان هادئاً تقريباً عند التفكير في التحقيق.

تعرض ميخائيل سيدوروفيتش ليلاً لأزمة قلبية. استلقى ورأسه على الحائط، في حالة كآبة رهيبة، تلك التي تصيب الذين على حافة الموت في السجون.

فقد موستوفسكي وعيه من الألم لفترة من الوقت. ثم عاد إلى وعيه، وخفّ الألم وغطّى العرقُ الصدرَ والوجهَ والكفّين. وخيّم على أفكاره وضوح خياليّ.

ارتبط الحديثُ عن الشر العالمي مع الكاهن الإيطالي في ذاكرته بشعور السعادة التي يعيشها الصبي، عندما ينهمر المطر فجأة ويهرع إلى الغرفة حيث تَخِيطُ أُمُّهُ؛ وبزوجته التي أتت إليه في منفى ينيسي، وعيناها السعيدتان مبللتان بالدموع؛ وبدزيرجينسكي الشاحب، الذي سألَ في مؤتمر الحزب عن مصير الشاب الاشتراكي الثوري الوسيم. وقال دزيرجينسكي نفسُه: «قُتِلَ رمياً بالرصاص». وبعينَيِ الرائد كيريلوف الحزينتين. . . عندما جرّوا على الزلاجةِ جثة صديقه، مغطاة بشرشف، ولم يقبلوا مُساعدته في أحدِ أيام حصار لينينغراد.

رأسُ صبيٍّ أشعث مملوء بالأحلام، وهذه الجمجمة الكبيرة الصلعاء، المضغوطة على ألواح المعسكر الخشنة.

مر بعض الوقت، وأخذتْ تذهبُ بعيداً، وأصبحت أكثر

انبساطاً، وفقدت تلوّناتها. وبدا وكأنّه يغطس ببطء في الماء البارد. نام لكي يسمعَ صوت صفارات الإنذار مرة أخرى في ظلمة ما قبل الفجر ويلاقي يوماً جديداً.

نقلوا ميخائيل سيدوروفيتش في فترة ما بعد الظهر، إلى حمام منطقة الحراسة المشدّدة. تفحَّصَ ذراعيه النحيلتين، وصدره الغارق، متنهّداً باستياء.

فكّر: «نعم، الشيخوخة لا تذهب».

عندما خرج الجندي المرافق، الذي كان يعجن سيجارة في أصابعه، مُتجاوزاً الباب، قال المعتقلُ المجدّر ضيّقُ الكتفين، الذي كان يمسح الأرضيّة الأسمنتيّة، لموستوفسكي:

– أمرني إيرشوف أن أطلعك على موجز الأخبار. صدّ جيشنا هجمات الألمان جميعها في منطقة ستالينغراد. وأمرني الرائد أن أقول لك: إن كل شيء كان على ما يرام. ويأمُرك الرائد بكتابة نشرة وتسليمي إياها في الحمام التالي.

أراد موستوفسكي أن يقول إنه لم يكن لديه قلم وورقة، لكن الحارس دخل في هذا الوقت.

لمس ميخائيل سيدوروفيتش وهو يرتدي ثيابه، كيساً في جيبه. كانت هناك عشر قطع من السكر وقطعة من شحم الخنزير المقدد، مربوطة بخرقة وقطعة من الورق الأبيض وقطعة قلم رصاص.

واجتاح موستوفسكي شعورٌ بالسعادة. وهل يمكن أن يتمنّى أكثر! إن الحياة ليست في القلق التافه حول تصلّب الأنسجة العضويّة والمعدة والتشنجات القلبية.

ضغط على صدره مكعبات السكر، وقلم الرصاص.

أخرجهُ ضابط صف في الليل، وهو ضابط من قوات الأمن الخاصة، من مكان الحراسة المشدّدة، وقاده إلى الشارع. رياح باردة قويّة هبّت في وجهه. نظر ميخائيل سيدوروفيتش إلى الخلف نحو الأكواخ النائمة، وفكّر: «لا تقلقوا، لا تقلقوا، أعصاب الرفيق موستوفسكي لن تستسلم، ناموا أيّها الشباب بهدوء».

دخلا باب إدارة معسكر الاعتقال. هنا لم تعد تنبعث رائحة أمونيا المعسكر بل شعر برائحة التبغ الباردة. لاحظ موستوفسكي عقبَ سيجارة كبيراً على الأرض، وأراد رفعه.

صعدا إلى الطابق الثالث بعد المرور بالطابق الثاني، طلب الحارس من موستوفسكي أن يمسح قدميه بالسجادة ومسح نعليهِ هو أيضاً لفترة طويلة. حاول موستوفسكي، المختنق من جرّاءِ صعود الدرج، تهدئة أنفاسه.

سارا على طول السجادة التي غطت الممر.

انبعثَ ضوء هادئ لطيف من المصابيح - زهور أقحوان شفافة صغيرة. مرّا بجانب باب مصقول مع لوحة صغيرة كتب عليها «القائد»، وتوقفا أمام مثل ذلكَ الباب الأنيق وقد كتب عليه «Штурмбанфюрер Лисс شتورمبانفيورير ليز».

سمعَ موستوفسكي بهذا الاسم في كثير من الأحيان - وقد كان هذا ممثل هيملر في إدارة معسكر الاعتقال. أضحك موستوفسكي أن الجنرال غودز كان غاضباً، لماذا استَجْوَبَ ليزُ نفسُهُ أوسيبوفَ، ولم يستجوبه غودزُ، أحدُ مساعدي ليز؟ لقد رأى غودز في ذلك عدم تقدير للقيادة القتالية.

قال أوسيبوف إن ليز استجوبَهُ من دون مترجم - كان ألمانيّاً من ريغا، ويعرف اللغة الروسية.

خرج ضابط شاب إلى الممر، وقال بضع كلمات للمرافق، وسمح لميخائيل سيدوروفيتش بدخول المكتب، تاركاً الباب مفتوحاً.

كان المكتب فارغاً. سجادة على الأرض، وزهور في مزهرية، وصورة على الحائط: حافة غابة، وأسطح مزينة بقرميدٍ أحمر لمنازل الفلاحين.

اعتقد موستوفسكي أنه كان في مكتب مدير مسلخ - بجانبه شخير الحيوانات التي تموت، ودخان الأحشاء، وتناثر دم أشخاص، وعند المدير هدوء، وسجاد وهواتف سود فقط على الطاولة تشير إلى ارتباط المسلخ بهذا المكتب.

عدوّ! يا لها من كلمة بسيطة وواضحة! تذكر تشيرنيتسوف من جديد - يا له من مصير بائس في عصر «الحصار والاختراق»! ولكن في قفازات قماشية. ونظر موستوفسكي إلى راحتيه وأصابعه.

انفتح باب في الجزء الخلفي من المكتب. ثم صرّ الباب المؤدي إلى الممر - على ما يبدو، أغلقه المناوب، عندما رأى أن ليز أصبح في المكتب.

وقف موستوفسكي عابساً، وانتظر.

- مرحباً، قال بهدوء الرجل القصير ذو شعار قوات الأمن الخاصّة على كمّ الزي العسكري الرسمي الرمادي.

لم يكن في وجه ليز أي شيءٍ يثير النفور، ولهذا السبب بالتحديد

بدا لميخائيل سيدوروفيتش أنَّ من المخيف أن ينظر إليه - أنف محدّب في وجهه، وعينان رماديتان داكنتان يقظتان، صدرٌ عريض، خدّانِ شاحبان ونحيفان، مما يعطيه مَظهرَ ناسك في العمل.

انتظر ليز بينما كان ميخائيل سيدوروفيتش يسعل، وقال:

- أريد أن أتحدث إليكم[1].

- أنا لا أريد أن أتحدث إليكم - أجاب موستوفسكي وحدّق في الزاوية البعيدة، حيث كان من المفترض أن يأتي مساعدو ليز للأعمال القذرة، ويضربوا العجوز على أذنه.

قال ليز:

- أنا أتفهّمكم تماماً، اجلس.

وأجلس موستوفسكي على كرسي، وجلس بجانبه.

لقد تحدث بالروسية بنوع من لغة غير مألوفة ورمادية باردة، تُستخدم في كتابة منشورات علمية شعبية.

- هل أنت مريض؟

تجاهل ميخائيل سيدوروفيتش السؤال ولم يُجِب.

- نعم، نعم، أنا أعلم. لقد أرسلت إليك طبيباً، وأخبرني. أنا أزعجتك في منتصف الليل. لكنني أرغبُ جداً في أن أتحدث إليكم.

فكّر ميخائيل سيدوروفيتش: «هذا الذي كان ينقص» وقال:

- تم استدعائي للاستجواب. وليس لديّ ما أتحدث به إليكم.

---

(1) الخطابُ هنا بصيغةِ الجمع (أنتم)، مع أنّه يوجَّهُ من ضابطٍ ألمانيٍّ كبير إلى ضابط روسيٍّ أسير. (المترجمان).

سأل ليز:

- لماذا؟ أنت تنظر إلى الزي الرسمي. لكنني لم أولد فيه. الزعيم، والحزب يرسلان، ويذهب الناس، جنود الحزب. لقد كنت دائما منظّراً في الحزب، أنا مهتم بقضايا الفلسفة والتاريخ، لكنني عضو في الحزب. هل يحب كل موظف في الشرطة لوبيانكا[1]؟

راقب موستوفسكي وجه ليز، وكان يعتقد أنه ينبغي رسم هذا الوجه الشاحب ذي الجبهة العالية في أسفل الجدول الأنثروبولوجي، وسيصعدُ التطور منه ويأتي إلى رجل الإنسان النياندرتالي غزير الشعر.

- إذا طلبت منكم اللجنة المركزية تعزيز العمل في المخابرات، فهل يمكنكم أن ترفضوا؟ ستضعون هيجل جانباً وتذهبون. نحن أيضاً وضعنا هيجل جانباً.

نظر ميخائيل سيدوروفيتش إلى المتحدث، - بدا اسم هيجل الذي نطقته شفاهٌ قذرةٌ غريباً ومدنّساً. . . اقترب منه في زحمة الترامواي لص خطير وذو خبرة وبدأ معه حديثاً. كان يمكن أن يستمع إليه - لكنّه تتبّع يديه فقط، منتظراً الآن - الآن سيستلّ شفرة حلاقة ويضربه على عينيه.

رفع ليز كفّه ونظر إليه وقال:

- يدايَ، مثل يديك، تحبان عملاً كبيراً، ولا تخافانِ من الأوساخ.

---

(1) اسم المكان الذي يوجد فيه المقرّ الرئيسي للمخابرات السوفييتيّة «الكي. جي. بي.». (المترجمان).

تجهّم ميخائيل سيدوروفيتش، وبدت الحركات والكلمات التي كرّرت كلماته لا تطاق.

تحدث ليز بسرعة وبحيويّة، كما لو كان قد تحدّث بالفعل إلى موستوفسكي من قبل، وكان سعيداً الآن كونه قادراً على الانتهاء من الحديث المتقطِّع غير المكتمل.

- تحتاج إلى عشرين ساعة طيران، وتجلس على كرسيّك في مدينة ماغادان السوفييتية، في مكتبك. عندنا، أنت في بيتك، لكنك غير محظوظ. يؤلمني حقاً عندما تبدأ دعايتكم في الكتابة عن العدالة الحزبية بدلاً من الدعاية البلوتوقراطية.

هزّ رأسه. وانتثرت من جديد كلمات مذهلة وغير متوقعة ومخيفة وعبثية:

- عندما ينظر بعضنا في وجه بعض، فإننا لا ننظر إلى وجه الكراهية فحسب، بل ننظر إلى المرآة. هذه هي مأساة العصر. ألا تتعرف إلى نفسك، وإلى إرادتك فينا؟ أليس العالم بالنسبة إليكم هو إرادتكم، وهل يمكن أن تهزّه وتوقفه؟

اقترب وجه ليز من وجه موستوفسكي.

- هل تفهمني؟ أنا لا أتقن اللغة الروسية جيداً، لكنني أريد حقاً أن تفهمني. يبدو لك أنك تكرهنا، لكن هذا يبدو: أنت تكره نفسك فينا. فظيع، أليس كذلك؟ هل تفهمني؟

قرر ميخائيل سيدوروفيتش أن يبقى صامتاً، ليز لم يشركه في الحديث.

ولكن للحظة بدا له أن الرجل الذي ينظر في عينيه لا ينوي

الكذب عليه، بل كان يجهد نفسه بصدق، ويختار الكلمات. بدا أنه يشكو ويطلب المساعدة لمعرفة ما يعذبه.

شعر ميخائيل سيدوروفيتش بالألم. وكأنّ إبرة وخزته في قلبه.

- هل تفهم، هل تفهم؟ - قال ليز ذلك بسرعة، ولم يعد يرى موستوفسكي، فقد كان قلقاً إلى درجة كبيرة - نحن نوجّه ضربات إلى جيشكم، لكننا نضرب أنفسنا. اخترقت دباباتنا ليس فقط حدودكم، ولكن حدودنا أيضاً، إنّ جنازير دباباتنا لدينا تسحق الاشتراكية الوطنية الألمانية. فظيع، إنّه نوع من الانتحار في المنام. يمكن أن ينتهي على نحوٍ مأساوي بالنسبة إلينا. هل تفهم؟ إذا فزنا! سنبقى الفائزين من دونكم، وحدنا ضد العالم الغريب الذي يكرهنا.

كان من السهلِ دحض كلمات هذا الرجل. وكانت عيناه قد اقتربتا أكثر فأكثر من موستوفسكي. لكن لم يكن ثمَّةَ ما هو أكثر خطورة وقذارة من الكلمات المستفزةِ لأحد محققي قوات الأمن الخاصة ذوي الخبرة. كان ثمّةَ ما هو كئيبٌ أحياناً، وأحياناً تحرّك شرٌّ ما، في روح موستوفسكي ودماغه. كانت هذه شكوك مثيرة للاشمئزاز وقذرة لم يجدها موستوفسكي في كلمات الآخر، بل في روحه هو.

ها هنا رجلٌ يخاف من المرض، ومن الورم الخبيث، فهو لا يذهب إلى الطبيب، ويحاول ألا يلاحظ أمراضَه، ويتجنب التحدث إلى الأقارب عن الأمراض. وها هم أولاء يقولون له: «قل لنا، هل لديك مثل هذه الآلام، وعادة في الصباح، وعادة بعد... نعم، نعم...».

سأل ليز:

- هل تفهمني أيّها المعلّم؟ لقد قال رجل ألماني، أنت تعرف

عمله الذكي جيداً، إن مأساة حياة نابليون بأكملها هي أنه عبّرَ عن روح إنجلترا، وكان عدوّه القاتل في إنجلترا بالتحديد.

فكّر ميخائيل سيدوروفيتش: «أوه، الأفضل لو بدؤوا من فورهم، بالضرب على الوجه، وأدرك: آه، إنّه يقصد شبينغلير».

أشعل ليز سيجارة، ومدّ علبة السجائر إلى موستوفسكي.

قال ميخائيل سيدوروفيتش على نحوٍ متقطّع:

- لا أرغب.

أصبح أكثر هدوءاً من جراء فكرة: أن جميع رجال الدرك في العالم، وأولئك الذين استجوبوه قبل أربعين عاماً، وهذا أحدهم، يتحدث عن هيجل وشبينغلير، يستخدمونَ طريقة شيطانية واحدة: يضيّفون السجائر للشخص المعتقل. نعم، في الواقع، إنّ كل ذلك بسبب الأعصاب المحبطة، والمفاجآت - انتظرَ الضرب على الوجه، وفجأة حديث عبثيّ مثير للاشمئزاز. ولكن حتى بعض رجال الدرك القيصريين يفهمون في القضايا السياسية، ومن بينهم أشخاص متعلمون بالفعل، حتى إنّ أحدهم درس «رأس المال». لكن من المثير للاهتمام: هل حدث أنَّ ذلكَ الدركي الذي كان يدرس ماركس تحررت فجأة، وفي مكان ما في أعماقه، فكرة: ربما كان ماركس على حق؟ ما الذي عاناهُ الدركي بعد ذلك؟ الاشمئزاز والرعب من شكِّه؟ لكن، على أي حال، لم يصبح الدركيُّ ثوريّاً. لقد داس على شكِّه، وظل دركيّاً... لكنني، أنا أيضاً، أدوس على شكّي. وأبقى ثورياً.

لكن ليز لم يلاحظ أن موستوفسكي رفض السيجارة، فتمتم قائلاً:

- نعم، نعم، تفضّل، تبغ جيد جداً - أغلق علبة السجائر وكان منزعجاً تماماً - لماذا يدهشك حديثي إلى هذه الدرجة؟ هل كنت تنتظر حديثاً آخر؟ أيعقل ألّا يكون لديكم أشخاص مثقفون في لوبيانكا؟ في استطاعتهم التحدث مع الأكاديمي بافلوف، مع أولدنبورغ؟ لكن لديهم هدف. أمّا أنا فليس لدي أي هدفٍ سريّ. أنا أعطيك كلمة شرف. يعذّبني ما يعذبك.

ابتسم، وأضاف:

- كلمة شرف رجل الغيستابو، وهي ليست مزحة.

كرر ميخائيل سيدوروفيتش في نفسه: «المهم أن تظلَّ صامتاً - أن تصمت، فلا تدخل الحديثَ، ولا تعترض».

استمر ليز في الكلام، وبدا مرة أخرى أنه ينسى موستوفسكي.

- قطبان! بالتأكيد هو كذلك! ولم يكن هذا صحيحاً تماماً، لما استمرّت حربنا الرهيبة اليوم. نحن أعداؤكم المميتون، نعم، نعم. لكن انتصارنا هو انتصاركم. هل تفهم؟ وإذا انتصرتم أنتم، فسوف نهلك، وسنعيش في انتصاركم. إنه مثالٌ للتناقض: تخسرون في الحرب، فننتصر نحن في الحرب، ونتطوَّر في شكل مختلف، ولكن في الجوهر نفسه.

لأيِّ سببٍ ليز هذا كليُّ القدرة - وبدلاً من مشاهدة أفلام الغنائم، وشرب الفودكا، وكتابة تقريرٍ إلى هيملر، وقراءة كتب زراعة الزهور، وقراءة رسائل ابنته، والتسلية مع فتيات صغيرات يُخترنَ من القافلة التالية، أو تناول عقار يُحسِّن التمثيلَ الغذائي، أو النوم في غرفة نومه الفسيحة - استدعى إليه ليلاً عجوزاً بلشفياً روسياً، تفوح منه رائحةُ المعتقلِ الكريهةُ؟

ما الذي فكّر فيه؟ لماذا يخفي أهدافه؟ ماذا يريد أن يستنبط؟

لم يخفْ ميخائيل سيدوروفيتش الآن من التعذيب. لكنَّ المخيف أن يفكر: وماذا إذا كان الألمانيُّ لا يكذب، ويتحدث بصدق. وأن يكون بكل بساطة، مجردَ رجلٍ يريد التحدث.

يا لها من فكرة مثيرة للاشمئزاز: كلاهما مريضٌ، كلاهما يعذِّبهُ مرضٌ واحد، لكن أحدهما لم يتحمّل وتحدّث، ويشارك بهمومه سواه، والثاني يصمت، يختبئ، لكن يستمع، ويستمع.

لكن ليز، كما لو كان يجيب أخيراً عن سؤال موستوفسكي الصامت، فتح المجلد الملقى على الطاولة وبقرف سحب بإصبعين، كومة من الأوراق القذرة. فعرفها موستوفسكي من فوره - إنها خربشات إيكونيكوف.

من الواضح أن ليز كان يأمل أن يرى موستوفسكي مرتبكاً، عندما يُشاهدُ فجأة هذه الأشياء التي دسّها له إيكونيكوف.

لكن ميخائيل سيدوروفيتش لم يرتبك. نظر إلى الصفحات التي كتبها إيكونيكوف فرحاً تقريباً: أصبح كل شيء واضحاً، وقاحة وبساطة بلهاء، كما يحدث دائماً أثناء الاستجوابات الأمنيّة.

دفع ليز خربشات إيكونيكوف إلى حافة الطاولة، ثم سحب المخطوطات إليه.

وتحدّث فجأة باللغة الألمانية:

- انظر، أخذوا هذه من عندك أثناء التفتيش. عرفت من الكلمات الأولى، أنك لم تكتب هذه القمامة، على الرغم من أنني لا أعرف خطك.

صمت موستوفسكي.

نقر ليز بإصبعه على الأوراق، يدعوه إلى التعليق، بمحبة، وإصرار، وبوديّة.

لكن موستوفسكي صمت.

سأل ليز مندهشاً:

- هل كنتُ مخطئاً؟. لا! لم أكن مخطئاً. عندكم وعندنا نفور واحد ممّا هو مكتوب هنا. نحن وأنتم نقف معاً، وعلى الجانب الآخر هذه القمامة! - وأشار إلى أوراق إيكونيكوف.

قال موستوفسكي على عجل وبغضب:

- هيّا، هيّا بنا، ننتقل إلى الموضوع. هل من أجل هذه الأوراق؟ نعم، نعم، لقد أُخذت من عندي. هل تريد أن تعرف من الذي أوصلها؟ هذا ليس من شأنك. ربما كتبتُها بنفسي. ربما أمرتم مُخبركم أن يدسّها تحت فراشي دون أن يلاحظها أحد. واضح؟

للحظة، بدا أن ليز سيقبل التحدي ويصيبه الجنون ويصرخ: «لدي طرق تجعلك تجيب!».

كم كان يريد ذلك، وسيكون كل شيء بسيطاً وسهلاً. يا لها من كلمة بسيطة وواضحة: العدوّ!

لكن ليز قال:

- لماذا هذه الأوراق البائسة هنا؟ هل يهم من كتبها؟ أنا أعرف: ليس أنت ولست أنا. كم يحزنني! فَكّرْ! من كان يمكن أن نرى في معسكرات الاعتقال عندنا، إذا لم تكن هناك حرب، وإذا لم يكن أسرى حرب فيها؟ في معسكراتنا، لو لم تكن هناك حرب، فإن أعداء الحزب، أعداء الشعب، سيقبعونَ فيها. أشخاص تعرفهم،

وهم يقبعونَ في معتقلاتكم أيضاً. وإذا كانت إدارة الأمن الإمبراطوري لدينا في زمن السلم الهادئ، تُدخل في النظام الألماني سجناءَكم، فلن نطلق سراحهم، الجماعات السياسية عندكم - هي جماعاتنا السياسية. ثمَّ ضحكَ وتابع:

- هؤلاء الشيوعيون الألمان الذين وضعناهم في المعتقل، أنتم أيضاً وضعتموهم في المعتقل في السنة السابعة والثلاثين. سَجَنهم **يوجوف** عندكم، وسجنهم عندنا **الرايخسفيورير هيملر**... كن هيغيلياً أيّها المعلّم.

وغمزَ موستوفسكي متابعاً كلامه:

- فَكَّرتُ أنَّ معرفةَ اللغات الأجنبية ستكون مفيدة لك في معتقلاتكم، ليس أقل من معتقلاتنا. اليوم تخيفكم كراهيتنا لليهود. ربّما غداً سوف تأخذون بتجربتنا. وبعد غد سنصبح أكثر تسامحاً. لقد مررتُ بطريق طويل وقادني رجل عظيم. وأنت كان يقودك أيضاً رجل عظيم، وقطعتَ أيضاً طريقاً طويلاً وصعباً. هل تعتقد أن بوخارين كان محرّضاً؟ رجل عظيم فقط يمكن أن يقودَك في هذا الطريق.

وعرفتُ ريم أيضاً، لقد صدّقته. هذا ضروري. ولكن يُعذِّبني: أن إرهابكم قتلَ الملايين من البشر، ونحن الألمان فقط في العالم بأسره فهمنا ذلك: هذا أمر ضروري جداً! صحيح تماماً! افهم كما أفهمُ أنا. هذه الحرب يجب أن ترعبكم. كان على نابليون ألّا يحارب إنجلترا.

الفكرة الجديدةُ أدهشت موستوفسكي، حتى إنه ضغط على عينيه، إمّا من وخز مفاجئ فيهما، وإمّا أنَّهُ أراد التخلص من هذه

الفكرة المؤلمة. إنّ شكوكه، ربّما، لم تكن علامة ضعف أو عجز أو ازدواجية قذرة أو تعب أو عدم إيمان. ربّما هذه الشكوك، والتي أحياناً تكون خجولة، وأحياناً يجتاحه بسببها الغضب بصورةٍ مفاجئة، كانت الأكثر صدقاً، والأنقى مما عاشَ فيه. وهو ضغطَها، ودَفَعَها بعيداً، وكرهها. ربّما فيها توجد بذرة الحقيقة الثورية؟ وديناميت الحرية فيها!

يحتاج فقط من أجل دفع ليز، وأصابعه الزلقة، اللزجة، إلى التوقف عن كره تشيرنيتسوف، والتوقف عن احتقار الأحمق إيكونيكوف! لكن لا، لا، أكثر! من الضروري التخلي عمَّا عاشَ طوال حياته من أجله، وإدانة ما دافع عنه وبرّره...

لكن لا، لا، أكثر! ليس اللوم، بل أن أكره بكل قوة الروح، مع كل الشغف الثوري - معسكراتِ الاعتقال، ولوبيانكا، ويوجوفَ الدموي، وياغاد، وبيريا! لكن ذلك قليل - بل ستالين، وديكتاتوريته!

لكن لا، لا، أكثر! يجب إدانة لينين! حافة الهاوية!

هذا هو انتصار ليز، الانتصار الذي لم يكن في تلك الحرب التي كانت دائرة في ساحات القتال، بل في تلك الحرب المملوءة بسم الثعابين، الحرب المستمرة من دون طلقات، تلك التي يشنّها الغيستابو ضده الآن.

هيّئ له أن الجنون سيسيطر عليه الآن. وفجأة تنهّد بخفّة وببهجة. إنّ الفكرة التي روّعته للحظة وأعمته، تحوّلت إلى غبار، وبدت سخيفة وبائسة. استمر الهوس عدة ثوان. ولكن هل كان ذلك ممكناً حتى لثانية واحدة، ولجزء من الثانية، أن يكون في إمكانه الشك بجدّية في صحة القضية العظمى؟

نظر إليه ليز، ومضغ شفتيه، وتابع يقول:

- ينظرون إلينا برعب اليوم، لكن هل ينظرون إليكم بحب وأمل؟ صدقني، من ينظرُ إلينا برعب - ينظر إليكم برعب.

لم يعد هناك الآن ما يخيف ميخائيل سيدوروفيتش. الآن عرف سعر شكوكه. فهي لم تقده إلى المستنقع، كما كان يعتقد من قبل، ولكن إلى الهاوية!

أخذ ليز أوراق إيكونيكوف.

- لماذا تتعامل مع هؤلاء الناس؟ شبكت هذه الحرب اللعينة كل شيء، وخلطت كل شيء. آه، لو كان لدي القدرة على حلّ هذه العقدة.

لا يوجد أيّ عقدة، يا سيّد ليز. كل شيء واضح، وبسيط. ليس في التحالف مع إيكونيكوف وتشيرنيتسوف سنتغلب عليكم. نحن أقوياء بما فيه الكفاية للتعامل معكم ومعهم.

رأى موستوفسكي: أنّ ليز قد وحّدَ كُلَّ شيءٍ مُظلمٍ، وحُفر القمامة تنبعث منها الروائح نفسها، والحطامُ كله، ورقائقُ الخشب المقطّعة، والطوب المكسّر هي نفسها. ليس في القمامة ما يحتاجُ إليه المرء للبحث عن جوهر الاختلاف والتشابه، ولكن في خطط الباني، وفي أفكاره.

تملّكه غضبُ النشوةِ والانتصار، ليس فقط ضد ليز وهتلر، بل وأيضاً ضد الضابط الإنجليزي ذي العينين عديمتي اللون، الذي يسأله عن انتقاد الماركسية، والخطب المثيرة للاشمئزاز من صاحب العين الواحدة، وضد الداعية المتأكسد الذي تبيّن أنه عميل للأمن. أين،

أين سيجدُ هؤلاء الناس بُلْهاً يعتقدون أن ثمّةَ على الأقل أوجه تشابه بين الدول الاشتراكية والإمبراطورية الفاشية؟ ليز، رجل الغيستابو، هو المستهلك الوحيد لسلعهم الفاسدة. لقد فهم ميخائيل سيدوروفيتش في هذه اللحظات، كما لم يحدث من قبل، العلاقة الداخلية بين الفاشية وعملائها.

وفكّر ميخائيل سيدوروفيتش ألا تكمن في ذلك عبقرية ستالين: لقد كره هؤلاء الناس واستهلكهم، ورأى وحده الإخاء السري للفاشية مع الفريسيين[1] والدعاة إلى الحرية الزائفة. وبدت هذه الفكرة واضحة جداً إلى درجة أنه أراد أن يخبر ليز عن ذلك، ليشرح له عبثية تفسيره. لكنه ابتسم ابتسامة عريضة فقط، إنّه عصفور عجوز، وهو ليس غولدينبيرغ[2] الغبي، الذي تحدث عن شؤون أعضاء حزب «الإرادة الشعبية» مع المدعي العام للمحكمة.

وجّه عينيه مباشرة نحو ليز، وقال بصوت عالٍ، سمعه على الأرجح الحارس الواقف عند الباب:

- نصيحتي لك، لا تضيّع وقتك سدىً معي. ضعني على الحائط، علّقني واقتلني.

قال ليز على عجل:

---

(1) الفريسيون هم حزب سياسي ديني برز خلال القرن الأول داخل المجتمع في فلسطين؛ يعود أصل المصطلح إلى اللغة الآرامية ويشير إلى الابتعاد والاعتزال عن الخاطئين؛ كان الفريسيون يتبعون مذهباً دينياً متشدداً، وكُتب عنهم أنّهم كانوا يتمسّكون بالألفاظ دون المعاني. (المترجمان).

(2) غولدينبيرغ غريغوري دافيدوفيتش (1855-1880). ثوري روسي، إرهابي، عضو في حزب «الإرادة الشعبية». (المترجمان).

- لا أحد يريد قتلك. اهدأ، من فضلك.

قال موستوفسكي بمرح:

- أنا لست قلقاً، ولن أقلق.

- بل عليك، عليك أن تقلق! دع أرقي يصبح أرقك. ما السبب، ما السبب وراء عدائنا؟ لا أستطيع أن أفهم ذلك... أدولف هتلر ليس الفوهرر، بل خادم عند الستينيسوفيين[1] والكروب[2]؟ ليس لديكم ملكية خاصّة للأرض؟ المصانع والبنوك تعود إلى الشعب؟ أنتم أمميّون، ونحن نعتنق الكراهية العنصرية؟ نحن أشعلنا النار، وأنتم تحاولون إخمادها؟ إنهم يكرهوننا، وينظرون إلى ستالينغراد كأمل للبشرية؟ هكذا يقولون عندكم؟ هذا هراء! لا توجد هاوية! لقد اخترعوها. نحن شكل لجوهر واحد - دولة الحزب. الرأسماليون ليسوا أسياداً عندنا. الدولة تعطيهم خطةً وبرنامجاً. تأخذ الدولة منتجاتهم وأرباحهم. لديهم ستة في المئة من الأرباح لأنفسهم - وهذا هو راتبهم. تحدد دولتك الحزبية أيضاً الخطة، والبرنامج، وتأخذ المنتجات. أولئك الذين تسمونهم بالسّادة، العمال، يحصلون أيضاً على رواتب من دولتكم الحزبيّة.

نظر ميخائيل سيدوروفيتش إلى ليز وفكّر: «أيُعقل أنّ هذ الثرثار

---

(1) ستينيس غوغو (1870-1924)، رجل أعمال ألماني، وأحد أكبر الصناعيين في أوروبا، في الربع الأوّل من القرن العشرين. قومي، من أنصار التوسّع الألماني في أوروبا. (المترجمان).

(2) كروب: عائلة ألمانية من إسن اشتهرت في مجال إنتاج الصلب وتصنيع الذخائر والأسلحة، وكانت مصانع شركة كروب تعد واحدة من أكبر الشركات الأوروبية في بداية القرن العشرين. (المترجمان).

الحقير سيُربكني للحظة؟ هل في إمكاني حقاً الغرق في هذا التيار من الطين السام كريه الرائحة؟».

لوَّح ليز بيده يائساً وقال:

- وفوق دولتنا الشعبيّة رايةٌ حمراء، ونحن ندعو إلى البطولة القومية والعماليّة، ونقول: «الحزب يعبّر عن حلم العامل الألماني». وأنتم تقولون: «الشعبية، والعمل». وتعرفون، مثلنا، أن القومية هي القوة الرئيسية في القرن العشرين. القومية هي روح العصر! الاشتراكية في بلد واحد هي أعلى تعبير عن القومية!

أنا لا أرى سبباً لعداواتنا! لكنَّ المعلمَ العبقري وقائد الشعب الألماني، أبانا، أفضل صديق للأمهات الألمان، وأعظم استراتيجي حكيم، بدأ هذه الحرب. لكنني أؤمن بهتلر! وأعتقد أن رأس ستالين ليس محجوباً بالغضب والألم، إنّهُ يرى الحقيقة من خلال دخان الحربِ ونيرانها. إنّه يعرف عدوه. إنّه يعرفه، يعرفه، وحتى الآن، عندما يناقش معه استراتيجية الحرب ضدنا يشرب كأساً بصحّته. هناك ثوريان عظيمان على الأرض: ستالين وزعيمنا. أنجبت إرادتُهما الاشتراكيةَ القوميةَ للدولة. بالنسبة إليّ، الأخوّة معكم أكثر أهمية من الحرب ضدكم على الفضاء الشرقي. نحن نبني بنايتين، ينبغي أن تقفا جنباً إلى جنب. أريد، أيّها المعلم، أن تعيش في عزلة هادئة وتفكر، فكّر قبل حديثنا الجديد.

قال موستوفسكي:

- لماذا كل هذا؟ إنّه غباء! سخيف! لا معنى له! ولماذا هذه المخاطبة الغبيّة «المعلم»؟!

- أوه، هذا ليس غباءً، أنت وأنا يجب أن نفهم: المستقبل لن

يتقرر في ساحة المعركة. أنت تعرف شخصياً لينين. لقد أسّس حزباً من طراز جديد. أدرك أولاً أن الحزب والقائد فقط هما من يعبّر عن نبض الأمة، وانتهى بالجمعية التأسيسية. وماكسويل في الفيزياء دمّر الآليّة النيوتونيّة، اعتقد أنه كان يثبّتها، لذلك لينين، في الوقت الذي أسّس فيه القومية العظيمة في القرن العشرين، عدَّ نفسه مؤسّساً للأممية. ثم علمنا ستالين الكثير. بالنسبة إلى الاشتراكية في بلد واحد، من الضروري القضاء على حرية الفلاحين في الزراعة والبيع، ولم يرتعد ستالين - لقد قضى على ملايين الفلاحين. رأى هتلر أن العدوّ، الذي كان يعوق الحركة الاشتراكية القومية الألمانية - هو اليهودية. وقرر تصفية ملايين اليهود. وهتلر ليس طالباً فقط، إنّه عبقري! تطهيركم للحزب في السنة السابعة والثلاثين، رأى ستالين فيه ما يشبه تطهيرنا من **ريم** - لم يرتجف هتلر أيضاً... يجب أن تصدقني. تكلمتُ، وكنتَ صامتاً، لكنني أعرف أنني مرآة جراحيّة لك.

قال موستوفسكي:

- مرآة؟ كل ما قلته هو كذبة من الكلمة الأولى إلى الكلمة الأخيرة. أن أدحض الثرثرة القذرة، والنتنة، والاستفزازية، هو أقل مما تسمح لي به كرامتي. مرآة؟ ماذا تقول - هل أنت مشدوهٌ إلى النهاية؟ ستالينغراد ستعيدُك إلى الإحساس من جديد.

نهضَ ليز، وفكر موستوفسكي مرتبكاً ودَهشاً، وكارهاً: «الآن سوف يطلق النار عليّ - وستكون النهاية!».

لكن بدا ليز وكأنّه لم يسمع كلمات موستوفسكي، انحنى إلى الأسفل باحترام.

وقال:

- أيّها المعلم، سوف تُعلّمنا دائماً وتتعلم منّا. سوف نفكر معاً.

كان وجهه حزيناً وجدّياً، وعيناه ضحكتا.

ومرة أخرى، وخزت إبرة سامة قلب ميخائيل سيدوروفيتش. نظر ليز إلى ساعته.

- إنّ الوقت لا يمر هكذا، سدىً.

قرع الجرس، وقال بصوت خافت:

- خذ، إذا كنت في حاجة، هذا المؤلّف. أراك قريباً. تصبح على خير.

موستوفسكي نفسه لا يعرف، من أجل ماذا أخذ الأوراق عن الطاولة ووضعها في جيبه؟

أخرجوه من مبنى الإدارة، فاستنشق هواءً بارداً - كم كانت هذه الليلة الرطبة جيدةً، وكذلك عواء صفارات الإنذار في الظلام الدامس بعد مكتب الغيستابو، والصوت الهادئ للمنظِّر القومي الاشتراكي.

عندما قادوهُ إلى مكان الحراسة المشدّدة، مرّت سيارة صغيرة ذات مصابيح أماميّة أرجوانيّة على الأسفلت القذر. فهم موستوفسكي أن ليز كان متوجّهاً للاستراحة، اجتاحت ميخائيل سيدوروفيتش كآبةٌ من جديد. أدخله المرافق إلى الصندوق، وأقفل الباب.

جلس على السرير، وفكّر: «لو كنت أؤمن باللّه، كنت سأقول أُرسِلَ هذا المحاور الرهيب لي كعقاب على شكوكي».

لم يستطع النوم؛ لقد بدأ يوم جديد بالفعل. أخذَ ميخائيل سيدوروفيتش يميل بظهره إلى الجدارِ، المصنوع من ألواح شجر التنوب الخام، ومضى يقرأ خربشات إيكونيكوف.

16

«غالبية الناس الذين يعيشون على الأرض لا يفكرون في تعريف: الخير». ما هو الخير؟ ولمن الخير؟ ومِمَّن يأتي الخير؟ وهل يوجد خير عام يُطبّق على الناس جميعاً، وعلى الأعراق جميعاً، وعلى شؤون الحياة كافة؟ أم إن ما هو خيرٌ لي أنا هو شرّ لك، وخير شعبي شرّ لشعبك؟ هل هو مفهومٌ دائم؛ خيرٌ لا يتغيّر، أم خيرُ الأمس يصبح اليومَ رذيلةً، وشرُّ الأمس يصبحُ اليوم خيراً؟

يحين موعدُ يوم الحساب المخيف، ويفكر في الخير والشرّ لا الفلاسفةُ والواعظونُ فحسب، بل الناسُ كلّهم المتعلّمون والأميون.

هل تغيّرَ الخيرُ في تصوّرات الناس على مدى آلاف السنين؟ وهل هو مفهوم مشترك للناس جميعهم، ثمّةَ إيلين ويهوذا، كما اعتقد رُسُل الإنجيل؟ هل هو مفهومٌ يشملُ طبقات وأمماً ودولاً؟ أو قد يكون المفهومُ أوسعَ، مشتركاً حتى مع الحيوانات، والأشجار، والطحالب، وفقَ المفهوم نفسه الذي وضعه بوذا وتلاميذه حولَ الخير؟ بوذا: الذي من أجل احتضان الحياة بالخير والمحبة، كان عليه أن ينكرها.

أنا أرى: إن التصوّرات التي ظهرت عند زعماء الفلسفة الأخلاقيّة خلال تعاقبِ آلاف السنين تؤدي إلى تضييق مفهوم الخير.

التصوراتُ المسيحية التي تنفصل خمسة قرون عن البوذية، تضيّق العالم الحيّ، الذي يطبّق عليه الخير، فلا تأخذ بالحسبان كلّ ما هو حيّ، بل الناس فقط!

لقد تبدّل خير المسيحيين الأوائل؛ خير الناس جميعهم، إلى خيرٍ للمسيحيين فحسب، وعاش إلى جوارهِ خيرٌ للمسلمين، وخير لليهود.

ثمَّ مرت قرونٌ، وانقسم خير المسيحيين إلى خير الكاثوليك والبروتستانت وخير الأرثوذكسيّة. وفي خير الأرثوذكسية نشأ خير الإيمان القديم وخير الإيمان الجديد.

وسار إلى جانبه خيرٌ للأغنياء وخيرٌ للفقراء، وفي مكان قريب، وُلد خيرُ البشرِ الصُّفر والسود والبيض.

وما زال ينقسمُ وينقسمُ، وقد وُلِد الخيرُ في دائرة طوائف وأعراق وطبقات، ولم يعد كل من كان وراء منحنى تلك الدائرة المغلق مُدرجٌ في دائرة الخير.

ورأى الناسُ أن كثيراً من الدماء أريقتْ بسبب هذا الخير الصغير، غير الطيب باسم صراع هذا الخير مع كل ما عُدَّ خيراً صغيراً، وشرّاً.

وأصبح في بعض الأحيان مفهوم هذا الخير هو آفة الحياة، وشرّ أكبر من الشرّ.

هذا الخير هو قشرةٌ فارغة، سقطت منها البذرةُ المقدسةُ، وضاعت. من سيعيدُ البذرةَ المفقودةَ إلى الناس؟

إذاً ما هو الخير؟ قالوا: هذا الخير هو الفكر والعمل المرتبط بالفكر، المؤدي إلى الانتصار، وقوة البشرية، والأسرة، والأمة، والدولة، والطبقة، والمعتقد.

يسعى أولئك الذين يقاتلون من أجل خيرهم الخاصّ، لإعطائه مظهر العموميّة. لذلك يقولون: خيري يتوافق مع الخير العام، خيري ضروري ليس فقط بالنسبة إليّ، إنّه ضروري للجميع. وعندما أجعلُ الخيرَ خاصّاً، أخدمُ الخير العام.

وهكذا، فإن الخير، بعد أن فقد العموميّة، وأصبح خيرَ طائفةٍ أو طبقةٍ أو أمةٍ أو دولةٍ، يسعى إلى إعطاء نفسه عموميّة كاذبة، من أجل تبرير صراعه مع كل ما هو شرّ بالنسبة إليه.

لكن هيرودس[1] لم يسفك الدماء من أجل الشرّ، بل من أجل خير هيرودس. لقد أتت قوة جديدة إلى العالم وهددت بقتلِه وعائلته وأحبّائه وأصدقائه ومملكته وجيشه.

لكن لم يولد الشرّ - وُلدت المسيحية. لم تسمع البشريّة أبداً مثل هذه الكلمات: «لا تَحكُمُوا عَلَى الآخَرِينَ، كَي لا يَحكُمَ اللّهُ عَلَيكُمْ لِأنَّهُ سَيَحكُمُ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي تَحكُمُونَ بِها عَلَى الآخَرِينَ. وَبِالكَيلِ الَّذِي تَكِيلُونَ بِهِ لِلآخَرِيْنَ سَيُكالُ لَكُمْ.

أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ، أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ. فَكُلُّ مَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمُ افْعَلُوا هكَذَا أَنْتُمْ أَيْضاً بِهِمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ النَّامُوسُ وَالأَنْبِيَاءُ».

---

(1) هوردس أو هيرودس هو ابن انتيباتر الإدومي من زوجته النبطية، عُيِّن حاكماً على الجليل ثم أصبح ملك اليهوديّة. يعدُّ هيرودس في المسيحية طاغياً إذ يذكر إنجيل متى أنه أمر بذبح كل مواليد بيت لحم عندما علم أن المسيح قد وُلد فيها. ومن بعده جاء ابنه هيرودس أنتيباس فأعدم الرسول يوحنا المعمدان. (المترجمان).

ما الذي جلبته تعاليم السلام والحب للناس؟

حرب الأيقونات البيزنطية، تعذيب محاكم التفتيش، الصراع ضد البدع في فرنسا، وإيطاليا، وفلاندرز، وألمانيا، صراع البروتستانتية والكاثوليكية، خيانة الرهبانيات، صراع نيكون وهاباكوك، القمع المستمر منذ قرون من الزمان والذي شكّل ضغوطاً على العلم والحرية، المسيحيون الذين أبادوا القومية التاسمانيّة، الأشرار الذين أحرقوا القرى السوداء في إفريقيّة. كل هذا كلَّفَ البشريّةَ معاناة أكثر مما فعلت فظائع اللصوص والأشرار الذين اقترفوا الشر من أجل الشر...

هذا هو المصيرُ المذهلُ الغريبُ لتعاليم الإنسانيّة للبشرية، تلكَ التعاليم التي لم تفلت من المشاركة العامّة وسقطت أيضاً في دوائر الخير الصغيرة الخاصّة.

إنّ قسوة الحياة تلدُ الخيرَ في القلوب العظيمة التي تعيد الخير إلى الحياة، ممتلئةً بالرغبة في تغيير الحياة على شاكلةِ الخير الذي يعيش فيها. وليست دوائر الحياة هي التي تتغير وفقَ نمط وأفكار الخير، بل فكرة الخير، العالقة في مستنقع الحياة، تتقسّم، وتفقد عموميّتها، وتخدم الحياة اليوميّة، ولا تُكوّنُ الحياةَ وفقَ أنموذجها الرائع، لكن وفق أنموذجها الروحيّ الخاصّ.

يرى الوعيُ البشريُّ دائماً أنّ حركةَ الحياة هي صراعٌ بين الخير والشر، ولكن الأمرَ ليس كذلك. الناسُ الذين يتمنون الخير للبشرية لا حول لهم ولا قوة للتقليل من شرّ الحياة.

ثمّة حاجة إلى أفكار عظيمة لحفر قناة جديدة، وقلب الأحجار، وتكسير الصخور، وإزالة الغابات، ونحتاج إلى أحلامٍ حول الخير

العمومي، بحيث تتدفق المياه العظيمة معاً. لو كان البحرُ يَهَبُ أفكاراً، لكانت ستنشأُ، بعدَ كل عاصفةٍ في مياهه، فكرةٌ وحلمٌ بالسعادة، ولكانت كلُّ موجةٍ بحرية تكسّرت على صخرة، ستظنُّ أنها تموتُ من أجل مياهِ البحر، وما كان يخطرُ ببالها أنّ قوّة الرياح قد رفعتها، مثلما رفعت آلاف الموجات من قبلها، وسترفعُ الآلاف من تلك التي ستجيء بعدها.

لقد كُتبَ كثيرٌ من الكتب حول كيفيةِ التعاملِ مع الشرّ، وعمّا هو الشر وما هو الخير.

لكنَّ الحزنَ في كل ذلك لا جدالَ فيه - وهو ماثلٌ فيما يأتي: فحيث يبزغُ فجرُ الخير، الذي هو أبديّ ولن يهزمه الشرّ، فإن هذا الشرّ أبديٌّ أيضاً، وإن كانَ لايهزم الخير أبداً، هناك تماماً يموت الرُضّع والشيوخ ويتدفق الدم. ليس الناسُ فحسب عاجزين عن التقليل من شرّ الحياة، ولكن الربَّ أيضاً عاجزٌ عن ذلك.

«**صَوْتٌ سُمِعَ فِي الرَّامَةِ، نَوْحٌ وَبُكَاءٌ وَعَوِيلٌ كَثِيرٌ. رَاحِيلُ تَبْكِي عَلَى أَوْلاَدِهَا وَلاَ تُرِيدُ أَنْ تَتَعَزَّى، لأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمَوْجُودِينَ**»- وهي، بعد أن فقدتْ أطفالها، لا تهتم بما يَعُدُّهُ الحكماءُ خيراً وما يَعُدُّونَهُ شرّاً.

ولكن هل يمكن أن تكون الحياة هي الشرّ؟

لقد رأيت القوة التي لا تتزعزع لفكرة الخير الاجتماعي المولود في بلدي. رأيت هذه القوة خلال فترة «الكلخزة»، رأيتها في عام 1937. رأيتُ كيف قُضيَ على الناس باسم المثل الأعلى الجميل والإنساني مثل المثل الأعلى للمسيحية. رأيت قرى تتضورُ جوعاً حتى الموت، ورأيت أطفال الفلاحين يموتونَ في ثلج سيبيريا،

ورأيت قطاراتٍ تنقل إلى سيبيريا مئاتِ وآلاف الرجال والنساء من موسكو، ولينينغراد، وأعلنوهم في مدن روسيا جميعها أعداءً للفكرةِ المجتمعيّةِ العظيمةِ والمشرقةِ. كانت هذه الفكرة جميلةً وعظيمةً، وقتلت بلا رحمة بعض الناس، وشوهت حياة آخرين، وفرّقت الزوجات عن الأزواج، والأطفال عن الآباء.

ارتفعَ الآن الرعبُ الهائل للفاشيّة الألمانيّة فوق العالم. صرخاتُ وأنّاتُ من أُعدِموا ملأت الهواء. تحولت السماء إلى اللون الأسود، وانطفأت الشمس في دخان مواقد حرق الجثث.

ولكن حتى هذه الجرائم التي لم يسبق لها مثيل، ليس فقط في الكون بأسره، وحتى الجرائم جميعها التي يرتكبها الإنسان على الأرض، قد ارتُكبت باسم الخير.

كنت أعيش ذات مرة، في الغابات الشمالية، تخيّلت أن الخير ليس في الإنسان، وليس في عالمِ الحيواناتِ والحشراتِ المفترس، بل في مملكة الأشجار الصامتة. لكن لا! رأيت حركة الغابة، معركتها الخبيثة من أجل الأرض بالأعشاب والشجيرات. ومليارات من البذور الطائرة، تنبت، تقتل العشب، وتقطع شجيرة صديقة، وتدخل الملايين من براعم البذر الذاتي المنتصر معركة بعضها مع بعض. وتلك التي تبقى على قيد الحياة تُشكِّلُ مظلةً واحدةً من غابة شابة تحبُّ الضوء، وتدخلُ تحالفاً مع القوى المتساوية. وينمو التنوب وأشجار الزان والنباتات في غسق سجن تحت مظلة غابة مُحبة للضوء.

لكن يأتي وقتُ تآكل محبّي الضوء، وتنفجر التنّوبات الثقيلة من تحت ظلها، وتنفد شجيرات النغت والبتولا.

لذلك تعيش الغابة في صراع أبدي للجميع ضد الجميع.

والأعمى فقط يفكر في عالم الخير في مملكة الأشجار والعشب. أيعقل أن تكون الحياة - هي الشرّ؟

الخير ليس في الطبيعة، وليس في الواعظين والأنبياء، وليس في تعاليم علماء الاجتماع الكبار والقادة الشعبيين، وليس في أخلاقيات الفلاسفة. . . وها هم الناس العاديون يحملون في قلوبهم حباً لأيّ شيء حيّ، ويحبون على نحوٍ طبيعي وغير قسريّ، ويأسفون على الحياة، ويفرحون بدفء موقدهم بعد يوم العمل ولا يشعلون النار والحرائق في الساحات.

وهكذا، إلى جانب الخير الكبير الرهيب، هناك خير إنساني دنيوي. هذا خير امرأة عجوز أحضرت قطعة خبز لسجين، وخير جندي يَسقي عدواً جريحاً ماء من زمزميّتِهِ، وخير الشبابِ يأسفُ للشيخوخة، وخير فلاح يُخبئُ رجُلاً مسنّاً من غير دينهِ في مستودع الحبوب. وهو خيرُ الحرّاس الذين ينقلون، على الرغم من الخطر على حريّتهم، رسائلَ الأسرى والسجناءِ ليس إلى رفاقهم في السلاح، بل إلى الأمّهاتِ والزوجات.

إنّهُ الخير الخاص لفرد بعينه تجاه شخص بعينه، خير من دون شهود، لطيف، ومن دون فكرة. يمكن أن يسمى خيراً بلا معنىً مُسبق. خير الناس خارج المنفعة الدينية والعامة.

لكن لنتأمل ونَرَ: الخيرُ الذي لا معنى له، خاصّ، عرضيّ أبديّ. الأمر ينطبق على كل الكائنات الحية، حتى على الفأر، وعلى ذاك الغصن، الذي يتوقف فجأة أحد المارّة على الطريق ويرتّبه، بحيث يكون من المريح والأسهل بالنسبة إليه النمو من جديد على الجذع.

وفي الأوقات العصيبة، عندما يكون وسط الجنون الذي خُلِقَ باسم مجد الدول والأمم والخير العالمي، وفي الوقت الذي لم يعد فيه الناس وكأنهم ناس، يندفعون مثل أغصان الأشجار، ومثل الحجارة، ويجرّون الحجارة خلفهم، يملؤون الوديان والخنادق، في هذا الوقت من الرعب والجنون الخيرُ الذي لا معنى له، والبائس، المتفتت مثل حبيبات الراديوم في الحياة، لم يختف.

جاء الألمان إلى القرية، وعاقبوها. بعدَ أن قُتل جنديان ألمانيان في اليوم السابق، على الطريق. قادوا النساء في المساء، وأمروهنّ بحفر حفرة على حافة الغابة. وضعوا عدداً من الجنود في شقة مرأة مسنّة. استدعى زوجها رجل شرطة فاقتاده إلى المكتب؛ واتضح أن عشرين فلاحاً نُقلوا أيضاً إلى هناك. لم تنم حتى الصباح - وجد الألمان في القبو سلّة من البيض وزجاجةً من العسل، أشعلوا بأنفسهم الفرن وقلوا البيض وشربوا الفودكا. عزفَ الأقدم بينهم على آلة الأكورديون، أما الباقون فكانوا يغنّون ويدبكون. لم يعيروا المضيفةَ أيَّ اهتمام، كما لو أنها لم تكن إنساناً، بل قطّة. في الصباح، عندما طلع الفجر، بدؤوا يفحصونَ رشاشاتهم، سحب أحدهم، الزناد عن طريق الخطأ فأطلق النار على بطنه. تعالى صراخ، وململة. قامَ زُملاؤه الألمان بطريقة ما بربطه ووضعوه على السرير. وهنا استدعيَ الجنودُ. فطلبوا إلى المرأة أن تعتني بالجريح. رأت المرأة أنه لا يستحق حتى أن تخنقه: أخذ يتمتم، ثم يغلق عينيه، ويبكي، وترتجف شفتاه. ثم فتح عينيه فجأة وقال بوضوح: «أيّتها الأم، الماء». قالت المرأة: «أوه، أيّها الملعون، لو أخنقك». وأعطته ماء. وأمسك بيدها، وأشار أن تجلسه، وقال: الدم لا يسمح

لي بالتنفس. رفعته وهو يتشبث بعنقها بيديه. ثم سُمع إطلاق النار في القرية، وارتعبت المرأة.

ثم أخبرت كيف حدث ذلك، لكن لم يفهمها أحد، وهي لم تستطع شرح ذلك.

ذلكَ الخيرُ المدانُ بسبب انعدام معناه في الحكاية حول الناسك الذي دفّأ الثعبان على صدره. هذا الخير الرحيم، الذي أدى إلى أن تلدغَ الزاحفةُ الطفل. إنّه خير مجنون، ضارّ، وأعمى!

يختارُ الناسُ بمتعة من الحكايات والقصص أمثلةً على الضرر الذي يسببه هذا الخير الذي لا معنى له. لا تخافوا منه! إن الخوف منه يشبه الخوف من أسماك المياه العذبة التي انجرفت بطريق الخطأ من النهر إلى المحيط المالح.

الأذى، الذي نادراً ما يحدث للمجتمع، والطبقة، والعرق، والدولة بسبب الخير العفوي، يتلاشى في الضياءِ القادمِ من الناس الذين قاموا به.

إنّ هذا الخير العفوي الأحمق، هو الإنسانية في الإنسان، وهو ما يميّز الإنسان، إنّه أسمى ما حققته روح الإنسان. إنّه يقول: ليستِ الحياةُ شرّاً.

هذا الخيرُ الصامت وبلا معنى. غريزيٌّ، وأعمى. وفي تلك الساعة، حينما أدخلته المسيحيّة في تعاليم آباء الكنيسة، بدأ يتلاشى، وتحوّلت البذرة إلى قشرة. إنّه قويّ ما دام أعمى، ومن دون وعي وعديم المعنى، وما دام في الظلمة الحيّة للقلب البشري، وما دام لم يصبح بعد أداةً وسلعةً للدعاة، وما دام الذهب الخام لم يحوّل ليصبح

عملةً من القداسة. إنّه بسيط مثل الحياة. حتى عظة يسوع حرمته من قوّته؛ إنّ قوّته في عمى قلب الإنسان.

لكن إذا ما شككتُ في الخير البشري، شككتُ في الخير نفسه أيضاً. أنا أحزن لعجزه! وأنّ فائدته ليست مُعدية.

فكَّرتُ: «إنّه عاجز، جميل وعاجز، مثل الندى».

كيف تحوّله إلى قوة دون أن تجفّفه، وتفقده؟ وكيف جفّفته الكنيسة وفقدته؟ الخير قويّ ما دام عاجزاً! فإذا ما أراد أحدٌ تحويله إلى قوة، فقدَ نفسه، وتلاشى، وخفت، ثم اختفى.

الآن أرى قوة الشر الحقيقية. فراغ في السماوات. وعلى الأرض لا يوجد سوى الإنسان. كيف تطفئ الشرّ؟ بقطرات الندى الحيّة، بالخير البشري؟ لكن، لا يمكن إطفاء هذا اللهب بمياه البحارِ والسُّحب كلها، ولا يُخمَدُ بعدد قليل من قطرات الندى التي جُمِعت من أوقات الإنجيل حتى هذا اليوم الحديدي...

وهكذا، بعد أن فقدت الثقة في إيجاد الخير في الربّ، وفي الطبيعة، بدأت أفقد الثقة في الخير.

ولكن كلّما انكشفت ظلمةُ الفاشيّة أكثر وأوسع، رأيت على نحوٍ أوضح أنَّ الإنسانية غير القابلة للاستئصال ما زالت موجودة في الناس على حافة الطين الدموي، وعند مدخل فرن الغاز.

عندما سقيتُ[1] إيماني في الجحيم. خرج إيماني من نار أفران حرق الجثث، ومرّ عبر الجذُرِ الأسمنتية لأفران الغاز. لقد رأيت أن

---

(1) يستخدم الروائي هذا المعنى بمفهومه التقني: أي كما يُسقى الفولاذ ويُقسّى. (م).

ليس الإنسان هو الذي لا حول له ولا قوة في الصراع ضد الشرّ، بل إن هذا الشرّ القويّ جداً لا حول له ولا قوة في الصراع ضد الإنسان. إنّ سرّ خلود الخير هو في عجزه وانعدام معناه. إنّه لا يقهر. كلّما كان أكثر غباءً، وكلما كان لا معنى له أكثر، وازاد عجزه، كان أكثر قوّة. وكان الشرُّ عاجزاً أمامه! إنّ الأنبياء، والعقائد، والإصلاحيين، والقادة، والزعماء عاجزون أمامه. هو - حبّ أعمى وأبكم - هو معنى الإنسان.

إنّ تاريخ الناس لم يكن معركة الخير الذي يسعى لهزيمة الشرّ. تاريخ الإنسان هو معركة الشرّ العظيم الذي يسعى لطحن بذرة الإنسانية. لكن إذا كانت الإنسانية إلى الآن لم تُقتل في الإنسان، فإنّ الشرّ لم يعد قادراً على تحقيق النصر».

جلس موستوفسكي عدّة دقائق، بعد انتهائه من القراءة، نصف مُغلق العينين.

نعم، هذهِ كتابةُ شخصٍ أصيب بصدمة. كارثة الروح البائسة!

أعلن مُنهكاً أنّ السماوات فارغة... يرى أن الحياة هي حرب الجميع ضد الجميع. وفي النهاية، لعب بالأجراس القديمة، وبعطف النساء المسنّات، وينوي إطفاء النار العالمية بحقنة تطهير. كم تافهٍ ذلك كلّه!

تذكر ميخائيل سيدوروفيتش، عند النظر إلى الجدار الرمادي للمنفردة، الكرسيَّ الأزرقَ، والحديث مع ليز، والشعور الثقيل الذي تملّكه. لم يكن ذلك كآبة في الرأس - بل كانَ كآبة في القلب، وضاق تنفّسه. على ما يبدو، إنّه شكّ خَطأً في إكونيكوف. لقد أثارت كتابات الأحمق ليس ازدراءه فحسب، ولكن أيضاً ازدراء

محادثه الليلي المُقرف. لقد فكر من جديد في مشاعره تجاه تشيرنيتسوف وفي الازدراء والكراهية اللذين تحدث بهما رجل الغيستابو عن مثل هؤلاء الأشخاص. وبدت الكآبة الضبابيّة التي اجتاحته، أكثر إيلاماً من المعاناة الجسدية.



17

أشار سيريوجا شابوشنيكوف إلى كتابٍ ملقىً على قطعة من الطوب بالقرب من حقيبة من القماش الخشن وقال:

- هل قرأتِه؟

- أعدت قراءَته.

- هل أعجبك؟

- أنا أحب ديكنز أكثر.

- حسناً، ديكنز. قال ذلك بسخريةٍ وتعالٍ.

- هل يعجبك «دير بارما»؟

- قليلاً - أجاب، فكر، وأضاف: - اليوم سأمضي مع المشاة لطرد الألمان من الكوخ المجاور - فهم نظرتها وقال: - إنّه غريكوف، واضح، لقد أمرني.

- وقاذفو الهاون الآخرون، تشينتسُوف؟

- لا، أنا فقط.

صمتا.

- هل يُراودكِ؟

أومأت برأسها.

- وأنت؟

- إنّك تعرف موقفي - وفكرت في الأذربيجانيين المساكين.

- يبدو لي: أنّهم سيركلونني اليوم.

- لماذا تذهب أنت مع المشاة، أنت قاذف هاون.

- لماذا يحتجزك هنا؟ جهاز الإرسال محطم. كان يجب إرسالكِ إلى الفوج منذ فترة طويلة، وعموماً إلى الضفة اليسرى. ليس لديك ما تفعلينه هنا. عروس بلا مكان.

- لكننا نرى بعضنا بعضاً كل يوم.

لوّح بيده وخرج.

تَلفَّتَتْ كاتيا حولها. حدّق من الطابق الثاني، رأى بونتشوك يضحك. ولعلّه رأى شابوشنيكوف على ما يبدو، وهذا ما جعله يُغادر فجأة.

قصفَ الألمانُ يوم أمس المنزلَ بالمدافع، وأصيب ثلاثةٌ بجروح طفيفة، وانهار جدارٌ داخلي فغطّى المخْرَجَ من القبو، ولكنَّهم فتحوه، وهدّمت قذيفة قطعةً من الجدار مرة أخرى فغطت المخرج من القبو، وبدؤوا مرة أخرى بفتحه.

نظر أنتسيفيروف في نصف العتمة المغبرّة وسأل:

- هيه، الرفيقة مشغلة اللاسلكي، هل أنت على قيد الحياة؟

- نعم- أجابت فينغروفا من شبهِ الظلام وعطست، وبصقت دَماً.

قال خبير الألغام:

- صحّة.

عندما حلّ الظلام أخذ الألمان يُشعلونه بالصواريخ، وأطلقوا النار من الرشاشات، وحلّقت القاذفات عدّة مرّاتٍ، ورمت قنابل شديدة الانفجار. لم ينم أحد.

غريكوف نفسه أطلق النار من الرشاش عدّة مرّات، شتمّ على نحوٍ فظيع وغطّى وجهه بمجرفة الألغام، وخَفَّ لضرب الألمان.

وكأنّ الألمان قد شعروا، بأنّه يُعدُّ للهجوم على المنزل المهجور الذي احتلّوه أخيراً، الذي لم يكن يسيطر عليه أحد.

عندما هدأ إطلاق النار، سمعت كاتيا دردشتهم، حتى ضحكهم كان يصل بوضوح تام.

تكلّم الألمان بلكنة مقرفة، ولفظوا الكلمات، ليس كما تُدَرَّسُ في دورات اللغات الأجنبية. لاحظت أن القط نزل من مخدعه. كانت قائمتاه الخلفيتان لا تتحرّكان، وزحف مُستخدماً قائمتيه الأماميتين، واستعجل الوصول إلى كاتيا.

ثم توقف عن الزحف، فَتحَ فكيه وأغلَقهما عدّة مرات... حاولت كاتيا رفع جفنيه المتدليين. إنّه «ميت»، فكرت وشعرت بالاشمئزاز. و أدركت فجأة أن الحيوان، الذي تملّكَهُ هاجس الإبادة، فكّرَ فيها، وكان يزحف نحوها نصف مشلول... وضعت الجثة في حفرة، ووضعت فوقها قطع من الطوب.

ملأ ضوءُ صاروخٍ القبوَ، وبدا لها أنه لا يوجد هواء في الطابق السفلي، وأنها تتنفس سائلاً دمويّاً، وأن هذا السائل كان يتدفق من السقف، ويتساقط من كل لبنة.

ها هم الألمان يزحفونَ من الأركان البعيدة، يقتربون منها،

والآن سيأسرونها، ويجرّونها. إنّهم قريبون جداً، رشقات بنادقهم الأوتوماتيكية قريبة تماماً. ربما يمشطون الطابق الثاني؟ ربما لن يظهروا من الأسفل، بل سيسقطون من الأعلى، من فجوة في السقف؟

حاولت كي تهدّئ من روعها، أن تتصوّر لوحة مُثبّتة على الباب كتب عليها: «عوالم هادئة- جرس1، دزيغا - جرس2، التشيريموشكينيين - جرس3، فيينبيرغ - جرس4، فينعروفا- جرس5، أندريوشكا - جرس6، بيغوف - 1 تابع. . . .». حاولت أن تتخيل قِدرَ فاينبيرغوف الكبيرة، موضوعةً على موقد الكيروسين ومغطاةً بلوح من الخشب الرقائقي، ملفوفاً بقماش الأكياس، وحوض أناستاسيا ستيبانوفنا أندريوشينكا، وهو حوض تيخوميروف مُقشّر الطلاء، ومُعلّق بأُنشوطة كالأذن. وهي تُرتِّبُ فراشَ السرير وتضع تحت الشرشف المنبسطِ على لوالب شرّيرة خاصّة وشاحَ أمّها البنّي، وقطعة من القطن، ومعطفاً خفيفاً مفتوحاً.

ثم فكرت في المنزل «ستة على واحد». الآن بعد أن كان النازيون يتسلقون، أصبحوا يزحفون من تحت الأرض، لم يبدُ الشاتمون غليظين مزعجين، ولم تُخفها نظرة غريكوف، التي بسببها احمرَّ ليس فقط وجهها، بل عُنُقها وكتفاها تحت السترة العسكريّة. كم كان عليها أن تستمع إلى البذاءات خلال أشهر الحرب هذه! ويا لهُ من حديث سيّئ تعيّن عليها إجراؤه مع المقدم الأصلع «الاتصال لاسلكي»، عندما لمّح وأسنانه المعدنية تلمع، إلى أنّها وبرغبتها بقيت في مركز اتصالات ما وراء الفولغا. . . غنت البنات بصوت منخفض أغنية حزينة:

القائد داعبها بنفسه.
وسمّاها حتى الصباح ابنته،
ومنذ ذلك الحين حملوها على الأيدي...

هي لم تكن جبانة، لكن أصابتها هذه الحالة النفسية الداخلية.

رأت شابوشنيكوف للمرة الأولى، عندما كان يقرأ الشعر، وفكرت حينها: «يا له من أحمق»! ثم اختفى مدة يومين، وقد أُحرِجَتْ أن تسألَ عنه، وكانت تتساءل عما إذا كانوا قد قتلوه. ثم ظهر ليلاً على نحوٍ غير متوقع وسمعته يخبر غريكوف أنه غادر مخبأ القيادة من دون إذن.

قال غريكوف:

- خيراً فعلت. شكّلت فراراً إلينا في العالم الآخر.

مرّ شابوشنيكوف بجوارها، وهو يبتعد عن غريكوف، لم يلتفت ولم ينظر. انزعجت، ثم غضبت، وفكّرت من جديد بأنّه: «أحمق».

ثم سمعت حديث سكان المبنى، تحدّثوا عمّن سيكون الأوفر حظّاً وينام مع كاتيا أولاً. قال أحدهم: «واضح أنّه غريكوف».

قال الثاني: «هذه ليست حقيقة. إنّه آخر من في القائمة، أستطيع أن أقول: سيريوجا قاذف الهاون. فكلما كانت الفتاة أصغر سنّاً انجذَبَتْ إلى رَجُلٍ ذي خبرة».

ثم رأت كيف توقفَ الغزلُ بها، والنكات معها توقفت تقريباً. لم يُخفِ غريكوف استياءَهُ عندما كان سكان المبنى يتعرّضون لكاتيا.

لقد سمّاها زوباريف الملتحي ذات مرّة: «هيه، زوجة مدير المبنى».

لم يكن غريكوف في عجلة من أمره، وكأنّه كان واثقاً على ما

يبدو، وهي شعرت بثقته تلك. أمرها بعد أن انكسر جهاز الإرسال اللاسلكي بشظية قنبلة جوّية، أن تستقر في إحدى حجرات القبو العميق.

قال لها بالأمس: «لم أر أبداً فتيات مثلك في حياتي»، وأضاف: «لو كنت قد قابلتك قبل الحرب، لتزوجتك».

أرادت أن تقول له إن عليهِ أن يسألها عن ذلك، لكنها لم تقل شيئاً، لم تقرّر.

هو لم يتعرّض لها بأيّ حماقةٍ، ولم يتكلّم معها بغلظة، ولم يقل لها أيّ كلمةٍ بذيئة، ولكنها كانت تشعر بالخوف، عندما تُفكّر فيه.

بالأمس، أخبرها بحزن:

- قريباً سوف يبدأ الألمان بالهجوم. من غير المرجح أن يبقى أحد من الموجودين في المبنى حيّاً. الإسفين الألماني قد غرز في بنايتنا.

تفحّصها بنظرة بطيئة مُركّزة، وتملّك كاتيا الخوف، ليس من فكرة الهجوم الألماني الوشيك، بل من هذه النظرة البطيئة والهادئة.

قال:

- سوف آتي إليك - يبدو أنّه لم يكن هناك صلة بين هذه الكلمات، وتلكَ التي قالها للتوّ من أن أيّ شخص لن يستطيع البقاء على قيد الحياة بعد الهجوم الألماني، لكن كان ثمَّةَ صلة ما، وفهمت كاتيا ذلك.

لم يكن يُشبهُ القادة الذين رأتهم بالقرب من كوتلوبان. تحدّث إلى الناس دون أن يصرخ، ومن دون تهديدات، لكن الجميع

أطاعوه. إنه يجلس ويدخن ويتحدث ويستمع ولا يمكن تمييزه من الجنود. غيرَ أنَّ هيبته كانت كبيرة جداً.

هي لم تتحدّث تقريباً إلى شابوشنيكوف. وبدا لها أحياناً، أنّه وقع في حبّها ولكنه عاجز، مثلها تماماً أمام الشخص الذي يُقدرهما هما الاثنين كثيراً ويخيفهما. شابوشنيكوف كان ضعيفاً، وعديم الخبرة، أرادت أن تطلب حمايته، وتقول له: «اجلس إلى جانبي»... وأحياناً ترغب هي في تهدئته. كان من الغريب والمدهش التحدّث إليه - فإذا الحالُ وكأنَّ الحربَ لم تكن، ولا المبنى «ستة على واحد». وكما لو أنّهُ شعرَ بذلك، وحاول عمداً أن يبدو غليظاً، حتى إنّه شتمَ ببذاءةٍ في حضورها.

وبدا الآن لها أن ثمّةَ علاقةً قاسيةً بين أفكارها ومشاعرها الغامضة وحقيقة أن غريكوف أرسل شابوشنيكوف لاقتحام البيت الألماني.

تخيلت عندما سمعت إطلاق نيران الرشاشات، أن شابوشنيكوف يرقد على تل من الطوب الأحمر، ورأسه المَيّتُ مُتَدلٍّ من دون حلاقةٍ.

اجتاحها شعور خارق بالشفقة عليه، واختلطت في نفسها أضواءُ الليلِ الملونة، بالرعب أمام غريكوف، وبالإعجاب به، وهو يشنُّ هجوماً على الكتائب الحديديّة الألمانية من الأنقاضِ الوحيدة، ومن الأفكارِ حول والدته.

فكّرت أنها ستبذلُ كل شيء في الحياة، فقط من أجل رؤية شابوشينكوف على قيد الحياة. وفكرت: «وإذا خَيَّروني: أمي أم هو؟».

ثم سمعت خطوات شخص ما، أمسكت قطعةَ الطوب بيدها، وأنصتت.

هدأ إطلاق النار، كان كل شيء ساكناً.

بدأت تحكّ ظهرها والكتفين والساقين تحت الركبتين، وكانت تخشى أن تخدشَ جلدها من جراءِ الحفّ والحك.

سأل الجميع باتراكوف عن سبب الحكة، فأجاب: «سببها عصبيّ». وكان في الأمس قد قال: «وجدت إحدى عشرة قملة على نفسي». وضحك كولوميتسيف قائلاً: «لقد هاجمت قملةٌ عصبيةٌ باتراكوف».

تصوّرت نفسها قد قُتلت، وقال الجنود وهم يسحبونها إلى الحفرة:

- الفتاة المسكينة قد قمّلت تماماً.

وقد يكونُ منشأُ هذا عصبيّاً بالفعل؟ وأدركت أنّه رجل، وليس وهماً، مُتخيّلاً، نشأ من الحفيف، ومن مقاطع الضوء، ومقاطع الظلام، ومن التلاشي القلبيّ. سألت كاتيا:

- من القادم؟

أجابت الظلمة:

- هذا أنا، صديق.

18

- ما من هجومٍ اليوم. ألغى غريكوف الهجوم حتى ليلة الغد. اليوم، الألمان أنفسهم يحاولون الصعود إلينا طوال الوقت. بالمناسبة، أريد أن أقول إنني لم أقرأ هذا «الدير» نفسه.

لم تجب.

حاول رؤيتها في الظلام، واستجابةً لرغبته، أضاءت نارُ الانفجارِ وجهها. وخيّم الظلام من جديد بعد ثانية، وصمتا، متوقعين انفجاراً جديداً وومض ضوء. أخذ سيرغي يدها. وضغط أصابعها. لأول مرة في حياته، يُمسك يدَ فتاة بيده.

جلست مشغلة الراديو القذرة المُقمّلة بهدوء، أضاءَ عُنُقُها في الظلام.

ومض ضوء صاروخ، فقرّبا رأسيهما بعضهما من بعض. ضمّها، وأغلقت عينيها، فكل منهما يعرف قصة المدرسة: من يقبّل وأجفانُه مفتوحة لا يُحبّ.

سألها:

- إنّها ليست مزحة، أليس كذلك؟

ضغطت براحتي كفّيها صدغيه، وأدارت رأسه نحوها.

قال ببطء:

- هذا مدى الحياة.

وقالت هي:

- إنّه لأمر مدهش، هأنذا أخاف: قد يأتي أحد ما فجأة. وقبل ذلك، كم بدا لي أنني سعيدة، حتى لو أتى أيُّ شخص: لياخوف، كولومينتسيف، زوباروف...

أردفَ هو:

- غريكوف.

قالت:

- أو، لا.

بدأ يُقَبِّلُ عُنُقها وتحسّسه بأصابعه، وفتح الزر المعدني في سترتها، ولمس عظم الترقوة بشفتيه، لم يجرؤ على تقبيل صدرها. وهي مسّدت شعره القاسي وغير المغسول، كما لو كان طفلاً، وكانت تعلم أنّ كل ما يحدث الآن أمر لا مفر منه، وهذا ما يجب أن يحدث.

نظر إلى الأرقام المضيئة للساعة.

سألته:

- من سيقودكم غداً؟ غريكوف؟

- لماذا تتحدّثين في هذا الموضوع؟ سنذهب بأنفسنا، لا ضرورةَ لأن يقودنا أحد.

عانقها من جديد، وأصبحت أصابعُه باردةً فجأة، وصدرُه بارداً بسبب الإثارة والقلق. كانت تتكئ على معطفها، وبدت وكأنّها لم

تكن تتنفس. لمس أحياناً القماش الخشن والمغبَّر للسترة والتنورة، وأحياناً قماش الحذاء المُشمّع.

أحسَّ بيده حرارةَ جسدها. حاولت الجلوس، لكنه أخذ يُقبّلها. ومض الضوء مرة أخرى وللحظة واحدة أضاء غطاء كاتيا الذي سقط على الطوب، وبدا له وجهها، في هذه اللحظات وكأنّه غير مألوف. ومن فوره خيّم الظلام مرة أخرى، ولا سيما ما يشبه الظلام...

- كاتيا!

- ماذا؟

- لا شيء، أردت فقط سماع صوتك. لماذا لا تنظرينَ إليّ؟

- لا، لا، اهدأ قليلاً!

فكرت مرة أخرى فيه وفي والدتها - من منهما الأغلى لديها.

قالت:

- اعذرني.

لم يفهمها، وأجاب:

- لا تخافي، هذا مدى الحياة، إذا كانَ لنا أن نحيا.

- لقد تذكرتُ أمي.

- أما أنا فوالدتي ماتت. أدركتُ الآن فقط أنها نُفيت بسبب أبي.

غفا الاثنان على المعاطف، وهما متعانقان، اقترب مدير المبنى منهما وشاهدهما وهما نائمان - كان رأس قاذف الهاون شابوشنيكوف ملقى على كتف مشغّلة اللاسلكي، وكانت يده ملتفة

حول ظهرها، وكأنّه خاف أن يفقدها. بدا لغريكوف أنهما قد ماتا، فقد كانا مستلقيين بهدوء وبلا حراك.

عند الفجر، نظر ليخوف إلى حجرة القبو، وصاح:

- هيه، شابوشنيكوف، هيه، فينغروفا، مدير المبنى يناديكما، لكن بسرعة. هرولا نصف منحنيين!

كان وجهُ غريكوف، في الغسق البارد والملبّد بالغيوم، شديدَ القسوة. اتكأ بكتفه الكبيرة على الحائط، وكان شعره المبعثر متدلّياً فوق جبهته المنخفضة.

وقفا أمامه، وكانا يبدّلان وقفتهما من رجل إلى أخرى، دون أن يلاحظا أنهما كانا يقفان، مُمْسِكاً كلٌّ بيدِ الآخر.

حرّك غريكوف خياشمَ أنف الأسد الأفطس الواسعة، وقال:

- اسمع يا شاباشنيكوف، ستنتقل الآن إلى مقرّ الفوج، سأرسلك في مهمّة.

شعر سيريوجا، كيف اهتزّت أصابع الفتاة، وضغط عليها، وهي شعرت بأن أصابعه ارتجفت. بلع هواءً، وجفَّ لسانُهُ وسما حلقه.

خيّم الصمتُ على السماءِ الغائمة، والأرض. وبدا أنّ الناسَ المستلقين جنباً إلى جنب، والملتحفين بالمعاطف ليسوا نائمين، بل ينتظرون، من دون تنفّس.

كان كل شيء جميلاً وودوداً من حولهم، وفكر سيريوجا: «الطرد من الجنة، ومثلما يفصلون الأقنان»، ونظر إلى غريكوف بابتهالٍ، وبكراهية.

حدّق غريكوف، نظرَ في وجه الفتاة، وبدت نظرته إلى سيريوجا مُقرفةً، ومتعجرفةً عديمةَ الرحمة.

قال غريكوف:

- حسناً، هذا كل شيء. سوف تذهب مشغلة الراديو معك، فما الذي يمكن أن تفعله هنا من دون جهاز إرسال، أوصلها إلى مقر الفوج.

وابتسم.

- وهناك ستجدان طريقكما بنفسيكما، خذا الورقة، كتبت واحدة لكليكما، أنا لا أحب الكتابة. مفهوم؟

رأى سيريوجا فجأة عينينِ جميلتين وإنسانيّتين وذكيتين وحزينتين تنظران إليه، وهذا ما لم يَرَهُ في حياته قطّ.

19

لم يتسنَّ لمفوّض فوج المشاة بيفوفاروف الوصول إلى المبنى «ستة على واحد».

فقد انقطعت الاتصالات اللاسلكية مع المبنى، إمّا أن يكون الجهاز قد تعطّل، وإمّا أن يكون النقيب غريكوف المسؤول عن المبنى قد سئم أوامرَ القيادة.

لقد تمكنوا في وقت من الأوقات، من الحصول على معلومات حول المبنى من خلال تشينتسُوف الشيوعي، فقد نقل أنّ مدير المبنى «تراخى تماماً» - وقال إنّ الشيطان وحده يعلم بدعَ الجنود. صحيح، إنّ غريكوف قاتل الألمان باحترافية. المُخبر لم ينكر ذلك.

في تلك الليلة التي كان بيفوفاروف يستعدّ فيها للتوجّه إلى المبنى «ستة على واحد»، مرض قائد الفوج بيريزكين مرضاً شديداً.

استلقى في المخبأ وكان وجههُ يتوقَّدُ من جراء ارتفاع حرارته، وعيناه لا معنى لهما، غير بشريتين، وشفّافتانِ كالزجاج.

ارتبك الطبيبُ عندما نظر إلى بيريزكين. لقد كان معتاداً التَّعامُلَ مع الأطراف المقطّعة، والجماجم المكسورة، وهنا يجدُ أمامهُ فجأة شخصاً مرض من تلقاء نفسه.

قال الطبيب:

- نحتاج إلى أوعية زجاجية، من أين نأتي بها؟

قرّر بيفوفاروف أن يخبر القيادة بمرض قائد الفوج، لكنّ مفوّض الفرقة اتصل ببيفوفاروف هاتفيّاً؛ وأمره بالحضور فوراً إلى قيادة الفرقة.

عندما دخل بيفوفاروف، وهو يتنفّس بصعوبة إلى حد ما (فقد سقط مرتين في حفرٍ قريبة) مَخْبَأَ مُفوَّض الفِرقة، وهو يتحدَّث إلى مفوض الكتيبة الذي عبر من الضفة اليسرى؛ سمع بيفوفاروف بأمرِ الرجل الذي قدّم تقارير عن القطع العسكرية في منطقةِ المصانع.

قدّم بيفوفاروف التحيّة بصوت عال:

- أتيتُ بناءً على أوامركم؛ وأبلغكم من فوري بمرض بيريزكين.

قال مفوض الفرقة:

- نعم، الوضع سيّئ. عليك أيّها الرفيق بيفوفاروف، أن تتولى قيادة الفوج.

- وماذا عن المبنى المُحاصر؟

قال مفوّض الفرقة:

- أين أنت؟ هنا طُبِخت عصيدة حول هذا المبنى المحاصر. وصل الأمر إلى قيادة الجبهة.

ولوّح بورقة مُشفّرة أمام بيفوفاروف، قائلاً:

- أنا، ومن أجل هذه المسألة استدعيتك. وأنتَ أيها الرفيق كريموف تلقيتُ أمراً من الإدارة السياسية للجبهة بإرسالك إلى المبنى المحاصر، واستعادة النظام البلشفي، وأن تصبح مفوضاً عسكرياً هناك، وإذا لزم الأمر، إعفاء غريكوف نفسه، وتولّي القيادة... كون

كلّ ذلك موجوداً في قطّاع فوجك، عليك أنّ توفر كل ما تحتاج إليه، كي تعبر إلى ذلكَ المبنى، ومن أجل تأمين الاتصالات اللاحقة. واضح؟.

قال بيفوفاروف:

- واضح، سأنفّذ ذلك.

سأله بعد ذلك، بصوت عادي، غير رسمي، بل طبيعي:

- أيّها الرفيق، مفوض الكتيبة، ستتعامل مع هؤلاء الرجال، هل هذا يتناسب مع اهتماماتك؟

ابتسم المفوّض القادم من الضفّة اليسرى، قائلاً:

- إنّه من ضمن اهتماماتي بالتحديد، أخرجت في صيف عام واحد وأربعين مئتي شخص من الحصار في أوكرانيا، كان هناك ما يكفي من مزاج حرب العصابات.

قال مفوض الفرقة:

- حسناً، رفيق كريموف، هيّا تصرّف. ابق على اتصال معي. دولة داخل دولة، لا يصحّ أن يكون.

قال بيفوفاروف:

- نعم، وهناك نوع من الأعمال القذرة مع الفتاة مشغلة اللاسلكي، كان صاحبنا بيريزكين قلقاً جداً بهذا الشأن، لقد صمت جهاز إرسال اللاسلكي. ويمكن أن تتوقَّعَ كل شيء من أولئكَ الشباب.

قال مفوض الفرقة:

- حسناً، تدبّر كلّ شيء هناك في المكان، هيّا، أتمنى لك التوفيق.

20

توجّه كريموف، بمرافقة رامي رشاش، إلى المنزل الشهير الذي يحاصره الألمان بعد يوم من إطلاقِ غريكوف كلاً من شابوشينكوف وفينغروفا خارجَ البيت.

غادرا مقر فوج المشاة في أمسية مضيئة وباردة. وبمجرد دخول كريموف الفناءَ الأسفلتي لمصنع جرّارات ستالينغراد، شعر بخطر التدمير أكثر وضوحاً وقوّةً من أي وقت مضى.

ولم يغادره في الوقت نفسه، الشعور بالسموِّ والسرور. لقد أكدت له الرسالة المشفّرة، التي جاءت على نحوٍ غير متوقع من مقر قيادة الجبهة أنّه هنا في ستالينغراد، كل شيء يسير على نحوٍ مختلف، وبعلاقات مختلفة، وتقييمات مختلفة، ومتطلبات مختلفة من الناس. كان كريموف هو كريموف من جديد، ولم يكن معاقاً من فريق المعاقين، بل كان مفوَّضاً بلشفيّاً مقاتلاً. لم تُخفْه المهمةُ الخطيرةُ والصعبة. كم كانت بهجة جميلة ولطيفة أن يقرأ في عيني مفوّض الفرقة، وفي عيني بيفوفاروف من جديد ما أظهره له رفاق الحزب دائماً.

استلقى جندي مقتول من الجيش الأحمر بين قطع الأسفلت المُكسّر بقذيفة، بجانب مدفع هاون مشوّه.

ولسبب ما الآن، حينما كانت روح كريموف مملوءةً بالأمل الحيويّ الذي أبهجه، أدهشه منظر هذه الجثّة. لقد رأى من قبل كثيراً من الموتى، وأصبح لامبالياً بهم. لكنَّه ارتجفَ الآن - استلقى الجسدُ المملوءُ بالموت الأبدي، عاجزاً كالطيور، ضمَّ الميّت رجليه، وكأنّه كان يشعر بالبرد.

لقد ركض القائد السياسي في معطف رمادي واقٍ للمطر بجانبه، حاملاً حقيبة ميدانيّةً سميكة، كان جنود الجيش الأحمر قد وضعوا على قماش مُشمّع ألغاماً مضادة للدبابات مع أرغفة خبز.

لكن الرجل الميت لم يكن في حاجة إلى الخبز والسلاح، ولا يريد رسالة من زوجته المخلصة. لم يكن قوياً في موته، كان أضعف من عصفور ميتٍ لا يخاف البعوضَ والعثّ.

نصب جنود المدفعية في فتحة جدار الورشة مدفعَ الفوج وتبادلوا الشتائم حول حسابات المدفع الثقيل. كان واضحاً من إيماءات المتحاورين ما الذي كانوا يتحدثون عنه تقريباً.

- هل تعرف كم من الوقت مضى على وجود مدفعنا هنا؟ كنتم لا تزالون تُثرثرون على الجانب الآخر، ونحن هنا نطلق النار.

- أنتم ناس وقحون، هذا ما أنتم عليه!

عوى الهواء، وانفجرت قذيفة في زاوية الورشة. تساقطت الشظايا على ظهريهما. التفتَ رامي الرشاش، الذي كان يسير أمام كريموف، ليرى ما إذا كان المفوض قد قُتل. قال وهو ينتظر كريموف:

- لا تقلق، أيّها الرفيق المفوّض، فنحن نعدّ؛ هنا الخطّ الثاني، في عمق الداخل.

أدرك كريموف بعد فترة قصيرة، أن الفناء عند سور الورشة كان مكاناً هادئاً.

اضطُرّا إلى الركض بعدَ ذلك؛ يصطدم وجهاهما بالأرض، ثم يركضان من جديد، ويسقطانِ من جديد. ارتميا مرتين في الخنادق التي ربضَ فيها المشاة؛ وركضا بين المباني المحترقة، حيث لم يكن ثمة ناس، كان الحديد يعوي ويصفر فحسب... قال رامي الرشاش من جديد لتهدئة كريموف:

- الأهم هو ألّا نسقط - ثم اقترح: - حسناً، أيّها الرفيق المفوّض، دعنا نذهب إلى تلك الحفرة.

زحف كريموف إلى قعر حفرة قذيفة، ونظر إلى الأعلى - كانت السماء الزرقاء فوق رأسه، لكن رأسه لم يُقطع، ولا يزال مُستَقِرّاً على كتفيه. من الغريب أن تشعر بوجود الناسِ فقط في حقيقة أن الموت، الذي يُرسل من الجانبين، يعوي، ويغني فوق رأسك.

غريب هذا الشعور بالأمان في حفرة، حُفرت بمجرفة الموت.

لم يسمح رامي الرشّاش له بالتقاط أنفاسه، وقال له:

- ازحف خلفي - وزحف في ممرّ مظلم، موجود في أسفل الحفرة. حشر كريموف نفسه خلفه، واتسع الممر المنخفض، ارتفع سقفه ودخلا نفقاً.

سُمع تحت الأرض، صوت هدير عاصفة أرضية، اهتزّ النفق، وانزلقت القعقعة إلى تحت الأرض. وهناك حيث الكثافة كانت الأنابيب المصنوعة من الحديد ممدودة على نحوٍ خاص، وتشعّبت الكابلات الداكنة بسماكة يد الإنسان، وكُتبت على الحائط عبارة «ماخوف حمار». أضاء رامي الرشاش مصباحاً يدوياً وقال:

- هنا يسير الألمان فوقنا.

سرعان ما استدارا إلى ممر ضيّق، متّجه نحو بقعة رمادية فاتحة بالكاد تُلحظ؛ وأصبحت البقعة في عمق الممرّ أكثر وضوحاً وإشراقاً، وسُمعت الانفجارات ورشقات الرشاشات بوضوح أكثر.

بدا لكريموف للحظةٍ أنّه يقترب من المشنقة. لكن ها هما يخرجان إلى السطح، وأوّل ما شاهده كريموف هو وجوه الناس؛ بدت له هذه الوجوه هادئة هدوءاً إلهيّاً.

سيطرَ شعورٌ لا يوصف على كريموف: فرح، وخفّة. حتى الحرب المستعرة التي يشعر بها لم تعد كحافة مصيريّة بينَ الحياة والموت، ولكن كعاصفة رعديّة فوق رأس مسافر شاب قوي ممتلئ بالحياة.

لقد شعر بنوع من الثقة الثاقبة، والواضحة، بأنّه يعيش ساعة تحوّل جديدة وسعيدة في مصيره، سيطرت عليه.

وكأنّه رأى في هذا النور النهاري الواضح مستقبله: عليه أن يعيش من جديد بكلّ قوّة عقله، وإرادته، وحماسته البلشفية.

إحساسهُ بالثقةِ والشباب امتزجَ بالحزنِ على ما مضى من حياتهِ، التي رآها طيبة كثيراً. لكنها الآن لا تبدو أنها فُقدت إلى الأبد. سوف تعود إليه، مع القوّة، ومع الحياة السابقة. فقد كان يسير إليها!

وقف رجل عجوز يرتدي قبعة على رأسه مُنحنياً فوق نار مشتعلة على الأرض وحرّك بحربته فطائرَ البطاطا التي تتحمّص على قطعة من صفيح القصدير الذي يُستخدم في عزل الأسقف. ووضع الفطائر الناضجة في خوذة معدنية. وعندما رأى جنديَّ الاتصال، سأل بسرعة:

- هل سيريوجا هناك؟

قال جندي الاتصال بجدّية:

- لقد وصل المدير!

سأل كريموف:

- كم عمرك أيّها الأب؟

أجاب الرجل العجوز:

- ستون - وأوضح قائلاً: - أنا من الميليشيات العماليّة.

حدّق في جندي الاتصال مرة أخرى، وسأل:

- وهل سيريوجا هناك؟

- لا ، غير موجود في الفوج، يبدو أنه وصل الفوجَ المجاور.

قال الرجل العجوز بتشاؤم:

- آه، سوف يضيع.

سلّم كريموف على الناس، ونظر حوله، وتفحّص حجرات القبو والحواجز الخشبية نصف المفككة. كان في أحد الأماكن مدفع فوجي، يطلّ من ثغرة مفتوحة في الجدار.

قال كريموف:

- كما على السفينة الحربيّة.

أجاب جندي الجيش الأحمر:

- نعم، لكن الماء قليل.

وفيما بعد كانت مدافع الهاون منصوبة في الحفر الحجرية والوديان.

قذائف الهاون كانت مرميّة على الأرض. وبالقرب منها أوكورديون على قماش مشمّع.

قال كريموف بصوت عال:

هذا هو المبنى «ستة على واحد» صامدٌ، لا يستسلم للألمان. إنّ العالم كلّه، والملايين من الناس سعداء بذلك.

صمت الناس.

قدّم العجوز بولياكوف لكريموف الخوذةَ المعدنيّةَ مملوءة بالفطائر.

- ولكنّهم لا يكتبون، كيف يخبز بولياكوف الفطائر؟

قال بولياكوف:

- أنتم تضحكون، وقد طردوا صاحبنا سيريوجا.

سأل قاذف الهاون:

- ألم تُفتح الجبهة الثانية بعد؟ لا نسمع شيئاً عن ذلك؟

أجاب كريموف:

- لم تُفتح بعد.

قال الشخص الذي يرتدي قميصاً وسترة مفتوحة:

- عندما بدأت المدفعية الثقيلة من وراء نهر الفولغا تهبط علينا، أوقعت موجةٌ كولوميتسيفَ على الأرض، وقف وقال: «أيّها الشباب، لقد فُتحت الجبهة الثانية».

قال الشاب ذو الشعر الداكن:

- لماذا تتكلّمون عبثاً؟ لولا المدفعية، لما كنّا نجلس هنا. لكان الألماني قد التهمنا.

سأل كريموف:

- لكن أين القائد؟

- هناك، يجثم على أقصى الحافة الأمامية.

كان قائد الفصيل يرقد على كومة عالية من الطوب وينظر من خلال المنظار.

عندما ناداه كريموف، أدار وجهه على مضض، ووضع إصبعه على شفتيه بخبث وتحذير، ومسك المنظار من جديد. بعد لحظات هزَّ كتفيه، وضحك. زحف نازلاً، قال مبتسماً:

- أسوأ من لعبة الشطرنج. وبعد تفحّصه للكتافيات الخُضْر ونجمة المفوّض على سترة كريموف، قال: - مرحباً بك في كوخنا، أيّها الرفيق مفوّض الكتيبة- وقدم نفسه: - غريكوف مدير المبنى. هل أتيت من ممرّنا؟

كان كل شيء فيه: نظرته، وحركاته السريعة، والخياشيم العريضة للأنف المسطّح - وقحاً، الوقاحة عينها.

فكّر كريموف: «لا بأس، لا بأس، سأطوّعه».

بدأ كريموف بطرح الأسئلة عليه. أجابه غريكوف بتكاسل، شارداً، متثائباً ومتلفّتاً حوله، كما لو أن أسئلة كريموف كانت تَعُوقُهُ عن تذكر أمرٍ مهم وضروري حقاً.

سأله كريموف:

- هل نستبدلك؟

- لأي سبب؟ - أجاب غريكوف - لا شيء هنا غير الدخان، وبطبيعة الحال، الألغام والقنابل اليدوية، وإذا كنتم ترثون لحالنا،

أرسلوا الفودكا و. . . - عندما كان يعدّ القائمة، كان يطوي أصابعه في يده.

سأل كريموفُ غريكوفَ غاضباً متفحّصاً لاإراديّاً وجهه القبيح:

- إذاً، لا تنوي المغادرة؟

صمتا، وخلال هذا الصمت القصير استطاع كريموف أن يحسَّ بشعور الطاعةِ النفسي لمرؤوسيه من الناس في المبنى المحاصر، فسأل:

- هل تكتبون مذكرات الأعمال القتالية؟

أجاب غريكوف:

- ليس لديّ أوراق. ولا يوجد ما يُكتب عليه، ولا يوجد وقت، ولا حاجة إلى ذلك.

قال كريموف:

- أنت خاضع لقائد فوج المشاة السادس والسبعين.

أجاب غريكوف قائلاً:

- سمعاً وطاعة، أيّها الرفيق مفوّض الفوج - وأضاف ساخراً: - عندما قطعوا القرية عن مُحيطها، جمَعتُ الناس، والأسلحة، وصددتُ ثلاثين هجوماً، وأحرقتُ ثماني دبابات، ولم يكن فوقي أيُّ قادة.

- هل تعلم عدد جنودك حتى تاريخ اليوم بدقّة؟ تحقّق من ذلك؟

- لماذا يجب أن أتحقق؟ أنا لا أقدّم ملاحظات حولَ البنية، وهل أحصلُ على تمويني من قسم التموين ومن مستودعاته؟ نحن نعيشُ على البطاطا الفاسدة والمياه الفاسدة.

- هل لديك نساء في المبنى؟

- الرفيق المفوض، وكأنّك تُحقّق معي؟

- وهل وقع أحد من جنودك في الأسر؟

- لا ، لم يكن هناك مثل هذه الحالة.

- ومع ذلك، أين هي مشغّلة اللاسلكي عندكم؟

عضّ غريكوف على شفّته، وقطّب حاجبيه مجيباً:

- هذه الفتاة هي جاسوسة ألمانيّة، لقد جندتني، ثم اغتصبتُها، ثم أطلقت النار عليها - ورفع عنقه، وسأل: - هل هذا ما تحتاج إليه مني؟ - وبسخرية قال: - أرى أن القضية تنبعث منها رائحة الكتيبة العقابيّة، أليس كذلك، أيّها الرفيق القائد؟

نظر كريموف إليه صامتاً عدة لحظات وقال:

- غريكوف، غريكوف، رأسك مصاب بالدوّار. وأنا نفسي كنت محاصراً. وقد سألوني.

نظر إلى غريكوف وقال ببطء:

- لديّ تعليمات - إذا لزم الأمر، تنحيتك من القيادة، وإعادة إخضاع الناس لقيادتي. لماذا تهتاج، وتدفعني إلى هذا الطريق؟

صمت غريكوف، وفكّر، وأنصت، ثم قال:

- يتلاشى القصف، لقد هدأ الألمانيّ.

21

قال كريموف:

- هذا جيد، سنجلسُ نحن الاثنين معاً، وندقّق خطواتنا اللاحقة.

قال غريكوف:

- لماذا نجلس نحن وحدنا؟ نقاتلُ هنا جميعاً معاً وندقّق الخطوات اللاحقة معاً.

وقاحة غريكوف أعجبت كريموف، لكنّها أغضبته في الوقت نفسه. فقد أراد أن يخبره عن الحصار في أوكرانيا، وعن حياته قبل الحرب، حتى لا يعامله غريكوف كمسؤول، ولكنَّهُ شعر بأنّ مثل هذه القصة ستُظهر ضعفه؛ هو الذي جاءَ إلى هذا المبنى لإظهار قوته وليس ضعفه. ثمَّ إنّه لم يكن مسؤولاً في الإدارة السياسية، بل كان مفوضاً عسكرياً.

فكّر: «لا بأس، لن يُخذل المفوض».

جلسَ الجنودُ في أثناء فترة الهدوء نصف مستلقين على أكوام الطوب. قال غريكوف:

- اليوم لن يهاجم الألماني. واقترح على كريموف: «هيا نأكل، أيّها الرفيق المفوّض».

جلس كريموف بجانب غريكوف بين الناس الذين كانوا يستريحون.

قال كريموف:

- أنظرُ إليكم جميعاً، بينما يتقلّب في رأسي القولُ المعروف: الروسُ يضربون البروسيين دائماً.

وأكد صوتٌ كسولٌ ليّنٌ:

- بالضبط!

وكان في هذه « بالض- ض- بط» كثيرٌ من السخرية المتساهلة مع الصيغ العامة، إلى درجة أن ضحكاً هادئاً وديّاً سرى بين الجالسين. لقد كانوا يعرفون ليس أقل من الشخص الذي قال لأوّل مرّة - «الروس يضربون دائماً البروسيين»، أيّ قوّةٍ يخفيها الروس بداخلهم، وهم في الواقع، التعبير الأكثر مباشرة لهذه القوة. لكنهم عرفوا وفهموا أن البروسيين وصلوا إلى الفولغا وستالينغراد ليسَ لأن الروس كانوا يضربونهم دائماً.

حدث أمرٌ غريب لكريموف في هذه اللحظات. ما أحبَّ أن يمتدحَ الموظفون السياسيون القادةَ الروسَ القدامى، كانت روحه الثورية تشمئزُّ من الإشارات الواردة في مقالات «النجم الأحمر» إلى دراغوميروف، وبدا له أن ليس من الضروري تقديمُ أوسمة باسم سوفوروف، وكوتوزوف، وبوغدان خميلنيتسكي[1]. الثورة ثورة وجيشها يحتاج إلى راية واحدة - الراية الحمراء.

شاركَ ذات مرة، في أثناء عمله في اللجنة الثورية لأوديسا، في

(1) أسماء قادة عسكريين بارزين في زمن روسيا القيصرية. (المترجمان).

موكبِ عمّال الموانئ وأعضاءِ كومسومول المدينة الذين أتوا لإسقاط التمثال البرونزي الجسدي للقائد العظيم الذي قاد حملات جيش الأقنان الروسي على إيطاليا عن قاعدتهِ.

شعر كريموف هنا بالتحديد، في المبنى «ستة على واحد»، بعد نطقه بكلمات سوفوروف لأول مرة في حياته، بالمجد الموحد للشعب الروسي المسلح الذي استمر قروناً. يبدو أنه شعر بطريقة جديدة ليس فقط بموضوع تقاريره، بل بموضوع حياته.

ولكن لماذا اليوم بالتحديد، بعدما تنفَّسَ من جديد الهواء المألوف للثورة اللينينية، جاءته هذه المشاعر والأفكار؟

وقد وخزته وآلمته كلمة «بالضبط»، التي نطقها بسخرية، وكسل، أحد المقاتلين.

قال كريموف:

- لا تحتاجون أيها الرفاق، إلى تعلّم القتال. أنتم بأنفسكم تعلّمون كل هذا. ولكن لماذا وجدت القيادة أنه من الضروري أن ترسلني إليكم، على الرغم من ذلك؟ لماذا أنا، فلنقلْ، أتيتُ إليكم؟

افترضَ أحدُهم بودٍّ وبصوتٍ خفيف:

- من أجل الحساء، أليس كذلك؟

لكن الضحك الذي أبداه المستمعون تجاه هذا الافتراض الخجول، لم يكن هادئاً. فنظر كريموف إلى غريكوف، الذي ضحكَ مع الآخرين.

قال كريموف واللون الشرّير يندفعُ إلى وجنتيه:

- أيّها الرفاق، كونوا أكثر جدّيّةً، لقد أرسلني الحزبُ إليكم.

ما الذي حدثَ إذاً؟ مزاجٌ عرضيٌّ، شغبٌ؟ وهل عدم الرغبة في الاستماع إلى المفوض ولَّدَهُ شعورُهم بقوته، وتجربته الخاصة؟ أم يمكن ألّا يكون في فرح المستمعين أي شغب، وقد نشأ ببساطة عن الإحساس بالمساواة الطبيعية، التي كانت قوية جداً في ستالينغراد.

ولكن لماذا أثارَ هذا الشعور بالمساواة الطبيعية، الذي كان يُمجّدهُ كريموف من قبل، شعوراً بالغضب الآن، ورغبةً في قمعه، وتطويعه؟

هنا، لم تنجح علاقةُ كريموف بالناس، ليس لأنهم كانوا مقموعين ومربكين وجبناء. هنا شعر الناس بالقوة والثقة، وهل يُعقل أن يكون هذا الشعور بالقوة الذي نشأ فيهم قد أضعف من علاقتهم بالمفوض كريموف، وأثار الغرابة والعداء فيه وفي نفوسهم؟

قال الرجل العجوز الذي كان يشوي الفطائر:

- أردت منذ فترة طويلة أن أسأل شخصاً حزبيّاً. يقولون، أيّها الرفيق المفوض، إنه في ظل الشيوعية سيحصلُ الجميعُ كلٌّ حسب حاجته، فكيف ستكون الحال، إذا كان كلّ شخص، وبخاصة منذ الصباح، سيحصل على ما يريد حسب الحاجة، عندئذ سيصبح الجميع في حالة سكر؟

استدار كريموف إلى الرجل العجوز ورأى اهتماماً حقيقياً على وجهه.

لكن غريكوف ضحك، ضحكت عيناه، وتضخمت خياشمه الكبيرة الواسعة من الضحك.

سأل جنديّ الألغام الذي يربط رأسه بضمادات مُدمّاتٍ متّسخة:

- وماذا عن الكولخوزات، أيّها الرفيق المفوض؟ لو يتم القضاء عليها بعد الحرب.

عَقَّبَ غريكوف:

- سيكون من الجيّد قراءة محاضرة بهذا الخصوص.

أجابَ كريموف:

- لم أحضر إليك لإلقاء المحاضرات، فأنا مفوض عسكري، لقد جئت للتغلب على حرب العصابات عندكم وهي ما لا يُسمَحُ به.

قال غريكوف:

- تغلّب عليها. لكن من سيتغلّب على الألمان؟

- يمكن إيجادُ من يفعل، لا تقلق. لم أجئْ من أجل الحساء، كما عبّرتم، بل لطهو العصيدة البلشفية.

قال غريكوف:

- حسناً، تغلّب، واطهُ العصيدة.

ضحك كريموف، وقال على محمل الجد في الوقت نفسه:

- وإذا احتاج الأمر، سيأكلونك أنت يا سيّد غريكوف مع العصيدة البلشفية.

أصبح الآن نيقولاي غريغوريفيتش هادئاً وواثقاً. زالت حالةُ التردد، حولَ الحلّ الأصحّ الذي يجب أن يكون. ينبغي إزاحة غريكوف عن القيادة.

يرى كريموف الآن بوضوح أنّ في غريكوف شيئاً معادياً وغريباً، لم تتمكّن من تقليصه أو إبطاله الأعمال البطولية التي تحدث في المبنى المحاصر. كان يعلم أنه يستطيع التعامل مع غريكوف.

عندما خيّم الظلام، ذهب كريموف إلى مدير المبنى وقال له:

- دعنا، يا سيّد غريكوف نتحدث بجّدية وبصراحة. ماذا تريد؟

نظر غريكوف إليهِ بسرعة، من الأسفل إلى الأعلى وكان جالساً، أمّا كريموف فكان واقفاً - ثمَّ قال مرحاً:

- أريد الحرية، وأنا أقاتل من أجلها.

- كلنا نريدها.

لوّحَ غريكوف بيده قائلاً:

- دعك من ذلك. لماذا تحتاج إليها؟ أنت تريد التغلّب على الألمان.

قال كريموف:

- لا تمزح، رفيق غريكوف. لماذا لا تمنع التصريحات السياسية الخاطئة التي تصدُرُ عن بعض المقاتلين؟ ها؟ يمكنك بهيبتك، القيام بذلك ليس أسوأ من أي مفوض. ولدي انطباع بأن الناس يسيئون وينظرون إليك كما لو كانوا ينتظرون موافقتك. هذا الذي تحدث عن الكولخوزات. لماذا دعمته؟ أقول لك مباشرة: دعنا نصحّح هذا الشيء معاً. ولكن إذا كنت لا تريد ذلك، فأنا أقول لك مباشرةً: لن أمزح في هذه المسألة.

- ما الغريبُ في الأمر بالنسبة إلى الكولخوزات؟ حقيقة، إنهم لا يحبونها، أنت تعرف ذلك أفضل منّي.

- ما بك يا غريكوف، هل قررت تغيير مجرى التاريخ؟

- إنّك تريد إعادة كل شيء إلى السكّة القديمة؟

- ماذا تعني بـ «كلّ شيء»؟

- كل شيء. ما فيهِ قَسر شامل.

تكلّم بصوت كسول، ورمى الكلمات ضاحكاً. ثمَّ نهض فجأةً، وقال:

- أيّها الرفيق المفوّض، دعك من ذلك. أنا لم أقرّر شيئاً. أردتُ إغضابك. أنا رجل سوفييتي مثلك. يغيظني انعدام الثقة.

- إذن هيّا يا غريكوف، ومن دون مزاح. سنتحدث بجدية عن كيفية القضاء على الروح غير السوفييتية وغير الناضجة. لقد خلقتها أنت، ساعدني على قتلها. فأنت لا يزال ينتظرك القتال والمجد.

- أرغب في النوم. وأنت تحتاج إلى الراحة. وسترى ما الذي سيبدأ هنا منذ الصباح.

- حسناً، يا غريكوف، لنترك الكلام ليوم غد. فأنا لا أنوي مغادرتكم، ولست في عجلة من أمري.

ضحك غريكوف قائلاً:

- ربّما، سنتفق.

فكّر كريموف: «كل شيء واضح. لن ألجأَ إلى العلاجِ البسيط العادي. بل سأعمل بمبضع الجرَّاح. لا يتم تقويم الحدبة السياسيّة من خلال الإقناع».

قال غريكوف على نحوٍ غير متوقع:

- عيناك جيّدتان. أنت تشعرُ بالحنين.

نشر كريموف ذراعيه بسبب المفاجأة ولم يجب. قال غريكوف كما لو أنّهُ سمع تأكيداً لكلامهِ:

- أتعرف عندي أنا نفسي كثيرٌ من الحنين. هكذا هو الأمر، هراء، شيء شخصيّ. لا يمكنك الكتابة عنه في تقريرك.

ليلاً أصيب كريموف برصاصة طائشة في الرأس، أثناء نومه. مزّقت الرصاصةُ الجلدَ وخدشتِ الجمجمة. كان الجرحُ غير خطير، لكن رأسَ كريموف كان يدور، ولم يستطع الوقوف على قدميه. شعرَ بالغثيان طوال الوقت.

أمر غريكوف بتفصيل نقالة، وأُجليَ الجريح في ساعة الفجر الهادئة من المبنى المحاصر.

استلقى كريموف على النقالة، وكان رأسه يطنُّ ويدور، وفي صدغِهِ ثمةَ نقر وتقلّصات شديدة متقطّعة.

رافق غريكوف النقالة إلى الممر تحت الأرض.

وقال:

- أنت لست محظوظاً، أيّها الرفيق المفوّض.

وفجأة لذع التكهّن كريموف - ألا يكون غريكوف من أطلق النار عليه ليلاً؟

وبحلول المساء بدأ كريموف يعاني من الإقياء، واشتدّ الصداع.

أمضى يومين في الكتيبة الطبية التابعة للفرقة، ثم نُقل إلى الضفة اليسرى ووضع في مستشفى عسكري.

22

وصل المفوض بيفوفاروف إلى مخابئ الكتيبة الطبية الضيّقة وشاهد وضعاً صعباً - الجرحى ممدَّدونَ جنباً إلى جنب. لم يعثر على كريموف في الكتيبة الطبية؛ فقد نُقل في الليلة السابقة، إلى الضفة اليسرى.

فكّر بيفوفاروف: «كيف أصيب من فوره؟ إمّا أنه لم يكن محظوظاً، وإمّا كان محظوظاً حقّاً».

أراد بيفوفاروف أن يتخذَ قراراً في الوقت نفسه، هل من المُجدي نقل قائد الفوج المريض إلى الكتيبة الطبية؟ بعد عودته إلى مخبأ المقر (كاد يُقتل في الطريق بشظايا قذيفةٍ ألمانيّة) قال بيفوفاروف لقاذف الرشاش غلوشكوف: ليست الظروفُ مناسبة في الكتيبة الطبيّة لعلاج المريض. ثمّة أكوام من الشاش المدمّى والضمادات والصوف القطني ملقاة في المكان؛ من المخيف الاقتراب. قال غلوشكوف وهو يستمع إلى المفوض:

- بالتأكيد، أيّها الرفيق المفوّض، من الأفضل أن يبقى في مخبئه.

أومأ المفوض قائلاً:

- نعم. وهناك لا يميِّزونَ قائد الفوج من المقاتل، الجميع على الأرض.

قال غلوشكوف، الذي يُفتَرَضُ حسب الرتبة أن يكونَ واحداً ممن يرقدون على الأرض:

- بالتأكيد، هذا غير مناسب.

سأل بيفوفاروف:

- هل قالَ شيئاً ما؟

- لا. - لوَّح غلوشكوف بيده - أيّ حديث، أيّها الرفيق المفوض، أحضروا رسالة من زوجته، ما زالت مرميّة جانباً، لم ينظر إليها.

قال بيفوفاروف:

- ماذا تقول؟ يا له من مرض! شيء فظيع، لا ينظر!

أخذ الرسالة، ووزن الظرف في يده، وقَرَّبَ الرسالة من وجه بيريزكين، وقال بصرامة وبمعرفة:

- إيفان ليونيفيتش، رسالة من زوجتك - انتظرَ قليلاً وأضاف بنبرة مختلفة تماماً: - فانيا، أتفهم؟ من زوجتك، أيعقل أنّك لا تفهم حقاً، هاه، فانيا؟

لكن بيريزكين لم يفهم.

كان وجهه ورديّاً، ونظرت عيناه اللامعتان الثاقبتان بلا معنى إلى بيفوفاروف.

كانت الحرب تطرُقُ بقوة عنيدة على المخبأ في ذلك اليوم، حيث كان يرقد قائد الفوج المريض. قُطعت الاتصالات منذ الليل في

الهواتف جميعها تقريباً؛ ولسبب ما كان الهاتف في مخبأ بيريزكين يعمل من دون انقطاع، لقد اتصلوا على هذا الهاتف من الفرقة، واتصلوا من إدارة عمليات الجيش، واتصل الجار: قائد الفوج من فرقة غوريف، واتصل قادة كتائب بيرزكين: بودشفوفاروف، وديركين، كان الناس يحتشدون في المخبأ في كل الأوقات، ويصرّ الباب ويصفّق القماش المشمّع على المدخل عند غلوشكوف.

سيطر القلقُ والتوجّسُ على الناس في الصباح. فقد تميّز هذا اليوم، بإطلاق نيران المدفعية البطيئة والغارات الجوية غير الدقيقة والقذرة، وكان لدى الكثيرين منهم قناعة كئيبة وثاقبة، بأن الضربة الألمانية ستحدث. وعذّبت هذه الثقة بالتساوي تشويكوف، ومفوض الفوج بيفوفاروف، والأشخاص الذين يجلسون في المبنى «ستة على واحد»، وقائد فصيلة صغيرة يشرب الفودكا منذ الصباح، يحتفل بعيد ميلاده بالقرب من أنابيب مصنع ستالينغراد للجرّارات.

ينظرُ الجميعُ في كل مرة تجري فيها أحاديث مثيرة للاهتمام أو مضحكة على نحوٍ خاص في مخبأ بيريزكين، إلى قائد الفوج، أيعقل أنه لا يسمع حتى هذا؟

حدّث قائد السرّية خرينوف، بصوت أجش بسبب برد الليل، بيفوفاروف كيف خرج قبل الفجر من القبو، حيث كان مركز قيادته، وجلس على الحصى، ليستمع إلى الألمان، ألا يمارسون أشياء غبيّة. وفجأة جاء صوت غاضب، ومستاء من السماء: «هيه، خرين، لماذا لم تُشعل السراج؟».

لقد صُعق خرينوف للحظة – من ذا الذي يعرف في السماء كُنيته؟ وشعرَ بالخوف، ثم اتضح الأمرُ بعد ذلك؛ لقد كان طيارُ طائرة

زراعية أوقفَ المحركَ وكان يخطط أن يُسقط فوق رأسه؛ موادَّ غذائيَّةً على ما يبدو للمبنى «ستة على واحد»، وكان غاضباً أنَّهم لم يحددوا الحافة الأماميّة.

نظر الجميع في المخبأ إلى بيريزكين: هل ابتسم؟ لكن بدا لغلوشكوف فقط أن مكاناً حيّاً ظهرَ في عينَي المريض الزجاجيّتين المشرقتين. حان وقت الغداء، وكان المخبأ فارغاً. ظلَّ بيريزكين مُستلقياً بسكون، وتنهّد غلوشكوف؛ فبيريزكين مُمدّد والرسالة تنتظر في الجوار. مضى بيفوفاروف والرائد - رئيس الأركان الجديد الذي حل محل كوشينكوف الذي قتل - لتناول طعام الغداء، حيثُ سيتناولانِ شوربة البورش العالميّة، ويشربُ كلٌّ منهما مئة غرام[1]. وكان الطاهي قد قدّم لغلوشكوف حساء البورش اللذيذ. أمّا قائد الفرقة، مضيف المكان، فلا يأكل، رشفَ قليلاً من الماء فقط من الكوب...

فتح غلوشكوف الظرف، واقترب ملاصقاً للسرير، وقرأ ببطء وبهدوء: «مرحباً يا عزيزي فانيا، مرحباً يا محبوبي، مرحباً حبيبي أنت».

عبس غلوشكوف واستمرَّ بقراءةِ ما كُتِبَ بصوتٍ عالٍ.

قرأ على القائد الفاقد للوعي رسالةَ زوجته، الرسالة التي يمكن أن يقرأها شخصٌ واحد فقط في العالم: هو بيريزكين.

لم يندهش غلوشكوف كثيراً، عندما أدار بيريزكين رأسه وقال: «أعطني إيّاها إلى هنا»، مدّ يده.

---

(1) المقصود طبعاً مئة غرام من الفودكا، وهو تقليد في الجيش السوفييتي، بسبب البرد القارس. (م).

ارتجفت خطوط الرسالة في أصابعه الكبيرة المرتجفة:

«. . . فانيا، المكانُ جميل جداً هنا، فانيا، كم نشتاق إليك! ليوبا تسأل لماذا بابا ليس معنا؟ نحن نعيش على ضفاف بحيرة، والمنزل دافئ، وصاحبة البيت عندها بقرة، وحليب، ومعنا النقود التي أرسلتها، أخرج في الصباح، وأوراق القيقب الُّصفر والحُمْر تطفو فوقَ الماء البارد، والثلج يحيطُ بها، وهذا ما يجعل الماء أكثر زرقة والسماء أكثر زرقة والأوراق صُفراً على نحوٍ لا يُصدَّق، وحُمْراً على نحوٍ لا يُصدَّق. وليوبا تسألني: لماذا تبكي؟ فانيا، فانيا، يا عزيزي، شكراً لك على كل شيء، شكراً لك على كل شيء، كل شيء، على طيبك. لماذا أبكي؟ كيف أشرح؟ أبكي لأني أعيش، أبكي حُزناً لأنّ سلافا[1] غير موجود، أما أنا فأعيش. أبكي من السعادة: أنت حيّ، أبكي عندما أتذكر أمي وأختي. أبكي من ضوء الصباح، لأنّ المكان جميل من حولنا، بينما هذا الحزن يخيّم، في كل مكان وعند الجميع وعندي. فانيا، فانيا، يا عزيزي، يا حبيبي، يا صديقي. . .».

الرأس يدور، وتتداخلُ الأشياءُ وتندمج بعضُها ببعض، وترتعش الأصابع، وترتجفُ الرسالة من الهواء الساخن.

قال بيريزكين:

- غلوشكوف، يجبُ أن أُشفى اليوم. - (تمارا لم تحب هذه الكلمة.) - كيف الأمر هناك؟ ألم ينكسر الإبريق الكهربائي؟

- الإبريق لم يصبه شيء. لكن كيف ستشفى في يوم واحد؟ -

---

(1) سلافا الاسم المصغّر لفيتيسلاف. (المترجمان).

درجة حرارتك أربعون، مثل زجاجة الفودكا، لن تنخفضَ من فورها.

أدخَل الجنودُ إلى المخبأ برميلاً معدنياً يُقرقعُ، كان يستخدم للبنزين. ملؤوا نصف البرميل بمياه النهر العَكِرة التي يتصاعدُ منها البخار من جراء الحرارة. سُكِبَ الماء من غلّاية ودلو من القماش المشمع.

ساعد غلوشكوفُ بيفوفاروفَ في خلع ملابسه وقاده إلى البرميل. وقال:

- إنّه حارّ جداً، أيّها الرفيق المقدم-كولونيل، ولمس البرميل من الخارج وسحب يده بسرعة إلى الخلف، ستُطبخ. لقد استدعيت الرفيق المفوّض، وهو عند قائد الفرقة في اجتماع، من الأفضل أن ننتظر الرفيق المفوّض.

- لماذا ننتظر؟

- إذا حصل لك مكروه، فسأطلق النار على نفسي. وإذا لم أجرؤ، فإن الرفيق كوميسار بيفوفاروف سوف يطلق النار عليّ.

- هيّا، ساعدني.

- اسمح لي أن أنادي ولو رئيس الأركان.

قال بيريزكين:

- حسناً، وعلى الرغم من أن هذه الـ «حسناً» التي خرجت بصوتٍ أجش، قالها رجل عارٍ، يقف بالكاد على رجليه، إلّا أنّها جعلت غلوشكوف من فوره يتوقفُ عن الجدال.

أنّ بيريزكين بعد أن غطس في الماء، وتأوّه، وشتم، ونظر إليه غلوشكوف، وأنّ بدورهِ، وأخذ يدور حول البرميل.

ثمَّ فكّر لسببٍ ما: «كما في مستشفى الولادة».

فقدَ بيريزكين وعيه مؤقتاً، واختلط كل شيء في الضباب: الإنذار العسكري، وحمّى المرض. فجأة تَسمَّرَ، وتوقف قلبُه، وتوقفت المياهُ عن إحراقٍ لا يطاقُ للجسدِ و للضمير. ثم عاد فجأةً إلى رشده، وقال لغلوشكوف:

- من الضروري مسح الأرض.

لكن غلوشكوف ما رأى كيف انسكب الماء من حافة البرميل. أخذ وجه قائد الفوج القرمزي يَبْيَضُّ، انفتح فمه نصفَ انفتاح، وظهرت قطرات كبيرة على الجمجمة المحلوقة بدت لغلوشكوف قطرات عرق. أخذ بيريزكين مرة أخرى يفقد وعيه، فإذا ما هَمَّ غلوشكوف بإخراجه من الماء، قال بوضوح:

- لم يحن الوقت، وسعل. وعندما مرت نوبة السعال، قال بيريزكين، دون أن يلتقط أنفاسه: اسكب الماء المغلي.

خرج أخيراً من الماء، وعندما نظر إليه غلوشكوف انهارَ نفسيّاً تماماً. ساعد بيريزكين في تنشيف جسمه والاستلقاء على السرير، وغطّاه ببطانية وبمعاطف، ثم بدأ يضع عليه كل الأقمشة غير المستعملة التي كانت في المخبأ - أقمشة مشمّعة وواقياتٍ من المطر، ومعاطف مبطّنة، وسراويل قطنيّة.

عندما عاد بيفوفاروف إلى المخبأ، كان كلّ شيء مرتّباً. كان في الهواء فقط رائحة حمّام رطبة. استلقى بيريزكين بهدوء ونام. وقفَ بيفوفاروف فوقه.

فكّر بيفوفاروف: «إنّ وجهه مجيد. هذا واحد لم يكتب تقاريرَ بالناس».

كان يشعر بالقلق طوال اليوم بسبب ذكرياته ما قبل خمس سنوات، عندما شهّر برفيقه شميليف الذي لازمه لسنتين دراسيّتين - اليوم، عندما خيّم هذا الشرّ، والهدوء الخانق والمؤلم، صعد كل أمرٍ تافه إلى رأسه، وشميليف صعد إلى الرأس بوجهه الحزين المؤسف الذي ينظر على نحوٍ مُعْوَجّ، وهو يستمع كيفَ يُقرأُ تقريرُ صديقه المُقرّب بيفوفاروف في الاجتماع.

اتصل تشويكوف هاتفياً نحو الساعة الثانية عشرة ليلاً، متجاوزاً قائد الفرقة، إلى الفوج المتمركز في قرية مصنع الجرارات - وهو قلق جداً بشأن هذا الفوج - مُبيِّناً أنَّ الاستطلاعَ أفادَ بأن الدبابات والمشاة الألمانيّة كانت تحتشدُ بكثرة في المنطقة.

قال متوتّراً:

- كيف هو الوضعُ عندكم؟ من الذي يقود الفوج أخيراً؟ أخبرني باتيوك أن قائد الفوج مصابٌ بالتهاب رئوي، ويريد نقله إلى الضفة اليسرى.

أجابه صوت أجش:

- أنا آمر الفوج، المقدم بيريزكين. مرضتُ قليلاً، والآن عادت صحّتي إلى وضعها الطبيعي.

قال تشويكوف، كما لو أنّه يشمت:

- أسمع. صوتك أجشّ كثيراً، لذلك سوف يُقدّم لك الألماني حليباً ساخناً لتشرب. لقد استعدّ، ضع هذا في الحسبان، سيسكبُ قريباً.

قال بيريزكين:

- فهمت، أيّها الرفيق الأوّل.

قال تشويكوفُ مُهدِّداً:

- إذاً قد فهمت، لذا ضع في اعتبارك أنك إذا قررت التراجع، فسوف أعطيك صفار البيض مع السكر، وهو ليسَ أقل سوءاً من الحليب الألماني.

23

أقنع بولياكوفُ كليموفَ بالذهاب إلى الفوج ليلاً، أراد الرجلُ العجوزُ الاستيضاح عن حالِ شابوشنيكوف.

نقلَ بولياكوف رغبته إلى غريكوف، فشعرَ الثاني بالسرور.

- تحرّك، تحرّك أيّها الأب، و ستستريح أنت بدورِكَ قليلاً في الخلف، ثم تخبرنا كيف هم هناك.

سأل بولياكوف مدركاً لماذا وافق غريكوف على طلبه:

- وعن كاتيا أيضاً؟

قال كليموف:

- إنّهما ليسا في الفوج؛ سمعتُ أنّ قائد الفوج أرسلهما في مهمّة إلى ما وراء الفولغا. ربمّا أصبحا في مدينة أختوب، وسجّلا زواجهما في السجل المدني.

سأل بولياكوفُ الرجلُ العجوزُ الخبيثُ غريكوفَ:

- إذاً لا حاجةَ إلى ذهابي، أو هل سترسل رسالة من قبلك؟

نظر غريكوف إليه بسرعة، لكنه قال بهدوء:

- حسناً، اذهب. اتفقنا.

فكر بولياكوف «مفهوم». زحفا في الساعة الخامسة صباحاً في الممرّ. وكونه أثار المسألة، ضرب بولياكوف رأسه بالجدار الساند للممرّ وشتمَ سيريوجا شابوشنيكوف شتائمَ مُقذِعةً، كان غاضباً ومحرجاً لأنّهُ اشتاقَ إلى الشاب.

اتسع الممرُّ، فجلسا قليلاً للراحة. قال كليموف، ضاحكاً:

- لماذا لم تحضر معك شيئاً للضيافة؟

قال بولياكوف:

- ليذهب إلى الجحيم هذا الولدُ ذو الأنف السائل. لكنتُ حملتُ قطعة طوب، وقدمّتها له.

قال كليموف:

- واضح، لهذا السبب فقط أنت ذاهب، ومستعدّ للسباحة إلى ما وراء الفولغا. أو ربما تريد أن ترى كاتيا، أيّها الرجل العجوز، إنّك تغار عليها بجنون؟

أجابَ بولياكوف:

- هيّا بنا نتابع السير.

سرعان ما صعدا إلى السطح، وسارا فوق أرض محايدة. كان ثمّةَ صمت في كل مكان.

فكر بولياكوف: «ماذا لو انتهت الحرب؟» وتخيّل غرفته بقوة مذهلة: صحن من البورش على المائدة، وزوجته تنظف السمك الذي اصطاده. حتى إنّه شعر بالحرّ.

أعطى الجنرال باولوس في هذه الليلة، أمراً بالتقدم في منطقة مصنع ستالينغراد للجرّارات.

كان على فرقتي المشاة دخول البوابات التي كسرتها الطائرات والمدفعية والدبابات. توهَّجت بالحُمرةِ منتصفَ الليلِ أضواءُ السجائر في راحاتِ الجنود المطويّة.

هدرت فوق أرضِ المصنع، قبل ساعة ونصف من الفجر، محركاتُ «اليونكرز». ولم يشهد القصفُ الذي بدأ أيَّ ركودٍ أو فترة راحة - وإذا ما تشكَّلت ولو للحظةٍ وجيزة ثُغرةٌ من الهدوءِ أثناء هذه القرقعات المتواصلة، تمتلئُ فوراً بصفراتِ القنابل التي تتسارع قادمةً من مُختلفِ القوات الحديدية الثقيلة إلى الأرض. وبدا أنّ هذا الهدير الكثيف المتواصل، مثل الفولاذ نفسه، يمكنه أن يكسرَ جمجمةَ الرجل، أو عموده الفقري.

بدأ الفجرُ يضيء، لكن الليل استمر كالسابق فوق منطقة المصنع.

بدا وكأنّ الأرضَ نفسُها تقذفُ البرقَ والرعدَ والدخان والغبار الأسود.

تركزت الضربة على نحوٍ خاص على فوج بيريزكين والمبنى «ستة على واحد».

فقفز الناسُ في جميع أنحاء الموقع مذهولين، ومُدركين أنّ الألماني قد بدأ «زعرنةً» انتحاريّةً جديدةً، لم يسبق لها مثيل من القوّة.

هرع كليموف والرجل العجوز، عندما فاجأهما القصف، نحو الأرض المحايدة، حيث كانت هناك حفرٌ قد حفرت بأطنان من القنابل نهايةَ شهرِ أيلول (سبتمبر). وفرّ في اتجاه الأرضِ المحايدة، المقاتلون من كتيبة شوفاروفسكي الذين تمكَّنوا من الوَثبِ من الخنادق المنهارة.

كانت المسافةُ بين الخنادق الألمانية والروسية صغيرةً جداً؛ إلى درجة أن جزءاً من الضربةِ سقط على خط المواجهة الألماني، مما أدى إلى شل جنود الفرقة الألمانية المتقدمة للهجوم.

بدا لبولياكوف أنّ رياح استراخان في اتجاه النهر، تندفع بكل قوتها على طول نهر الفولغا الهائج. تعثّر بولياكوف عدة مرات، وسقط أرضاً، ونسيَ في أيّ كون هو، شابٌّ أم عجوز، أين الأعلى، وأين الأسفل. لكن كليموف كان يسحبه ويسحبه - هيّا، هيّا، وسقطا في حفرة عميقة، وتدحرجا إلى قاع رطب ولزج. كان الظلام أكثر كثافة بثلاثة أضعاف، من ظلام الليل، ومن ظلام الدخان والغبار، ومن ظلام أعماق القبو.

استلقى كلٌّ منهما بجانب الآخر، - عاش في الرأس العجوز والرأسِ الشابّ نورٌ عزيزٌ مرغوبٌ فيه، طلبَ البقاء على قيد الحياة. كان هذا النور، أملاً مؤثّراً، يلتهبُ في الرؤوس كلها، وفي القلوب جميعها؛ ليسَ قلوب الناس فحسب، بل قلوب الحيوانات والطيور.

شتم بولياكوف بهدوء، معتقداً أن سيريوجا شابوشينكوف هو سبب المصيبة كلّها، تمتم: «حقق سيريوجا ما أراده». وفي نفسه بدا له أنه يُصلّي.

لا يمكن أن تستمر هذه الانفجارات الكثيفة لفترة طويلة؛ لقد كانت مملوءةً بتوتّراتٍ فائقة. ولكن الوقتَ مرَّ، ولم يهدأ الهديرُ الصاخب، ولم تضعف الظلمة الدخانية السوداء، ولم ينقشع الظلام، ولكنّه تدفّق أكثر، وربط الأرضَ بالسماء.

تلمّس كليموف يدَ رجلِ الميليشيا القديم العاملةَ الخشنةَ وضغطها، فهدّأت حركتُها اللطيفةُ الجوابية كليموف، للحظة في القبر

المفتوح. نثر انفجارٌ قويٌّ في الحفرة ركاماً من الأرض وقطعاً حجرية. ضربت قطعٌ من الطوب الرجلَ العجوز على ظهره. أصيب بالغثيان، عندما بدا لهُ أنَّ طبقات الأرض زحفت على طول جدران الحفرة. وها هي ذي الحفرةُ التي اضطر فيها الشخص إلى الزحف ولا يرى الضوء - سوف يسقط إليها الألماني من السماء، ويسوِّي فيها الحواف.

عادةً لم يكن كليموف يحبُّ المرافقين، حين يقومُ بمهمّةٍ استطلاعيّة، كان يسرع للذهاب إلى الظلام في أسرع وقت ممكن - مثلما كان السبّاح بارد الدم وصاحب الخبرة في عجلة من أمره للهروب من الشاطئ الصخري إلى أعماق البحر المكشوف. ولكنّه هنا، في الحفرة، ابتهج بوجود بولياكوف ملقىً بجانبه.

فقد الوقتُ حركتَه السلسة، وأصبح مجنوناً، وانطلق مسرعاً إلى الأمام مثل موجة الانفجار، ثم تجمّد فجأة، مربوطاً بقرن كبش.

وها هما الرجلان في الحفرة يرفعانِ رأسيهما- وفوقهما خيّم نصف ضوء ضبابي، ونقلت الرياحُ الدخانَ والغبارَ. . . هدأت الأرض، وانقسمت كثافة الصوت إلى انفجارات منفصلة. وسيطر إنهاك مُضجر؛ وبدا أن جميع القوى الحيّة قد انتزعت، وبقيت الكآبة فقط.

نهض كليموف، ورأى شخصاً ثالثاً مستلقياً بجانبه، مغطّىً بالغبار، مضغته الحرب من القبّعة حتى الحذاء. لم يكن كليموف يخاف الألمانَ، فقد كان واثقاً دائماً بقوته، وبقدرته الرائعة على سحب الزناد، وإلقاء قنبلة يدوية، والضرب بعقب البندقية أو بالسكين قبل لحظة من أن يفعل العدوّ ذلك.

ولكنه كان مربكاً الآن، وأدهشه أنّ عزاءه هو المذهول والمعمى عليه، شعوره بوجود الألماني بجانبه، وقد خلط بين يد الألماني ويد بولياكوف. نظر كلٌّ منهما إلى الآخر. كلاهما سحقتهُ القوَّة نفسها، وكلاهما عاجزٌ عن محاربة هذه القوة واتضح أنها لم تحمِ أحداً منهما، لكنها هدّدت كليهما بالتساوي.

صمتا، اثنان من السكان العسكريين. الحركة الأتوماتيكية الناجحة المثاليّة، التي يمتلكها كلاهما: القتل، تعطَّلت ولم تعمل.

أمّا بولياكوف فقد جلس على مسافة ونظر أيضاً إلى الألمانيّ، ذي الشعر الطويل. وعلى الرغم من أن بولياكوف ما أحبَّ الصمت لفترة طويلة، إلا أنّه صمت الآن.

كانت الحياة فظيعة، وفي أعماق عيونهم، ومض احتقارٌ كئيب بأنَّ تلكَ القوة التي دفعتهم إلى هذه الحفرة، وضغطت وجوههم إلى الأرض، ستحصدُ بعدَ الحربِ ليس المهزومين فحسب.

وكما لو كانوا متفقين، خرجوا من الحفرة، ووضعوا ظهورهم وجماجمهم في مرمى طلقة خفيفة، وكانوا واثقين تماماً بسلامتهم.

انزلق بولياكوف، لكن الألماني، الذي كان يزحف في الجوار، لم يساعده، تدحرج الرجل العجوز، ولعن وشتم الضوء الأبيض، فتسلّق بعنادٍ من جديد. صعد كليموف والألماني إلى السطح، ونظرا كلاهما: واحدٌ إلى الشرق، والثاني إلى الغرب: ألم ترَ القيادة أنهما كانا يتسلقان من حفرة واحدة، ولم يقتلْ أحدهما الآخر. ومضى كلّ منهما من دون التفاتٍ، ومن دون وداعٍ، إلى خندقه وإلى التلال والوديان المحروثة التي ما زال الدخان يتصاعدُ منها.

قال كليموف بصوت خائفٍ لبولياكوف الذي سار خلفه:

- مبنانا غير موجود، لقد سوّيَ بالأرض. أيعقل أن يكون الجميع قد قُتلوا، آه، يا إخوتي؟

بدأت في هذه الأثناء، رشقات البنادق والرشاشات، تعوي وتُتأتئ. أخذت القواتُ الألمانيَّةُ تشنُّ هجوماً كبيراً. لقد كان أصعب يوم في ستالينغراد.

- لقد أهلكنا سيريوجا الملعون. - تمتم بولياكوف. لم يفهم بعد، ما الذي حصل، وأنّه لم يبقَ أحياء في المبنى «ستة على واحد»، وما أزعجه هو تنهّدات كليموف وصرخاته.

24

أصابت قنبلة أثناء الهجوم الجوي، حجرة ممر الغاز تحت الأرض، حيث كان موقع قيادة الكتيبة، وردمت المكانَ فوقَ قائد الفوج بيريزكين وقائد الكتيبة ديركين ومشغّل هاتف الكتيبة الذين كانوا هناك في تلك اللحظة. وجدوا أنفسهم في ظلام دامس، مصعوقين، ويختنقون من غبار الحجارة، فكر بيريزكين في البداية أنه غير حيّ، ولكن ديركين عطس في تلكَ الحظة القصيرة من الهدوء وسأل:

- هل أنت حيّ، أيّها الرفيق المقدم؟

أجاب بيريزكين:

- حيّ.

فرح ديركين عندما سمع صوت قائد الفوج، وعاد إليهِ مباشرة المزاج الجيّد، الذي لم يفارقه منذ سنوات.

- ما دمت على قيد الحياة، فهذا يعني أنّ كل شيء على ما يرام - كان يتنفّس بصعوبة بسبب الغبار، ويسعل ويبصق البلغم، وقد قال ذلك على الرغم من أنّ أشياء كثيرة ليست على ما يرام. لقد انهال على ديركين ومشغّل الهاتف حصىً وقطع حجارة، ولم يكن واضحاً، هل كانت عظامهما سليمة أم لا، وهل في استطاعتهما تلمّس

أجسادهما. قضيبٌ حديديٌّ برزَ فوق رؤوسهم وجعلَ ظهورهم محنيَّةً، لكنَّهُ أنقذهم على ما يبدو. أضاء ديركين المصباح اليدوي، فشعروا فعليّاً بالخوف. وغطّى الغبار الحجارة، والحديد الملتوي، والأسمنت المنفوخ، الممتلئ بزيوت التشحيم، والكابلات المسحوقة. وهُيئَ لهم أن ضربة قنبلة أخرى، لن تُبقي شقّاً ضيّقاً، ولن تُبقي أحداً - حيث سيُطبق الحجرُ والحديدُ عليهم.

هدؤوا لفترة من الوقت، وشعروا بالوهن - لقد ضربت الورَشَ قوةٌ عنيفةٌ.

فكّر بيريزكين: «هذه الورش عملت بأجساد عمّالها الميّتة على تعزيز الدفاع - من الصعب جداً كسرُ الخرسانة والحديد، وتمزيق حديد التسليح».

ثم طرقوا، وتحسّسوا ما حولهم، وأدركوا أنهم لا يستطيعون الخروج وحدهم. كان جهازُ الهاتف سليماً، لكنَّهُ كان صامتاً - فقد تقطّع السلك.

لم يستطيعوا التحدّث بعضهم إلى بعض تقريباً - لقد كتم دويّ الانفجارات أصواتهم، وغصّوا بالسعال بسبب الغبار.

بيريزكين الذي رقد لأيّام بسبب ارتفاع حرارته، لم يعد يشعر بالضعف الآن. عادة ما تكون قوته تابعة لكل من القادة ورجال الجيش الأحمر في المعركة، لكن جوهرها لم يكن عسكريّاً وقتاليّاً - لقد كانت قوة بشرية بسيطة وحكيمة. استطاع الناس النادرون فحسب الحفاظ عليها وإظهارها في جحيم المعركة، وهؤلاء بالتحديد، مالكو هذه القوّة المتحضّرة البيتيّة الحكيمة، كانوا أسياد الحرب الحقيقيين.

لكن القصف خفت، وسمع الناس المطمورون دويّ الحديد.

مسح بيريزكين أنفه، وسعل، ثم قال:

- بدأ عواء قطيع الذئاب، سارت الدبابات إلى معمل الجرّارات،- ثمّ أضاف - ونحن نجلس في طريقها.

ولأنه بدا أن لا شيءَ يمكنُ أن يكون أسوأ، فإن قائد الكتيبة ديركين غنى فجأة بصوت عالٍ لا يوصف، سعل، وغنّى أغنية من فيلم:

- بالحب، أيها الإخوة، بالحب، بالحب، أيها الإخوة، سنعيش،

ومع زعيمنا ليس ثمّة حزن[1]...

اعتقد مشغل الهاتف أن قائد الكتيبة أصيب بالجنون، لكنّهُ مع ذلك سعل وبصقَ البلغم وتابع الغناء:

الزوجة ستحزن، وتتزوج من آخر،

سوف تتزوج من آخر، وتنساني...

وعلى السطح، وبين أعمدة الورشة، المملوءة بالدخان والغبار وهدير الدبابات، قام غلوشكوف بتمزيق الجلد عن راحتي يديه وأصابعه الملطخة بالدماء، وبدأ يرمي الحجارة، وقطع الخرسانة، ويثني قضبان التسليح. لقد عمل غلوشكوف بنوبة جنون، والجنون فقط ساعده في لَيِّ القضبانِ الثقيلة وإزاحتها، وأنجز عملاً، يحتاج إلى قوّة عشرة أشخاص.

---

(1) أغنية شعبية قوزاقية، كان تُغنّى أثناء الحروب. (المترجمان).

رأى بيريزكين من جديد، ضوءاً مغبرّاً دخانيّاً مختلطاً بدويّ الانفجارات، وهدير الدبابات الألمانية، وقعقعة مدافعها الرشاشة. ومع ذلك، كان ضوءاً واضحاً وهادئاً حدَّقَ فيه، فكر بيريزكين أولاً: «انظري، تمارا، أنت عبثاً تقلقين، أخبرتك أنه لا يوجد شيء يُذكر». وعانقته يدا غلوشكوف القويّتان.

صاح ديركين بصوت باكٍ:

- اسمح لي أن أقدّم تقريري، أيّها الرفيق قائد الفوج، أنا أقود الكتيبة الميتة.

وأشارَ بيده إلى ما حوله.

- فانيا غير موجود، صديقنا فانيا غير موجود، وأشار إلى جثة مفوض الكتيبة المستلقية على جنبها في بقعة مخمليّة سوداء من الدم وزيت المحركات. واتضحَ أنَّ الأمور جيّدة نسبياً في مركز قيادة الفوج،- فقد سُملتِ الطاولةُ والسريرُ بالتراب فحسب.

عندما رأى بيفوفاروفُ بيريزكينَ، شتم بفرحٍ، واندفع نحوه.

أخذ بيريزكين يسأل:

- هل هناك اتصال مع الكتائب؟ كيف هو المبنى المنفصل؟ وما هي حال بودشوفاروف؟ وقعنا أنا وديركين، مثل العصافير في مصيدة الفئران، لا اتصال، ولا ضوء. من بقيَ على قيد الحياة؟ ومن مات؟ وأين نحن؟ وأين الألماني؟ لا أعرف أي شيء - ضعوني في صورة الوضع! بينما كنتم تقاتلون، كنّا نحنُ نردّدُ الأغاني.

بدأ بيفوفاروف الحديثَ عن الخسائر، وبأن الأشخاصَ في المبنى «ستة على واحد» قد اندملوا كلّهم، وماتوا مع المشاكس غريكوف، نجا اثنان فقط - الاستطلاعي والعجوز رجل الميليشيا.

لكن الفوج صمد أمام الهجوم الألماني، وكان الناجون يقاتلونَ بقوّة.

رنّ في هذا الوقت جرس الهاتف، وفهم جنود المقرّ، الذين نظروا إلى عامل الاتصال، من تعابيرِ وجهه أن الذي يتصل هو القائد الأعلى لستالينغراد.

سلّمَ مسؤول الاتصال الهاتفَ إلى بيريزكين - الصوتُ كان مسموعاً جيّداً، وتعرّف الناس، الذين أنصتوا في المخبأ، إلى صوت تشويكوف الضيق والمنخفض:

- بيريزكين؟ أُصيبَ قائدُ الفرقةِ، وقُتِلَ نائبُ رئيس الأركان، أطلب إليكَ تولّي قيادة الفرقة، وبعد صمتهِ لفترةٍ قصيرةٍ أضاف ببطء وبثقل: - لقد قُدت الفوج في ظروف غير مسبوقة، جهنّمية، وأوقفت الهجوم. شكراً لك. أعانقك يا عزيزي. أتمنى لك النجاح.

بدأت الحرب في وُرش مصنع الجرّارات. والباقون على قيد الحياة بصحة جيّدة.

لقد صمت المبنى «ستة على واحد». لم تُسمع طلقةٌ واحدة من بين الأنقاض. يبدو أنّ القوة الرئيسية للضربة الجوية استهدفتِ المبنى - انهارت بقايا الجدران، وسوّي التلُّ الحجري بالأرض. أطلقت الدبابات الألمانية النار على كتيبة بودشوفاروف، متخفيّةً خلفَ بقايا المبنى الميّت.

الأنقاضُ التي كانت قبل مدة وجيزة مُخيفة للألمان، والأبنية التي كانت لا ترحمهم، أصبحت الآن ملاذاً آمناً لهم.

بدت أكوامُ الطوب الأحمر من مسافة بعيدة، وكأنّها قطع كبيرة

من اللحم النّيْء، وكان الجنود الألمان الرماديون - الخُضر، بحماسة وسرعةٍ ضاجَّةٍ، يزحفونَ وسط كتل الطوب في المبنى المهدّم والمقتول.

قال بيريزكين لبيفوفاروف:

- عليك أن تقود الفوج، وأضاف: - طوال الحرب، لم تكن القيادة مسرورة منّي. وجلستُ هنا خاملاً تحت الأرض، وردّدت الأغاني، وتفضّل - حصلت على ثناء تشويكوف، والمزحةُ أنني كُلِّفتُ بقيادةِ الفرقة. والآن لن أخذلك.

لكن الألمانيَّ كان يعاند، ولم يكن ثمّة وقتٌ للمزح.

25

وصل شتروم وزوجته وابنته إلى موسكو في أيامٍ ثلجيّةٍ باردةٍ. لم ترغب ألكساندرا فلاديميروفنا في ترك العمل في المصنع فبقيت في كازان، على الرغم من أن شتروم حاولَ نقلها إلى معهد كاربوف.

كانت تلك الأيام غريبة - في الوقت نفسه كان لها وقعٌ مفرحٌ ومقلقٌ في النفس. بدا أن الألمان لا يزالون رهيبين وأقوياء، ويعدون ضربات قاسية جديدة.

لم يتَّضحْ أنَّ ثمّةَ نقطة تحول في الحرب. لكن سحب الناس إلى موسكو كان أمراً طبيعياً ومعقولاً، وبدا أن إعادة إجلاء بعض المؤسسات التي بادرت بها الحكومة إلى موسكو كانت مشروعة.

شعر الناس بالفعل بالإشارةِ السرّية لربيع الحرب. ومع ذلك، بدت العاصمةُ كئيبةً في الشتاءِ الثاني من الحرب.

تكدّست الثلوج القذرة تلالاً على طول الأرصفة. وربطت دروبُ المارّة على أطرافِ الشوارع، كما في القرى، مداخلَ المنازلِ بمحطَّاتِ الترام ومتاجر المواد الغذائيّة. وكانَ الدخانُ يتصاعدُ من أنابيب حديدية في كثيرٍ من النوافذ، ، وجدران المباني مغطاة بالسخام الأصفر الثلجي.

وبدا الناسُ في موسكو بمعاطف الفراء القصيرة، والأوشحة، مُهاجرين ريفيين.

نظر فيكتور بافلوفيتش، الجالس على الأمتعة في صندوق الشاحنة، خلالَ الطريق من المحطة، إلى وجه ناديا العابس وهي تجلس بجواره.

- ماذا يا مادموازيل؟ - سألَ شتروم - هل هذه هي موسكو التي تخيّلتِها في أحلامك في كازان؟

انزعجت ناديا أنَّ والدها فهم حالتها المزاجيّة.

بدأ فيكتور بافلوفيتش يشرح لها:

- لا يفهم الإنسان أن المدن التي أنشأها ليست جزءاً طبيعيّاً من الطبيعة. على الإنسان ألّا يُلقي بسلاحهِ من يده، وألّا يلقي المجرفة والمكنسة كي يصدّ الذئاب والعواصف الثلجيّة والأعشاب الضارة، عن ثقافته. ما إن يتثائب، ويتلهّى مدة عام أو عامين، حتى تضيع المسألة - فتزحَفُ الذئاب من الغابات، وتتسلق الأشواك، ويملأ الثلج المدن، وتندمل بالغبار. كم من العواصم الكبيرة ماتت بالفعل من الغبار والثلوج والأعشاب الضارة!

أراد شتروم من لودميلا، الجالسة في الكابينة بجوار السائق اليساري، أن تسمع ما يفكّر فيه، فاتكأ على جانب الشاحنة، وسأل من خلال نافذة نصف مفتوحة:

- هل أنت مرتاحة يا لودا؟

قالت ناديا:

- الفناءاتُ ببساطة لا تُنظّف من الثلج، فما علاقة موت الثقافة بالأمر؟

قال شتروم:

- أنت غبيّة. انظري إلى هذه التلال.

اهتزت الشاحنة بعنف، فقفزت الصُّرَرُ والحقائب جميعها في الشاحنة من الخلف، وقفز شتروم ونادیا معها. نظرَ كلٌّ منهما إلى الآخر، وضحكا.

غريب، غريب. هل كان في استطاعته أن يفكّر أنّه في سنة الحرب والحزن والتشرد، وفي عملية الإجلاء إلى كازان، سيكون قادراً على القيام بعمله الرئيسي الأكبر؟

هُيّئ لهم أنهم سيشعرون بتوتّر احتفالي فحسب، عند اقترابهم من موسكو، وبدا أنَّ الحزنَ على آنّا سيمينوفنا وتوليا وماروسا، والأفكار حول الضحايا التي فُقدت في كل أسرة تقريباً، ستندمجُ مع فرحة العودة، وتملأ الروح.

ولكنَّ الأمور كلها سارت ليس كما تصوّروا. في القطار، انزعج شتروم من التفاهات. وكان غاضباً لأن لودميلا نيقولايفنا نامت كثيراً، ولم تنظر من النافذة إلى الأرض التي دافع عنها ابنها. وشخرت في النوم بصوت عالٍ، وعَلّقَ جنديٌّ مصابٌ يمشي في العربة، عندما سمع شخيرها:

- واو، هذا على طريقةِ حرس الحدود.

لقد انزعج من ناديا: نظَّفت والدتُها بقايا الطعام من بعدها، وانتقت ناديا بأنانيّة مُفرِطةٍ البسكويت الأكثرورديّة من الحقيبة. وفي القطار اكتسبت استخدامَ بعض النبرات الغبيّة تجاه والدها. وقد سمعها شتروم تقول في المقصورة المجاورة: «والدي معجبٌ كبير بالموسيقا ويعزف على البيانو شخصيّاً».

دارت أحاديثُ الجيران في العربة عن مياهِ الصرفِ الصحّي والتدفئة المركزية في موسكو، وعن الأشخاص المهملين الذين لم يدفعوا نقوداً حسب أسعار موسكو المرتفعة وفقدوا حقهم في السكن، وحول المنتجات التي سيكون من المجدي جلبها إلى موسكو. كان شتروم غاضباً من الأحاديث حول موضوعات الحياة اليومية، لكنه تحدّث هو أيضاً عن إدارة المبنى، وعن أنبوب المياه، وفي الليل عندما لم يستطع النوم، فكَّر في التواصلِ مع موزع موسكو، حول ما إذا كان الهاتف مقطوعاً أو لا.

أخرجت امرأة شريرة، تعملُ مستخدمةً في العربة، وهي تُكنّس المقصورة، عظمةَ دجاجٍ أسقطها شتروم من تحت المقعد وقالت:

- إنّهم مجرّد خنازير، ويَعُدُّونَ أنفُسَهم من الفئة المثقفة.

مرّ شتروم ونادیا وهما يتمشّيان على رصيف القطار في مدينة موروما، بجانب شبّانٍ يرتدون معاطف طويلة لها ياقات من جلد الحمل. وقال أحد الشباب:

- أبرهام يعود من الإجلاء.

وأوضح الثاني:

- يسرع للحصول على ميدالية لقاء الدفاع عن موسكو.

توقف القطار في محطة كاناش، مقابل قطار آخر ينقل سجناء. سار الحراس على طول الجزء المُدفَّأ، والتصقت وجوه السجناء الشاحبة بالنوافذ الصغيرة المحميّة بشبكات حديدية، وصرخوا: «دخان»، «تبغ». شتمهم الحرّاس وطردوهم بعيداً عن النوافذ.

مشى في المساء إلى العربة المجاورة، حيث كانت عائلة

سوكولوف. فرشت ماريا إيفانوفنا، التي لفّت رأسها بمنديل، السرير لبيوتر لافرينتييفيتش على الطابق السفلي، ولها على الجزء العلوي. كانت قلقة بشأن ما إذا كان ذلك مناسبا لبيوتر لافرينتييفيتش، وأجابت عن أسئلة شتروم بأجوبة في غير مكانها، ولم تسأل حتى عن حالِ لودميلا نيقولايفنا.

تثاءب سوكولوف، واشتكى أنّه هلك بسبب الجوّ الخانق في العربة. شعر شتروم بالإهانة على نحوٍ غير عادي لأن سوكولوف كان مشتّتاً ولم يفرح بقدومه.

قال شتروم:

- أرى للمرة الأولى في حياتي، أنَّ الزوج يجبرُ زوجته على الصعود إلى الطابق العلوي، وهو نفسه ينام في الأسفل.

قال هذه الكلمات بتوتّر، وفوجئَ هو نفسه، لماذا أغضبه هذا الموقف كثيراً.

أجابت ماريا إيفانوفنا:

- نحن نفعل ذلك دائماً. يشعر بيوتر لافرينتييفيتش بالضيق في الأعلى، وبالنسبة إليّ لا فرق عندي.

وقبّلت جبينَ سوكولوف.

- حسناً، أنا ذاهب - قال ذلك شتروم، وغضب من جديد أن سوكولوف لم يطلب منه البقاء...

كان الجوّ خانقاً جداً في العربة ليلاً. تذكر كازان وكاريموف وألكساندرا فلاديميروفنا وهي تتحدث مع مادياروف، والمكتب الضيّق في الجامعة... كم كانت عينا ماريا إيفانوفنا لطيفتينِ وقلقتين

عندما يأتي شتروم في الأمسيات، إلى سوكولوف، ويتحدّث عن السياسة. ولم تكن مرتبكة وغريبة كما هي اليوم في عربة القطار.

«الشيطان يعرف السبب،- فكّر شتروم - هو نفسه ينام في الأسفل، حيث المكان أكثر ملاءمة وبرودة، إنّه تصميم البناء».

وفكّر وهو غاضب من ماريا إيفانوفنا، التي عَدَّها أفضل النساء اللواتي عرفهن، وديعة، طيّبة: «بيوتر لافرينتييفيتش أرنب ذو وجه أحمر. شخص ثقيل ليّن، ويضبط نفسه، وفي الوقت نفسه متعال زيادة عن اللزوم، كتوم وحاقد. نعم، المسكينة تعاني».

لم يستطع النوم، حاول التفكير في اللقاءات القادمة مع الأصدقاء، مع تشيبيجين - كثيرون يعرفون الآن عن عمله. ما الذي ينتظره، وهو القادم مع النصر؟ بماذا سيخبره غوريفيتش و تشيبيجين؟

فكّر في أن ماركوف الذي طوّر تفاصيل المحطّة التجريبية الجديدة جميعها، لن يصل إلى موسكو إلا بعد أسبوع، ومن دونه لن يكون في الإمكان بدء العمل. إنه لأمر سيّئ أنني وسوكولوف من الكلدان، ونحنُ مُنَظِّرَان بأيدٍ بلهاء وعمياء. . .

نعم، ماركوف هو الفائز، الفائز.

ولكن هذه الأفكار سارت كسولة، وتمزّقت.

أمامَ عينيهِ وقفَ ناسٌ يصرخون «التبغ»، «السجائر»، أحسنتم، أنتم الذين أطلقتم عليه اسم أبراهام. قال بوستوييف لسوكولوف عبارةً غريبةً أمامه؛ تحدث سوكولوف عن عمل عالم الفيزياء الشاب لانديسمان، وقال بوستوييف: «نعم، من يكونُ لانديسمان، وهذا فكتور بافلوفيتش فاجأ العالم باكتشاف من الدرجة الأولى؟»، -

وعانق سوكولوف، مضيفاً: - «ولكن الأمرَ الأكثر أهمية هو أننا معاً ناس روس» . . .

هل الهاتف قيد التشغيل؟ وهل الغاز يعمل؟ أيُعقل أن الناس العائدين من منفى نابوليون، منذ مئة عام ونيّف، فكّروا في هذا الهراء؟ . . .

توقفت الشاحنة بجانب المنزل، ورأت أسرة شتروم مرة أخرى النوافذ الأربعَ لشقتها وقد لُصِقت عليها، في الصيف الماضي، صُلبانٌ ورقيّةٌ زرقاء على الزجاج، والباب الأمامي وأشجار الزيزفون إلى جانب الرصيف، ورأت لوحةً كُتب عليها «حليب»، وهي مُثبَّتةٌ على باب إدارة المبنى.

قالت لودميلا نيقولايفنا:

- المصعد، بالتأكيد، لا يعمل -، وتوجّهت إلى السائق، سائلة: أيّها الرفيق، هل في إمكانك مساعدتنا في نقل الأمتعة إلى الطابق الثالث؟

أجاب السائق:

- ولِمَ لا؟ يمكنني ذلك. ادفعوا لي فقط لقاء هذا العمل خبزاً.

أفرغوا السيارة، وتركوا ناديا تحرس الأمتعة، وصعد شتروم وزوجته إلى الشقة. صعدا ببطء، مندهشين أنَّ شيئاً لم يتغيّر - الباب المغلّف بقماش مشمّع أسود في الطابق الثاني، وصناديق البريد المألوفة. كم غريب أن الشوارع والمنازل والأشياء التي تنساها، لا تختفي! ها هي ذي من جديد، ومن جديد يقف الإنسان بينها.

يوماً ما أسرع توليا إلى الطابق الثالث، من دون انتظار المصعد، وصرخ من الأعلى منادياً شتروم: «آها، أنا أصبحت في البيت!».

قال فيكتور بافلوفيتش:

- سنستريح على مطلع السُّلَّم، أنت تتنفّسين بصعوبة.

قالت لودميلا نيقولايفنا:

- يا إلهي. - إلى ماذا حوّلوا السُّلَّم؟ غداً سأذهب إلى إدارة المبنى وأجبر فاسيلي إيفانوفيتش على ترتيب عملية التنظيف.

ها هما من جديد أمام باب منزلهما: الزوج والزوجة.

- ربما تريدين فتح الباب بنفسك؟

- لا، لا، لماذا؟ افتح أنت، فأنت ربّ البيت.

دخلا الشقَّة، وتجوّلا في الغرفِ من دون خلع معطفيهما، ولمست الشوفاج بيدها، ورفعت سمّاعة الهاتف، نفخت فيها، وقالت:

- الهاتف... يبدو أنّه يعمل!

ثم ذهبت إلى المطبخ، وقالت:

- هناك ماء، يمكنك استخدام المرحاض.

اقتربت من فرن الغاز، وجرّبت الصنابيرَ الموصولةَ به، الغازُ كان مقطوعاً.

يا إلهي... يا إلهي هذا كل شيء. أوقِفَ تَقدّمُ العدو. وعادوا إلى منزلهم. كما لو أنَّ الأمرَ كان البارحة يوم السبت 21 حزيران (يونيو) 1941... كم كلُّ شيءٍ ثابت، وكم كلُّ شيءٍ مُتَغيّر! دخل أشخاص آخرون المنزل، ولديهم قلوب مختلفة، ومصير مختلف، ويعيشون في عصر مختلف. لماذا كلّ هذا القلق؟ ولماذا هو دنيوي جداً؟... لماذا تبدو الحياة المفقودة قبل الحرب جميلة وسعيدة إلى

هذه الدرجة؟... ولماذا الأفكارُ عن الغد تُعذِّبُ: مكتب البطاقات، الإقامة، تقنين الكهرباء، المصعد يعمل، المصعد لا يعمل، الاشتراك في الجريدة... ومن جديد في سريركَ تستمع أثناء الليل إلى نقر الساعة المألوف.

سار خلف زوجته وتذكر فجأة زيارته الصيفية إلى موسكو، ونينا الجميلة، التي شربت النبيذ معه، والزجاجة الفارغة، التي تقف الآن في المطبخ بالقرب من الحوض.

استذكر تلكَ الليلة بعد قراءة رسالة من والدته، أحضرها العقيد نوفيكوف، ورحيلَه المفاجئَ إلى تشيليابينسك. هنا قبّل نينا، وسقط دبوسٌ من شعرها، ولم يتمكنا من العثور عليه. سيطر عليه القلق، ألا يظهر دبوسُ الشعر على الأرض الآن؟ وربما نسيت نينا قلمَ الرصاص مع أحمر الشفاه، وعلبة البودرا.

لكن السائق وضع في هذه اللحظة، الحقيبة وهو يتنفّس بصعوبة، ونظر حوله في الغرفة وسأل:

- تشغلون هذه المساحة كلّها؟

أجاب شتروم شاعراً بالذنب:

- نعم.

قال السائق:

- ونحن ستة في غرفة مساحتها ثمانية أمتار. الجدّة تنام في النهار، عندما يكون الجميع في العمل، وفي الليل تجلس على الكرسيّ.

اقترب شتروم من النافذة، كانت ناديا تقف عند الأمتعة المرتبة جانب الشاحنة، ترقص وتنفخ على أصابعها.

ناديا اللطيفة، ابنة شتروم العاجزة، هذا هو بيتها الأصليّ.

جلب السائق كيساً بداخله مواد غذائيّة وحقيبة سفر قماشيّة مملوءة بأمتعة الأسرّة، وجلس على الكرسي، وأخذ يلفّ سيجارة.

كان على ما يبدو، منشغلاً بجديّة بقضية الإسكان، وبدأ كلامه في الحديث مع شتروم حول القاعدة الصحيّة، لمتلقي الرشوة من إدارة إسكان المنطقة.

سُمع من المطبخ صوت سقوط الطنجرة.

قال السائقُ غامزاً شتروم:

- إنّها ربّة المنزل.

نظر شتروم من النافذة من جديد.

قال السائق:

- كلّ شيء على ما يرام، لا تقلق. ها هم الألمان يضربون في ستالينغراد، وسيصبح الأمرُ بسببِ الإجلاء أسوأ بالنسبة إلى السكن في المنطقة. عاد عامل أخيراً إلى المصنع بعد إصابتين، بالتأكيد، تعرض منزله للقصف، واستقر هو وعائلته في قبو غير سكني، وأصبحت زوجته حاملاً بالتأكيد، وكان عندها طفلان مصابان بالسل. دخلت المياهُ إلى القبو، وغمرته إلى ما فوق الركبتين. وضعوا ألواحَ خشبٍ على الكراسي الصغيرة، وساروا فوقَ تلكَ الألواح الخشبية من السرير إلى طاولة ومن الطاولة إلى فرن الغاز. لذلك بدأ يبحثُ عن حلٍّ - في لجنة الحزب، وفي لجنة المقاطعة، وكتب إلى ستالين. وعده الجميع، كلّهم وعدوه. أخذ زوجته وأطفاله وأمتعته وخرج ليلاً، واحتل غرفة في الطابق الخامس، وهي احتياطية

لمجلس المقاطعة. غرفة ثمانية أمتار ونصف. وهنا رفعوا عليه قضية كبرى! استدعاه المدعي العام - وقال له: ستترك الغرفة خلال أربع وعشرين ساعة، أو ستذهب إلى معسكر الاعتقال لمدة خمس سنوات، وسنأخذ الأطفال إلى دار الأيتام. ماذا فعل بعد ذلك؟ كان لديه أوسمة حرب، قام بغرزها في صدره، في اللحم الحيّ، ثم شنق نفسه في الورشة أثناء استراحة الغداء. انتبه الشباب له، وقطعوا الحبل فوراً. نقلته سيّارة الإسعاف إلى المستشفى. وأعطيَ فوراً ترخيصاً بالسكن، لكنّه ما زال في المستشفى، وكان الرجل محظوظاً - المساحة صغيرة، لكن فيها كل المنتفعات. حصل ذلك على نحوٍ عقلاني.

عندما أنهى السائق قصته، ظهرت ناديا.

سأل السائق:

- وإذا سُرقت الأمتعة، من سيجيب؟

تجاهلت ناديا وضمّت كتفيها، وأخذت تتجول في الغرف، تنفخ على أصابعها المجمدة.

ما إن دخلت ناديا البيت، حتى أخذت تُغضب شتروم.

- لو أنَّكِ تنزلينَ ياقة المعطف على الأقل - قال لها، لكن ناديا لوّحت بيدها، وصرخت باتجاه المطبخ:

- ماما، أنا جائعة على نحوٍ فظيع!

أبدت لودميلا نيقولايفنا نشاطاً كبيراً في هذا اليوم، إلى درجة رأى فيها شتروم أنها لو طبقت هذه القوة على شؤون الخطوط الأمامية، لتراجع الألمان مسافة مئة كيلومتر عن موسكو.

قام رجل الصيانة بتوصيل التدفئة، واتضح أن الأنابيب في حالة جيدة، ومع ذلك، لم يسخن الماء كثيراً. ولم يكن استدعاء عامل الغاز أمراً سهلا. استطاعت لودميلا نيقولايفنا الاتصال بمدير شبكة الغاز، وأرسل عامل صيانة من فريق الطوارئ. أشعلت لودميلا نيقولايفنا جميع مسخنات الغاز، ووضعت عليها مكاوي، وعلى الرغم من أن الغاز كان يحترقُ على نحوٍ ضعيف، فقد أصبح المطبخُ دافئاً، وكان يمكن الجلوس من دون معطف. بعدَ جهود السائقِ وعاملِ أنابيبِ المياهِ وعمالِ الغاز، أصبح كيس الخبز خفيفاً تماماً.

كانت لودميلا نيقولايفنا حتى وقت متأخر من المساء تعمل في الشؤون المنزلية. قَصّت خرقةً ومسحت سقوفَ الشقة وجدرانها. ثم مسحت الغبار عن الثريا، وأخذت الزهور المجففة إلى الباب الخلفي، وجمعت الكثير من القمامة، والأوراق القديمة، والخرق، ونقلت ناديا المتذمّرة ثلاث مرات الدلو إلى سلة المهملات.

غسلت لودميلا نيقولايفنا المطبخَ وأدوات المائدة، ونشّف فيكتور بافلوفيتش الأطباق والشوك والسكاكين تحت قيادتها، ولم تثق به فيما يتعلَّق بأدوات الشاي. وجمعت الثياب للغسيل في الحمام، وأذابت الزبدة على الموقد وفرزت البطاطا التي أحضرتها من كازان.

اتصل شتروم هاتفياً بسوكولوف، قالت ماريا إيفانوفنا:

- وضعت بيوتر لافرينتييفيتش في السرير لينام، لقد تعب من الطريق، ولكن إذا كان ثمَّةَ شيء عاجل، أوقظه.

قال شتروم:

- لا، لا، أردت أن أتحدَّثَ إليه، ولا شيءَ يخصُّ العمل.

قالت ماريا إيفانوفنا:

- أنا سعيدة جداً، أريد أن أبكي طوال الوقت.

قال شتروم:

- تعالي لزيارتنا اليوم، هل لديكِ عمل في المساء؟

أجابت ماريا إيفانوفنا وهي تضحك:

- ما بك؟ اليوم مستحيل، كم من الأعمال الكثيرة عند لودميلا نيقولايفنا وعندي.

سألت عن التقنين الكهربائي، وعن أنابيب المياه، وقال بوقاحة على نحوٍ غير متوقع:

- سأدعو لودميلا الآن، فهي ستتابع الحديث عن أنابيب المياه - وأضاف من فوره بتركيز مازح: - إنه لأمر مؤسف، إنه لأمر مؤسف أنك لن تأتي، كنا سنقرأ قصيدة فلوبير «ماكس وموريتز».

لكنها لم تجب على النكتة، وقالت:

- سأتصل لاحقاً. إذا كانت لدي مشكلة كبيرة في غرفة واحدة، فكم هو حجم الأعمال عند لودميلا نيقولايفنا؟!

أدرك شتروم أنها شعرت بالإهانة بسبب لهجته الوقحة. وفجأة أراد الذهاب إلى كازان. كم من الغرابة في تكوين الإنسان!

اتصل شتروم ببوستوييف، ولكن هاتفه كان معطّلاً.

اتصل بغوريفيتش، الدكتور في العلوم الفيزيائية، فأخبره جيرانه أن غوريفيتش ذهب إلى أخته في سوكولنيكي.

اتصل بتشيبيجين، لكن أحداً لم يقترب من الهاتف.

رنّ فجأة جرسُ الهاتف، وطلب صوت صبياني ناديا، لكن ناديا كانت تقوم في هذا الوقت برحلة مع سلّة القُمامة.

سأل شتروم بصرامة:

- من يسأل عنها؟

- هذا غير مهم، أحد معارفها.

نادته لودميلا نيقولايفنا:

- فيتيا، كفى ثرثرة على الهاتف، ساعدني في إزاحة الخزانة.

قال شتروم:

- مع من أتحدث، لا يحتاجني أحد في موسكو. لو تعطيني شيئاً آكله. سوكولوف أكلَ حتى التخمة ونام.

يبدو أن لودميلا جعلت المنزل أكثر فوضى - ففي كل ركنٍ كانَ ثمَّةَ أكوام من الثياب، مستخرجة من الخزائن ومرميّة على الأرض. وعاقتِ الأواني وأحواض المياه والحقائب المشي عبر الغرف وعلى طول الممر.

اعتقد شتروم أن لودميلا لن تدخل غرفة توليا في الفترة الأولى، لكنه كان مخطئاً.

قالت بعينين مشغولتين ووجه مُحمرّ:

- فيكتور، فيكتور، ضع المزهرية الصينية في غرفة توليا على خزانة الكتب، لقد غسلتها.

رن جرس الهاتف مرة أخرى، وسمع ناديا تقول:

- مرحباً، أنا لم أذهب إلى أي مكان، والدتي هرعت بسلة القمامة.

واستَعجَلَتهُ لودميلا نيقولايفنا قائلة:

- فيكتور، ساعدني، لا تنم، ما زال هناك كثيرٌ من الأعمال.

أيُّ غريزةٍ جبّارةٍ تلك التي تعيش في روح المرأة؟ وكم هي قوية! وكم هي بسيطة!

لقد هُزمت الفوضى مع حلول المساء، وأصبحت الغرفُ أكثر دفئاً، وأصبح منظرها المألوف قبل الحرب يعود إليها.

تناولوا العشاء في المطبخ. خبزت لودميلا نيقولايفنا الكعك، وقَلَت شرائح الدخن من العصيدة المطبوخة في النهار.

سأل شتروم ناديا:

- من اتصل بك؟

أجابت ناديا ضاحكة:

- إنّه فتى، يتصل لليوم الرابع، وأخيراً وجدني.

سألت لودميلا نيقولايفنا:

- هل كنت تراسلينه؟ وأخبرته مُقدَّماً بوصولنا؟

عبست ناديا ساخطة، وهزّت كتفها.

قال شتروم:

- لو اتصل بي ولو كلب. . .

استيقظ فيكتور بافلوفيتش ليلاً. كانت لودميلا تقف في قميص أمام الباب المفتوح لغرفة توليا، سمعها تقول:

- هل ترى؟ توليا، تمكنت من فعل كل شيء، ونَظَّفتُ غرفتك أيضاً، وكأنَّ الحربَ لم تكن، يا بني الطيب. . .

26

تجمّعَ العلماء الذين أتوا من الإجلاء في إحدى قاعات أكاديمية العلوم.

كل هؤلاء من كبار السن والشباب، الشاحبين، والصلع، ذوي العيون الكبيرة والعيون الصغيرة الثاقبة، وذوي الجباه العريضة والضيّقة، الذين تجمعوا معاً، شعروا بحالةٍ من الشعرِ الأسمى تتجاوز ما يمكن أن يشعروا بهِ في الحياةِ - شعريّة النثر. شراشف رطبة وصفحات رطبة من الكتب التي تقع في غرف غير مدفأة، ومحاضرات ألقيت في المعاطف مع الياقات المرتفعة، وصيغ مكتوبة بالأصابع الحُمْر المتجمدة، والصلصة المسكوفيّة المصنوعة من رقائق البطاطا وأوراق الملفوف الممزقة، والتدافع خلف الكوبونات، والأفكار المملة حول قوائم السمك المملّح والزيت النباتي الإضافي - انحسر كل شيء فجأة. تصافحَ المعارف وهم يلتقون بصخب.

رأى شتروم تشيبيجين بجانب الأكاديمي شيشكوف.

- ديميتري بتروفيتش! ديميتري بتروفيتش! - كرّر شتروم، ونظر في وجهه العزيز عليه. عانقه تشيبيجين.

سأله شتروم:

- هل يراسلُكَ الشباب من الجبهة؟

- يكتبون، يكتبون، وهم بصحة جيّدة.

أدرك شتروم حينَ رأى تشيبيجين عابساً ولم يبتسم، أنه علم باستشهاد توليا.

قال:

- فيكتور بافلوفيتش، انقل لزوجتك أنني أنحني بخشوع، انحناءة حتى الأرض. انحناءتي، وانحناءة ناديجدا فيدوروفنا أمامها.

وتابَعَ تشيبيجين مباشرة:

- لقد قرأتُ عملك، إنّه مثير للاهتمام، بل مهمّ جداً، أكثر أهمية مما يبدو عليه. هل تفهم؟ أكثر إثارة للاهتمام مما يمكننا أن نتخيّل الآن.

وقبّل شتروم على جبينه.

قال شتروم:

- وما الذي يمكن أن يكون هناك، إنَّهُ فارغ، فارغ. ارتبك وأصبح سعيداً.

عندما جاء إلى الاجتماع، كان قلقاً بشأن الأفكار الباطلة: من الذي قرأ عمله، وماذا سيقولون عنه؟ ماذا لو لم يقرأه أحد؟

تملَّكته الثقةُ من فوره بعد كلمات تشيبيجين؛ عنه فحسب، فقط عن عمله، سيكون الحديث هنا اليوم.

وقف شيشكوف في مكان قريب، وأراد شتروم أن يخبر تشيبيجين عن أشياء كثيرة لا يمكن الحديث عنها مع شخص غريب، وبخاصة مع شيشكوف.

ناظراً إلى شيشكوف عادة ما يتذكر شتروم عبارةَ غليب أوسبنسكي الساخرة: «جاموس هرمي!»

إنّ وجهَ شيشكوف المربع، ذا الكميّة الكبيرة من اللحم، والفم الوافر المتكبّر، والأصابع اللحميَّة مع الأظافر المصقولة، والقوالب الرمادية الفضية والقنفذ الكثيف، والبدلات المخيطة على نحوٍ ممتاز - كلّ ذلك ضغط على شتروم. في كل مرة التقى بشيشكوف كانت تخطر في باله فكرة: «هل سيعرفني؟»، وهل سيقول مرحباً، وغاضباً من نفسه، ابتهجَ عندما تحدث شيشكوف ببطء بشفتين سمينتين فبدت كلماته أيضاً كلمات لحميّة من لحم البقر.

قال شتروم لسوكولوف عندما دار الحديث عن شاباشنيكوف:

- الثور المتكبر! أنا خجول أمامه، مثل بلدة يهودية صغيرة أمام عقيد الفرسان.

قال سوكولوف:

- ولكن فكّر، هو مشهور بأنه لم يتعرف إلى البوزيترون عند تظهير الصور. ما من طالب دراسات عليا إلّا ويعرف خطأ الأكاديمي شيشكوف.

نادراً ما تحدث سوكولوف بسوء عن الناس، إما بسببِ حذرهِ، أو بسبب شعور ديني يحرِّم إدانة المقرّبين. لكن شيشكوف أزعج سوكولوف على نحوٍ لا يمكن السيطرة عليه، وكثيراً ما وَبَّخَهُ بيوتر لافرينتييفيتش وسخر منه، ولم يتمكن من كبح نفسه.

وتحدثوا عن الحرب.

قال تشيبيجين:

- أوقفوا الألمانَ عند نهر الفولغا - ها هي ذي قوّة الفولغا. الماء الحيّ، القوة الحيّة.

قال شيشكوف:

- ستالينغراد، ستالينغراد، لقد اندمج فيها انتصار استراتيجيتنا وقدرة شعبنا على الصمود.

سأل تشيبيجين فجأة:

- أليكسي أليكسييفيتش، هل أنتَ على دراية بالأعمال الأخيرة لفيكتور بافلوفيتش؟

- سمعتُ بها، بالتأكيد، لكنني لم أقرأها بعد.

لم تظهر على وجه شيشكوف علائم توحي بما سمعه بالضبط عن أعمال شتروم.

حدَّقَ شتروم في عيني تشيبيجين طويلاً - دع صديقه القديم ومعلمه يرَ كل ما مرّ به شتروم، وليعرف خسائره، وشكوكه. لكن عيني شتروم شاهدتا أيضاً الحزن والأفكار الثقيلة، وتعب السنّ على تشيبيجين.

اقترب سوكولوف، وبينما كان يصافحُ تشيبيجين، انزلقت نظرةُ الأكاديمي شيشكوف بهدوء إلى سترة بيوتر لافرينتيفيتش القديمة. وعندما اقتربَ بوستوييف، ابتسم شيشكوف بسعادة مع كل لحوم وجهه الكبير، وقال:

- مرحباً، مرحباً عزيزي، هذا شخصٌ تسرّني رؤيته.

وتحدثوا عن الصحة، والزوجات، والأطفال، وعن البيوت الريفية - الأبطال الكبار والرائعين.

سأل شترومُ بهدوءٍ سوكولوف:

- كيف رتبتم أنفسكم؟ هل هناك دفء في المنزل؟

- حتى الآن، ليس الأمرُ أفضل مما كان عليه في كازان. ماشا طلبت منّي أن نزوركم. ربما سنأتي بعد ظهر غد إليكم.

قال شتروم:

- هذا رائع، لقد افتقدناكم، كنا نلتقي كل يوم في كازان.

قال سوكولوف:

- نعم، كل يوم، وفي اعتقادي أن ماشا كانت تزوركم ثلاثَ مرات في اليوم. لقد اقترحت بالفعل أن نذهبَ إليكم.

ضحك شتروم واعتقد أن ضحكه لم يكن طبيعياً تماماً. دخل عالم الرياضيات الأكاديمي ليونتييف القاعةَ؛ أنفٌ كبير، جمجمةٌ ضخمة محلوقة ونظارات كبيرة صفراء اللون. قصدا يالطا ذات مرة، أثناء إقامتهما في غاسبرا، وشربا كثيراً من النبيذ في متجر لبيع الخمور، ثم انطلقا إلى مطاعم غاسبرا يغنّيانِ الأغاني الفاحشة، وأثارا الموظفين، وأضحكا السائحين كلّهم. ابتسم ليونتييف عندما رأى شتروم. تغابى فيكتور بافلوفيتش قليلاً، منتظراً أن يتحدث ليونتييف عن عمله.

لكن ليونتييف، على ما يبدو، تذكر مغامرات غاسبرا، فلوَّح بيده، صائحاً:

- ما رأيك؟ فيكتور بافلوفيتش، ألا نغني؟

قَدِمَ شابٌّ ذو شعر داكن في بذلة سوداء، ولاحظ شتروم أن الأكاديمي شيشكوف انحنى له من فوره.

اقترب سوسلاكوف من الشاب. كان سوسلاكوف مسؤولاً عن الشؤون المهمة، ولكن غير المفهومة في هيئة الرئاسة - كان من المعروف أنه بمساعدته من السهولةِ بمكان - أكثر مما يفعلُ الرئيس - يمكن نقل دكتورٍ في العلوم من ألما-آتا إلى كازان، ويمكنُ الحصولُ على شقة. كان رجلاً ذا وجهٍ متعبٍ، أحد أولئك الذين يعملون ليلاً، لهُ خدَّان مجعَّدان مصنوعان من عجينٍ رماديٍّ، وهو رجلٌ يحتاجُ إليه الجميعُ دائماً.

اعتاد الجميع على حقيقة أن سوسلاكوف يُدخّن «بالميرا» في الاجتماعات، وأن الأكاديميين يدخنون التبغ و«الماخورة[1]»، وأنَّ الناسَ وهم يغادرون مدخل الأكاديمية، لم يقولوا له: «هيا نوصلك»، بل قال هو مُقتَرِباً من سيارة «الزيس»، لأشخاص مشهورين: «دعوني أوصلكم».

رأى شتروم الآن، وهو يراقب حديث سوسلاكوف مع الشاب ذي الشعرِ الداكن، أنه لم يطلب من سوسلاكوف أي شيء - بغض النظر عن مدى اللباقة في الطلب، يمكن للمرء دائماً تخمين من كان يَسأل ومن يُسأل. وعلى العكس من ذلك، لم يكن الشابُّ مُسرعاً في إنهاء الحديث مع سوسلاكوف. انحنى الشاب مع التركيز على الخشوع لتشيبيجين، ولكن في هذا التركيز على الخشوع، مضت بطريقة أو بأخرى اللامبالاة في هذا الصدد.

سأل شتروم:

- بالمناسبة، من هو هذا الشاب النبيل؟

---

(1) الماخورة: (اللفظُ باللغة الروسيّة) وهو يعني ورق تبغ مفروم. (المترجمان).

تحدث بوستوييف بصوت منخفض:

- عمل أخيراً في قسم العلوم باللجنة المركزية.

قال شتروم:

- تعرف، لدي شعور مدهش. يبدو لي أن مثابرتنا على الصمود في ستالينغراد هي مثابرة نيوتن، ومثابرة آينشتاين، إن النصر عندَ نهر الفولغا يمثل انتصار أفكار آينشتاين، باختصار، أنت تفهم مثل هذا الشعور.

ابتسم شيشكوف بِحَيرة، وهزّ رأسه قليلاً.

قال شتروم:

- أيعقل ألّا تفهمني يا أليكسي أليكسييفيتش؟

قال الشاب من قسم العلوم الذي تصادف وجوده بالقرب من شتروم:

- نعم، الموضوع غير واضح. من الواضح أن نظرية النسبية، كما تُسمّى، يمكن أن تساعد في العثور على العلاقة بين نهر الفولغا الروسي وألبرت آينشتاين.

- كما تُسمّى؟ - قال ذلك شتروم مندهشاً وعبس من السخرية العدائيّة الذي أظهرها له.

نظر إلى شيشكوف طلباً للدعم، لكن يبدو أن الإهمال الهادئ للهرم أليكسي أليكسييفيتش كان ينسحب أيضاً على آينشتاين.

سيطر شعور شرير، وهياج مُعَذِّب على شتروم. حدثَ هذا لهُ في بعض الأحيان، يجب كبح جماح الاستياء والقوة العظيمة. ردّ فيما بعد في المنزل، ليلاً على هؤلاء الذين أغضبوه، وأصبح أكثر برودة،

وتجمّد قلبه. صرخ في بعض الأحيان، ناسياً نفسه، وأومأ دفاعاً عن حبه في هذه الخطب الخياليَّة، ساخراً من الأعداء. قالت لودميلا نيقولايفنا لناديا: «بابا يلقي خطاباً مرّة أخرى».

شعر بالإهانة في هذه اللحظات، ليس من أجل آينشتاين فحسب. فقد هُيّئ له أنّ كل واحد من معارفه، كان يجب أن يتحدث إليهِ عن عمله، وكان ينبغي أن يكون مركزَ اهتمام الجمهور. شعر بالإهانة والأذى. كان يعرف أنَّ من السخف أن يشعر بالإهانة من جرَّاء مثل هذهِ الأمور، لكنه شعر بذلك. الوحيد الذي تحدّث إليهِ عن عمله فقط، كان تشيبيجين.

قال شتروم بصوت وديع:

- الفاشيون طردوا آينشتاين اللامع، وأصبحت فيزياؤهم فيزياءَ قرود. لكن الحمد للّه، أوقفنا الحركة الفاشية. وكل هذا معاً: الفولغا، ستالينغراد، وأول عبقري في عصرنا، ألبرت آينشتاين، والقرية الأشد ظلمة، والمرأة الفلّاحة العجوز الأميّة، والحرية التي يحتاج إليها الجميع... وهذا كلّه توحّد. يبدو أنني تحدثت مربكاً، لكن ربما ليسَ ثمّةَ ما هو أوضح من هذهِ المعضلة...

وقال شيشكوف:

- يبدو لي، فيكتور بافلوفيتش، أن في مديحكم لآينشتاين انتقاءً خاصاً.

قال بوستوييف بمرح:

- عموماً، أود أن أقول إن ثمَّةَ انتقاء.

نظر الشاب من قسم العلوم بحزن إلى شتروم.

وقال:

- هنا، يا رفيق شتروم- ومرة أخرى، شعر شتروم بالعداء في صوته - يبدو من الطبيعي بالنسبة إليك أن توحّد آينشتاين بالفولغا في قلبك في مثل هذه الأيام المهمة لشعبنا، وفي هذه الأيام يستيقظ في قلوب خصومك شيءٌ مختلفٌ. لكن لا أحد يستطيع السيطرة على القلب، ولا شيءَ يمكن أن نجادل حوله. أمّا فيما يتعلق بتقييمات آينشتاين، فيمكن للمرء أن يجادل هنا، فأنا أعتقد أنه لا ينبغي إعطاء نظرية مثالية تقييماً كأعلى إنجازات العلم.

قاطعه شتروم، وقال بصوت معلّم متعجرف:

- دعك من هذا أليكسي أليكسييفيتش، الفيزياء الحديثة من دون آينشتاين هي فيزياء القرود. وينبغي ألّا نمزح بأسماء مثل آينشتاين وغاليليو ونيوتن.

وحذَّر أليكسيَّ أليكسييفيتشَ بإشارةٍ من إصبعه، ورأى كيف غمزَ شيشكوف.

ونقل شتروم بعد ذلك بفترة قصيرة لسوكولوف، وهو واقف عند النافذة، أحياناً هامساً، وأحياناً بصوت عالٍ هذه المواجهة غير المتوقعة.

قال شتروم:

- لقد كنتَ قريباً جداً ولم تسمع أي شيء. - ولسوء الحظ تشيبيجين ذهب، ولم يسمع.

عبس، وصمت. وبسذاجة صبيانية، كان يحلم بانتصاره اليوم. ويبدو أن سببَ القلق العام كان ظهور أحد الشبان المسؤولين.

سأل سوكولوف فجأة، كما لو أنّه توقع ماذا يفكر:

- هل تعرف اسم عائلة هذا الشاب الصغير؟ وهو قريبُ من؟

أجاب شتروم:

- ليس لدي أيّ فكرة.

همس سوكولوف، وقرّب شفتيه من أذن شتروم.

- ماذا تقول؟! - صاح شتروم. وقال بنبرة مطوّلة، متذكراً موقف الأكاديمي الهرمي وسوسلاكوف تجاه شاب في عمر الطلبة، وهو ما بدا غير مفهوم له،- إذاً هذ- ذ- ذا هو، وأنا كنت دَهشاً مما يحدث.

ضحك سوكولوف، وقال لشتروم:

- منذ اليوم الأول حرصتَ على إقامةِ علاقاتٍ وديّة في كل من قسم العلوم والقيادة الأكاديمية. أنت مثل بطل مارك توين الذي تفاخر بدخله أمام مفتش الضرائب. لكن شتروم لم تعجبه هذه الحدّة، وسأل:

- لكن هل أنت حقاً ما سمعتَ نقاشنا، وكنتَ تقف بجانبي؟ أم أنّكَ ما أردتَ التدخل في حديثي مع المفتش المالي؟

ابتسمت عينا سوكولوف الصغيرتان لشتروم، وأصبحتا لطيفتينِ وبالتالي جميلتين.

وقال:

- فيكتور بافلوفيتش، لا تُحبَط، هل تعتقد حقاً أن شيشكوف يمكنه تقييم عملك؟ يا إلهي، يا إلهي، كم من هذه الضجة الحياتية هنا حولنا، أمّا عملك فهو حقيقي.

وكان في عينيه وفي صوته، تلك الجدية، وذلك الدفء، اللذان توقعهما شتروم منه، عندما جاء إليه في أمسية خريفية في كازان. حينها في كازان، لم يتلقاهما فيكتور بافلوفيتش.

بدأ الاجتماع. تحدث المتحدثون عن مهام العلم خلال أوقات الحرب الصعبة، وعن الاستعداد لتكريس قوة الفرد لقضية الشعب، لمساعدة الجيش في نضاله ضد الفاشيّة الألمانيّة. وتحدثوا عن عمل معاهد الأكاديمية، وعن المساعدة التي ستقدمها للعلماء اللجنةُ المركزيَّةُ للحزب، وأن الرفيق ستالين، الذي يقود الجيش والناس، يجد وقتاً للاهتمام بالعلوم، وأنَّ على العلماء أن يكونوا أهلاً لثقة الحزب وستالين على نحوٍ خاصّ.

ودارَ الحديثُ أيضاً عن التغييرات التنظيمية التي نضجت في الوضع الجديد. وفوجئ علماء الفيزياء عندما علموا أنهم غير راضين عن الخطط العلميّة لمعهدهم؛ حيث يُولى كثيرٌ من الاهتمام للقضايا النظريّة البحتة. وتهامسوا فيما بينهم في القاعة بعبارةِ سوسلاكوف: «المعهد بعيد عن الحياة».

27

تناولت اللجنة المركزية للحزب قضية حالة العمل العلمي في البلاد. وقالوا إن الحزب سيعير الآن تطويرَ الفيزياء والرياضيات والكيمياء الاهتمامَ الرئيسي.

واعتبرت اللجنة المركزية أن العلم يجب أن يتجه نحو الإنتاج، ويرتبط أقرب، فأقرب بالحياة.

قالوا إن ستالين كان حاضراً في الاجتماع، وكالعادة، كان يمشي في القاعة، ممسكاً الغليونَ بيده، وتوقف وهو يفكر أثناء المشي، واستمع إمّا إلى كلمات المتحدثين، وإمّا إلى أفكاره.

عارض المشاركون في الاجتماع بشدة المثاليّة وعدم التقدير الكافي للفلسفة والعلوم الوطنيّة.

أدلى ستالين بملاحظتين في الاجتماع. عندما دعا تشيرباكوف لتقليص موازنة الأكاديمية، هز ستالين رأسه رافضاً وقال:

- إنتاجُ العلم - ليس طبخ صابون. لن نقلّص موازنة الأكاديمية.

وقُدِّمت الملاحظةُ الثانية عندما تحدثوا في المؤتمر عن نظريات مثالية ضارة وعن احترام بعض العلماء المفرط للعلوم الغربية. هزّ ستالين برأسه وقال:

- يجبَ أن نحمي أخيراً شعبنا من الأراكتشيفيين[1].

وأخبر العلماءُ الذينَ دعوا إلى هذا الاجتماع أصدقاءَهم بما دارَ حول هذا الموضوع، وأخذوا كلمة شرف منهم ألّا يخبروا أحداً. بعد ثلاثة أيام، كانت كل موسكو العلمية، في عشرات الدوائر العائلية والصديقة، تناقش بهدوء تفاصيل الاجتماع.

تحدّثوا بهمس أن ستالين كان شائباً ذا شعر رمادي، وأنّ لديه أسناناً سوداً مصابة، وأن يديه جميلتان بأصابع رقيقة ووجهه مملوءٌ بالجدري.

حُذِّرَ القاصرون الذين كانوا يستمعون إلى هذه القصص:

- انتبه، إذا ثرثرت، لن تُهلك نفسك فحسب، ولكن ستُهلِكنا جميعاً.

اعتقد الجميع أن وضع العلماء سيصبح أفضل بكثير، حيث ارتبطت آمال كبيرة بكلمات ستالين حول الأراكتشيفيين.

بعد بضعة أيام، أُلقيَ القبض على عالم الوراثة تشيتفيريكوف. وانتشرت شائعات مختلفة حول سبب اعتقاله؛ قال بعضهم: اتَّضحَ أنّه جاسوس، وبعضهم الآخر قالَ إنَّ الرجلَ التقى خلال رحلاته إلى الخارج مهاجرين روساً، وقال سواهم إن زوجته، الألمانية، راسلت قبل الحرب أختها التي تعيش في برلين، وقال آخرونَ السببُ يتجلّى في تقديمهِ أنواعاً غير مناسبة من القمح، تسبب الوباء وإخفاق

---

(1) ظهر هذا المصطلح في الربع الأوّل من القرن التاسع عشر، ويدل على منظومة الإجراءات والإصلاحات في روسيا القيصرية، وكان المبادر الرئيسي لهذه الإصلاحات الجنرال أراكتشييف أ. (المترجمان).

المحاصيل، وربط طرفٌ خامسٌ اعتقاله بالعبارة التي قالها عن توجيه أصابع الاتهام، ورأى فريقٌ سادسٌ - أن السببَ نكتة سياسية قالها لأحد أصدقاء الطفولة.

كان من النادر نسبياً السماع عن الاعتقالات السياسية خلال الحرب، وبدأ كثيرونَ، بمن فيهم شتروم، يعتقدون أن هذه الأمور الفظيعة قد توقفت إلى الأبد.

حَضَرت ذكرياتُ عام 1937، عندما كانت تُذكَرُ يوميّاً أسماءُ الأشخاص الذين يُعتقلونَ في الليلة الماضية. تَذكّرَ كيف أبلغوا بعضهم بعضاً على الهاتف: «أُصيبَ زوج آنّا أندرييفنا بالمرضِ الليلةَ الماضية...»، وتَذكَّرَ كيف أجاب الجيران على الهاتف بخصوصِ مُعتقلٍ ما: «غادرَ ومن غيرِ المعروفِ متى يعود...»، وتَذكَّرَ قصصاً تروي كيفيّة الاعتقال - جاؤوا إلى المنزل، وكان في ذلك الوقتِ يُحَمِّمُ طفلاً. أخذوه من العمل، من المسرح، في ساعة متأخرة من الليل... وتَذَكَّرَ: «استغرق التفتيش يومين، فتّشوا في كل شيء، حتى إنّهم كسروا الأرضيات... لم ينظروا في شيء؛ لكنَّهم وكنوعٍ من اللباقة، تصَفَّحوا الكتب...».

حَضَرت في الذاكرةِ عشرات الأسماء التي غادرت ولم تَعد: الأكاديمي فافيلوف... فيزي... الشاعر ماندلشتام، الكاتب بابل... بوريس بيلنياك... مايرهولد... عالما الجراثيم كورشونوف وزلاتوغوروف... البروفيسور بليتينيف... الدكتور ليفين...

ولم تكن المسألةُ تكمنُ في أنّ المعتقلين كانوا بارزين

ومشهورين. المسألة هي أن المشهورين وغير المشهورين، والمتواضعين، والبريئين غير الملاحظين، كلهم كانوا يعملون بأمانة.

أيعقل أن يبدأ كل شيء من جديد؟ أيعقل أن تتجمَّد الروح بعد الحرب من جرّاءِ أصوات قرعِ الخطوات الليلية وهدير السيارات؟

كم من الصعب الربط بين الحرب من أجل الحرية وهذه. . . نعم، نعم، عبثاً كنا نثرثر في كازان.

أعلَنَ تشيبيجين، بعد أسبوع من اعتقال تشيتفيريكوف، تركَهُ معهد الفيزياء، وعُيّنَ شيشكوف في مكانه.

حضر رئيس الأكاديمية إلى منزل تشيبيجين، وقالوا كما لو أنّ تشيبيجين دَعا إلى بيته بيريا أو ربّما مالينكوف، وأنّ تشيبيجين رفض تغيير خطَّة الموضوعات البحثيّة للمعهد.

قالوا: تقديراً لخدماته العلميّة العظيمة، لم يرغبوا في البداية بتطبيق تدابير صارمة ضدّه. وأقالوا في الوقت نفسه المديرَ الإداريَّ، الليبراليَّ الشابَّ بيمينوف، لأنَّ وجودهُ لم يتوافق مع التعيين.

كُلِّفَ الأكاديمي شيشكوف بمهمة المدير الإداري، وبالإدارة العلميّة، التي كان يقوم بها تشيبيجين.

انتشرت إشاعة بأن تشيبيجين أصيب بنوبة قلبية بعد هذه الأحداث. كان شتروم على وشك الذهاب إليه، اتصل بالهاتف؛ قالت الخادمة المنزلية التي أجابت على الهاتف إن ديميتري بتروفيتش شعر بالفعل بتوعك خلال الأيام الأخيرة، وبناء على نصيحة الطبيب، غادر المدينة إلى الريف مع ناديجدا فيدوروفنا وسيعود في غضون أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع.

قال شتروم للودميلا :

- هكذا، كما لو أنهم يضعون صبياً على سكة الترامواي، ويُسمّونَ ذلك الحماية من الأراكتشيين. الفيزيائي وقبل ذلك الماركسي تشيبيجين، البوذي أو الراهب. تشيبيجين أسّس مدرسة. تشيبيجين صديق ريذرفورد. كل بوّاب يعرف معادلة تشيبيجين.

قالت ناديا :

- حسناً، بخصوصِ البوابين، بابا، أصابكَ ما يكفي.

قال شتروم:

- انظري، إذا ثرثرتِ، فلن تدمِّري نفسك فحسب، بل ستدمِّريننا جميعاً.

- أعرف، هذا الكلامُ منزليٌّ فقط.

قال شتروم بتواضع :

- للأسف، ناديا، ماذا يمكنني أن أفعل لتغيير قرار اللجنة المركزية؟ أضرب رأسي بالجدار؟ ديميتري بتروفيتش أعلن بنفسه رغبته في الاستقالة. وكما يقولون، لم يوافق الناس على أنشطته.

قالت لودميلا نيقولايفنا لزوجها :

- لا تغلي هكذا. نعم، عدا عن ذلك، أنت نفسك تجادلت مع ديميتري بتروفيتش.

- حتى لو لم نتجادل، فلا توجد صداقة حقيقية.

قالت لودميلا نيقولايفنا :

- تماماً. وسترى أنهم وبسبب لسانك، سيعزلونك من قيادة المختبر.

قال شتروم:

- هذا لا يقلقني. ناديا مُحقّة، بالفعل إنّ كل أحاديثي للاستخدام الداخلي، لا تضرّ ولا تنفع. اتصلي بتشيتفيركوفا، وزوريها! أنتما صاحبتان.

قالت لودميلا نيقولايفنا:

- هذا غير مقبول، ونحنُ لا تعرفُ كُلٌّ منّا الأخرة عن كثبٍ. - لا أستطيع مساعدتها في أي شيء. ولن يكون لديها وقت لي. وأنت بمن اتصلت بعد هذه الأحداث؟

قالت ناديا:

- في رأيي يجب أن تتصل.

عبس شتروم قائلاً:

- المكالمات الهاتفية لا تفيد أساساً.

أراد التحدّث إلى سوكولوف حول خروج تشيبيجين، وليس إلى الزوجات والبنات. لكنّه منعَ نفسه من الاتصال ببيوتر لافرينتييفيتش، ليس هذا حديث هاتف.

غريب على الرغم من ذلك. لماذا شيشكوف؟ كان واضحاً أن آخر عمل لشتروم هو حدث في العلوم. وقال تشيبيجين في المجلس الأكاديمي إن هذا الحدث هو الأكثر أهمية خلال عقود في النظرية الفيزيائيّة السوفييتيّة. وها هم أولاء يضعون شيشكوف رئيساً للمعهد. هل هي مزحة؟ إنّه شخص ينظر إلى مئات الصور، ويرى آثار الإلكترونات تميل إلى اليسار، وفجأة أمامه صور للآثار نفسها، وللجزيئات نفسها تميل إلى اليمين. يمكنك القول إنَّهُ ضَغطَ البوزيترون في يده! هنا كان في إمكان الشاب سافوستيانوف أن يفهمَ

الأمر! أمّا شيشكوف ففتح شفتيه ووضع الصور جانباً كما لو أنّها خاطئة. قال سيليفان: «أوه، هذا هو اليمين، لا تعرف أين اليمين، وأين اليسار».

ولكن الأمر الأكثر إثارة للدهشة، هو أن مثل هذه الأشياء، ولسبب ما، لا تدهش أحداً. إنّها بطريقة ما أصبحت في حد ذاتها طبيعية. وجميع أصدقاء شتروم، وزوجته، وهو نفسه يعدُّ هذا الوضع قانونيّاً. شتروم لا يصلح رئيساً للمعهد، أمّا شيشكوف فيصلح.

كيف قال بوستوييف؟ نعم، نعم... «الأمرُ الأكثر أهمية هو أننا أناس روس».

لكن من الصعب على ما يبدو أن تكون روسياً أكثر من تشيبيجين.

تخيّل شتروم في الصباح، وهو يمضي إلى المعهد، أن الموظفين جميعاً هناك، من الدكاترة حتى موظفي المخبر، يتحدثون فقط عن تشيبيجين.

وقفت أمام مدخل المعهد سيّارةُ «زيس»، السائق رجل مسن يضع نظارات، يقرأ صحيفة.

قال الحارسُ العجوز، الذي شرب معه شتروم الشاي في المختبر في الصيف، وهو يلتقيهِ على السُّلَّم:

- لقد وصل الرئيس الجديد، - وأضاف بحزن: - ديميتري بتروفيتش صديقنا، آه؟

تحدّث في القاعة عاملو المخبر حول تركيب المعدات، التي حُصِلَ عليها قبيل ذلك في كازان. ملأت الصناديقُ الكبيرة قاعةَ

المخبر الرئيسية. فقد وصلت إلى جانب المعدات القديمة أجهزةٌ جديدة، صُنعت في الأورال. وقف نوزدرين، الذي بدا وجهه لشتروم متعجرفاً، بالقرب من صندوق ألواح خشبية ضخم.

كان بيريبيلتسين يقفز حول هذا الصندوق على ساق واحدة واضعاً عكازاً تحت ذراعه.

قالت آنّا ستيبانوفنا، مشيرة إلى الصناديق:

- أترى، فيكتور بافلوفيتش!

قال بيريبيلتسين:

- الرجل الأعمى سيرى مثل هذا العملاق.

لكن آنّا ستيبانوفنا لم تكن تعني الصناديق.

قال شتروم:

- أرى، أرى، بالتأكيد، أرى.

قال نوزدرين:

- سيأتي العمال خلال ساعة. - اتفقت مع البروفيسور ماركوف.

أطلقَ تلكَ الكلمات بصوت هادئ وبطيء كسيّد للموقف. لقد حان وقت إبراز قوّته.

ذهب شتروم إلى مكتبه. كان ماركوف وسافوستيانوف جالسين على الأريكة، وسوكولوف واقفاً بجوار النافذة، وكان رئيس المختبر المغناطيسي المجاور، سفيتشين، جالساً إلى مكتبه، ويدخِّن سيجارة.

عندما دخل شتروم، وقف سفيتشين، وهو يفسح المجال له للجلوس على كرسيه:

- إنّه مكان صاحب البيت.

قال شتروم:

- لا عليك، لا عليك، اجلس - وسأل من فوره: عمَّ يدورُ الحديث في الاجتماع الرفيع؟

قال ماركوف:

- عن زيادة الرواتب. لكأنّهم سيرفعون الحد الأدنى لرواتب الأكاديميين إلى ألف وخمسمئة، أمّا الموظفون العاديون فسيزيد إلى خمسمئة، كما هي الحال عند الفنانين والشعراء العظماء مثل ليبيديف - كوماتش.

قال شتروم:

- لقد بدأنا بتركيب المعدات، وديميتري بتروفيتش ليس في المعهد. كما يقول المثل: البيت يحترق، والساعة تعمل.

لكن الجالسين لم يتقبلوا الحديث الذي طرحه شتروم.

قال سافوستيانوف:

- وصل أمس ابن عمي، في الطريق من المستشفى إلى الجبهة، كنت في حاجة إلى شراب، واشتريت نصف لتر من الفودكا من جارتي بسعر ثلاثمئة وخمسين روبلاً.

قال سفيتشين:

- سعر خياليّ!

وقال سافوستيانوف بمرح:

- إن العمل في العلم - ليس طبخ صابون - ولكنّه رأى في وجوه محاوريه أن مزاحه غير مناسب.

قال شتروم:

- الرئيس الجديد موجود هنا.

قال سفيتشين:

- إنّه رجل ذو طاقة عظيمة.

قال ماركوف:

- لن نضيع بعد أليكسي أليكسييفيتش. - لقد شرب الشاي عند الرفيق جدانوف[1] في البيت.

كان ماركوف شخصاً مدهشاً؛ بدا أنَّ لديه قليلاً من المعارف، لكنه كان دائماً يعرف كل شيء: يعرفُ مثلاً أن المُرشَّحة في العلوم غابريكيفسكايا، العاملة في أحد المختبرات القريبة أصبحت حاملاً، وأن زوج عاملة التنظيف ليدا ذهب إلى المستشفى مرة أخرى، وأن لجنة التصديق الحكومية لم تصادق على منح سموروودينتسيف شهادة الدكتوراه.

قال سافوستيانوف:

- نعم الخطأُ الشهير الذي ارتكبه شيشكوف معروف بالنسبة إلينا. وهو شخص جيد عموماً. هل تعرف، بالمناسبة، ما الفرق بين الشخص الجيد والسيّئ؟ الشخص الجيّد لا يرغب في ارتكابِ فعل خسيس.

---

(1) أندريا أليكساندروفيتش جدانوف (1896-1948): كان سياسيّاً ومفكراً ومنظِّراً ثقافياً بارزاً في الاتحاد السوفييتي، ممثلاً للجناح الثقافي في الحزب الشيوعي، ويُعد من أشهر مفكري الحزب الشيوعي إبان الحقبة الستالينيّة. (المترجمان).

- الخطأُ خطأٌ، - قال رئيس المختبر المغناطيسي - ولن يجعلوا شخصاً أكاديمياً لقاء ارتكابه خطأً!

كان سفيتشين عضوَ مكتب الحزب في المعهد، وانضم إلى الحزب في خريف عام 1941، ومثل الكثيرين من الأشخاص الذين دخلوا أخيراً إلى الحياة الحزبيّة، كان مستقيماً على نحوٍ لا يتزعزع، وتعامل مع تعليمات الحزب بجدية الصلاة.

قال:

- فيكتور بافلوفيتش، لديّ عمل خاص بك، يطلب منك مكتب الحزب إلقاء كلمة في الاجتماع فيما يتعلق بالمهام الجديدة.

سأل شتروم بتوتّر، فالحديث دار، ليس كما كان يريد أبداً:

- أخطاء الإدارة، وإنجاز تشيبيجين؟ لا أعرف ما إذا كنتُ جيداً أم سيّئاً، لكنني لا أفعل الخساسة عن طيب خاطر.

واستدار نحو موظفي المختبر، وسأل:

- هل أنتم، أيها الرفاق، على سبيل المثال، توافقون على رحيل تشيبيجين؟ - كان واثقاً بدعمهم، وكان محرجاً عندما هزّ سافوستيانوف كتفيه بطريقة محيّرة.

- هل أصبح عجوزاً؟ هل أصبح سيئاً؟

قال سفيتشين:

- أعلن تشيبيجين أنه لن يقدّم أي عمل جديد. ما الذي كان يجب فعله؟ وإضافة إلى ذلك، هو الذي رفض بنفسه، وهم على العكس، طَلَبُوا إليهِ البقاء.

- الأراكتشيفيّون؟ - سأل شتروم - ها هم أولاء كُشِفُوا أخيراً.

قال ماركوف خافضاً صوته:

- فيكتور بافلوفيتش، يقولون إنّ ريذرفورد أقسم في حينه، ألّا يبدأ عملاً مع النيوترونات، خوفاً من أنّه وبمساعدته، سيكون من الممكن الوصول إلى قوى تفجيرية ضخمة. هذا نُبل، لكن النزاهة الزائدة لا معنى لها. وقاد ديميتري بتروفيتش، كما حدّثوا، حديثاً بروحٍ معموديَّةٍ مماثلةٍ.

فكّر شتروم: «يا إلهي، من أين يعرف كل شيء؟»

وقال:

- بيوتر لافرينتييفيتش، اتضح أننا لسنا الأغلبية.

هز سوكولوف رأسه قائلاً:

- فيكتور بافلوفيتش، يبدو لي أنه في مثل هذا الوقت، الفردّيةُ والعنادُ غير مقبولين. إنّها حرب. كان على تشيبيجين التفكير ليس في نفسه، ولا في مصالحه، عندما تحدث إليه رفاق أكبر منه.

عبس سوكولوف، وأصبح كلُّ شيءٍ قبيح في وجهه القبيح ملحوظاً على نحوٍ خاص.

- أوه، «حتى أنت يا بروتوس؟» - قال شتروم ذلك، مُخبِّئاً ارتباكه خلف عبارة ساخرة.

لكن ما يثير الدهشة هو أنه لم يكن مرتبكاً فحسب، بل بدا سعيداً. «حسناً، بالتأكيد، هذا ما كنت أعرفه». ولكن لماذا: «آه، بالتأكيد»؟ إنّه لم يفترض أن سوكولوف يمكنه الإجابة بهذه الطريقة. وإذا ما كان يفتَرِض ذلك، فما الذي يفرحه؟

قال سفيتشين:

- يجب أن تلقي كلمة. ليس من الضروري أبداً بالنسبة إليك أن تنتقد تشيبيجين. على الأقل قل بضع كلمات حول آفاق تطوّر عملك فيما يتعلق بقرار اللجنة المركزية.

التقى شتروم سيفتشينَ قبل الحرب، في حفلات سيمفونيّة في المعهد الموسيقي. قيل إنه في شبابه، وأثناء دراسته في قسم الفيزياء والرياضيات، كتب سفيتشين قصائدَ غامضة، ووضع أقحواناً في عروة سترته. أما الآن فقد تحدث سفيتشين عن قرارات مكتب الحزب، كما لو أن الحديث يدور عن صياغة الحقائق النهائية.

أرادَ شتروم أحياناً أن يغمزه، ويَخِزَهُ بإصبعه بخفة في جنبه، ويقول: «آه، أيها الرجل العجوز، دعنا نتحدث بطريقة بسيطة».

لكنه كان يعلم أنَّ التحدّثَ ببساطة إلى سفيتشين غير ممكنٍ الآن. ومع ذلك، صُدم شتروم بكلمات سوكولوف، وتحدث بطريقة بسيطة. سأل:

- تخفيض مهمّة تشيتفيريكوف، يرتبط أيضاً بالمهام الجديدة؟ سجن فافيلوف الأقدم أيضاً يتعلق بهذا؟ وإذا سمحت لنفسي أن أقول إنّ ديميتري بتروفيتش هو أكثر موثوقية بالنسبة إليّ في الفيزياء من الرفيق جدانوف، ورئيس قسم العلوم في اللجنة المركزية، وحتى. . .

ورأى أعين الناس الذين ينظرون إليه وهم ينتظرون منه أن ينطقَ باسم ستالين، ولوَّح بيده، وقال:

- حسناً، هذا يكفي، دعونا نذهب إلى غرفة المختبر.

فُتِحت الصناديق المزوّدة بمعدات جديدة، وقد وصلت من جبال الأورال، حَرَّروا الجزءَ الرئيسي بعناية، وكان يزن ثلاثة أرباع الطن،

من نشارة الخشب والورق والألواح الخام غير المصقولة. وضع شتروم يده على سطح المعدن المصقول.

سوف يولد من هذهِ الرحم المعدنيّة، شعاعٌ سريعٌ من الجسيمات، مثل الفولغا من تحت كنيسة صغيرة في سيليغير.

كانت عيون الناس حَسنة في تلك الدقيقة. جيّدٌ أن تشعرَ بوجود مثل هذا العملاق الرائع في العالم، ماذا تريد أكثر؟

بعد العمل، بقي شتروم وسوكولوف وحدهما في المختبر.

تحدث سوكولوف إلى شتروم قائلاً:

- فيكتور بافلوفيتش، لماذا تقفز مثل الديك؟ لا تواضعَ لديك. أخبرتُ ماشا عن نجاحاتك في اجتماع الأكاديمية، عندما تمكنت من إفساد العلاقات مع المدير الجديد والصبي العظيم من قسم العلوم في نصف ساعة. كانت ماشا منزعجة على نحوٍ رهيب، حتى إنها لم تنم ليلاً. أنت تعرف الوقت الذي نعيش فيه. وها نحن أولاء سنبدأ غداً تثبيتَ الجهاز الجديد. رأيت وجهك عندما نظرتَ إليه. وأنت تضحّي بكل هذا من أجل عبارة فارغة.

قال شتروم:

- انتظر، انتظر. لا يوجد ما أتنفّسه.

قاطعه سوكولوف قائلاً:

- آه يا رب. لن يزعجك أحد في العمل. تنفس ملءَ رئتيك.

- أنت تعرف يا عزيزي - قال شتروم وهو يبتسم بحزن - لديك ملاحظات ودّيّة تجاهي، شكراً لك من أعماق قلبي. لكن اسمح لي بمكاشفةٍ صادقةٍ مُتبادلة؛ لماذا باللّه عليك قُلتَ فجأة ما قُلتَهُ عن ديميتري بتروفيتش بوجود سفيتشين؟ بطريقة تؤلمني كثيراً بعد تفكير

كازان الحر. وفيما يخُصُّني: لسوء الحظ، أنا لست يائساً جداً. أنا لست دانتون، كما كنّا نقول أيام الطلبة.

- حسنا، الحمد لله، أنّك لست دانتون. بصراحة، رأيتُ دائماً أنّ الخُطباء السياسيين فقط هم أولئك الأشخاص الذين لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم في الإبداع، وفي البناء. أمّا نحن فإننا نستطيع.

قال شتروم:

- حسناً، هذا هو وقتك. وأين تذهب بالفرنسي جالوا؟ وأين تضع كيبالتشيتش؟

دفع سوكولوف كرسيه، وقال:

- كيبالتشيتش، كما تعلم، ذهب إلى النطع، وأنا أتحدث عن الثرثرة الفارغة. تلكَ التي مارسها مادياروف.

سأل شتروم:

- وهل هذا يعني أنني ثرثار فارغ؟

هزّ سوكولوف كتفيه بصمت.

وبدا أنّ الخلاف قد نُسي، مثلما نُسي كثيرٌ من الصدامات والخلافات. ولكن لسبب ما، لم تمر هذه الطفرة القصيرة من دون أن تترك أثراً. عندما تؤالفُ الصداقةُ حياةَ شخصٍ بحياةِ آخر، يحدث أن يختلفا، ويكون هذا الخلاف غير عادل، ومع ذلك فإن غضبهما المتبادل لا يترك أي أثر. ولكن إذا ما اختيرَ الانفصال الداخلي بين شخصين ما زالا لا يُدركانِ هذا الانفصال الداخلي، فإن أيّ كلمة عرضية أو لامبالاة صغيرة في العلاقات، تتحول إلى كلمة حادة وقاتلة للصداقة.

وغالباً ما يكمنُ التباينُ الداخليُّ عميقاً إلى درجة أنّه لا يخرج أبداً إلى النور، ولا يُدرِكُهُ النّاسُ أبداً. لكن نقاشاً صاخباً فارغاً، يُفلتُ كلمةً سيّئةً، ستبدو لهما حينها سبباً قاتلاً، يؤدي إلى تدمير صداقةٍ عمرها سنوات طويلة.

لا ليس بسبب ذكرِ الإوز تخاصمَ إيفان إيفانوفيتش وإيفان نيكيفوروفيتش[1]!

(1) إشارة إلى قصّة الكاتب الروسي نيقولاي غوغول: «قصة عن كيف اختلف إيفان إيفانوفيتش مع إيفان نيكيفوروفيتش». (المترجمان).

28

قالوا عن نائبِ رئيس المعهد الجديدِ كاسيان تيرنتييفيتش كوفتشينكو: «هو واحدٌ من كوادر شيشكوف الموثوق بها». لطيف، يُدخل الكلمات الأوكرانية في الحديث، وقد استلم كوفتشينكو شقة وسيارة شخصيّة بسرعة مذهلة.

وقال ماركوف - وهو خبير في كثيرٍ من القصص حول الأكاديميين والقيادات الأكاديمية - إن كوفتشينكو حصل على لقب «حامل جائزة ستالين»، عن العمل الذي قرأه لأول مرة بعد نشره - تَجلَّت مشاركته في العمل بأنه حصل على مواد نادرة وسارع بتمريرهِ وفقَ التسلسل.

كلّف شيشكوف من قبلُ كوفتشينكو بتنظيم مسابقة لملء الشواغر الجديدة. أُعلنَ توظيفُ كوادر علميّة، وكانت وظائف شاغرة لرؤساء مختبر التفريغ ومختبر درجات الحرارة المنخفضة.

خَصَّصت المؤسسة العسكرية الموادَّ والعمالَ، وأُعيدَ بناء ورش العمل الميكانيكيّة، وأُصلِحَ مبنى المعهد، وزوَّدتْ محطة موسكو للطاقة الكهربائية المعهدَ بكميّة غير محدودة من الطاقة، وزوّد عدد من المصانع المخصصة المعهدَ بمواد نادرة. كل هذه الأمور أدارها أيضاً كوفتشينكو.

عادة، عندما يصل رئيس جديد إلى مؤسسة، فإنهم يقولون بكل احترام عنه: «إنه يأتي إلى العمل قبلَ الجميع، ويجلس للراحةِ بعد الجميع». هكذا تحدثوا عن كوفتشينكو. لكن الرئيس الجديد يثير المزيد من احترام الموظفين، وقد قالوا عنه: «مرّ أسبوعان على تعيينه كما لو قبل نصف ساعة. هذا لا يحدث على الإطلاق.» وهذا يدل على أن الرئيس يُعدّ قوائم جديدة، ويرتفع في طبقة ستراتوسفير[1] الدولة.

هكذا تحدّثوا في المعهد عن الأكاديمي شيشكوف في الفترة الأولى.

أمّا تشيبيجين فقد مضى إلى البيت الريفي، للعمل في مختبر الكوخ كما قال بنفسه. نصحه بروفيسور الأمراض القلبية الشهير فاينغارت بعدم القيام بحركات مفاجئة، أو برفع الأثقال. قطّع تشيبيجين الحطب في البيت الريفي، وحفر الأقنية وشعر بالارتياح، فكتب فاينغارت: النظام الصحّي الصارم ساعده.

بدا المعهدُ في موسكو الجائعة والباردة، واحة دافئة ومتخمة. الموظفون الذين تجمّدوا في شقة رطبة خلال الليل، استمتعوا بوضع أيديهم على المشعَّات الساخنة عندما وصلوا إلى العمل في الصباح.

أعجب جمهور المعهد خصوصاً بالمطعم الجديد، المجهّز في القبو. وكان في المطعم بوفيه بيعَ فيه اللبن الخاثر، والقهوة الحلوة

---

(1) طبقة الستراتوسفير أو الغلاف الجوي الطبقي هي إحدى طبقات الجو العليا التي تعلو طبقة التروبوسفير وتمتد من ارتفاع 18 كيلومتراً إلى نحو 50 كم فوق سطح البحر. (المترجمان).

والمارتديلا. ولم تأخذ عاملة البوفيه قسائمَ اللحوم والدهون من بطاقات الطعام عندما وزّعَ، وهو ما كان موضع تقدير خاص من جمهور المعهد.

قُسِّمت وجبات الغداء في المطعم إلى ستٍّ فئات: للدكاترة في العلوم، لكبار الباحثين، للباحثين المبتدئين، لكبار عاملي المخابر، للموظفين الفنيين وعاملي الصيانة.

نشأت التوترات الرئيسية حول غداء الفئتين الأعلى، والتي امتازت بعضها من بعض بوجود مغلي الفواكه المجففة أو الهلام المسحوق على الطبق الثالث. ونشأت التوترات أيضاً فيما يتعلق بأكياس المواد الغذائية التي قُدِّمت للدكاترة ورؤساء الأقسام.

عَلَّقَ سافوستيانوف لعلَّ الخُطب حول نظرية كوبرنيكوس كانت أقل من تلك المتعلقة بأكياس المواد الغذائية.

في بعض الأحيان بدا أنَّ الإدارة واللجنة الحزبيّة ليستا الضالعتين في الأمر فحسب، بل ثمّةَ قوى أعلى غامضة كانت متورطة أيضاً في إعداد قوائم التوزيع الثأريّة.

قالت لودميلا نيقولايفنا مساء:

- إنّه لشيء غريب، استلمتُ اليوم الكيس الخاص بك: سفيتشين الطافحُ بالفراغ العلمي، تلقّى عشرين بيضة، أما أنت ولسبب ما فحصَّتُك خمس عشرة بيضة. راجعت القائمة. لكَ ولسوكولوف خمس عشرة فقط!

ألقى شتروم خطاباً مازحاً:

- الشيطان وحده يعرف ما هذا. كما هو معلوم، يتوزَّعُ علماؤنا

في فئات - أعظم، عظيم، مشهور، متميّز، ضخم، معروف، كبير، ذو خبرة، مؤهَّل، وأخيراً الأقدم. بما أن الأعظم والعظيم ليسا بين الأحياء، فلا يحتاجان إلى إعطائهما البيض. يُقدِّمون لكل من تبقى الملفوفَ والسميدَ، والبيضُ يقدَّمُ وفقاً للوزن العلمي. وهنا كل شيء مشوش: سلبي اجتماعيّاً، يقودُ ندوةً حولَ الماركسيّة، مقرّب من القيادة. وتحدث تفاهات: رئيس مرآب الأكاديمية يساوي زيلينسكي: خمس وعشرون بيضة. اقتحمت امرأةٌ جميلة جداً يوم أمس المختبر عند سفيتشين وانفجرت بالبكاء من الاستياء ورفضت تناول الطعام مثل غاندي.

ضحكت ناديا، وهي تستمع إلى والدها، ثم قالت:

- تعرف يا أبي، إنه لأمر مدهش كيف لا تشعر بالخجل وأنت تلتهم شرائح اللحم المخصّصة لك بجوار عاملات النظافة. جدّتي لن توافق على ذلك أبداً.

- ألا ترين، - قالت لودميلا نيقولايفنا - في هذا يتجلّى المبدأ: لكل شخص حسب عمله.

قال شتروم:

- أوه، هراء. لا تفوحُ رائحةُ الاشتراكية من ذلك المطعم، وأضاف:- حسناً، يكفي، أبصق على كل هذا. وأضاف فجأة:- أتعلمان، ماذا أخبرني ماركوف اليوم؟ الناسُ ينسخونَ عملي ليسَ في معهدنا فحسب، بل في معهد الرياضيات والميكانيك أيضاً، ويتناقلونه فيما بينهم لقراءته.

سألت ناديا:

- مثل قصائد ماندلشتام؟

- لا تسخري- قال شتروم - وطلاب الصفوف العليا يطلبون قراءة محاضرة خاصة.

قالت ناديا:

- نعم، قالت لي آلكا بوستويبفا: «صعدَ والدك إلى مرتبة العباقرة».

قال شتروم:

- حسناً، لنفترض أنَّ المسافة بيني وبين العباقرة بعيدة.

ومضى إلى غرفته، لكنه سرعان ما عاد وقال لزوجته:

- لا يخرج من رأسي ذلك الهراء. صرفوا عشرين بيضة لسفيتشين! مدهش، يا لقُدرتهم عندنا على إهانة الناس!

شعر شتروم بالخجل، لكن ما آلمه: لماذا كان سوكولوف على القائمة في الفئة نفسها معه؟ بالتأكيد، كان من الضروري الإشارة بتميّز شتروم ولو ببيضة واحدة على الأقل، حسناً، لو أعطوا سوكولوف أربعَ عشرة، أقل قليلاً، للتمييز فحسب.

سخرَ من نفسه، لكن لسبب ما، كان الشعور المزعج بالمساواة، في تسليم الطعام، مع سوكولوف أكثر إهانة من منح المزايا لسفيتشين. كان الأمر أسهل مع سفيتشين - إنه عضو في مكتب الحزب، ومزاياه مشت مع خط الدولة. وكان شتروم غير مبالٍ بذلك.

أما مع سوكولوف فقد لامست المسألةُ القوّةَ العلميةَ، والخدماتِ العلميةَ. هنا لم يكن شتروم غير مبالٍ. اجتاحه هيجان ثقيلٌ قادمٌ من عمقِ روحه. ولكن بأي شكل مثير للسخرية وبائسٍ قُدِّمت هذه

التقييمات. فهم ذلك. ولكن ماذا تفعل إذا كان الإنسانُ ليس عظيماً دائماً، وأحياناً يكون مثيراً للشفقة؟

عند ذهابه إلى الفراش، استذكر شتروم حديثه الأخير مع سوكولوف حول تشيبيجين فقال غاضباً بصوت عالٍ:

- غومو لاكيوس.

سألته لودميلا نيقولايفنا، وكانت تقرأ كتاباً في السرير:

- عمّن تتحدّث؟

قال شتروم:

- عمّن! عن سوكولوف. إنّه عبدٌ.

وضعت لودميلا إصبعها في الكتاب، وقالت دون أن تُدير رأسها نحو زوجها:

- ها أنت ذا تنتظر أن يطردوك من المعهد، وكلّ ذلك من أجل كلمة جميلة. أنت مزعج، وتُعلّم الجميع... خاصمتَ الجميع، وأرى الآن أنّك تريد أن تخاصم سوكولوف. قريباً لن نجدَ أحداً في بيتنا.

قال شتروم:

- حسناً، لسنا في حاجة، لسنا في حاجة، لودا، عزيزتي. حسناً، كيف أشرح لك؟ هل تفهمين؟ مرة أخرى الخوف نفسه الذي كان قبل الحرب من كل كلمة، العجز نفسه. تشيبيجين! لودا، إنه رجل عظيم! ظننت أن المعهد سَيَضِجُّ، لكن اتضح أن الحارس القديم هو الوحيد الذي تعاطف معه. قال بوستوييف لسوكولوف: «والأهم من ذلك، نحن معاً ناسٌ روس». لماذا قال ذلك؟

أراد التحدث طويلاً مع لودميلا، ليبُثَّها أفكاره وشُجونه. إنّه

يشعر بالخجل أن كل هذه الأمور تَشْغَلُهُ لاشعورياً بسبب قضية المواد الغذائية. لماذا هذا؟ لماذا بدا في موسكو وكأنه قد كبر، تلاشى، يهتم بالأشياء اليومية، المصالح الضيّقة الأفق، شؤون العمل؟ لماذا كانت روحه في مقاطعة كازان أعمق وأكثر أهمية ونظافة؟ لماذا حتى اهتمامه العلمي الرئيسي، وفرحته تعكّرا، وارتبطا بأفكار أنانيّة تافهة؟

- لودا، أنا مُثقَل، ووضعي صَعب. لماذا أنت صامتة؟ ها، لودا؟ هل تفهمينني؟ صمتت لودميلا نيقولايفنا. لقد نامت.

ضحك بهدوء، وبدا له مضحكاً، أنّ امرأةً، لم تنم، عندما عرفت عن فنونه، والأخرى غفت. ثم تخيّل فيما بعد وجه ماريا إيفانوفنا النحيل وكرّر من جديد، الكلمات التي قالها لتوّه لزوجته:

- هل تفهمينني؟ ها، ماشا؟

فكّر وهو يغفو: «اللعنة، ما هذا الهراء الذي يدخل رأسي؟».

لقد دخل إلى رأسه هراء بالفعل.

كانت يدا شتروم من دون موهبة، عادة، عندما كانت تحترق المكواة الكهربائية، وينطفئُ الضوء، بسبب ماس كهربائي، تقوم لودميلا نيقولايفنا بالإصلاحِ بنفسها.

تأثّرت لودميلا نيقولايفنا في السنوات الأولى من حياتها مع شتروم بعجزه. لكنها بدأت تتضايق منه في الآونة الأخيرة، وقالت ذات مرَّةٍ عندما وضع إبريق الشاي فارغاً على النار:

- لديك يدان من الطين، لكأنَّكَ رجل عديم الفائدة.

غالباً ما تذكر شتروم هذه الكلمات التي أغضبته وأزعجته، عندما بدأت في المعهد أعمال تركيب الأجهزة.

سيطر في المخبر ماركوف ونودزين، وأوّل من شعر بذلك سافوستيانوف، وقال في الاجتماع الإنتاجي:

- لا ربَّ إلّا البروفيسور ماركوف، ونودزرين نبيّه!

اختفت الصلابة وضبط النفس عند ماركوف. كان معجباً بشتروم لشجاعة فِكرِهِ، كان يحل المشكلات التي تظهر فجأة أثناء العمل. وبدا لشتروم أن ماركوف كان جراحاً يعمل بمشرط بين ضفائر من الأوعية الدموية والغدد العصبية. وأنّ كائناً عقلانياً ذا بصيرةٍ قويّة قد وُلد. وبدا أنّه جسدٌ معدنيٌّ قد منح قلباً ومشاعر، قادرٌ على الابتهاج والمعاناة مع الناس الذين صمَّموه.

دائماً ما كانت تُضحك شتروم قليلاً ثقةُ ماركوف الثابتة بأن عمله، والأجهزة التي صنعها، تعني أكثر من الشؤون الفارغة التي فعلها بوذا وأمثاله، أو الكتب التي كتبها تولستوي ودوستويفسكي.

تولستوي شكّك في فائدة كتاباته العظيمة! لم يكن العبقري متأكداً من أنه كان يفعل الأمرَ الذي يحتاج إليه الناس! لكن الفيزيائيين لم يكن لديهم أدنى شك في أن الناس يحتاجون إلى أعمالهم. وماركوف لم يُشّكك.

لكن الآن لم تعد ثقة ماركوف مضحكةً لشتروم.

أحب شتروم أن يراقب كيف يعمل نودزرين بالمبرد، أو الملقط، أو المفكّات، أو كيف يفرز بعناية خيوط الأسلاك، ويساعد الكهربائيين الذين يوصلون الطاقةَ الكهربائية إلى الجهاز الجديد.

كانت هناك على الأرض لفائف من الأسلاك، وصفائح زُرْق عاتمة من الرصاص. كان الجزءُ الرئيسي من الجهازِ، الذي أُحضِرَ

من الأورال، وهو ذو فتحات مستديرة، ومستطيلة مجوّفة في منتصف القاعة يربضُ على لوح من الحديد الزهر. كان ثمّةَ نوع من السحر المزعج والمثير للقلق في هذه الكتلة القاسية من المعدن، التي تقدِّمُ دراساتٍ رائعةً خياليَّةً للمادة. . .

على شاطئ البحر، ومنذ ألف أو ألفي عام، بنى عددٌ من الأشخاص طوافات من جذوع الأشجار السميكة، ثبتوها بالحبال والأقواس المعدنية. وانتصبت على الشاطئ الرملي بواباتٌ ومناضدُ عملٍ وأوانٍ مملوءة بالقطران على المواقد. . . كانت ساعة الإبحار تقترب.

في المساء، عاد بناة الطوافة إلى منازلهم، واستنشقوا رائحةَ السكن، ودفءَ الجمر، واستمعوا إلى شتائم النساء وضحكاتهم. وقد يبدؤون في بعض الأحيان بشجار منزلي، صاخب، مهددين الأطفال، ويختلفون مع الجيران. ويسمَعُ في الليل، في الظلام الدافئ، صوتُ البحر، وينقبضُ القلب تحسباً لطريق غير معروف. . .

كان سوكولوف عادةً صامتاً، وهو يراقبُ العمل. واجه شتروم، وهو يلتفت نظراتِه الجدّيةَ واليقظةَ، وبدا أنَّ الجيّدَ والمهمَّ، الذي كان قائماً على نحوٍ دائمٍ ما بينهما، ما زال موجوداً ومستمرّاً.

أراد شتروم حديثاً صريحاً مع بيوتر لافرينتييفيتش. في الواقع، كان كل شيء غريباً جداً. هذه القسائم المهينة، تحد من المشاعر والأفكار حول مقياس الشرف، وحول اهتمام الإدارة. وهنا، في الروح، يستمرُّ ذلك الذي لا يعتمد على الإدارة، وعلى النجاحات المهنيّة والإخفاقات والمكافآت.

تبدو له الآن مرة أخرى، أمسياتُ كازان جيدة، وفتيّة، وفيها

شيءٌ ما من تلكَ التجمّعات الطلابيّة السابقة للثورة. لو أنّ مادرياروف كانَ شخصاً شريفاً فحسب. إنه أمرٌ غريبٌ: كاريموف يشتبه بمادياروف، ومادياروف بكاريموف... كلاهما صادق! إنه متأكد من ذلك. وربّما، كما قال هاينه[1]: «Die beiden stinken» «تفوح من الاثنين رائحةٌ كريهةٌ».

يتذكر في بعض الأحيان حديثه مع تشيبيجين حول المخلل. لماذا الآن، عندما عاد إلى موسكو، يرتفع في روحه كل شيء صغير، تافه؟ لماذا يرتفع إلى السطح الأشخاص الذين لا يحترمهم؟ لماذا يتبيّن أن الذين يثق بقوّتهم وعبقريتهم ونزاهتهم، لا لزوم لهم؟ تحدث مع تشيبيجين عن ألمانيا النازيّة، وتشيبيجين كان على خطأ.

قال شتروم لسوكولوف:

- إنه لأمرٌ مدهشٌ، أن يأتي أشخاص من مختبرات مختلفة لرؤية العمل على تجميع أجهزتنا. لكن شيشكوف لم يُجهد نفسه، ولم يحضر ولو مرّةً واحدة.

قال سوكولوف:

- لديه الكثير من الأعمال.

- بالتأكيد، بالتأكيد، وافق شتروم على عجل.

نعم، جرّب، ابدأ حديثاً صادقاً ووديّاً مع بيوتر لافرينتييفيتش بعد العودةِ إلى موسكو. إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ، وَخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ[2].

---

(1) هاينريش هاينه (1856-1797): شاعر وناقد وصحفي ألماني شهير، ويعد من أهم الشعراء الألمان الرومانسيين. (المترجمان).

(2) إنجيل يوحنّا، الفصل الأول، سطر 11. (المترجمان).

غريب، لقد توقف عن الجدال مع سوكولوف لأي سبب من الأسباب، ظهرت لديه رغبةٌ في تجنُّبِهِ.

لكن الابتعاد عن الجدال لم يكن سهلاً. ففي بعض الأحيان كان ينشأُ فجأةً نزاعٌ ما، على نحوٍ لا يتوقَّعهُ شتروم.

قال شتروم بنبرة مطوّلة:

- تذكر أحاديثنا في كازان... بالمناسبة، كيف مادياروف؟ هل يراسلك؟

هزّ سوكولوف رأسه قائلاً:

- لا أعرف، أنا لا أعرف كيف مادياروف. قلت لك إنَّ لقاءاتنا انقطعت قبيل المغادرة. إنه أمر غير سار بالنسبة إليّ أن أتذكر أحاديثنا في ذلك الوقت. حاولنا بسبب الاكتئاب شرحَ الصعوباتِ العسكريّة المؤقتة بأخطاء مخترعة للحياة السوفييتيَّة. كل ما كان سلبيّاً في الدولة السوفييتية تبين أنّه كان مَزِيّة إيجابية.

سأل شتروم:

- وعام السابعة والثلاثين على سبيل المثال؟

قال سوكولوف:

- فيكتور بافلوفيتش، إنّك في الفترة الأخيرة، تُحوّل أيّ حديث من أحاديثنا إلى جدال.

أراد شتروم أن يخبره أنه، على العكس من ذلك، كان مسالماً، وانزعج سوكولوف، وهذا الانزعاج الداخلي دفعه إلى المجادلة لأي سبب.

لكنه قال:

- ربّما، بيوتر لافرينتييفيتش، السبب في طبيعتي السيّئة، والأمرُ يزداد سوءاً يوما بعد يوم. وهذا ما لوحِظَ ليس منك فقط، ولكن من لودميلا نيقولايفنا أيضاً.

لفظَ تلكَ الكلمات، وفكَّر: «كم أنا وحيد. في المنزل، وفي العمل، ومع صديقي - أنا وحيد».

29

كان من المفترض أن يعقد زعيم الريخ إس. إس. هيملر اجتماعاً حول الأعمال الخاصة التي تنظِّمُها الإدارةُ العامة للأمن الإمبراطوري. أعطيت الجلسة أهمية خاصة، فقد ارتبطت برحلة هيملر إلى المقر الرئيسي للقائد.

تلقى قائد وحدة العاصفة (شتورمبانفيورر)[1] ليز أمراً من برلين بالإبلاغ عن التقدم المُحْرَز في بناء منشأةٍ خاصة تقع بالقرب من إدارة معسكر الاعتقال.

كان من المفترض، قبل الشروع في تفقّد المشروع، أن يذهب ليسس إلى مصانع شركة فوسّا الميكانيكية وإلى مصنع الكيماويّات الذي ينفذ بطلب من مديرية الأمن. ثم من المفترض أن يبلغ ليز برلين حول حالة مشروع أوبيشتورمبانفيورير[2] إيخمن للأمن الخاص، الذي كان مسؤولاً عن الإعداد للاجتماع.

---

(1) قائد وحدة العاصفة، رتبة شبه عسكريّة للحزب النازي تعادلُ رتبة رائد. (المترجمان).

(2) رتبة تعادل رتبة مقدم. (المترجمان).

سرّت المهمّة ليز؛ فقد جذبه الوضع في معسكر الاعتقال، والتواصل المستمر مع أناس بدائيين وقحين.

تذكّر وهو يجلس في السيّارة موستوفسكي.

يحاولُ العجوزُ على الأغلب، وهو يجلس في الزنزانة ليلاً ونهاراً، كشف الغرض الذي استدعاه ليز من أجله، وينتظر متوتّراً.

إنّها مجرّد حاجة إلى اختبار بعض الأفكار والرغبة في كتابة دراسة: «أيديولوجيا العدوّ وقادته».

يا لها من طبيعة مثيرة للاهتمام، بالفعل، عندما تدخل نواة الذرة، تبدأ تؤثر فيك ليس القوى النابذة فحسب، بل القوى الجاذبة أيضاً.

عبرتِ السيارة سورَ المعسكر، ونسي ليز موستوفسكي.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وصلَ ليز مصانعَ فوسّسا.

تحدث في مكتب فوسّسا بعد الإفطار، إلى المصمم براشكا، ثم تحدث إلى المهندسين الذين أشرفوا على الإنتاج؛ أطلَعَهُ المدير التجاري في المكتب على الكلفة التقديرية للأجهزةِ الموصى عليها.

أمضى ساعات عدة في ورشات المصنع، وتجوّل وسط قعقعة المعادن، وشعرَ بتعب شديدٍ نهاية اليوم.

نفّذَ مصنعُ فوسّسا جزءاً مهماً من طلب إدارة الأمن، وكان ليز راضياً - فقد تولى مديرو الشركة رعايةَ الأمر بعناية، ولُبِّيت الشروطُ الفنيَّةُ بدقة، وحَسَّنَ مُهندسو الميكانيك تصميمَ الناقلات، وطوروا التصميم الأكثر اقتصاداً لتشغيل الأفران.

بدت الأمسيةُ بين أفرادِ أسرة فوسّسا، بعد يوم شاق، ممتعةً جداً.

زيارةُ المصنع الكيميائي خيّبت آمال ليز: تبيّن أن المصنع لم ينتج سوى القليل، أي أربعين في المئة من المواد الكيميائية التي خُطِّطَ لإنتاجها.

الناس في المصنع أزعجوا ليز بسبب شكاياتهم الكثيرة: الإنتاج معقّد ومُتقلّب؛ تعطّلت التهوية بعد غارة جويّة، وأصيب العُمّال في الورشة بتسمّم جماعي: تراب المشطورات، الذي يمتص المنتجات المستقرّة، لا يصل بانتظام، وتأخّر وصول التغليف المحكم بالسكّة الحديدية. . .

ومع ذلك، فقد أدركت إدارةُ الجمعية الكيميائية بوضوحٍ أهميّةَ طلبِ إدارة الأمن. قال كبيرُ الكيميائيين في الشركة الدكتور كيرشجارتن لليز: سَيُنَفَّذُ طلب الإدارة الأمنيّة في الوقت المحدد. اضطرت الإدارةُ إلى الإبطاء في تنفيذ مهام وزارة الذخيرة، وهي حالة لم يسبق لها مثيل منذ أيلول (سبتمبر) 1939.

رفضَ ليز حضور الاختبار المسؤول في مختبر الجمعية الكيميائية، لكنه درس البروتوكولات التي وقّعها علماءُ الفيزيولوجيا والكيميائيون والكيميائيون الحيويون.

والتقى في اليوم نفسه العلماءَ الذين أجروا الاختبارات؛ كانوا من العلماء الشبّان، امرأتان: عالمة فيزياء وعالمة كيمياء حيويّة. طبيبٌ اختصاصيٌّ بعلم الأمراض. كيميائي متخصصٌ في المركّبات العضويّة ذات درجات الغليان المنخفضة. وقائد الفريق اختصاصيّ السموم البروفيسور فيشر. ترك المشاركون في الاجتماع انطباعاً رائعاً عند ليز.

على الرغم من أنهم كانوا مهتمين جميعاً بالموافقة على الطريقة

التي ابتكروها، إلا أنهم لم يخفوا عن ليز نقاطَ الضعفِ في عملهم وشكوكَهم.

طار ليز في اليوم الثالث إلى موقع البناء مع مهندسي شركة التجميع أوبيرشغاين. شعر بالارتياح، فقد شغلته هذه الرحلة عن سواها من الأمور. وأمامه كانت أكثر الأمورِ متعةً: بعد فحص البناء، كان عليه أن يذهب إلى برلين مع المديرين الفنيين لموقع البناء، وإطلاع المديرية الرئيسية للأمن على وضع العمل.

كان الطقسُ سيئاً، انهمرَ مطرُ تشرين الثاني (نوفمبر) بغزارة. هبطت الطائرة بصعوبة في مطار المعسكر المركزي - على ارتفاع منخفض، بدأ الجليد يتشكَّلُ على الأجنحة، وخيّم الضباب فوق الأرض. عند الفجر، كان الثلج قد ذاب، وبقيت في بعض الأماكن على تلال الطين بقعٌ ثلجية رماديّة لم تغسلها الأمطار.

ذبلت بطاناتُ قبعاتِ المهندسين المصنوعة من اللبّاد، وقد تشبّعت بأمطار غزيرة زئبقيّة.

مُدَّتْ إلى موقعِ البناءِ خطوطُ سكّةٍ حديديّةٍ، تربط الموقعَ مباشرةً بطريق السكّة الحديدية الرئيسي.

تقع المستودعات بالقرب من السكة الحديدية. منها بدأ التفتيش. جرى فرز البضائع تحت السقيفة: أجزاء من آليّات مختلفة، أحواض ناقلة وأجزاء مفككة من أجهزة نقل الأسطوانات، وأنابيب بأقطار مختلفة، وأجهزة نفخ وتهوية، مطاحن كروية لطحن العظام، معدات للتحكم بالغاز والكهرباء، غير مثبتة حتى الآن على وحدات التحكم، وحزم الكابلات، والأسمنت، وعربات النقل ذاتيّة الحركة، وتلال من القضبان الحديديّة، وأثاث مكاتب.

وهناك عديد من أجهزة السحب والمراوح منخفضة الضجيج، في الغرف الخاصّة المحروسة من موظفي الأمن الخاصّ، وهناك مستودع بدأت تصل إليه منتجات المؤسّسة الكيميائية: أسطوانات ذات صمَّامات حمراء وعلب سعة خمسة عشر كيلوغراماً، ذات ملصقات حُمْر وزُرْق، تبدو وكأنها علب المربّى البلغاري.

التقى ليز ورفاقه عند خروجهم من المكان نصف المغروس في الأرض، المصمم الرئيسي للمصنع البروفيسور شتالغانغ، ورئيس العمل المهندس فون ريينيك، وهو رجل ضخم يرتدي سترة جلدية صفراء، اللذين وصلا لتوّهما بالقطار القادم من برلين.

كان شتالغانغ يتنفس بحشرجة، فقد سبب له الهواء الرطب نوبةَ ربو. وأخذ المهندسون المحيطون به يلومونه على أنه لم يحمِ نفسه؛ كان الجميع يعرف أن ألبوم أعمال شتالغانغ موجود في مكتبة هتلر الشخصية.

لم يكن موقع البناء مختلفاً عن مواقع البناء الحجرية المعتادة في منتصف القرن العشرين.

سُمعت حول حفرة المبنى، صفارات الحراس، وصرير الحفّارات، وحركة الرافعات، وصفارات القطارات.

اقتربَ ليز ورفاقه من مبنى بلون رمادي مستطيل الشكل، لا نوافذ له. المجموعةُ بأكملها من المباني الصناعية، والمبنيّة من الطوب الأحمر، والأنابيب واسعة العنق، وأبراج المراقبة وأبراج الحراسة المغطاة بالزجاج - كلّها امتدت إلى هذا المبنى الرمادي الأعمى.

وكان عمال الطرق ينهون تعبيد الطرقات بالأسفلت - وكان

الدخانُ الساخن الرمادي يتصاعدُ من أسفل المدحلة، ممزوجاً بالضباب البارد الرمادي.

قال رينيك لليز: عند اختبار المشروع رقم 1 للكشف عن التسريبات، كانت النتائج غير مرضية. ووضَّح شتالغانغ بصوت أجش متحمِّس، وقد نسي الربو، لليز الفكرةَ المعماريَّة للمبنى الجديد.

على الرغم مما تبدو عليهِ من بساطةٍ واضحة وأبعادٍ صغيرة، فإن التوربينات الهيدروليكية الصناعية العادية، هي مركز قوى هائلة وكتل وسرعات - حيث تتحول القوة الجيولوجية للمياه في فروعها لتنتجَ عملاً.

بُنيت هذه المنشأة أيضاً، حسب مبدأ التوربينات. وهي تحوّل الحياة وجميع أنواع الطاقة المرتبطة بها إلى مادة غير عضوية. وفي التوربينات من الطراز الجديد، يجب التغلب على قوى الطاقة النفسية والعصبية والجهاز التنفسي والقلب والعضلات والدم. وتجمع المنشأة الجديدة بين مبادئ التوربينات ومسالخ الماشية ووحدة محارق النفايات. كان يجب دمج كل هذه الميزات في حل معماري بسيط.

قال شتالغانغ:

- يا عزيزنا هتلر، كما تعلم، عند فحص المواقع الصناعية الأكثر روعة، لا يُنسى الشكلُ المعماري.

وخفَّض صوته حتى يتمكن ليز وحده من سماعه.

- أنت تعلم أن تضخيم الجانب الصوفي للتصميم المعماري لمعسكرات الاعتقال بالقرب من وارسو جلب مشكلة كبيرة إلى زعيم الرايخ إس إس. كل هذا كان لا بد من أخذه في الاعتبار.

يتوافق البناء الداخلي للغرفة الخرسانيّة مع عصر صناعة الكتل الكبيرة والسرعات.

مُتَدَفِّقَةً، مثلِ الماء في قنوات الإمداد، لم تعد الحياةُ قادرة على التوقف أو التدفُّق مرة أخرى - حُدِّدت سرعة حركتها على طول الممر الخرساني بواسطة صيغ مماثلة لصيغة ستوكس[1] في حركة السائل في أنبوب، وهذا يتوقف على الكثافة والجاذبية النوعية واللزوجة، والاحتكاك، ودرجة الحرارة. كانت المصابيح الكهربائية مدمجة في السقف ومحميّة بزجاج سميك وشفاف.

وكلّما كانت أبعد، كانَ الضوء أكثر إشراقاً، وعند مدخل الزنزانة، التي عُزِلت بواسطة بابٍ فولاذي مصقولٍ، كان بياضه الجافُّ مُبهِراً.

سادت عند الباب، تلك الإثارة الخاصة التي تظهر دائماً بين البنّائين وشركات التركيب قبل تشغيل وحدة جديدة. غسلَ العمالُ الأرضَ بالخراطيمِ. وأجرى الكيميائي المسنُّ في الرداء الأبيض قياساتٍ للضغط عند باب مغلق. أمر ريينيك بفتح باب الزنزانة. خلع بعض المهندسين قبعاتهم وهم يدخلونَ إلى قاعة فسيحة ذات سقفٍ خرسانيٍّ منخفضٍ. كانت أرضية الحجرة مكونة من ألواح منزلقة ثقيلة، مُركّبة بإحكام في إطار معدني، الواحدة بجانب الأخرى.

عندما تعمل الآلية التي يُتَحَكَّمُ بها من غرفة التحكم، تصبح الألواح المكونة للأرضية عموديّة، وتذهب محتويات الزنزانة إلى غرف تحت الأرض. هناك، تُعالجُ الموادُ العضويّة بواسطة فرق من

---

(1) صيغة رياضيّة أوجدها العالمُ في مجال ميكانيك السوائل: ستوكس. (م).

أطباء الأسنان، حيث ينتزعون المعادن الثمينة المستخدمة في الأعضاء الصناعية. يُشّغَّلُ بعد ذلك حزامُ النقل، المؤدّي إلى أفران حرق الجثث، حيث تتعرّض المادة العضوية، التي فقدت التفكير والإحساس، لمزيدٍ من التدمير تحت تأثير الطاقة الحرارية - وتتحوّل إلى دهون فوسفورية وكلس ورماد وأمونيا وثاني أكسيد الكربون وثاني أكسيد الكبريت.

اقترب ضابط الاتصال من ليز وسَلَّمَهُ برقيةً. رأى الجميع كيف أصبح وجه قائد وحدة العاصفة الذي قرأ البرقية قاتماً.

أبلغتِ البرقيةُ أنّ رئيسَ القواتِ الخاصّةِ إيخمان سيلتقيهِ في موقع البناء الليلة؛ وقد خرج على طريق ميونيخ السريع بالسيارة.

انهارت رحلة ليز إلى برلين. وكان يأمل أن يقضي الليلة التالية في منزله الريفي، حيث تعيش المرأة المريضة التي تتوق إليه. لَكَانَ قد جلس قبل الذهاب إلى السرير، على الأريكة، مُنتَعِلاً حذاءً ناعماً، ساعة أو ساعتين في الدفء والراحة، وسوف ينسى الزمن العصيب. كم هو ممتع الاستماعُ في الليل وهو في السرير في كوخٍ ريفي إلى أزيزِ الرشاشات المضادة للطائرات في قوى الدفاع الجوي في برلين.

وفي المساء في برلين، وبعد تقديم التقرير في الأمير ألبيرتشتراس[1] وقبل مغادرته المدينة، في ساعة هادئة، عندما لا تكون هناك أي صفّارات إنذار أو غارات جوية، سيزور المقرّرة الشابة لمعهد الفلسفة؛ وهي الوحيدة التي كانت تعرف مدى صعوبة

(1) تقع هنا الإدارة الرئيسية لأمن الرايخ. (المترجمان).

عيشه، وأيّ اضطرابٍ نفسيٍّ يعيش؟ وقد وضع من أجل هذا اللقاء في حقيبته زجاجةً من الكونياك وعلبةً من الشوكولاتة. الآن لقد انهار كل شيء.

نظر إليه المهندسون والكيميائيون والمهندسون المعماريون - ما هي المخاوف التي أجبرت مفتش المديرية العامة للأمن على العبوس؟ من منهم يمكن أن يعرف هذا؟

بدا للناس للحظة أن الزنزانة لم تعد تطيعُ منشئيها، لكنها تعود إلى الحياة، وتعيش بإرادتها الخرسانية، وجشعها الخرساني، وتبدأُ بإفراز السموم، وتمضغ بفكّيها الصلبين، ثمَّ تبدأُ بالهضم.

غمز شتالغانغ ريينيك وقال هامساً:

- ربّما تلقّى رسالة مفادها أن أوبيرشتورمبانفيورير سيتلقى تقريره هنا، لقد عرفت ذلك منذ الصباح. وانهار الأمل باستراحته مع عائلته، وربما بلقاء مع سيدة لطيفة.

30

التقى ليز إيخمان ليلاً.

كان إيخمان في الخامسة والثلاثين من العمر.

القفازاتُ، والقبّعة، والحذاء - ثلاثة أشياء تجسد الشعر والكبرياء وتفوق الأسلحة الألمانية، وها هي ذي مثل تلك التي يرتديها هيملر زعيم القوات الخاصّة للرايخ.

عرف ليز عائلة إيخمان منذ سنوات ما قبل الحرب، وكانا من المدينة نفسها. إنّ ليز، الذي درس في جامعة برلين، وعمل في إحدى الصحف، ثم في مجلة فلسفيّة، نادراً ما كان يزور مسقط رأسه، ويعرف أخبارَ زملاء الدراسة. ارتقى بعضُهم الموجةَ الاجتماعيّة، ثم اختفت الموجة، واختفى النجاح، ثم ابتسمت الشهرة والحظوظ الماديّة لبعضهم الآخر. أمّا إيخمان فقد عاش بملل ورتابة، من دون تغيير.

إنّ السلاح الذي كانَ يضربُ ضواحي فردان، والنصر الذي بدا قادماً، والهزيمة والتضخم الاقتصادي، والنضال السياسي في الرايخ، وزوبعة اتجاهات اليسار والتوجّهات فوق اليساريّة، في الرسم والمسرح والموسيقا، والموضة الجديدة وانهيار الموضات الجديدة - لم تُغيّر شيئاً في حياته الرتيبة.

كان يعمل وكيلاً لشركة إقليمية. وكان في علاقاته مع الأسرة والناس، معتدلاً في لطفه ولامبالاته، وبغلاظته واهتمامه. وكانت الطرق الكبيرة جميعها في حياته ممتلئةً بحشدٍ صاخبٍ يُكنّ له العداء. ورأى في كل مكان أناساً يدفعونه جانباً، رشيقين وسريعين، بعيون داكنة متلألئة، حاذقة وذات خبرة، مكشّرة في اتجاهه. . .

في برلين، لم يتمكّن بعد تخرجه في المدرسة الثانوية، من الحصول على وظيفة. أخبره مديرو المكاتب وأصحاب شركات العاصمة أنّه، لسوء الحظ، أُلغيَ المنصب الشاغر، واكتشف إيخمان من طرف ثالث قبولَ رجل متعفّن من قومية مجهولة، إما بولوني أو إيطالي بدلاً منه. جرّب التسجيل في الجامعة، لكن الظلم الذي ساد هناك عاقَهُ. ورأى أن الممتَحِنين، الذين ينظرون إلى وجهه الممتلئ ذي العينينِ الفاتحتين، وشعره القنفذيّ الأشقر، فوق أنفه القصير المستقيم، قد أصيبوا بالملل. يبدو أنهم انجذبوا إلى الوجوه الطويلة، ذات العيون الداكنة، إلى مُحدودبي الظهور وضيقي الأكتاف، إلى المنحطين. لم يكن وحده من أُعيدَ إلى المقاطعة. بل كان هذا مصير الكثيرين. كانت سلالةُ الناس السائدة في برلين، تُصادَفُ في طبقات المجتمع جميعها. لكن الأهم من ذلك كله أن هذه السلالة تكاثرت بين المثقفين العالميين الذين فقدوا ملامحهم الوطنية، فأصبحَ التمييز بين الألماني والإيطالي، والألماني والبولوني غير ممكنٍ.

لقد كانت سلالةً خاصّة، جنساً غريباً طغى على كل من حاول التنافس معه - بالذكاء والتعليم واللامبالاة الساخرة. كان ثمّة شعور ميئوس منه بالقوّة الحيوية العقلية وغير العدوانيّة المنبثقة عن هذا

الجنس - تجلّت هذه القوة في الأذواق الغريبة لهؤلاء الناس، في حياتهم اليومية، حيث جُمِعَ بين التقيد بالموضة مع الركود واللامبالاة في الموضة، في حبهم الحيوانات، المتّحد مع طريقة حياتهم الحضرية تماماً، وفي قدرتهم على التفكير المجرد، المتّحد مع الشغف للغلظة في الفن والحياة. . . لقد حرّك هؤلاء الأشخاص الكيمياء الألمانية للدهانات وتركيب الآزوت، ودراسة الأشعة الصلبة، وإنتاج الصلب عالي الجودة. ومن أجلهم، جاء العلماء والفنانون الأجانب والفلاسفة والمهندسون إلى ألمانيا. لكن هؤلاء الأشخاص كانوا قليلاً ما يشبهون الألمان، فقد تجوّلوا في جميع أنحاء العالم، وكانت علاقاتهم الودية بعيدة عن الألمانية، وأصلهم الألماني غير واضح.

وأين كانَ لموظّف في شركة إقليمية محاولة الوصول إلى حياة أفضل؟! من الجيِّد أنه لم يجع.

وها هو ذا يغادر مكتبه، ويقفل على الأوراق في الخزانة التي يعرفها ثلاثة أشخاص في العالم - هتلر، هيملر، كالتنبرنر. سيارة سوداء كبيرة تنتظره عند المدخل. يستقبلُهُ الحراس، ويفتح المساعد باب السيارة،- ويغادر زعيم القوات الخاصّة الألمانية إيخمان. ينطلق السائقُ بسرعة كبيرة، شرطة المدينة تُقدِّمُ الاحترام لسيارة الغيستابو القوية «الهوريه»، وتفتحُ على عجل إشارات المرور الخُضْر، وتجتاحُ شوارع برلين، مسرعة إلى الطريق السريع. وهناك المطر، الضباب، وإشارات المرور، والانحناءات الملساء للطريق السريع. . .

تنتصب البيوت الهادئة وسط الحدائق في سموليفتشي، وتنمو

الأعشاب على الأرصفة. وفي شوارع بيردتيفسكي يسرح الدجاج القذر في الغبار، دجاجٌ ذو أرجل صُفْر كاديميّة، ملوَّنٌ بالحبر الأحمر والأرجواني. وفي كييف؛ في بودول وشارع فاسيليفسكي ترى درجات السلالم في البيوت متعددة الطوابق ذات النوافذ غير المغسولة، قد تهرَّأت بفعلِ ملايين أحذية الأطفال ونعال كبار السنّ.

وفي أوديسا، في أحد الفناءات شجرة دلب غزيرة الألوان، وملاءات ملونة تتجفّف، وقمصان وسراويل داخليّة، ويتصاعد البخارُ من علب مربى الكورنيل على منقل الشواء، ويصرخ في الحمالات أطفالٌ حديثو الولادة ذوو بشرة جافة لم ترَ أشعة الشمس البتّة.

ويعيش في وارسو، في مبنى هزيل ضيّق ذي ستة طوابق، خياطاتٌ، ومُغلّفو كتب، ومعلماتُ منازل، ومطربو ملاهٍ ليلية، وطلابٌ، ومُصلّحو ساعات.

تضاء الأنوار في ستاليندورف، مساءً في الأكواخ، وتجُرُّ الريحُ أذيالها من جانب بيريكوب، فتنبعثُ رائحة الملح والغبار الدافئ، ويُسمع خوار الأبقار، وهي تهزّ رؤوسها الثقيلة...

وعاش بشرٌ ينتمون للأمّة اليهودية في بودابست، وفاستوف، وفيينا، وفي ميليتوبول وأمستردام، في قصور نوافذها مرايا، وفي بيوت منتصبة في دخان المصانع.

إنّ أسلاك معسكر الاعتقال الشائكة، وجدران غُرف الغاز، وطين الخنادق المضادة للدبابات وحّدت الملايين من الناس من أعمار ومهن، ولغات ومصالح حياتيّة وروحيّة مختلفة، المؤمنون المتعصّبون والملحدون المتعصّبون، والعمّال، والطفيليون، والأطباء والتجّار، والحكماء والأغبياء، واللصوص، والمثاليّون،

والمتأمّلون، وطيّبو القلب، والقديسون والنشّالون، جميعهم. . . انتظرهم الإعدام.

كانت سيارة الغيستابو «الخورخ» تسرع وتدور على الطرق السريعة الخريفية.

31

التقيا ليلاً. مضى إيخمان مباشرة إلى المكتب، طارحاً أسئلة سريعة أثناء سيرهما، وجلس على الأريكة.

- لديّ القليل من الوقت، يجب أن أكون في وارسو نهارَ غد.

كان قد زار قائد المعسكر، وتحدّث إلى مدير البناء.

سأل بسرعة:

- كيف تعمل المصانع؟ وما هي انطباعاتك حول شخصيّة فوسّسا؟ وهل الكيميائيون على مستوى عال في رأيك؟

وضعت الأصابع البِيض الكبيرة ذات الأظافر الوردية الكبيرة أوراقاً على الطاولة، ومن وقت إلى آخر، دَوَّنَ زعيم القوات الخاصّة ملاحظات بقلم أتوماتيكي، بدا لليز أن إيخمان لم يميّز خصوصيّة المسألة، التي تثير بروداً سرِّيّاً غامضاً حتى في القلوب الحجريّة.

شرب ليز كثيراً في هذه الأيام. واشتدَّ ضيقُ تنفُّسِه، وفي الليل أحسَّ بقلبه. لكن بدا له أنَّ شرّ الكحول على الصحة أقل من شرّ التوتر العصبي الذي كان يعاني منه في الأوقات جميعها.

كان يحلمُ بالعودة إلى دراسة الشخصيّات البارزة المعادية للاشتراكية الوطنية، وبحلّ المهام القاسية والمعقدة، ولكن غير

الدموية. حينها سيتوقف عن الشرب ولن يدخِّن أكثر من سيجارة أو ثلاث سجائر خفيفة يوميّاً؛ فمُنذُ وقتٍ قريب، استدعى بلشفيّاً روسيّاً قديماً إلى مكتبه ليلاً، ولعب معه لعبةَ شطرنج سياسية، وبعد أن عاد إلى المنزل، غفا من دون تناول حبوب منومة، واستيقظ في الساعة العاشرة صباحاً.

رُتِّبتْ مفاجأة صغيرة لزعيم القوات الخاصّة ولِليز، أثناء التفتيش الليلي لغرفة الغاز؛ فقد وضع البنّائون في منتصف حجرة الغاز طاولةً مع النبيذِ ووجبة خفيفة، ودعا ريينيك إيخمان وليز إلى حتساءِ كأسٍ من النبيذ.

ضحك إيخمان للفكرةِ المُبتكرةِ الجميلة وقال:

- سأتناول بكل سرور وجبةً خفيفةً.

سلم القبّعةَ لحارِسِه وجلس إلى المائدة. أصبح وجهُهُ الكبيرُ فجأةً لطيفاً منهمكاً بالطريقة التي يصبح فيها كل الملايين من الرجال الذين يحبون الأكل عندما يجلسون إلى مائدةِ الطعام الموظّبة.

سكب ريينيك النبيذ واقفاً، وأمسَكَ الجميعُ بالكؤوس، في انتظار نخب إيخمان.

كان ثمّةَ توتّر في هذا الهدوء الأسمنتي، وفي هذه الكؤوس المسكوبة، إلى درجة أنَّه بدا لليز أنّ قلبَه لن يتحمَّلَهُ. أراد للنخبِ العالي بصحّةِ المثل الأعلى الألماني أن يُزيلَ التوتر. لكنَّ التوترَ لم يزُل، بل ازداد. مضغ زعيم القوات الخاصّة الشطيرة.

قال إيخمان:

- حسناً أيها السادة؟ لحم الخنزير رائع.

قال ليز:

- نحن في انتظار نخب السيّد.

رفع زعيم القوات الخاصّة كأسه، وقال:

- نشرب نخب المزيد من النجاحات المهنية، التي، على ما يبدو لي، ستكونُ جديرةً بالملاحظة.

هو الوحيد الذي لم يشرب شيئاً تقريباً، وأكلَ كثيراً.

نَفَّذَ إيخمان في الصباح تمارينَ رياضيّةً في الثياب الداخلية، أمام نافذة مفتوحة على مصراعيها. ارتسمت في الضباب صفوفٌ متساويةٌ من مهاجع المعسكر، وسُمعت صفارات قطار.

لم يحسد ليزُ إيخمانَ. كان لليز مكانة رفيعة من دون وظيفة عالية - كان يعدُّ شخصاً ذكيّاً في مديرية الأمن الإمبراطوري. يحبُّ هيملر التحدث إليه.

حاولَ كبارُ الأشخاصِ في معظم الحالات عدم إظهار تفوقهم الوظيفيّ أمامه. لقد اعتاد أن يُحترم ليس فقط من الشرطة الأمنيّة. فقد تنفست مديرية الأمن الإمبراطورية وعاشت في كل مكان - في الجامعة، وفي توقيع مدير مصحّ الأطفال، وفي اختبارات قبول المطربين الشباب في الأوبرا، وفي قرار لجنة التحكيم التي تختارُ اللوحاتِ لمعرض الربيع، وفي قائمة المرشحين لانتخابات الرايخستاغ.

هنا كان محورُ الحياة؛ إنّ أساس صحة الحزب الأبدية، وانتصار منطقه أو عدم منطِقِه على أي منطقٍ آخر، وفلسفته فوقَ أي فلسفة أخرى؛ هو عملُ شرطةِ الدولةِ السريّة. تلكَ كانت العصا السحرية!

وكانَ يكفي أن تسقط، حتّى يختفي السحر - يتحوَّلُ الخطيبُ المُفوَّه إلى ثرثار، والمُفكّرُ في العلوم إلى مُشيع لأفكار الآخرين. ينبغي ألّا ندع هذه العصا السحريّة تفلت من أيدينا.

شعر ليز هذا الصباح لأول مرة في حياته، وهو ينظر إلى إيخمان، بتحرّك إنذارِ الحسد في نفسه.

قال إيخمان قبيل مغادرته ببضع دقائق، مفكّراً:

- أنا وأنت ليز مسقط رأسنا واحد.

ومضى الاثنان يعدّدان أسماءَ شوارع المدينة والمطاعم ودور السينما، المفضّلة لديهما.

قال أيخمان:

- بالتأكيد، لم أكن في بعض الأماكن، وسمّى النادي الذي لم يسمحوا فيه لابن صاحب ورشة عمل بالدخول.

سأل ليز مُبدّلاً موضوع المحادثة:

- قل لي، هل يمكن تقريباً معرفة عدد اليهود الذين يدور الحديث عنهم؟

كان يعلم أنه طرح سؤالاً فائق السرّية، لعلَّ ثلاثة أشخاص في العالم يمكنهم أن يجيبوا عنه، باستثناء الزعيم وهيملر.

ولكن بعد أن استذكرَ ليز بالتحديد سنواتِ شبابِ أيخمان الصعبة في زمن الديمقراطية والعالمية، كان ينبغي أن يسألهُ عمّا لم يعرفه.

أجاب إيخمان:

- أعترف بجهلي حول هذا الموضوع.

سأل ليز مذهولاً:

- ملايين؟

هزّ إيخمان كتفيه متجاهلاً.

صمتا لبعض الوقت.

قال ليز:

- أنا آسف جداً لأنني لم ألتق بك في أثناء التَّعَلّمِ في الجامعة، خلال سنوات الدراسة، كما قال غوته.

- أنا لم أكن طالباً في برلين، لقد درست في المقاطعة، لا تشعر بالندم،- قال إيخمان وأضاف - الرقم الذي تسأل عنه، يا بن منطقتي، أنطقُ به بصوت عالٍ للمرة الأولى. إذا أخذنا في الاعتبار مابيرخيتسغادين[1]، ومستشارية الرايخ وقسم الرايخسفيرر لدينا، فقد ذُكرَ سبعة ملايين أو ثمانية.

- أنا أفهم أننا لن نقرأهُ غداً في الجريدة.

قال إيخمان:

- أنا أقصد جريدةً بالتحديد.

ونظر بابتسامة إلى ليز، وشعرَ ليز بعدم الارتياح إزاء شعورهِ بأن المحاورَ كان أكثر ذكاءً منه.

وقال إيخمان:

- إلى جانب حقيقة أن بلدتنا الهادئة محاطة بالكامل بالخضرة، كان ثمّةَ سبب آخر لإعطائك هذا الرقم. أريده أن يربطنا بمزيد من التعاون.

---

(1) مقر إقامة هتلر في أثناء الحرب. (المترجمان).

قال ليز:

- شكراً، يجب التفكير، هذه مسألة خطيرة جداً.

- بالتأكيد. العرض لا يأتي مني فقط. - ورفع إيخمان إصبعه رأسياً إلى أعلى. - إذا شاركتني في العمل، وخسرَ هتلر، فسنُعلّق معاً على حبل المشنقة؛ أنت وأنا.

قال ليز:

- آفاق مستقبلية رائعة، تستحق التفكير.

- تخيّل، بعد عامين، سنجلس مرة أخرى في زنزانة الغاز هذه، إلى طاولة مريحة ونقول: في غضون عشرين شهراً، حَلَلنا مشكلة لم تحلها البشرية خلال عشرين قرناً!

ودّعَ كلٌّ منهما الآخر. وشيَّعَ ليز بنظرهِ السيّارةَ المغادرة.

لقد كانت لديه وجهة نظره الخاصة حول العلاقات الإنسانية في الدولة. الحياة في الدولة الاشتراكية القومية لا يمكن أن تتطور بحرية - كان لا بدَّ من التحكّمِ بكل خطوة فيها.

فمن أجل قيادة تنفس الناس، وشعور الأمومة، ودائرة القراءة، والمصانع، والغناء، والجيش، والرحلات الصيفية، ثمَّةَ حاجة إلى القادة. لقد فقدت الحياةُ الحقَّ في النمو مثل العشب، والقلقَ مثل البحر. القادةُ، حسبَ ما بدوا لليز، ينجذبون إلى أربعة نماذج من الطباع.

الطبع الأوّل: هو الطبيعة الكاملة، وعادة ما تخلو من حدة العقل والقدرة على التحليل. لقد اصطاد هؤلاء الأشخاص الشعارات والصيغ من الصحف والمجلات، والاقتباسات من خطب هتلر

ومقالات غيبلز، ومن كتب فرانك وروزنبيرغ. وقد ضاعَ هؤلاء دون أن يشعروا بالمستندات. ولم يفكروا في صلة الظواهر، أبدوا القسوة والتعصب في أي مناسبة. أخذوا كل شيء على محمل الجد: الفلسفة، والعلوم الاشتراكيّة القوميّة، والوحي الغامض، وإنجازات المسرح الجديد، والموسيقا الجديدة، وحملة الرايخستاغ الانتخابيّة. لقد انحشروا، مثل أطفال المدارس، في دوائر كتاب «كفاحي» «Mein Kampf»، لخّصوا المحاضرات والكتيّبات. وعادة ما كانوا متواضعين في حياتهم الشخصية، وشعروا في بعض الأحيان بالحاجة، وفي كثير من الأحيان سقطت فئات أخرى منهم في التعبئة الحزبية، وانفصلوا عن أسرهم.

بدا لليز منذ البداية، أنّ إيخمان ينتمي إلى هذه الفئة بالتحديد.

النوع الثاني من الطباع: الأذكياء الساخرون. يعرف هؤلاء بوجود عصا سحرية. فقد سخروا في دائرة موثوقة من الأصدقاء، من شخصيّات كثيرة - من جهل الدكاترة والأساتذة الجدد، من أخطاء وأخلاقيات أعضاء القيادة العليا للحزب وأمناء الفروع. لكنهم لم يسخروا فحسب من الزعيم والمثل العليا. هؤلاء الناس يعيشون عادة على نطاق واسع، ويشربون كثيراً. في الخطوات العليا من التسلسل الهرمي للحزب، يمكن التقاء هذه الشخصيات في المراتب العليا، أكثر من السفلى. لقد سادت في الأسفل الشخصيّات من النوع الأول.

وبدا لليز أنّ أنموذجاً ثالثاً ساد في القمّة العليا للحزب: ثمانية إلى تسعة أشخاص لائقون، وسمح هناك لخمسة عشر إلى عشرين شخصاً، كان هناك عالم خالٍ من العقائد، حكموا بحريّة على كل

شيء. لم تكن هناك مُثُل عليا، هناك الرياضيات فقط، واللهو، ولا يعرفون الشفقة على السادة الكبار.

بدا لليز أحياناً، أنّ كل ما يحصل في ألمانيا من أجلهم ولمنفعتهم.

أشار ليز إلى أن ظهورَ أشخاصٍ ضيّقي الأفق في القيادة العليا، يترافق دائماً مع بداية أحداث مأساوية. إنّ أسياد الآليّة الاجتماعية رفعوا مناصري العقائد لتكليفهم بالأعمال الأكثر دموية. وصل البسطاء مؤقتاً إلى السلطة العليا، ولكن عادةً ما كانوا يختفون بعد إنجاز بعض الأعمال، وأحياناً شاركوا ضحاياهم المصير نفسه. ويبقى في الأعلى من جديد الأسياد المرحون.

كان لدى البسطاء من أشخاص الأنموذج الأول، خاصّية قيِّمة جداً - كانوا شعبيّين. لم يقتبسوا من كلاسيكيات الاشتراكية القومية فحسب، بل تحدثوا أيضاً بلغة الناس. وبدت غلظتُهم شعبيّة فلّاحيّة. واستدعت نكاتهم الضحك في الاجتماعات العمّالية.

الأنموذج الرابع من الطباع: منفّذون لامبالون بالعقيدة، والأفكار، والفلسفة، ولكن أيضاً بالقدرات التحليلية والغريبة. الاشتراكية القومية تدفع لهم، وهم يخدمونها. شغفهم الأعلى الوحيد هو الخدمات، والبذلات، والأكواخ الريفية، والمجوهرات، والأثاث، والسيّارات، والثلاجات. لم يحبّوا المال كثيراً، ولم يؤمنوا بثباته.

انجذب ليز إلى كبار القادة، وحلم بمجتمعهم وبالتقرّب منهم – هناك، في مملكة العقل الساحر، والمنطق الذكي، شعر بنفسه سهلاً، وطبيعيّاً، وجيّداً.

لكنَّهُ رأى في الارتفاع الرهيب، فوق كبار القادة، وفوق طبقة الستراتوسفير كان ثمّة عالم ضبابي، غير مفهوم، غامض، يعذّب بعدم منطقيته - في هذا العالم الأعلى كان هناك الزعيم أدولف هتلر.

لقد ارتبط في هتلر - وهذا ما أرعبَ ليز - ما لا يمكن ربطه، بطريقة غير مفهومة، لقد كان رئيساً «للمعلِّمين»؛ ما فوق الميكانيكي، ورئيس مثبّتي الأجهزة، رئيس الاختصاصيّين، امتلك منطقاً أعلى، وسخريةً عليا، وقسوة رياضيّةً عليا، حتى مقارنة بالمساعدين المقرّبين جميعهم. وكان فيه في الوقت نفسه حماسة عقائديّة، وإيمان متعصّب، وعمى الإيمان، وعدم المنطقية، التي التقاها ليز فقط، في القبو الأكثر انخفاضاً من طوابق القيادة الحزبيّة. إنّه صانع العصا السحريّة، والكاهن الأوّل، وكان في الوقت نفسه مؤمناً متحمّساً غامضاً.

وها هو ذا ليز الآن، وقد شعر وهو ينظر متابعاً السيّارة المغادرة، بأنّ إيخمان أثار فيه فجأة ذلك الشعور غير الواضح والجذاب والمخيف الذي أثاره فيه شخص واحد فقط في هذا العالم: هو زعيم الشعب الألماني أدولف هتلر.

32

عُبِّرَ عن كراهية القنانة الوطنيّة، حتى في أذهان: المقاتل من أجل الحرية، وسجين شليسيلبرج[1]، والفلاح أولينيتشوك[2]، ككراهية للبولنديين واليهود. حتى دوستويفسكي المبدع رأى مرابياً يهودياً هناك، حيث كان عليه أن يرى عيني مقاولٍ، أو ملّاكٍ، أو صاحب مصنع روسي خاليةً من الرحمة.

إنّ الاشتراكية القومية، التي منحت اليهوديّة العالميّة[3] التي تخيّلتها، الخصائصَ العنصريّةَ، والتعطشَ للسيطرة على العالم، واللامبالاة اليهودية بالوطن الألماني، فرضت على اليهود خصائصها الخاصّة.

---

(1) شليسيلبرج: مدينة تقع في مقاطعة لينينغراد، في منطقة كبروف، حيث توجد بالقرب منها قلعة، كانت تستخدم سجناً في روسيا القيصرية. (المترجمان).

(2) كان قنّاً، وهرب من صاحبه، ثم ألقي القبض عليه بعد فترة، وأودع السجن. (المترجمان).

(3) يُخَصِّصُ الروائيُّ هذا الفصل لشرح فهمه لـ «معاداةِ الساميّة»، ويتحدَّث عن اليهود بوصفهم أقليّة قوميّة، وليس بوصفهم أتباع دينٍ سماوي، مُتجاهلاً أنهم ينتمون إلى قومياتٍ مختلفة، وهو فصل لا علاقة له بالرواية إطلاقاً، بل يضعفها، ولاسيّما من الجانب الفنّي، ولذلك كلّه أخذنا من هذا الفصل المقاطع السابقة فقط. (المترجمان).

عندما غزت النهضة صحراء القرون الوسطى الكاثوليكية، أشعل عالم الظلام نيران محاكم التفتيش. لم تضئ نيرانهم قوّة الشر فحسب، بل أيضاً صورة وفاتها.

لقد أشعلت في القرن العشرين محارقُ أوشفيتز ولوبلين وتريبلينك، النمط القومي القديم للدول المتخلّفة فيزيولوجيّاً وغير الناجحة، والمحكوم عليها بالاندثار. ولهيب المحارق لم يضئ انتصاراً فاشيّاً قصيراً فحسب، بل نبّه هذا اللهيب العالم بأن الفاشية محكوم عليها بالاندثار.

33

سارت حركة القطعات المشكّلة من جديد نحو جبهة ستالينغراد سرّاً، في أوقات الليل...

تكثّفت القوّة الثقيلة للجبهة الجديدة في المنطقة الوسطى من مجرى نهر الدون، في الجزء الشمالي الغربي من ستالينغراد. أفرغت القطاراتُ المُحمَّلةُ على السكك الحديدية التي بُنيت حديثاً، حُمولَتَها مباشرة في السهوب.

ما إن بزغ الفجر حتى تجمدت الأنهار الحديدية التي كانت تضجّ في أثناء الليل، ووقف ضباب خفيف مُغبر فحسب فوق السهوب. ونمت نهاراً على سبطانات المدافع الأعشابُ الجافةُ وحزم من القش، ويبدو أنه لم يعد هناك مخلوقات أكثر صمتاً في العالم من سبطانات المدفعية الذائبة مع السهوب الخريفية. والطائرات بَسَطت أجنحتها، وكأنّها حشرات ميّتة، ربضت في المطارات، مغطاة بشبكات عنكبوتية مموّهة.

وأصبحت المثلثاتُ الشَّرْطيّة، والمعينات، والدوائرُ أكثر كثافة يوماً بعد يوم، وأصبحت شبكةُ الأرقام - على الخريطة التي لم يرها سوى عدد قليل من الناس في العالم أكثر كثافة أيضاً، ونمت أكثر

فأكثر - واصطفّت أحياناً وتبلورت جيوش جديدة، وخرجت إلى حدود الانطلاق على الجبهة الغربية - الجنوبية الجديدة، وهي الآن جبهة الهجوم.

توغّلت على الضفة اليسرى من نهر الفولغا، في سهول المستنقعات المالحة جنوباً، متجاوزة ستالينغراد الصاخبة والمدخّنة، تشكيلاتُ الدبابات، ووحداتُ المدفعية وتوجّهت إلى المناطق النائية الهادئة. واستقرّت القوات بعد أن عبرت نهر الفولغا، في سهول كالميكيا، وسط البحيرات المالحة، وبدأ الآلاف من الروس ينطقون كلمات غريبة عنهم: «بارمانتساك»، و«تساتسا[1]»... كان يجري تجميع القوات جنوباً في سهول كالميكيا على الكتف اليمنى للألمان؛ كانت القيادة العليا السوفييتية تستعد لتطويق قطع باولوس العسكرية في ستالينغراد.

نُقِلت في الليالي المظلمة، تحتَ غيوم الخريف ونجومه، السفنُ والعبَّاراتُ والمراكبُ إلى اليمين، إلى الضفة الكالميكية، جنوبَ ستالينغراد، حيث فيلق دبابات نوفيكوف...

رأى الآلاف من الناس أسماء قادة روسيا العسكريين مكتوبةً باللون الأبيض على الدروع: «كوتوزوف»، «سوفوروف»، «ألكساندر نيفسكي».

ورأى الملايين من الناس كيف توجهت المدافع الروسية الثقيلة ومدافع الهاون وقوافل البضائع المستلمة حسب قانون الإعارة

(1) أسماء البحيرات الموجودة في المنطقة. (المترجمان).

والاستئجار[1]، «دودج» و «فورد» نحو ستالينغراد.

ومع ذلك، وعلى الرغم من أن هذه الحركة كانت واضحة لملايين الناس، فإن تركيز المعدات العسكرية الضخمة المعدّة للهجوم شمال غرب ستالينغراد وجنوبها كان سريّاً.

كيف يمكن أن يحدث هذا؟ عرفَ الألمانُ بهذه الحركة الضخمة. وكان من المستحيل إخفاؤها، تماماً كاستحالةِ إخفاء ريح السهبِ عن رجل يمشي في السهب.

كان الألمان على علم بحركة القوات نحو ستالينغراد، وبقي هجوم ستالينغراد لغزاً بالنسبة إليهم. كان يمكن لكل ملازم ألماني - عند النظر إلى الخريطة التي من المفترض أن تُوضعَ علاماتٌ تشيرُ إلى أماكن تركيز القوات الروسية فيها- فك تشفير سرّ عسكري على أعلى المستويات من أسرار روسيا السوفييتية، معروف فقط لستالين، وجوكوف، وفاسيلفسكي.

ومع ذلك، فإن تطويق الألمان في منطقة ستالينغراد كان مفاجأة للملازمين الألمان وللماريشالات.

كيف حدث ذلك؟

استمرت ستالينغراد في الصمود، والهجمات الألمانية لم تؤد إلى نجاحات حاسمة، على الرغم من أنّ معدّات عسكرية كبيرة شاركت

---

(1) الإعارة والاستئجار: قانون أمريكي يسمح لحكومة الولايات المتّحدة بتسليف حكومات الدول الحليفة الغذاء والوقود والمواد والعتاد وذلك بغرض تقديم العون لدول الحلفاء في الحرب العالمية الثانية وقد استفادت منه أساساً حكومة فرنسا الحُرّة والمملكة المتّحدة وجمهورية الصين والاتحاد السوفييتي ودول أخرى. (المترجمان).

فيها. وبقي فقط عشرات من جنود الجيش الأحمر في أفواج ستالينغراد المتفكّكة. وهؤلاء العشرات الصغار، الذين أخذوا على عاتقهم ما يفوقُ صعوبةً ثقل المعارك الفظيعة، كانوا القوة التي أربكت تصوّرات الألمان كلها.

لم يستطع العدو أن يتخيّل أنّ عَظَمةَ قوَّتهِ ستقسّمها حفنةٌ من الناس. واتَّضحَ أنَّ الاحتياطيات السوفييتية كانت تستعد لدعم وتغذية تلكَ الدفاعات. وكان الجنود الذين قهروا ضغوطات فرق باولوس على منحدر الفولغا هم استراتيجيو هجوم ستالينغراد.

لقد امتدّ مكرُ التاريخ الذي لا يرحم عميقاً، وفي أعماقهِ الحرية التي ولَّدت النصر، وقد تحوّلت، وهي ما زالت هدف الحرب، من لمسة أصابع التاريخ الماكرة إلى وسيلته.

34

مرّت امرأة عجوز تحمل حُزمةً من القصب الجاف مُتَّجهةً إلى بيتها، كان وجهها العابسُ منهمكاً بالمشاغل، مَشتْ بجوار سيّارة «فيليس» المغبرّة، وبجانب دبابة المقرّ المغطّاة بالقماش المشمع، وهي تسند كتفها إلى الجدار الخشبي للمنزل. لقد كانت تمشي، هزيلةً نافرةَ العظام، مملة، ويبدو أنه لم يكن ثمَّةَ ما هو عادي أكثر من تلك المرأة العجوز التي تمشي بجانب الدبابة، ملتصقة بمنزلها. ولكن لم يكن هناك ما هو أكثر أهمية في أحداث العالم من علاقة هذه السيدة العجوز وابنتها غير الجميلة، التي كانت في ذلك الوقت تحلب بقرةً تحت مظلة، وحفيدها ذي الرأس الأبيض، الذي وضع إصبعه في أنفه وشاهد كيف يتدفق الحليب من ضروع البقرة، بالقوات العسكرية المتمركزة في السهوب.

إنّ كل هؤلاء الأشخاص - الروّاد من مقرات الجيش والقطع الأخرى والجنرالات الذين يدخنون السجائر تحت أيقونات القرية المظلمة، وطهاة الجنرالات الذين يشوون لحم الضأن في الأفران الروسية، ومشغِّلات الهاتف اللواتي يلففنَ الضفائر على الخراطيش والمسامير في الحظائر، والسائق الذي يحلق ذقنه في الفناء أمام مغسلة من الصفيح، وينظر بعين واحدة إلى المرآة، وبالثانية إلى

السماء - ليرى هل يطير الألماني - كل هذا العالم الحربي من الصلب والكهرباء والبنزين جزءٌ متواصلٌ من حياة قرى السهوب الطويلة، والضيعِ وأكواخ المزارع.

كانت ثمَّةَ صلة مستمرة بالنسبةِ إلى المرأة العجوز ما بين شباب اليوم على الدبابات وأولئك المعذبين الذين مَشوا سيراً على الأقدام في الصيف، وطلبوا النوم، وكان أن شعرَ الجميع بالخوف، ولم يناموا في الليل، وأطلّوا من البيوتِ ليروا ماذا يحدث.

وكانت ثمَّةَ صلةٌ مستمرة بين هذه المرأة العجوز من مزرعة في سهوب كالميكيا وتلك التي جلبت سماوراً نحاسيّاً صاخباً إلى مقر فرقة الدبابات الاحتياطيَّة، وتلك التي فرشت قشاً على الأرض لينامَ العقيد في فورونيج في حزيران (يونيو) ورسمت إشارة الصليب، وهي تنظر إلى الوهج الأحمر في النافذة. لكن هذه الصلة كانت مألوفةً إلى درجة أنَّ السيدة العجوز التي كانت في طريقها إلى المنزل لإشعال الشوك في الفرن لم تلاحظها، ولا فعلَ العقيدُ الذي خرج إلى الشرفة.

خيّم صمت مدهش ثقيل في سهوب كالميكيا. هل علم الأشخاص الذين يمشون في هذا الصباح في أونتر دير ليندن[1]، أن روسيا حولت وجهها إلى الغرب، وكانت تستعد للضرب والتحرّك إلى الأمام؟

---

(1) جادة أونتر دير ليندن، هي منطقة سياحية تقع في قلب عاصمة ألمانيا برلين، وتشتهر بجمال طبيعتها وبشوارعها المنظمة، ومُخدَّمة كذلك ببنية تحتية ومحطة القطار. (المترجمان).

نادى نوفيكوف من الشرفة السائقَ خاريتونوف:

- أحضر معطفي ومعطف المفوّض، سنعود في وقت متأخّر.

خرج غيتمانوف ونيودوبنوف إلى الشرفة.

قال نوفيكوف:

- ميخائيل بتروفيتش، في حال حصول أي شيء، اتصل بكاربوف، وبعد الساعة الخامسة عشرة، اتصل ببيلوف ومكاروف.

قال نيودوبنوف:

- أيُّ أمورٍ يمكن أن تحدث هنا؟

أجابَ نوفيكوف:

- قد يحصل أيّ شيء، القائد قد يحضر.

انفصل طائران صغيران عن الشمس واتجها نحو المزرعة. وفوراً انكسرَ الجمود في السهب، من جرّاءِ هديرهما المتزايد، وسرعة انزلاقهما.

قفز خاريتونوف من السيارة، وركض يحتمي بجدار الحظيرة.

صرخ غيتمانوف:

- هل أنت أحمق؟ أتخاف جماعتك؟

في اللحظةِ نفسها أطلقت إحدى الطائرتين نيران رشاشاتها على المزرعة، وانفصلت قنبلة عن الثانية. ولولت المرأة، وصرخت صرخة ثاقبة، وبكى الطفل، وقرقعت كومات التراب التي رفعها الانفجار.

جثم نوفيكوف لمّا سمعَ صفيرَ سقوط القنبلة. وللحظة اختلط كلّ شيء بالغبار والدخان، ولم يرَ سوى غيتمانوف يقفُ بجانبه. وبرزت

شخصية نيودوبنوف من الضباب المُغبرّ؛ انتصبَ وقد بسطَ كتفيه، ورفع رأسه، وكان الوحيد من بين الجميع الذي لم ينحنِ، كما لو أنّه جذع شجرة.

ونفض غيتمانوف الغبار عن سرواله، وشحب وجهه قليلاً، وقال متوتراً ومرحاً، بتفاخر:

- لا شيء، أحسنت، ما زالَ السروال جافّاً، أمّا قائدنا فلم يتزحزح حتى.

ومضى غيتمانوف ونيودوبنوف بعد ذلك، لينظرا إلى أي مدى وصل التراب حول الحفرة، وفوجئا بأن الزجاج قد تكسّر في المنازل البعيدة، لكنَّ القريب منه ما زال على حاله، وعاينا السياج المنهار.

نظر نوفيكوف بفضول إلى الأشخاص الذين رأوا انفجار قنبلة لأوّل مرة - لقد أدهشهم تماماً أن أحداً ما أخرجَ هذه القنبلة ورفعها في الهواء عالياً ورماها إلى الأرض لهدف واحد فحسب: قتل والد أطفالِ عائلة غيتمانوف ووالد أطفال نيودوبنوف. هذا ما فعله الناس في الحرب.

تابع غيتمانوف أثناء جلوسه في السيارة، الحديث عن الغارة، ثم قاطع نفسه:

- يُضحكُكَ على ما يبدو أن تستمعَ إليّ بيوتر بافلوفيتش، سقط عليك الآلاف، لكنها المرّة الأولى بالنسبة إليّ. ومرة أخرى قاطع نفسه، سائلاً:

- اسمع، بيوتر بافلوفيتش، هذا كريموف نفسه، هل كان في الأسر؟

قال نوفيكوف:

- كريموف؟ لماذا تتحدّث عنه؟

- سمعتُ عنه حديثاً مثيراً للاهتمام في مقر الجبهة.

- لقد كان محاصراً، وأعتقد أنّه لم يكن في الأسر. ثمَّ ما هذا الحديث؟

لم يسمع غيتمانوف ما قاله نوفيكوف، لَمَسَ كتفَ خاريتونوف، وقال:

- بسبب هذا الرجل الكبير في مقرّ اللواء الأول، تغيّر الوادي، أرأيت؟ لدي رؤيةً جبهويّة.

لقد اعتادَ نوفيكوف حقيقةَ أن غيتمانوف لم يتابع المحاور أبداً - يبدأ بالحديث أحياناً، فيطرح سؤالاً، ثم يتابع الحديث مرة أخرى ليقاطعه بسؤالٍ من جديد. بدا أن فكره كان يتحرك من دون معرفة قانون «الزكزاك». ولكن تلكَ لم تكن الحقيقة، هذا ما بدا فحسب.

غالباً ما تحدث غيتمانوف عن زوجته وأطفاله، وكان يحملُ معه رزمة سميكة من الصور العائلية، وأرسل المستخدمَ مرتين إلى أوفا، مُحمَّلاً بالطرود.

وهنا أقام علاقة غرامية مع طبيبة شريرة من الوحدة الطبية، تمارا بافلوفنا، والحب ليس مزحة. قال فيرشكوف في الصباح بصورة مأساويّة لنوفيكوف:

- أيّها الرفيق العقيد، الطبيبة قضت الليلة عند المفوض، وأطلق سراحها عند الفجر.

أجابَ نوفيكوف:

- هذا ليس من شأنك، يا فيرشكوف، من الأفضل لك ألا تحمل سراً الحلوى من عندي.

لم يخفِ غيتمانوف علاقته بتمارا بافلوفنا، وها هو ذا الآن في السهب يتكئُ بكتفيه على نوفيكوف، ويقولُ هامساً:

- بيوتر بافلوفيتش، لقد وقع أحد الفتيان في حب طبيبتنا. ونظر بحزن ولطف إلى نوفيكوف.

أجابَ نوفيكوف وأشار بعينيه إلى السائق:

- ذلكَ هو المفوض.

أوضح غيتمانوف هامساً:

- حسناً، البلاشفةُ ليسوا رهباناً، وقد وقع في حبّها أحمقُ عجوز.

صمت الجميع عدّة دقائق، وقال غيتمانوف، كما لو أنه لم يُجرِ للتَّوّ حديثَ ثقةٍ ودّيّاً:

- لكنك لا تخسر من وزنك يا بيوتر بافلوفيتش، لعلكَ وقعت في وضع جبهةٍ مألوف لك. أتعلمُ؟ أنا على سبيل المثال، خُلقتُ للعمل الحزبي - لقد وصلت إلى اللجنة الإقليمية في أصعب عام، غيري كان يمكن أن يصاب بمرض السلّ: خطة الحبوب لم تُنفّذ، اتصل بي مرتين الرفيق ستالين على الهاتف، وها أنذا أسمن، كما لو أنّني في منتجع. وهكذا أنت.

أجابَ نوفيكوف:

- الشيطانُ وحده يعرفُ لماذا خُلقتُ أنا. ربما، في الواقع، من أجل الحرب.

ضحكَ وتابعَ:

- ألاحظ أن شيئاً مثيراً للاهتمام سيحدث قريباً، وأُفكِّرُ في أنَّ أول ما ينبغي فعله هو ألا ننسى إخبارَ يفغينيا نيقولايفنا أنّ الألمان رموا القنبلة الأولى عليك وعلى نيودوبنوف، نعم أفكِّرُ: علينا إخبارها بذلك.

سأل غيتمانوف:

- هل تُعدّ تقاريرَ سياسيةً؟

أجاب نوفيكوف:

- صحيح، تماماً.

- الزوجة، واضح - قال غيتمانوف - هي أقرب الجميع.

وصلوا إلى موقع اللواء، وتَرجَّلوا من السيّارة.

في رأس نوفيكوف كانت تُلحُّ سلسلةٌ من أسماءِ الناسِ، والعائلاتِ، وأسماء المراكز السكنية، والمهام، والألغاز، والأوامر الواضحة وغير الواضحة، والمقترحة والملغاة.

استيقظ فجأة في الليل، وبدأ يشعر بالضيق، تملّكته شكوك: هل يجب أن أطلق النار لمسافاتٍ بعيدة تتجاوزُ مقياس مسافة البصر؟ هل إطلاق النار أثناء السير له ما يسوِّغهُ؟ هل سيتمكن قادةُ الوحدات من تقييم التغييرات في الموقف القتالي بسرعة، وعلى نحوٍ صحيح، واتخاذ قرارات مستقلة، وإعطاء أوامر فورية؟

ثم تخّيلَ كيفَ تدخلُ الدباباتُ قافلةً بعد قافلة، مخترقة الدفاعات الألمانية-الرومانية، طفرة، وينتقلون إلى المطاردة، إلى جانب الطائرات الهجومية والمدفعية ذاتية الدفع والمشاة الآلية والناجين-

يسرعون أبعد وأبعد إلى الغرب، ويستولون على معابر الأنهار والجسور، ويتجاوزون حقول الألغام، ويقمعون عقد المقاومة. وأنزلَ قدميه العاريتين عن السرير، بتوتر سعيد، وجلس في الظلام، يلهثُ شاعراً بقدوم السعادة.

لم يرغب البتّة في الحديثِ إلى غيتمانوف حول أفكاره الليلية.

كان يشعر بالانزعاج، منه ومن نيودوبنوف في هذهِ السهوب، أكثر مما كان عليه الأمرُ في جبال الأورال.

فكّر نوفيكوف: «نضجت الفطائر».

ما عادَ هو نفسه ذلك الشخص الذي كان عليه عام 1941. إنّه يشرب أكثر من ذي قبل. كثيراً ما يشتم، وينزعج. تطاول ذات مرّة على رئيس قسم إمدادات الوقود.

ورأى أنهم يخافونه.

- لكن الشيطان يعرف ما إذا كُنت قد خُلقت للحرب - قالَ - الأفضل من ذلك كله، أن تعيش في كوخ في الغابة مع امرأة تحبها، تذهب إلى الصيد وتعود في المساء. وهي تطهو الحساء، وننام. لايمكنكَ أن تُطعِمَ الإنسانَ حرباً.

حنى غيتمانوف رأسه، ونظر إليه باهتمام.

استقبلَ نوفيكوفَ وغيتمانوفَ عند جهاز الاتصال الميداني اللاسلكي قائدُ اللواء الأول، العقيد كاربوف، وهو رجل ذو وجنتينِ مُمتلِئتينِ، وشعر أحمر، وعينين زرقاوين ساطعتين، توجدانِ فحسب عند الأشخاص من ذوي اللون الأحمر الأصهب.

كانت تجربته العسكرية مرتبطة لبعض الوقت بالمعارك على

الجبهة الشمالية الغربية؛ هناك اضطر كاربوف أكثر من مرة إلى دفن دباباته في الأرض، وتحويلها إلى نقاط إطلاق نار ثابتة.

مشى بجوارِ نوفيكوف وغيتمانوف إلى موقع الفوج الأول، وبدا أنه كان القائد الرئيسي، وكانت حركاته هادئة.

ووفقَ دستوره الخاص، كان ينبغي أن يكونَ شخصاً حسن النية، ويميل لشرب البيرة، والإكثار من الطعام. إلّا أنّهُ كان ذا طبيعة مختلفة - قليل الكلام، بارد، يشك في كل شيء، يتعامل بالصغائر. لم يكرم الضيوف، وكان يُعرف ببخلهِ.

أشاد غيتمانوف بالعمل المخلص، في حفر المخابئ والملاجئ للدبابات والمدافع.

لقد أخذ قائدُ اللواء في الحسبان كل أمر - الاتجاهات الخطرة للدبابات، والإمكانية المُحتَملة للضغط على الجناح، ولكنّه لم يحسب حساباً فقط أنّ المعارك القادمة ستجبره على الانتقال ودخول اللواء السريع إلى المطاردة، والملاحقة.

انزعجَ نوفيكوف من إيماءات الموافقة التي بدرت عن غيتمانوف ومن كلماته.

وقال كاربوف، كما لو أنّه يتعمد إغضاب نوفيكوف:

- دعني أخبرك، أيّها الرفيق العقيد، أنّنا بالقرب من أوديسا حفرنا الخنادق على نحوٍ ممتاز. وانتقلنا في المساء، إلى الهجوم المضاد، وضربنا الرومانيين على رؤوسهم، وفي الليل، وبأمر من القائد، انطلقَ كل دفاعنا، كرجل واحد، إلى الميناء ليُحَمَّلَ على السفينة. استيقظ الرومانيون الساعةَ العاشرةَ صباحاً، وهرعوا يُهاجمونَ الخنادقَ المهجورة، بينما كنا نحن نبحر في البحر الأسود.

قال نوفيكوف:

- عسى ألّا تبقوا واقفين هنا أمام الخنادق الرومانيّة الفارغة.

هل يستطيع كاربوف أثناء الهجوم، أن يندفع إلى الأمام ليلاً ونهاراً، تاركاً وراءه أجزاء العدوّ القادرة على القتال، مشكلةً عُقداً للمقاومة؟.. يندفع إلى الأمام، ويُعَرِّضُ رأسه ومؤخرته وجانبه للضربات، ويتملّكه فقط شغفُ المطاردة. لا ليس هو ذلك الشخص، وليس لديه ذلك الطبع.

كان كل شيءٍ من حولهم يحمل آثارَ الحرارةِ المرتفعةِ للسهوب فيما مضى، والغريب أن الهواء كان بارداً جداً. وكان جنود الدبابات مشغولين بشؤونهم الشخصيّة - أولئك الذين حلقوا ذقونهم وهم يجلسون على الدروع، ويعلقون مرآة على البرج، ومنهم من كان ينظف سلاحه، وآخرون يكتبون الرسائل، وقد ذبحوا بالقرب تيساً فوقَ قماش واقٍ من المطر مفروش على الأرض، ووقفت مجموعة كبيرة تتثاءب بجوار الممرّضات. وكلُّ شيءٍ في هذه الصورة العادية كان تحت سماء ضخمة وعلى أرض ضخمةٍ مملوءة بالحزن قبيل المساء.

اندَفعَ في هذه الأثناء قائدُ الكتيبة نحو القادة القادمين، وهو يرتدي سترته، وصرخ بعنف:

- الكتيبة، استعداد!

أجاب نوفيكوف، كما لو كان يُجادِلُه:

- استرحْ، استرحْ.

سمع المفوضّ، حيث كان يمرّ، كلمات تُفلِتُ، وضحكاً، ونظر جنودُ الدباباتِ بعضهم إلى بعض، وأصبحت وجوههم أكثر مرحاً.

سأل المفوض: من يعاني من الابتعاد عن فتيات الأورال؟ وكيف؟ وسأل عما إذا كانوا قد أحضروا كثيراً من الأوراق لكتابةِ الرسائل، وما إذا كانت «الجنازيرُ» تُنقَلُ بعناية في السهوب.

وأخذ المفوض يلحّ على مدير التموين سائلاً:

- ماذا أكلَ جنود الدبابات اليوم؟ وماذا أكلوا أمس؟ وماذا عن اليوم الذي قبله؟ وهل أكلوا أيضاً حساء الشعير، مع الطماطم الخضراء مدة ثلاثة أيام؟ وقال أثناء ضحك جنود الدبابات - وهل نحضر طاهياً إلى هنا؟ - دع مدير التموين يَقُلْ ماذا أعدّ طعاماً للغداء.

كان من خلال أسئلته حول معيشة وحياة جنود الدبابات، يُوبِّخُ القادةَ الميدانين: «ما بكم تهتمون فقط بما يتعلق بالتكنولوجيا والتكنولوجيا؟».

وقف مدير التموين، وهو رجل نحيلٌ ينتعلُ حذاءً مغبرّاً من القماش المشمع، وذو يدين حمراوين، تماماً مثل الغسّالة التي تغسلُ الملابس الداخلية في الماء البارد، أمام غيتمانوف وسعل.

شعر نوفيكوف بالأسف عليه. قال:

- أيّها الرفيق المفوض، هل في إمكاننا أن نمرّ بالسيارة معاً إلى بيلوف؟

كان غيتمانوف في حقبة ما قبل الحرب يعدُّ بجدارة قائداً جماهيرياً جيداً. ما إن يبدأ حديثاً، حتى يبدأ الناس بالضحك - إنّ خطابه البسيط المفعم بالحيوية والكلمات الخشنة يمحو من فوره التمييز بين سكرتير اللجنة الإقليمية والرجل المتسخ في ملابس العمل.

كان دائماً يدخل في الاهتمامات المعيشةِ - هل تأخرت الرواتب؟ أو ما إذا كانت الموادُّ شحيحةً في محلات المنتجات

الزراعية والتعاونيات العمالية، أو ما إذا كان السكن جيّد التدفئة أم لا، أو ما إذا كانت المطابخ جيّدة في المعسكرات الميدانيّة.

لقد كان بسيطاً على نحوٍ خاص، وتحدث جيداً مع العاملات المسنّات في المصانع والكولخوزات، حيث أعجَبَ الجميعَ أن السكرتير كان خادماً للشعب، وأنه كان يتعامل بقسوة مع موظفي التموين، وأقسام التموين العماليّة، ومسؤولي السكن، وإذا لزم الأمر، مع مديري المصانع ومراكز الهاتف، عندما كانوا يهملون مصالح الشخص العامل. لقد كان ابن فلاح، وعملَ هو نفسه ذات مرة ميكانيكيّاً في ورشة عمل، وشعر العاملون بذلك. ولكنَّهُ كان في مكتبه في اللجنة الإقليمية منشغلاً دائماً بمسؤوليته تجاه الدولة؛ وكان قلق موسكو هو قلقه الرئيسي؛ وقد علم مديرو المصانع الكبيرة وسكريتاريّو لجان المناطق الريفية بهذا الأمر.

- هل تفهم أنك تُعطّل خطة الدولة؟ هل تريد وضع البطاقة الحزبية على الطاولة؟ هل تعرف بماذا عهدَ الحزب إليك؟ لا حاجة إلى الشرح؟

لم يضحكوا في مكتبه، أو يمزحوا، ولم يتحدثوا عن غلّايات الماء في السكن الجماعي، وعن زراعة الورود في الورش. في مكتبهِ صادقوا على خطط الإنتاج الصارمة، وتحدثوا عن رفع معايير الإنتاج، وأنَّه من الضروري انتظار بناء المساكن، ومن الضروري شدّ الأحزمة على البطون على نحوٍ أكثر قوّةً، وخفض تكاليف الإنتاج على نحوٍ حاسم، ورفع أسعار التجزئة.

كانت قوة هذا الرجل تُحَسُّ على نحوٍ خاص عندما يقود اجتماعات في اللجنة الإقليمية. كانَ ثمَّة شعور في هذه الاجتماعات

بأن الناسَ جميعاً جاؤوا إلى مكتبِ غيتمانوف ليس بأفكارهم وملاحظاتهم، ولكن من أجل مساعدتهِ، إنّ مجمل سير الاجتماع كان محدداً مسبقاً بضغط غيتمانوف وعقلهِ وإرادته.

لقد تحدّث بهدوء ومن دون استعجال، واستمع بثقة إلى أولئك الذين وجّهت إليهم كلماته.

«أخبرني عن منطقتك، دعونا، أيها الرفاق، نُعْطِ الكلمة للمهندس الزراعي. حسناً، إذا كنتَ، بيوتر ميخائيلوفيتش، تريد أن تضيف. دع لازكو يتكلم، ليس كل شيء على ما يرام عنده في هذا المجال. أنت يا روديونوف، أرى أنّك تريد أيضاً إلقاء كلمة، في رأيي، أيها الرفاق، أن المسألة واضحة، لقد حان الوقت لوضع النقاط على الحروف، وأعتقد أنه لن يكون هناك اعتراض. هنا، أيها الرفاق، أُعِدَّ مشروع قرار؛ اقرأه يا روديونوف». وقرأ روديونوف، الذي أراد أن يشكِّكَ وحتى يجادل، قرأ القرار بعناية، ونظر إلى الرئيس: هل قرأ بوضوح كافٍ؟ «حسناً، الرفاق لا يمانعون».

ولكن الشيء الأكثر إثارة للدهشة، هو أن غيتمانوف بدا أنه لا يزال صادقاً، ولم يتغيّر؛ سواء عندما طلب خطة من سكرتاريي لجان المقاطعات، أم عندما اقتَطعَ آخر غرامات من أيام عمل الكولخوزات، وعندما خفَّض أجور العمال، وعندما طالب بتكاليف منخفضة، وعندما رفع أسعار التجزئة، وعندما تحدث مُتأثِّراً مع نساء في مجلس القرية، وتنهّد بسبب حياتهن القاسية، وحزنَ بسبب ظروف المعيشية المكتظة في مساكن العمال.

من الصعب فهم ذلك، لكن هل من السهل فهم كل شيء في الحياة؟

عندما اقترب نوفيكوف وغيتمانوف من السيارة. قال غيتمانوف مازحاً لكاربوف، الذي كان يرافقهما:

- علينا أن نتناول الغداء عند بيلوف، لا يمكن أن ننتظر غداءً منك ومن مدير التموين.

قال كاربوف:

- الرفيق مفوّض اللواء، لم يُمنح مسؤول التموين أي شيء من مستودعات الجبهة. وهو، بالمناسبة، لا يأكل أي شيء؛ يعاني من آلام في المعدة.

قال غيتمانوف وهو يتثاءب:

- إنه مريض، أي ياي ياي، يا لها من مصيبة! حسناً، دعونا ننطلق.

كان لواء بيلوف متقدماً لمسافة كبيرة غرباً بالمقارنة مع لواء كاربوف.

كان بيلوف نحيلاً ذا أنفٍ كبير، له ساقا فارسٍ مُلتويتان، ولديه عقل سريع وحادّ، وخطابُهُ مدفعٌ رشاش، وهو يعجب نوفيكوف.

بدا لنوفيكوف أنّه رجلٌ خُلقَ لاختراقات الدبابات وللقفزات السريعة.

كانت مَزِيّاتُهُ الشخصية جيّدة، على الرغم من أنه لم يشارك في الأعمال القتالية لفترة طويلة - لقد نفّذ في كانون الأول (ديسمبر) غارة دبابات بالقرب من موسكو داخل العمق الألماني.

لكن نوفيكوف شعرَ الآن بالقلق، فهو لم ير سوى عيوب قائد اللواء - يشرب الرجلُ كحصان، مستهتر، يتعرّض للنساء، ينسى، لا يحظى بحبّ مرؤوسيه. وبيلوف لم يستعد للدفاع. ولا يهتمُّ بيلوف

بالأمن المادي والتقني للواء على ما يبدو. كان مهتماً فقط بالوقود والذخيرة. لم يتعامل على نحوٍ كافٍ مع تنظيم إصلاح المركبات التالفة وإخلائها من ساحة المعركة.

قال نوفيكوف:

- ما بك، رفيق بيلوف، أنت لست في الأورال، بل في السهوب.

وأضاف غيتمانوف:

- نعم، أنتم مثل مجموعة من الغجر الرُّحّل.

أجاب بيلوف بسرعة:

- لقد اتخذت تدابير ضد الطيران، لكن العدو البري ليس مخيفاً، يبدو لي غير واقعي في مثل هذه المنطقة.

وعَبَّ هواءً:

- لا أريد الدفاع، بل دخول اختراق. الروح تبكي، أيّها الرفيق العقيد.

قال غيتمانوف:

- أحسنت، أحسنت، بيلوف. سوفوروف سوفييتي، قائد حقيقي - وبعد أن تحول إلى مخاطبته بصيغةِ المفرد، قال بهدوء ولطف:

- أبلغني رئيس القسم السياسي بأنك تقابل ممرّضة من الكتيبة الطبيّة. هل هذا صحيح؟

وبسبب لهجة غيتمانوف الطيّبة، لم يفهم بيلوف من فوره السؤال السيئ، وسألَ بدوره:

- مذنب، ماذا قال؟

ولأن الكلمات حتى من دون تكرار وصلت إلى وعيه، قال محرجاً:

- مسألة شخصيّة، أيّها الرفيق المفوض، وفي ظروف ميدانيّة.

- ولديك زوجة، وطفل.

صحّح بيلوف عابساً:

- ثلاثة.

- أرأيت؟ ثلاثة. لقد عزلت القيادة، في اللواء الثاني قائدَ الكتيبة الجيد بولانوفيتش، واتخذوا تدابير صارمة، قبل مغادرة الاحتياطي، واستبدلت به كوبيلين بسبب هذا الأمر فحسب. أيّ مثال للمرؤوسين، هاه؟ قائد روسيّ، والد ثلاثة أطفال.

قال بيلوف الغاضب، وبصوت عالٍ:

- هذه مسألة لا تهمّ أحداً، فأنا لم أستخدم العنف معها. وهذا المثال عرضوه قبلك، وقبلي وقبل والدك.

قال غيتمانوف، دون أن يرفع صوته، منتقلاً من جديد إلى صيغةِ الجمع «أنتم»:

- أيّها الرفيق بيلوف، لا تنسَ البطاقة الحزبيّة. قف على نحوٍ مناسب، عندما يتحدث إليك رئيسك الأقدم.

اتخذ بيلوف، مظهراً عسكرياً خشبيّاً تماماً، وقال:

- مذنب، أيّها الرفيق مفوض اللواء، وأنا، بالتأكيد، أفهم، وأدرك.

قال له غيتمانوف:

- أنا واثق بنجاحاتك العسكرية، وقائد الفيلق يثق بك، فلا تُزْرِ

بنفسك فقط بسببِ علاقة شخصيّة - ونظر إلى ساعته وقال: - بيوتر بافلوفيتش، عليّ الذهاب إلى المقر، لن أذهب إلى ماكاروف معك. سآخذ سيارة من عند بيلوف.

عندما خرجا من المخبأ، سأله نوفيكوف، ولم يعد قادراً على التحمّل:

- ماذا؟ هل اشتقت إلى توموتشكا؟

نظرت إليه بحيرةٍ عينان جليديّتان، وقال صوتٌ مزعوج:

- استدعاني عضو المجلس العسكري إلى الجبهة.

قبل العودة إلى مقر الفيلق، مرّ نوفيكوف بحبيبه المفضل ماكاروف، قائد اللواء الأول.

ذهبا معاً إلى البحيرة الصغيرة التي توجد بجوارها إحدى الكتائب.

قال ماكاروف ذو الوجه الشاحب، والعينين الحزينتين اللتين بدتا وكأنَّهما لا تخصّانِ بأي حال من الأحوال قائد لواء الدبابات الثقيلة، مُخاطباً نوفيكوف:

- أتذكر ذلك المستنقع البيلاروسي، أيّها الرفيق العقيد، عندما قادنا الألمان من خلال القصب؟

تذكّر نوفيكوف المستنقع البيلاروسي.

فَكَّرَ في كاربوف وبيلوف. المسألة هنا لا تتعلَّقُ بالتجربة فحسب، ولكن أيضاً بالطبيعة. من الضروري غرس التجربةِ عند القادة الذينَ لا تجربة لهم. لكن الطبيعة لا ينبغي كبتها بأي شكل من الأشكال. لا يمكنُ نقل الأشخاص من الطائرات المقاتلة إلى

وحدات المهندسين القتالية. ليس الجميع مثل ماكاروف - إنه جيدٌ في الدفاع وفي الملاحقة.

يقول غيتمانوف: إنّه خُلق للعمل الحزبي. لكن ماكاروف جندي، لا يمكن إعادة تفصيله. ماكاروف، ماكاروف، محارب ذهبيّ!

لا يُريد نوفيكوف من ماكاروف تقاريرَ ومعلوماتٍ. يريد أن يُشاوره، يُريدُ مشاركته الأمر. كيف يمكن تحقيق ذلك التنسيق الجماعي الهجومي الكامل ما بين المشاة والمشاة الآلية، وخبراء المتفجرات، والمدفعية ذاتية الدفع؟ هل تتفقُ افتراضاتهم حول الخطط والإجراءات المحتملة للعدو بعد بدء الهجوم؟ هل يقيِّمون قوةَ دفاعه المضادة للدبابات بصورةٍ واحدة؟ هل عُيِّنت حدود الانتشار على نحوٍ صحيح؟

وصلا إلى موقع قيادة الكتيبة.

توزّع موقع القيادة في منطقة ليست عميقة. عندما رأى قائد الكتيبة فاتوف، نوفيكوفَ وقائدَ اللواء أحسَّ بالإحراج - لم يكن مخبأ المقر الرئيسي مناسباً لهذين الضيفين الموقَّرين. ثم إنَّ جندي الجيش الأحمر كان يحرق الخشب بالبارود، والموقد غير لائق تماماً.

قال نوفيكوف:

- تذكروا أيها الرفاق، سَيُكلَّف الفيلقُ بواحدة من أكثر الأجزاء مسؤولية في مهمة الخطوط الأمامية المشتركة، وسأعهَدُ بالجزء الأصعب إلى ماكاروف، ومكاروف سيسلمني الجزء الصعب من

مهمّته وسيأمر فاتوف بالتنفيذ. وكيف يمكن حل المهمّة، عليكم أن تفكروا في الأمر. لن أفرض عليكم قراراً في المعركة.

وسأل فاتوف عن تنظيم الاتصالات مع مقر الفوج، وقادة السرايا، وحول تشغيل اللاسلكي، وحول كمية الذخيرة، وفحص المحركات، ونوعية الوقود.

قبل الوداع، قال نوفيكوف:

- ماكاروف، هل أنت مستعد؟

- لا ، لستُ مُستَعِدّاً تماماً، أيّها الرفيقُ العقيد.

- ثلاثة أيام كافية بالنسبة إليك؟

- كافية، أيها الرفيق العقيد.

قالَ نوفيكوف للسائق وهو يجلسُ في السيارة:

- كيفَ ترى الأمر خاريتونوف، كأنّ كل شيء على ما يرام عند ماكاروف؟

أجاب خاريتونوف، وهو يلقي نظرة سريعة على نوفيكوف:

- كل شيء على ما يرام، بالتأكيد، أيّها الرفيق العقيد. ثملَ مدير الإمدادات الغذائية، جاؤوا من الكتيبة لاستلام المُركَّز، لكنَّ الرجل كان قد ذهب إلى النوم، وأخذ المفتاح. لذلك عادوا دون أن يجدوه. أخبرني المسؤول أنَّ قائد السرّية استلم الفودكا للجنود. واحتفل بعيد ميلاده. شرب الفودكا كلّها. كنت أرغب في كتابة ملحوظة، ولصقها على الغرفةِ بالغراء، لكن حتى الغراء غير موجود لديهم.

35

فرحَ الجنرالُ نيودوبنوف عندما نظر من نافذة كوخ المقر الرئيسي ورأى سيارة قائد الفيلق «الجيب» قادمة في سحابة من الغبار.

وهذا ما حدثَ معه ذات مرة في مرحلة الطفولة، عندما خرج الكبار للزيارة وكان سعيداً أنه بقي سيّد المنزل، ولكن ما إن أغلقَ الباب، حتى بدأ يتراءى له اللصوص، واشتعالُ حريق، فمضى يذرعُ الغرفة من البابِ إلى النافذة، يستمع، ويستمع، ويرفع أنفه؛ هل من رائحة للدخان؟

شعرَ بالعجز؛ الأساليبُ التي مَكَّنتهُ من إدارة أمورٍ عظيمة في حياته، لم تصلح هنا.

قد يزحف العدوّ فجأة، لأنّ المسافة من المقرّ إلى الجبهة ستون كيلومتراً فحسب. هنا لن تكون المسألةُ مسألةَ خوفٍ أن تُقالَ من منصبك، وأن تُلامَ على العلاقات مع أعداء الشعب. تزحفُ الدباباتُ وتزحف، كيف يمكنك إيقافها؟ وهذا الوضوحُ أدهش نيودوبنوف: قوة غضب الدولة تجبرُ الملايين على الركوع والارتعاش، هنا في الجبهة، عندما اللورد الألماني لا يساوي فلساً واحداً. لم يملأ الألمان الاستبيانات والاستمارات، ولم يُقدِّموا في

الاجتماعات سيرهم الذاتية، ولم يجهدوا خائفين من الإجابة عن أنشطة آبائهم قبل عام 1917.

لم يعد كل ما أحبَّهُ، وكل ما كان لا يستطيع العيش من دونه، مصيره، مصير أبنائه، تحت ستار الدولة الوطنيّةِ العظيمة والرهيبة. وللمرة الأولى فكر بخجل وعاطفة في العقيد.

قال نوفيكوف، عند دخول كوخ المقرّ:

- اتضحَ لي، أيّها الجنرال، أنَّ ماكاروف سيحلُّ بنفسه في أي موقفٍ المشكلة التي قد تنشأ فجأة. وبيلوف سوف يندفع إلى الأمام من دون النظر إلى الخلف؛ إنه لا يفهم غير ذلك. أما كاربوف فينبغي أن يُحثَّ. . .

قال نيودوبنوف:

- نعم، الكوادر، الكوادر، ستُقرِّرُ كل شيء؛ هذا هو ما يعلمه الرفيق ستالين بلا كلل - وأضاف بحيوية:- ما زلتُ أعتقد أن ثمَّةَ عميلاً ألمانيّاً في القرية، وهو ذلك الوغد، الذي دَلَّ الطيران في الصباح إلى مقرنا.

وتابع نيودوبنوف مُحدِّثاً نوفيكوف عمّا حدثَ في المقر:

- حزمَ الجيرانُ وقادة وحدات التعزيزات أمرَهم على الحضور إلينا، هكذا من دون أيِّ غايةٍ خاصة، بل لمجردِ التعارف، وللزيارة بكلّ بساطة.

قال نوفيكوف:

- من المؤسف أن غيتمانوف غادر إلى مقر الجبهة، ما الذي دفعه إلى ذلك؟

اتفقا على تناول الغداء معاً، ومضى نوفيكوف إلى شقته ليغتَسل، وليُبدِّلَ ملابسه المغبرة.

وقف في شارع المحطة الواسع، الذي كان مهجوراً، وبالقرب من الحفرة التي حفرتها قنبلة، رجلٌ عجوزٌ كان غيتمانوف يسكن كوخه. وكما لو كانت الحفرة قد حُفرت للاحتياجات المنزلية وقفَ العجوز فوقها يُحدِّدُ شيئاً ما بذراعيهِ المفتوحتين. وعندما وقف نوفيكوف بجانبه، سأله:

- أيُّ سحرٍ تُمارس هنا، أيّها الأب؟

قال الرجل العجوز، بعد أن أدّى التحيّة على الطريقة العسكرية:

- أيها الرفيق القائد، كنت في الأسر عند الألمان سنةَ خمس عشرة، وعملت هناك عند إحدى النساء - وأشار إلى الحفرة ثم إلى السماء، وقال غامزاً: - ليس في الأمر خلاف على أنّ ذلك هو ابني غير الشرعي - ابن العاهرة، جاء لزيارتي.

ضحك نوفيكوف قائلاً:

- آه، أيّها العجوز.

نظر إلى نوافذ غيتمانوف المغلقة، أومأ إلى الحارس، الذي وقف عند الشرفة، وفكر فجأة: «لماذا بحق الجحيم يذهب غيتمانوف إلى مقر الجبهة الرئيسي؟ ما الأعمال التي عنده؟». وللحظة ومض قلقٌ في روحه: «هل هو مزدوج؟ كيف أنَّبَ بيلوف لسلوكهِ غير أخلاقي؟ وما إن ذكرتُ تمارا، حتى تشكّلَ الجليد».

لكن هذه الأفكار بدت فارغةً فوراً، لم يكن الشك من طبيعةِ نوفيكوف.

استدار عند زاوية البيت، ورأى عشرات الرجال في الحقل، ممن عبّأتْهُم - ولا شك - المفوضيةُ العسكريّة الإقليميّة، كانوا يستريحون بالقرب من البئر.

نام الجندي المتعب الذي يرافق الشبَّان، وغطى وجهه بغطاء، وبجانبه كومة من الصرر والحقائب المطوية. يبدو أن الرجال ساروا كثيراً على طول السهب، وألحقوا الأذى بأرجلهم، وخلع بعضهم حذاءَه. لم يحلقوا رؤوسهم بعد، وبدا من بعيد وكأنهم تلاميذ ريفيون يستريحون في استراحة بين الدروس. كانت وجوههم هزيلة وأعناقهم نحيلة، ورؤوسهم طويلة الشعر، وملابسهم مرقّعة ومخيطة من سترات الأب وسراويله - كل هذا كان طفولياً تماماً. لعب كثيرٌ منهم لعبة الأولاد التقليدية، وقد لعبها قائد الفيلق يوماً ما، ألقوا خمسة كوبيكات معدنية في اتجاه الحفرة المحفورة، والمحوطة، وصوّبوا إليها. نظر الباقون إلى اللعبة، ولم تكن عيونهم صبيانية - كانت قلقة وحزينة.

لاحظوا نوفيكوف ونظروا إلى العم النائم، ومن الواضح أنهم أرادوا أن يسألوه ما إذا كان من الممكن رمي عملات معدنية ذات خمسة كوبيكات، ومُتابعة الجلوس عندما يمرّ عليهم القادة العسكريون.

قال نوفيكوف بصوت مخمليّ، ومرّ ملوّحاً لهم بيده:

- اضربوا، اضربوا، أيّها الأبطال.

اجتاحه شعور بالشفقة الخارقة، والحادة حتّى إنه ارتبك من قوتها. يجب أن تكون هذه الوجوه الصغيرة الرقيقة لأطفال، وهذه الملابس الريفية الفقيرة، قد وَشت أنّهم وبوضوح مدهش أطفال،

صبية. . . وفي الجيش، يُخفى الشخص، الصبي تحت خوذة، وفي ملابس عسكريّة، وفي صرير الأحذية، والحركات والكلمات. . . وهنا كان كلُّ شيء واضحاً.

دخل المنزلَ، ومن الغريب أنَّ اللقاءَ مع الأولاد المجندين كان الأكثر إثارة للقلق في مجمل العبء والانطباعات والأفكار المقلقة لهذا اليوم.

كرّر نوفيكوف بنفسه: «القوة الحيّة، القوة الحيّة، القوّة الحيّة».

لقد عرف الخوف طوال حياته كجندي، أمام رؤسائه بسبب فقدان المعدات والذخيرة، والتأخير بالوقت، وفقدان الآليات، والمحركات، والوقود، وترك المرتفعات ومفارق الطرق من دون إذن. لم يصادف أن القادة غضبوا بجدّية من أن القتال كان مصحوباً بخسائر كبيرة في القوى الحيّة. أحياناً أرسلَ القائد أشخاصاً تحت النار، من أجل تجنب غضب كبار القادة وإيجاد المبرّر لنفسه، وهو يفتح ذراعيه قائلاً: «لم أستطع فعل أيّ شيء، لقد ضحّيت بنصف الناس، لكنني لم أستطع السيطرة على الحدود المطلوبة». . .

القوة الحيّة، القوة الحيّة.

لقد رأى مرات عدة كيف دفعوا القوى الحيّة تحت النار، ليس حتى من أجل إعادة التأمين والتنفيذ الرسمي للأوامر، ولكن بدافع الجرأة، والعناد. إنّ سرّ أسرار الحرب، وروحها المأساوية تجلَّت في حق شخص واحدٍ أن يرسلَ شخصاً آخر إلى الموت. واستند هذا الحق إلى أنَّ الناس ذهبوا إلى النار من أجل قضية عامّة.

وهذا أحد معارف نوفيكوف، وهو قائد رصين وعقلاني، في

طليعة الحزب الوطني، لم يغيّر عادته؛ يشربُ الحليبَ الطازج يومياً. في الصباح، وتحت نيران العدو، يحضرُ لهُ مقاتلٌ من النسقِ الثاني ترمساً مملوءاً بالحليب الطازج. وحدث أن قتلَ الألمانُ الجندي، حينها بقي صاحبُ نوفيكوف، الرجلُ الطيب، من دون حليب. وفي اليوم التالي، حمل إليهِ رسول جديد ترمساً من الحليب تحت النار. شربَ الحليبَ الشخصُ الجيّدُ والعادلُ، المهتم بمرؤوسيه، والذي كان الجنودُ يُنادونه بالوالد. اذهب وجرّب فهم هذا الوضع بأكمله.

سرعان ما مرّ نيودوبنوف بنوفيكوف لاصطحابه، وقال نوفيكوف وهو يمشّط شعرَهُ عجلاً أمام المرآة:

- نعم أيّها الرفيق الجنرال، إنّ مسألة الحرب فظيعة! هل رأيت- يقودونَ الصبيةَ لملءِ الفراغ؟

قال نيودوبنوف:

- نعم، كوادر خردة، بأُنوفٍ تسيل. أيقظتُ المرافق، أنذرتُهُ بإرساله إلى السرّية المعاقبة. صرفهم تماماً، وكأنّهم ليسوا مجموعةً عسكريّةً، بل رواد حانةٍ ما.

تروي روايات تورغنيف أحياناً كيف يأتي الجيرانُ إلى ملّاك الأرض المستقر حديثاً...

اقتربت سيارتان من المقر، في الظلام، وخرج المضيفون للقاء الضيوف على الشرفة: قائد فرقة المدفعية، وقائد فوج بطاريات مدافع الهوترز، وقائد لواء مدافع الهاون.

أعطني يديك، عزيزي القارئ، وسوف نذهب معاً إلى عزبة تاتيانا بوريسوفنا، جارتي...

كان العقيد المدفعي، قائد الفرقة، معروفاً لنوفيكوف من قصص الجبهة وتقارير الموظفين؛ حتى إنه تخيله بوضوح: قرمزي، برأس كرويٍّ. ولكن، بالتأكيد، تبين أنه رجل مسنّ، وظهره مَحني.

وبدا أن عينيه المبتهجتين وُضعتا بمحض المصادفة على وجهه العابس. وفي بعض الأحيان تضحك العينان بذكاء بحيث تبدوانِ هما جوهرَ العقيد، أمّا التجاعيد، وانحناءة الظهر فقد اتصلت بمحضِ المصادفة فحسب بتينك العينين.

قائد لواء الهاوترز لوباتين كان يمكن أن يكونَ ليس ابناً فحسب، بل حفيداً لقائد فرقة المدفعية.

قائدُ لواء الهاون الصاروخي، ماجد، ذو البشرة الداكنة، والشارب الأسود فوق شفته العليا البارزة، والجبهة العالية لرأس مُبكِّر، كان شخصاً بارعاً ومتحدِّثاً لامعاً.

دعا نوفيكوف الضيوف إلى الغرفة، حيثُ المائدة جاهزة.

وقالَ، مُشيراً إلى صحونٍ من الفطر المملَّح والمخلّل:

- أرجو قبول التحية من الأورال.

الطباخ، الذي كان يقف بوضعية لوحة أمام المائدة، احمر كثيراً، تأوّه واختفى - أعصابه لم تحتمِل.

انحنى فيرشكوف على أذن نوفيكوف وهمس، مشيراً إلى المائدة:

- بالتأكيد، هيّا، لماذا تبقونها محبوسة؟

أشار قائد فرقة المدفعية، موروزوف، بأظفره أعلى قليلاً من ربع كوبه وقال:

- ليس أكثر من ذلك، إنّها الكبد.

- وأنت أيّها المقدم؟

- لا شيء من ذلك، الكبد معافاة، اسكب حتى الحافة.

- صديقنا ماجد قوزاقي.

- وأنت، أيّها الرائد، كيف كبدك؟

غطى قائد فوج الهاوتزر لوباتان كأسه براحة يده وقال:

- شكراً لك، أنا لا أشرب الخمر، ورفعَ راحة يده، وأضاف قائلاً: - على نحوٍ رمزي، قطرة واحدة كي أرفع الكأس.

قال ماجد:

- لوباتين طفلٌ في مرحلة ما قبل المدرسة، يحب الحلويات.

شربوا نخبَ نجاح العمل المشترك. وفوراً، كالعادة، اتضح أن الجميع يعرفون بعضهم بعضاً في الأكاديمية والمدارس وقت السلم.

تحدثوا عن قادة الخطوط الأمامية، عن مدى سوء وضعهم في سهوب الخريف البارد.

سأل لوباتين:

- حسناً، متى سيكون حفل الزفاف؟

قال نوفيكوف:

- سيكون هناك حفل زفاف.

قال ماجد:

- نعم، نعم، حيث توجد كاتيوشا، هناك دائماً حفل زفاف.

كان ماجد يؤمنُ بالدور الحاسم للأسلحة التي يقودها. بعد كأس

من الفودكا، أصبح محباً للخير، وساخراً بحدودٍ، ومتشككاً، ومبعثراً ومكروهاً بشدة من نوفيكوف.

كان نوفيكوف في الآونة الأخيرة، يتساءل في أعماقهِ كيف يمكن أن تتعامل يفغينيا نيقولايفنا مع هذا أو ذاك من محاربي الجبهة؟ وكيف سيبدأ أحد معارفه هذا أو ذاك في الجبهة، الحديث معها؟ وكيف سيتصرّف؟

فَكّرَ نوفيكوف في أنّ ماجداً كان ولا بد سيتعرّض لجينيا، وسينهار، ويتفاخر، ويروي النكات.

شعر نوفيكوف بقلقٍ وغيرة، كما لو أن جينيا كانت تستمع إلى ذكاء ماجد، الذي يحاول إظهار بضاعةِ وجهه.

وتحدث بنفسه، رغبة في إظهار سلعةِ وجهه أمامها، عن مدى أهمية فهم الأشخاص الذين تقاتل معهم ومعرفتهم، معرفة كيف سيتصرفون في ظروف القتال قبل حدوثهِ. تحدَّثَ عن كاربوف، الذي سيتعين عليه طرده، وعن بيلوف، الذي ينبغي ضبطه، وعن مكاروف، الذي يتعامل بسهولة وبسرعة في ظروف الهجوم والدفاع.

ينشأ من خلال حديث فارغ إلى حد ما جدالٌ، غالباً ما يحصل بين قادة مختلف الفروع العسكرية، جدالٌ على الرغم من أنه يكونُ ساخناً، ولكنَّه في جوهره فارغ أيضاً.

قال موروزوف:

- نعم، ينبغي توجيه الناس وتصحيحهم، لكن يجب عليك ألا تجبرهم.

- ينبغي قيادة الناس بقوة - وقال نيودوبنوف - يجب ألّا نخاف المسؤولية، علينا أخذها على عاتقنا.

قال لوباتين:

- من لم يكن في ستالينغراد، لم ير حرباً على الإطلاق.

اعترض ماجد قائلاً:

- لا، اسمح لي - ما هي ستالينغراد؟ بطولة، وثبات، ومثابرة - أنا لا أجادل، ومن السخف الجدال! لكنني لم أكن في ستالينغراد، لكن لديّ وقاحة للقول إنني رأيت الحرب. أنا ضابط هجومي. شاركت في ثلاث هجمات، وسأقول: اخترقتُ بنفسي، دخلت في هذا الخرق. وأثبتت المدافعيّةُ نفسها، لم تتفوق على المشاة فحسب بل على الدبابات أيضاً، وإن أردتَ أن تعرفَ المزيد، وعلى الطيران.

قال نوفيكوف بمرارة:

- حسناً، دعك من هذا أيّها المقدم: لقد تغلبت على الدبابات،- الدبابة هي سيّد حرب المناورة، ولا يجب الحديث هنا.

قال لوباتين:

- هناك أيضاً، مثل هذه الحيلة البسيطة. في حالة النجاح، يعزو المرءُ كلَّ شيء إلى نفسه. وفي حالةِ الإخفاق يلقي اللوم على الجار.

قال موروزوف:

- أوه، أيُّها الجيران، الجيران، طلب إليَّ قائدُ وحدة مشاة، بطريقة ما، أن أسانده بالنار. «اضرب، يا صديقي، تلك المرتفعات». سألته: «بأي نوع من الأعيرة؟» وانهالت منه الشتائم، وقال: «هيّا اقذف، فحسب!» وبعد ذلك اتضح أنه لا يعرف عيار الأسلحة أو المدى المُجدي للسلاح، ولا يعرف حتى التعامل مع الخريطة: «هيا، أطلق النار إلى هناك يا بن. . . »- ولمرؤوسيه -

«إلى الأمام، وإلا سأطحن أسنانكم، وأطلق عليكم النار!» - وأنا متأكد من أنه تفوّقَ على حكمة الحرب كُلِّها. إليكم هذا الجار، وعليك أن تحبّه وتحنو عليه. بل يعدّونكَ أيضاً من مرؤوسيه؛ وكيف لا؟ إنّه جنرال.

قال نيودوبنوف:

- أوه، عفواً، أنت تتحدث لغةً غريبةً عن روحنا. لا يوجد قادة وحدات من هذا القبيل في القوات المسلحة السوفييتية، فكيفَ جنرالات!

- كيف لا؟ - قال موروزوف - بلى، كم قابلتُ مثل هؤلاء الحكماء خلال سني الحرب، يهددونك بمسدس، ويشتمون أمّك، ويرسلون الناس بلا معنى تحت النار. منذ مُدّةٍ قريبة فحسب، بكى قائد كتيبةٍ مباشرة وهو يقول: «إلى أين سأقود الناس في مواجهة المدافع الرشاشة؟» وقلتُ أنا: «هذا صحيح، فلنسحق نقاط إطلاق النار تلك بالمدفعية». ولكن قائد الفرقة، الجنرال، صاحَ ملوّحاً بقبضاته في وجه قائد الكتيبة: «إما أن تهجم الآن، وإمّا سأطلق النار عليك كالكلب». حسناً، قاد الناس؛ مثل الماشية، إلى المسلخ!

- نعم، نعم، يُطلَقُ على ذلك: لا تَعُقْ ما يعجبني - قال ماجد - لكن الجنرالات يتكاثرون، بالمناسبة، ليس عن طريق البرعمة، بل عن طريق إفساد فتيات الاتصالات.

وأضاف لوباتين:

- لا، لا يستطيعونَ كتابة كلمتين من دون خمسة أخطاء.

قال موروزوف دون أن يسمع ما قيل:

- هذا هو. - قاتلوا معهم بالقليل من الدم. تكمن قوتهم الكاملة في حقيقة أنهم لا يرحمون الناس.

أثار ما قاله موروزوف تعاطف نوفيكوف. كان يواجه طوال حياته العسكريّة، مثل هذه الأمور وما شابهها.

وفجأة قال:

- وكيف تشعر بالأسف على الناس؟ إذا كان الشخص يشفق على الناس، فلا حاجة به إلى القتال.

لقد أزعجَه كثيراً مجنّدو اليوم؛ أراد التحدث عنهم. وبدلاً من قول الصالح والخير الذي كان فيه، كرر نوفيكوف بحقد مفاجئ وغير مفهوم البتّة بالنسبة إليه نفسه:

- وكيف تشفق على الناس؟ والحرب هي ألّا تشفق على الناس. المشكلة الرئيسية: يحضرون إلى القطعة العسكرية بعض الأشخاص المدربين كيفما اتفق، ويسلّمونهم معدات ثمينة. السؤال هو، على من تشفق؟

وسرعان ما نقّل نيودوبنوف عينيه من محاور إلى آخر.

لقد أهلك نيودوبنوف كثيراً من الناس الطيبين، مثل أولئك الذين كانوا يجلسون إلى المائدة الآن، وأدهشت نوفيكوف فكرة مفادُها أنَّ المصيبة التي تأتي من هذا الرجل ربما لن تكون أقل من تلك التي تنتظر على الطرف الأمامي موروزوف، ونوفيكوف، وماجد، ولوباتين وهو أيضاً وأولئكَ الرجال الريفيين الذين استراحوا اليوم في شارع ستانيتسا.

قال نيودوبنوف مُعلّماً:

- هذا ليس ما علمنا إياه الرفيق ستالين. يعلمنا الرفيق ستالين أن الأشخاص الأكثر قيمة هم الكوادر. أغلى ثروة عندنا هم الكوادر والناس، ويجب حمايتهم مثل بؤبؤ العين.

رأى نوفيكوف أن المستمعين كانوا متعاطفين مع كلمات نيودوبنوف، وفكر: «نستنتج من ذلك. . . أنني أنا أمام الجيران وحش، إذاً أنا وحش، وفي حين يتبيّن أن نيودوبنوف يحمي الناس. إنه لأمر مؤسف أن غيتمانوف ليس موجوداً، إنَّه في هذا الشأن مقدسٌ تماماً. والحال معه دائماً على هذهِ الصورة».

قاطع نيودوبنوف، وقال بوقاحة وغلاظة:

- لدينا كثير من الناس، ولكن ليس لدينا ما يكفي من التكنولوجيا. أي أحمق يمكن أن يصنع شخصاً، إنّهُ ليسَ دبابة وليسَ طائرة. إذا كنت تشعر بالأسف تجاه الناس، فلا تحشر نفسك في منصب قيادي!

36

دعا قائد جبهة ستالينغراد الجنرالُ العقيد يريمينكو قيادة فيلق الدبابات - نوفيكوف، وغيتمانوف، ونيودوبنوف.

قبيل ذلك، كان يريمينكو قد زارَ الألويةَ، لكنّه لم يمرّ بمقرٍّ قيادة الفيلق.

جلس القادةُ الذين وصلوا بناء على الاستدعاء، وهم يلقون نظراتٍ جانبية إلى يريمنكو، غير عارفين ما هو الحديث الذي ينتظرهم.

التقط يريمينكو نظرة غيتمانوف، حينما نظرَ إلى السرير و الوسادة المتجعّدة، وقال:

- ساقي تؤلمني جداً - ولعن ساقه بكلمات سيئة.

صمتَ الجميع ونظروا إليه.

وقال يريمينكو:

- الفيلق عموماً مُجهّز، وقد تمكّنتم من الاستعداد.

نظر بطرف عينيه إلى نوفيكوف، عندما قال هذه الكلمات، لكنّ الأخير لم ينفجر فرحاً، وهو يسمع ثناءَ القائد.

فوجئ يريمينكو قليلاً، بأن قائد الفيلق كان غير مبالٍ بمدح القائد، ولم يتعامل بكرمٍ مع الثناء.

قال نوفيكوف:

- الرفيق الجنرال - عقيد، كنت أبلغتكم أن بعض طائراتنا الهجوميّة قصفت لواء الدبابات رقم مئة وسبعة وثلاثين في منطقة وديان السهوب مدة يومين، وهو تابع لفيلقنا.

توقع يريمينكو، وهو يحدق به، ما يريده - إنه يريد حماية نفسه، وهل سيتم استدعاء قائد الطيران.

عبسَ نوفيكوف مُضيفاً:

- إنه لأمرٌ جيدٌ أنَّ إصاباتٍ مباشرة لم تحدث. إنّهم لا يجيدون القصف.

قال يريمينكو:

- لا داعي إلى القلق. سوف يدعمونك، ويكفّرون عن خطئهم.

تدخّل غيتمانوف في الحديث قائلاً:

- بالتأكيد، رفيق قائد الجبهة، لن نختلف مع الطيران الستاليني.

- حسناً، رفيق غيتمانوف - قال يريمينكو، وسأل: - حسناً، وكيف كانت الأمور عند خروتشوف؟

- أمرني نيكيتا سيرغييفيتش أن أحضر غداً.

- هل يعرف عن كييف؟

- لقد عملنا، أيها الرفيق القائد، ما يقارب العامين مع نيكيتا سيرغييفيتش.

سأل يريمينكو فجأة نيودوبنوفَ:

- قل لي، من فضلك، أيها الرفيق الجنرال، هل كنتَ أنت من رأيتُهُ مرةً في شقة تيتيان بتروفيتش؟

أجاب نيودوبنوف:

- بالضبط. طلبكَ حينها تيتيان بتروفيتش مع المارشال فورونوف.

- صحيح، صحيح.

- وأنا، أيّها الرفيق الجنرال-عقيد، كنت مُرسلاً بمهمّة من مفوضيّة الشعب لبعض الوقت بناءً على طلب من تيتيان بيتروفيتش. لذلك، كنت في منزله.

قال يريمينكو:

- هذا هو الأمر، أرى وجهاً مألوفاً - وأراد أن يظهر موقعه لنيودوبنوف - ألا تشعر بالملل، أيها الرفيق الجنرال، في السهوب، أتمنى أن تكون قد وجدت مكاناً مناسباً؟

وأومأ بارتياح، قبل أن يسمع الإجابة.

عندما غادر الزوار، نادى يريمينكو نوفيكوف قائلاً:

- أيّها العقيد، تعال إلى هنا.

عاد نوفيكوف من الباب، ورفع يريمينكو، فوق الطاولة، جسده الفلّاحي الممتلئ، وقال عابساً:

- اسمع. يا من عملَ مع خروتشوف، وعملَ مع تيتيان بيتروفيتش، أنت، يا بن العاهرة، عظمة جنديّ - تذكر أنك ستقود الفيلق في الاقتحام.

37

خرج كريموف في صباح مظلم وبارد، من المستشفى. وذهب قبل العودة إلى المنزل، إلى رئيس الدائرة السياسية في الجبهة الجنرال توشييف، لتقديم تقريرٍ عن رحلته إلى ستالينغراد.

كان كريموف محظوظاً؛ فتوشييف في مكتبه منذ الصباح، واستُقبلَ نيقولاي غريغوريفيتش في منزلٍ مُغطّىً بألواحٍ رمادية، من دون تأخير.

نظر رئيس القسم السياسي، الذي يرتبط مظهره باسمِ عائلته، على نحوٍ موارب إلى زيّه الرسمي الجديد الذي يرتديه، بعد ترفيعه الأخير إلى رتبة جنرال، ورفع أنفه، مستنشقاً رائحة المستشفى الكربوليكية القادمة من الزائر.

قال كريموف:

- لم أستطع تنفيذ تكليفكم فيما يخصّ المبنى «ستة على واحد» بسبب إصابتي، والآن يمكنني التوجّه إلى هناك مرة أخرى.

نظر توشييف إلى كريموف نظرة غاضبة، وقال:

- لا ضرورةَ، اكتب تقريراً مفصلاً موجَّهاً إليّ.

لم يطرح سؤالاً واحداً، ولم يوافق تقريرَ كريموف أو يُدِنْهُ.

بدا زيّ الجنرال والأوسمة، في كوخ ريفيّ فقير، كما هي الحال دائماً، غريباً.

لكن ليس هذا هو الغريب فحسب.

لم يستطع نيقولاي غريغوريفيتش فهمَ سبب سخط القيادة.

ذهب كريموف إلى الجزء العام من الإدارة السياسية للحصول على كوبونات لتناول طعام الغداء، وإرفاق شهادة المواد الغذائية، وترتيب عودته من رحلة العمل، وترتيب الأيام التي قضاها في المستشفى.

جلس كريموف في أثناء إعداد المستندات على مقعد في المكتب، ونَقَّلَ نظرهُ في وجوه الموظفين والموظفات.

لم يهتم به أحد هنا- إن عودته من ستالينغراد، وجرحه، وكل ما رآه وعاناه لا يهم، ولم يكن يعني شيئاً. كان الناس في القسم العام مشغولين بالعمل. طرقاتُ الآلات الكاتبة، وحفيف الأوراق، وقد انزلقت عيون الموظفين نحو كريموف وعادت مرة أخرى إلى المجلدات المفتوحة، وإلى الأوراق الموضوعة على الطاولات.

يا لكثرة الجباه العابسة، والإجهاد الفكري في العيون، وفي الحواجب المشدودة! يا لهذا الانغماس في العمل! وكم من السلاسة العمليّة في حركات الأيدي التي توضّب، وتتصفّح الورق!

وفقط التثاؤب المفاجئ، والنظرةُ السريعة المُستَرَقة إلى الساعة: هل حان موعد الغداء؟ والثمالة الرمادية الوسنى التي تجتاح هذه العيون أو تلك، تحدَّثت عن الملل المميت الذي يسيطر على الناس في أجواء المكتب الخانقة.

مَدَّ موظَّفٌ من القسم السابع في الإدارة السياسية للجبهة بَصَرَهُ إلى القسم العام وكان من معارف كريموف. وخرج الاثنان إلى الممر للتدخين.

سأل الموظّفُ:

- هل عدت؟

- نعم، كما ترى.

ولأن الموظف لم يسأل كريموف عما رآه في ستالينغراد وماذا فعل هناك، سأل نيقولاي غريغوريفيتش بنفسه:

- ما الجديد في الإدارة السياسية؟

كان الخبر الرئيسي، هو أن مفوض اللواء حصل أخيراً على رتبة جنرال أثناء إعادة التأهيل.

ضحك الموظف وقال إن توشييف مرض بسبب التوتر، وهو ينتظر رتبة قتالية جديدة - هل كانت مزحة أنه خاطَ زيّ الجنرال عند أفضل خياطٍ في الجبهة، ولم تعطه موسكو ولم تمنحه رتبة جنرال؟ وشاعت قصص رهيبة أنه خلال إعادة التأهيل، سيحصل بعض مفوضي الكتائب والأفواج على رتب ملازمين أولين ونقباء.

قال الموظَّف:

- هل تستطيع أن تتخيل؟ أن تخدم، مثلي، ثماني سنوات في الجيش، وفي الإدارات السياسية، وتحصل بعد ذلك على رتبة ملازم، هاه؟

كان ثمّةَ المزيد من الأخبار: استُدعيَ نائبُ رئيسِ قسم المعلومات في الإدارة السياسية للجبهة إلى موسكو، إلى الإدارة

السياسية الرئيسية، وهناك حصل على ترقية - عُيّنَ نائباً لرئيس الإدارة السياسية لجبهة كالينين.

تساوى الموظفونَ الكبار في الإدارة السياسية، الذين سبق لهم تناول الطعام في مطعم رؤساء الأقسام، وفقاً لتعليمات أحد أعضاء المجلس العسكري، مع الموظفين الآخرين، ويتناولون الطعام الآن في المطعم العام. وهناك تعليمات بسحب بطاقات الغداء من المسافرين بمهمّات عمل من دون تعويضهم بحصة طعام جافة. رُشِّحَ شاعرا الخط الأمامي كاتز وتالاليفسكي لمنحهما وسام النجم الأحمر، ولكن في التوجّه الجديد للرفيق شربكاكوف، ينبغي منح الأوسمة لعمال الصحافة في الخطوط الأمامية من خلال المديرية السياسية الرئيسية، وبالتالي أُرسلت المواد المتعلقة بالشعراء إلى موسكو، وفي الوقت نفسه، وَقَّعَ القائدُ على القائمة الأولى، وهذا هو كل شيء. احتَفَلَ من وردت أسماؤهم في هذه القائمة بجوائزهم الحكومية.

سأل الموظَّفُ:

- هل تناولتَ طعامَ الغداء؟ هيّا نذهب معاً.

أجاب كريموف أنه ينتظر الأوراق.

قال المدرّب:

- إذاً سوف أذهب - ومزح قائلاً عند الوداع: - يجب أن نسرع، وإلا سنقاتل من أجل أن يطعمونا في مقصف التجارة العسكرية مع الفتيات ضاربات الآلة الكاتبة المياومات.

أنهى كريموف بعد فترة وجيزة معاملة الأوراق، وخرج إلى الشارع، واستنشق هواء الخريف الرطب.

لماذا لاقاه رئيس الدائرة السياسية عابساً؟ ما الذي كان غير راض عنه؟ هل لأنّ كريموف لم ينفّذ المهمة؟ لماذا لم يصدّق رئيس الدائرة السياسية أن كريموف قد أصيب، ويشتبه في جبنه؟ هل كان منزعجاً من أن كريموف جاءَ إليه، متجاوزاً رؤساءه المباشرين، وأنّه أتى ليس في ساعات الاستقبال؟ كريموف ناداه مرتين «الرفيق العميد المفوّض» وليس «الرفيق اللواء»؟ وربما الأمرُ كُلّه لا يتعلق بكريموف. هل لأنَّ توشييف لم يُرشّح لنيل وسام كونوزوف؟ هل تلقّى رسالة بمرض زوجته؟ ومن يستطيع أن يعرف لماذا كان رئيس الدائرة السياسية للجبهة في مزاج سيئ هذا الصباح؟

انقطَعَ كريموف خلال أسابيع ستالينغراد عن سريدنيايا أختبا، وعن وجهات النظر غير المبالية للقيادة في الإدارة السياسية، وعن زملائه المدرّبين، والنادلين في المطاعم. في ستالينغراد لم يكن الأمر كذلك!

عاد في المساء إلى غرفته. وبدا أن كلبَ المالكة مُكوّن من نصفين مختلفين من الكلاب - ظهرٌ أحمر أشعث ووجه طويل أسود وأبيض - كان فرحاً جداً به. وكلٌّ من نصفيه كان مسروراً، - الشعر ذو اللون الأحمر في الذيل، مختلط بكتل شعرية، أمّا الوجه الأبيض والأسود المُندسّ في يدي كريموف، فقد نظرت عيناه البنيّتان إليه بلطف. وبدا في نصف الشفق المسائي أن اثنين من الكلاب يداعبان كريموف. مشى الكلب معه إلى الشرفة الداخلية. وقالت صاحبة البيت، التي كانت تتجول في الردهة للكلب بغضب: «ابتعد من هنا، أيّها الملعون»- وبعد ذلك حيَّت كريموف بتجهّم، كما فعل رئيس الإدارة السياسية.

كم بدت هذه الغرفة الهادئة وحيدة وغير مريحة، وكذلك السرير، والوسادة ذات الغطاء الأبيض، وستائر الدانتيل على النوافذ، بعد مخابئ وأوكار ستالينغراد اللطيفة، المغطاة بالأقمشة المشمّعة، والملاجئ التي تعبق بالدخان الخام.

جلس كريموف على الطاولة وشرع بكتابة التقرير. كتب بسرعة، وقارنَ بسرعة بالملاحظات التي سَجَّلها في ستالينغراد. أصعب أمرٍ كان الكتابة عن المبنى «ستة على واحد». نهض، دار في الغرفة، جلس إلى الطاولة مرة أخرى، نهض من فوره من جديد، خرج إلى الردهة، سعل، استمع - أيعقل ألّا تقدّم هذه العجوز الشيطانية الشاي؟ ثم شرب كوباً من الماء، وكان الماء جيداً، أفضل منه في ستالينغراد، عاد إلى الغرفة، وجلس إلى الطاولة، فكَّر، ممسكاً القلمَ بيده. ثم استلقى على سريره وأغمض عينيه.

كيف حدث ذلك؟ غريكوف أطلقَ النار عليه!

في ستالينغراد قَويَ شعوره بالاتصال بالناس، والقرب منهم، وتنفّس بسهولة هناك. لم تكن في ستالينغراد عيون مملة وغير مبالية. اتضحَ له أنه بعد انطلاقهِ إلى المبنى «ستة على واحد»، شعر بأنفاس لينين بقوة أكبر. وفورَ وصولهِ إلى هناك شعر من فوره بوجود عداءٍ يسخر منه، وبدأ هو نفسه ينزعج، ويعمل على تصحيح أدمغة الناس، وهدّدهم. لماذا تحدث عن سوفوروف؟ لقد أطلق غريكوف النار عليه! واليوم شعر بالألم على نحوٍ خاص، وبالوحدة والغطرسة والتنازل لأشخاص بدوا له نصف أمّيين، مغفلين، ومبتدئين في الحزب. يا للكآبة التي شعر بها أمام توشييف! أن تُحسّ بنظرته المتضايقة، وأحياناً الساخرة، وأحياناً بالاحتقار. إنّ توشييف لا

يستحق هو مع كلّ مراتبه وأوسمته في حساب الحزب الحقيقي إصبعَ كريموف. أشخاص جاؤوا مصادفةً إلى الحزب، غير مرتبطين بالتقاليد اللينينية! إنّ الكثيرين في الواقع، ارتقوا عام 1937: لقد كتبوا تقاريرَ، وفضحوا أعداء الشعب. وتذكر الإحساس الرائع بالإيمان والخفة والقوة التي سار بها إلى وضح النهار.

حتى إنه كاد يختنق بسبب الغضب - غريكوف ذاك، ألقى به بعيداً عن الحياة المطلوبة. عندما ذهب إلى ذلكَ المبنى، فرح بمصيره الجديد. بدا له أنّ حقيقة لينين تعيش في ذلك المبنى. أطلق غريكوف النار على البلشفيّ اللينينيّ! ألقى بكريموف مرة أخرى إلى الحياة المكتبيّة الشاكية المُحنّطة! هذا الوغد!

جلس كريموف إلى الطاولة مرة أخرى. ولم تكن كلمة واحدة غير صحيحة في ما كتبه.

قرأ ما كتب. بالتأكيد سينقل توشييف تقريره إلى القسم الخاصّ. غريكوف تالف، لقد حلّ سياسيّاً القطعة العسكرية، نفذ هجوماً: أطلق النار على ممثل الحزب، المفوض العسكري. سيُستدعى كريموف للشهادة، وربما للمواجهة مع المعتقل غريكوف.

تخيّل كيف يجلس غريكوف أمام مكتب المحقق، غير حليق، ذا وجه أصفر شاحب، من دون حزام على الخصر.

كما قال غريكوف: «أنت تشعر بالكآبة، لكنك لن تكتب هذا في التقرير».

أُعلِنَ أن الأمين العام للحزب الماركسي اللينيني معصوم، بل يكادُ يكون إلهياً! لم يرحم ستالين في السنة السابعة والثلاثين الحرسَ

اللينينيَّ القديم. انتهك الروح اللينينية التي جمعت بين الديمقراطية الحزبية والانضباط الحديدي.

هل من المعقول، هل من الشرعي التعامل بمثل هذه القسوة مع أعضاء الحزب اللينيني؟ هنا سيتم إعدام غريكوف رمياً بالرصاص أمام صفٍّ من الجنود. إنه لأمر مخيف عندما يضربون جماعتك، لكن غريكوف ليس من جماعتنا، إنه عدوّ.

لم يشكّ كريموف مطلقاً في حق الحزبِ العملَ بسيفِ الديكتاتورية، وبحق الثورةِ المقدس في تدمير أعدائها. لم يتعاطف أبداً مع المعارضة! لم يعتقد قط أن بوخارين وريكوف وزينوفييف وكامينيف اتبعوا الطريق اللينيني. وتروتسكي، مع كل ذكائه اللامع ومزاجه الثوري، لم يتجاوز ماضيه المنشفي، ولم يرتفع إلى حدود لينين. ها هي ذي القوة: ستالين! لذلك يسمونه السيّد. لم ترتجف يدهُ أبداً، ولم تُخالطهُ رخاوة بوخارين الفكرية. الحزبُ الذي أنشأه لينين سحقَ الأعداءَ، سار خلف ستالين. مزايا غريكوف العسكرية لا تعني شيئاً. إنهم لا يجادلون الأعداءَ، ولا يستمعون إلى حججهم.

ولكن نيقولاي غريغوريفيتش مهما حاول أن يغضبَ، فإنّهُ لم يعد يشعر في تلك اللحظة بالغضب تجاه غريكوف.

تذكّر مرة أخرى: «أنت تشعر بالكآبة».

فكّر كريموف: «ما الذي فعلتُه، هل كتبتُ تقريرَ إدانةٍ؟ ومَعَ أنَّهُ ليسَ كاذِباً، إلّا أنّهُ يبقى تقرير إدانة. . . لا يمكنكَ فعل شيء، يا رفيقي العزيز، أنت عضو في الحزب. . . قم بواجبك الحزبي».

سلَّمَ كريموف في الصباح مذكّرتَه إلى إدارة جبهة ستالينغراد السياسية.

بعد يومين، استُدعيَ كريموف من قبل رئيس قسم الدعاية للإدارة السياسية للجبهة، مفوض الفوج أوغيبالوف، الذي حل محل رئيس الإدارة السياسية. لم يستطع توشيف استقبال كريموف،- كان مشغولاً بمفوض فيلق الدبابات الذي وصل من الجبهة.

وقال المفوض الشاحبُ ذو الأنف الكبير، والأنيق والمنهجي أوغيبالوف لكريموف:

- عليك الذهاب إلى الضفة اليمنى مرة أخرى في الأيام المقبلة، أيها الرفيق كريموف، هذه المرة إلى الرابع والستين، إلى شوميلوف؛ بالمناسبة، ستذهب سيارتنا إلى مركز قيادة لجنة الحزب الإقليمية، ومن موقع قيادة لجنة الحزب الإقليمية، ستعبر إلى شوميلوف. سيذهب سكريتاريو اللجنة الإقليمية للاحتفال بثورة أكتوبر في بيكيتوفكا.

أملى على كريموف من دون تسرُّع، كل ما طلب إليهِ أن يفعله في القسم السياسي في الجيش الرابع والستين - كانت المهام صغيرة على نحوٍ مزعج، وغير مهمّة، تتعلق بجمع المعلومات الورقية التي كانت مطلوبة ليس للعمل الحيّ، ولكن للحسابات المكتبيّة.

سأل كريموف:

- وماذا عن المحاضرات؟ فأنا أعددتُ وبتكليفكم محاضرة أكتوبر، وأردت قراءتها على أجزاء.

قال أوغيبالوف:

- سنتوقَّف في الوقت الحالي - وبدأ يشرح السبب، الذي يدعو كريموف إلى التوقف حالياً.

قال مفوّضُ الفوج، عندما كان كريموف على وشك الرحيل:

- حسناً، لقد أطلعني رئيسُ القسم السياسي على تلكَ القصة في تقريرك.

تألمت روحُ كريموف؛ على الأرجح، حُرِّكتْ بالفعل قضيةُ غريكوف.

وتابعَ مفوَّضُ الفوج:

- حالفَ الحظُّ ذلكَ النسر غريكوف؛ فقد أبلغنا رئيس الدائرة السياسية للجيش الثاني والستين، أن غريكوف قُتل خلال الهجوم الألماني على مصنع الجرَّارات، قُتلَ وفريقَهُ بالكامل.

وأضاف، مُطَمئِناً كريموف:

- قدَّمَ قائد جيشه طلباً بمنحه بعد وفاته وسامَ بطلِ الاتحادِ السوفييتي، ولكن الآن، أصبح الأمرُ واضحاً، سَنُغطّي نحن هذه المسألة.

فتح كريموف ذراعيه، كما لو كان يقول: «حسناً، حالفه الحظ، يعني حالفه الحظ، لا يمكنك فعل شيء».

قال أوغيبالوف، خافضاً صوته:

- رئيس القسم الخاص يعتقد أنه قد يكون على قيد الحياة. وربّما انتقل إلى جانب العدوّ.

كانت هناك رسالة صغيرة تنتظر كريموف في البيت - تطلب منه مراجعة القسم الخاص.

على ما يبدو، إن قضية غريكوف ما زالت مستمرّة.

قرر كريموف تأجيل الحديث غير السارّ في القسم الخاص حتى عودته؛- لم يكن هناك شيء مُلحّ في حالات الوفاة.

38

قررت منظمة الحزب الإقليمية عقد اجتماع رسمي مكرس للذكرى الخامسة والعشرين لثورة أكتوبر في الجزء الجنوبي من ستالينغراد، في قرية بيكيتكوفا، في مصنع حوض بناء السفن.

تجمّع قادة حزب المقاطعة في مركز قيادة اللجنة الإقليمية في ستالينغراد تحت الأرض، في غابةٍ من أشجار البلوط على الضفة اليسرى من نهر الفولغا في وقت مبكر من صباح يوم 6 تشرين الثاني (نوفمبر). تناول السكرتير الأول للجنة الإقليمية وسكريتاريو القطاعات، وأعضاء مكتب اللجنة الإقليمية وجبة إفطار ساخنة على ثلاث مراحل، وخرجوا من غابةِ البلوط بالسيارات على الطريق الكبير المؤدي إلى نهر الفولغا.

سارت الدبابات والمدفعية على طول هذا الطريق ليلاً إلى معبر توماك الجنوبي. بدا السهب الذي حفرته الحرب كئيباً جداً ممتلئاً بأكوام الطين البنّي المتجمدة، في البرك المغطاة بجليد قصديري. تَحرَّكَ الجليدُ على طول نهر الفولغا، وسُمِع صوتُ حفيفه على بعد عشرات الأمتار من الساحل. كانت الرياح القوية تهبّ، وكان عبور نهر الفولغا على سفينةٍ حديديّةٍ مفتوحةٍ أمراً غير سارٍّ في ذلك اليوم.

جلس جنود الجيش الأحمر، الذين كانوا في انتظار العبور، في معاطف كبيرة تَسفَعُها رياحُ الفولغا الباردة، على متن البارجة، ملتصقين أحدهم بالآخر، محاولين عدم لمس الحديد المشبع بالبرد. ضرب الناس بأرجلهم الأرضَ كما في رقصة تشيتشيوتشكا[1] المريرة، وضَمّموا أرجلهم الواحدة إلى الأخرى، وعندما هبّت الرياح الجليدية القوية من صوبِ استراخان، لم تكن لديهم قوة للنفخ على الأصابع، أو التصفيق على الجانبين، أو مسح المخاط - تجمّدَ الناسُ من البرد. انبسطَ فوق نهر الفولغا دخانٌ خشنٌ قادم من مدخنة الباخرة. وبدا الدخانُ أسودَ حالكاً على خلفيّة الجليد، والجليدُ أبيضَ ناصعاً تحت المظلة المنخفضة لدخان البخار. حملَ الجليدُ الحربَ من ضفة ستالينغراد.

جلس غرابٌ ذو رأسٍ كبير على طوف جليدي وفكَّر؛ كان ثمَّةَ ما يمكن التفكير فيه؛ فعلى الطوف الجليدي بجانبه، بقعة متفحّمة بمعطف جندي، وعلى طوف ثالث من الجليد حذاءٌ متجمّدٌ، وبندقية قصيرة، متجمّدة وملويَّة الفوهة في الجليد. صعدت سيارات سكريتاريي اللجنة الإقليمية وأعضاء المكتب إلى البارجة. ترجَّلَ سكريتاريو وأعضاء المكتب من السيارات، ووقفوا على الجوانب، ونظروا إلى الجليد الذي يسبح ببطء، وأنصتوا إلى حفيفه.

اقترب رجلٌ عجوزٌ ذو شفتين مُزرَقَّتين، يعتمرُ قبعة الجيش الأحمر، ويرتدي معطفاً قصيراً من الفرو الأسود، وهو المسؤول

(1) ضربٌ من ضروب الرقص تُستخدم فيه القدمان، ويعتمدُ إيقاعاتٍ محدّدة وينتعلُ الراقصونَ فيهِ أحذية خاصة. (المترجمان).

على البارجة، من سكرتير لجنة النقل الإقليمية لاكتيونوف، وقال بصوت أجش لا يمكن تصوُّره، ولد من جراء رطوبة النهر، والفودكا التي شربها على مدى سنوات، والتبغ:

- أيّها الرفيق السكرتير، سرنا في رحلة الصباح الأولى، وكان بحّار مستلقياً على الجليد، سحبه الرجال، وكادوا يغرقون معه، اضطروا إلى تكسيره قطعاً - إنّه هناك، تحت المشمع على الشاطئ.

أشار الرجلُ العجوز بقفازه القذر نحو الشاطئ. نظر لاكتيونوف، ولم ير الرجلَ الميت المقطّعَ بسبب الجليد، فسأل سؤالاً غبيّاً مباشراً وهو يُشيرُ إلى السماء لإخفاء ارتباكه:

- كيف الأمرُ هنا معكم؟ في أيّ وقت على نحوٍ خاصّ؟

لوَّح الرجلُ العجوزُ بيده قائلاً:

- كيفَ له أن يقصف الآن؟

شتم العجوزُ الألمانيَّ الذي ضعفَ، وانجلى صوتُه فجأةً وهو يلفظُ عبارات الشتائم مُتَخَلِّصاً من الخشونة فجأةً، وصدحَ رنّاناً ومرحاً.

سحبَ زورقُ القطرِ البارجةَ ببطءٍ نحو شاطئ بيتكوفسكي؛ بدت ضفة ستالينغراد غير حربيّة، بل عادية، كوماتٌ من المستودعات والمقصورات والثكنات...

شعر السكرتاريون وأعضاء المكتب الذين كانوا في طريقهم للاحتفال بالملل من الوقوف في مهب الريح، فصعدوا مرة أخرى إلى السيارات. نظر الجنود إليهم من خلال الزجاج، مثل أسماك الماء الدافئ في حوض السمك.

دخّن قادةُ مقاطعة ستالينغراد الحزبيّون، الجالسون في سيّارات «الإيماخ»، وحكّوا أجسامَهم، وتحدّثوا. . .

وعُقِدَ الاجتماعُ الاحتفاليُّ ليلاً.

تميّزت بطاقات الدعوة المطبوعة من بطاقات أيام السلم فحسب، بأنّ الورقة الرمادية الهشّة كانت سيّئة النوعيّةِ جداً، ولم يُشر فيها إلى مكان عقد الاجتماع.

توجَّهَ القادةُ الحزبيون في ستالينغراد، والضيوف من الجيش الرابع والستين، والمهندسون والعمال من المؤسسات المجاورة إلى الاجتماع مع المرشدين الذين يعرفون الطريق جيداً: «هناك منعطف، منعطف آخر، كن حذراً، حفرة، قضبان سكة حديدية، كن حذراً، هناك فجوة مع الكلس. . .».

سُمعت من كل مكان في الظلام أصوات طبطبةِ الأحذية.

حضر كريموف، وقد تمكن من زيارة الإدارة السياسية للجيش في فترة ما بعد الظهر بعد العبور، إلى الاحتفال مع ممثلي الجيش الرابع والستين.

كان ثمّةَ ما يُذكِّرنا في حركة الأشخاص السرّية المتفرقة التي تشق طريقها في ظلمةِ الليل عبر المصنع، بالأعياد الثورية لروسيا القديمة.

فرض التوتّرُ على كريموف التنفّسَ بصوتٍ عالٍ، لقد أدرك أنَّ في إمكانه الآن، إلقاء كلمة دون أن يُحضِّر، وكان يعلمُ بمشاعر المتحدِّثِ الجماهيريِّ المتمرس أن الناس - سيُعانون معه من التوتّر والفرح؛ فمأثرةُ ستالينغراد كانت أقرب إلى نضال العمال الروس الثوري.

نعم، نعم،نعم، كانت الحرب التي رفعت معظم القوى الوطنية حرباً من أجل الثورة. لم تكن ثمة خيانة للثورة في حقيقة أنه تَحدَّثَ عن سوفوروف في المبنى المحاصر. . إنّ ستالينغراد، سيفاستوبول، مصير راديتشيف، قوة بيان ماركس، نداءات لينين من السيارة المصفّحة في محطة قطارات فنلندا - كانت واحدة.

رأى برياخينَ كما هو دائماً غيرَ متعجّلٍ، وبطيء. من المثير للدهشة أن الأمر قد حصل هكذا - لم يتمكّن نيقولاي غريغوريفيتش من التحدث إلى برياخين.

وصل إلى مركز قيادة اللجنة الإقليمية تحت الأرض، وتوجه من فوره إلى برياخين؛ أراد أن يخبره بأمور كثيرة. لكنّه لم يتمكن من التحدث، فقد رن جرس الهاتف طوال الوقت تقريباً، وجاء الناس إلى السكرتير الأول بين الحين والآخر. سأل برياخينُ كريموف فجأة:

- هل تعرف شخصاً اسمه غيتمانوف؟

أجاب كريموف:

- عرفته في أوكرانيا، في اللجنة المركزية للحزب، كان عضواً في مكتب اللجنة المركزية. لماذا تسأل عنه؟

لكن برياخين لم يُجب. ثم بدأ انهماك ما قبل المغادرة. شعر كريموف بالغَضب فبرياخين لم يعرض عليه ركوب سيارته. التقيا وجهاً لوجه مرتين، وبدا أن برياخين لم يعرف نيقولاي غريغوريفيتش، نظرت عيناه ببرودة ولامُبالاة.

سار العسكريون في الممرّ المضيء - القائد شوميلوف،

المترهّل، بصدره وبطنه السمينين، والسيبيري الصغير ذو العينين البنيّتين المنتفختين، جنرال، وعضو في المجلس العسكري للجيش أبراموف. وبدا لكريموف في الديموقراطية البسيطة للحشد الذكوري الذي يتصاعدُ منه البخار في الستر، والسترات المبطنة، ومعاطف جلد الغنم، وقد سار الجنرالات وسطه، أنَّ روح السنوات الأولى للثورة، الروح اللينينية، تجلت في نفسه. شعر كريموف بذلك مرّة أخرى، عندما خطا على ضفّة ستالينغراد.

شغلت أماكنَها هيئةُ رئاسة الاجتماع، واتكأ رئيسُ مجلس مدينة ستالينغراد بيكسين، بيديه على الطاولة، ومثله مثل الرؤساء كلّهم، سعل ببطء في الاتجاه، حيث الضجيج أكثف، وأعلن أنّ الاجتماع الرسمي لمجلس مدينة ستالينغراد بالتعاون مع ممثلي القطعات العسكرية وعمال مصانع مدينة ستالينغراد، المكرّس للذكرى الخامسة والعشرين لثورة أوكتوبر، قد افتتح.

كان ثمَّةَ شعور من خلال صوت التصفيق القاسي، بأن الذكور فقط من الجنود والأيدي العاملة قد صفّقوا.

ثم بدأ برياخين، السكرتير الأول، الثقيل، البطيء، ذو الجبهة العريضة، تقريره. ولم يكن ثمَّةَ صلة بين الماضي القديم واليوم الحالي.

يبدو أن برياخين خاضَ مُناظرةً مع كريموف، ودحض حماسته ببعد تفكيره.

تقوم مؤسسات المنطقة بتنفيذ خطة الدولة. وقد نفّذت المناطقُ الريفية على الضفة اليسرى الخطة مع بعض التأخير، وكان الأمرُ مرضياً في الغالب، ولاسيما تأمين المشتريات الحكوميّة.

ولم تفِ المؤسّساتُ التي تقع في المدينة وإلى الشمال منها بالتزاماتها تجاه الحكومة، لأنها ضمنَ منطقةِ العمليّات العسكرية.

الرجل الذي كان يقف ذات يوم إلى جوار كريموف، ونزع في اجتماع على الجبهة قبعته عن رأسه، وصاح قائلاً:

- أيها الرفاق الجنود، أيها الإخوة، تسقط الحرب الدامية! تحيا الحرية!

قال الآن، وهو ينظر إلى القاعة، إن الانخفاض الحاد في إمدادات الحبوب للدولة في المنطقة يرجع إلى حقيقة أن مناطق الإمداد في زيموفنيشيسكي وكوتيلنيتشيسكي، لم تستطع الوفاء بها لأنّها تقعُ في مجال العمليات العسكرية، وإن مناطق كالاش وفيرخني- كورمويارسكي كانت محتلة جزئياً أو بالكامل من العدوّ.

ثم تحدَّثَ الرجلُ أن سكان المنطقة، يشاركونَ على نطاق واسع، مع الاستمرار في العمل للوفاء بالتزاماتهم تجاه الدولة، وفي الوقت نفسه يشاركونَ في الأعمال القتالية ضد الغزاة الألمان الفاشيين. واستشهد ببيانات رقمية عن مشاركة عمال المدينة في الميليشيات، وقرأها، وأبدى تحفُّظاً، أنَّ البيانات غير مكتملة، وكذلك المعلومات عن عدد الستالينغراديين المكرّمين على الأداء المثالي لمهام القيادة وإظهار التفاني والشجاعة في الوقت نفسه.

فهم كريموف عند الاستماع إلى الصوت الهادئ للسكرتير الأول، أنه في التناقض المذهل بين أفكاره ومشاعره في كلماته حول الزراعة والصناعة في المنطقة، التي وفت بالتزاماتها تجاه الدولة، لم يَظْهر عدم وجودِ معنىً، بل ظهرَ معنى الحياة.

أكد خطاب برياخين، ببرودته الحجرية، الانتصارَ غير المشروط لدولة تدافع بالمعاناة الإنسانية وبشغفها إلى الحرية.

كانت وجوهُ العمال وجنودُ الجيش جدّية، وقاتمة.

كم هو غريب، ومؤلم تذكير أهل ستالينغراد - تاراسوف، باتيوك، بأحاديث مع المقاتلين في المبنى المحاصر «ستة على واحد»! وكم كان سيئاً وصعباً التفكير في غريكوف، الذي مات تحت أنقاض المنزل المحاصر!

من هو غريكوف، ليقول لكريموف كلمات شنيعة؟ لقد أطلق غريكوف النار عليه! لماذا كانت كلمات برياخين، الرفيق القديم، السكرتير الأول للجنة الإقليمية في ستالينغراد، غريبة جداً، وباردة جداً؟ يا له من شعور غريب ومعقد!

وقال برياخين الذي كان يقترب من نهاية التقرير:

- يسعدنا أن نُبلّغ ستالين العظيم بأن الشعب العامل في المنطقة قد وفى بالتزاماته تجاه الدولة السوفييتية...

بعدَ انتهاءِ التقرير بحث كريموف ببصرهِ، وهو يتحرك في الحشد نحو المخرج، عن برياخين. ما هكذا، ما هكذا كان ينبغي على برياخين أن يُقدِّمَ تقريره في أيام معارك ستالينغراد.

وفجأة رآه كريموف: كان برياخين، الذي نزلَ عن المنصة، قد وقفَ بجانب قائد الجيش الرابع والستين، ونظر مباشرة إلى كريموف؛ بنظرة ثابتة وثقيلة، وعندما انتبهَ أن كريموف كان ينظر في اتجاهه، أبعدَ نظرةَ ببطء عنه...

فكر كريموف: «ماذا يعني ذلك؟».

39

وصل كريموف في الليل، بعد الاجتماع الاحتفالي، بسيارة عابرة إلى محطة ستالينغراد الكهربائية.

بدت المحطة مشؤومة في تلك الليلة. انقضّت القاذفاتُ الألمانيةُ الثقيلةُ عليها قبيل ذلك. وحفرت الانفجارات حفراً، ورفعت الأرض أمواجاً. وسقطت الورش في بعض الأماكن من جرّاءِ الارتجاج، وتمزق مبنى المكاتب المكون من ثلاثة طوابق.

واحترقت محولات الزيت بنار دخانية مسنّنة كسولة منخفضة.

قاد الحارس، وهو شاب جورجي، كريموف عبر الفناء، المضاء بالنيران. ولاحظ كريموف كيف ارتجفت أصابع مُرافقهِ الملوَّثِ بالدخان؛ لم تنهَرْ فقط المباني الحجريّة وتحترق من جراءِ أطنان القنابل بل احترق الإنسان أيضاً في الفوضى.

فكر كريموف في لقائه مع سبيريدونوف منذ اللحظة التي تلقى فيها أمر زيارة بيكيتوفكا.

قد تكون جينيا هنا، في محطة ستالينغراد الكهربائية؟ ولعلَّ سبيريدونوف يعرف عنها شيئاً، وربما تلقى رسالة منها، وكتبت في النهاية: «هل تعرف أي شيء عن نيقولاي غريغوريفيتش؟».

كان يشعر بالقلق والسعادة. ربما سيقول سبيريدونوف: «كانت يفغينيا نيقولايفنا حزينةً». ربما سيقول: «أتعرف؟ كانت تبكي».

لقد سكنته منذ الصباح، رغبة لا تُقاومُ في المرور على محطة ستالينغراد الكهربائية. أراد بشدةٍ أن يمرّ على سبيريدونوف بضعَ دقائق على الأقل، نهاراً.

لكنه على الرغم من ذلك تغلب على نفسه، وذهب إلى موقع قيادة الجيش 64، على الرغم من أنَّ موظف القسم السياسي في الجيش همس له مُحذّراً:

- لا ضرورة للاستعجال في الذهاب إلى عضو المجلس العسكري الآن. إنّه سكران منذ الصباح...

وبالفعل، عبثاً أسرعَ كريموف إلى الجنرال، ولم يمرّ نهاراً بسبيريدونوف. فقد استمع من خلف جدار الخشب الرقائقي في أثناء جلوسه في انتظار المقابلة في مركز القيادة تحت الأرض، إلى عضو المجلس العسكري وهو يملي على ضاربة الآلة الكاتبة رسالة تهنئة إلى جاره تشويكوف.

قال رسمياً:

- فاسيلي إيفانوفيتش، الجندي والصديق!

بكى الجنرال، بعد أن قال هذه الكلمات، عدّة مرات، وكرّر وهو ينتحب: «الجندي والصديق، الجندي والصديق».

ثم سأل بصرامة:

- ماذا كتبت هناك؟

قرأت ضاربة الآلة الكاتبة:

- «فاسيلي إيفانوفيتش، الجندي والصديق».

بدت نبرتها الملولة على ما يبدو، غير مناسبة، فقالَ مُصَحِّحاً، وبصوتٍ عال:

- فاسيلي إيفانوفيتش، الجندي والصديق.

ومرة أخرى تأثّر بمشاعره، وتمتم: «الجندي والصديق، الجندي والصديق».

ثم تغلّب الجنرال على دموعه، وسأل بصرامة:

- ماذا كتبت هناك؟

وأجابت ضاربة الآلة الكاتبة:

- فاسيلي إيفانوفيتش، الجندي والصديق.

أدرك كريموف أنَّ في استطاعته عدم الاستعجال.

لم تضئ النارُ الغامضة الطريقَ، بل شَوَّشَتها، بدتِ النارُ وكأنها تزحف من أعماق الأرض؛ أو ربما كانت الأرض نفسها تحترق، - كان هذا اللهب الخام الثقيل منخفضاً وثقيلاً.

اقتربا من مركز قيادة مدير محطة ستالينغراد الكهربائية تحت الأرض. كانت القنابل التي سقطت في الجوار قد رفعت تلالاً ترابيَّةً عاليةً، والطريق التي لم تدُسها الأقدام تكادُ لا تُرى عند مدخلِ الملجأ.

قال الحارس:

- وصلت في وقت الاحتفال بالعيد تماماً.

رأى كريموف أنه لن يتمكَّنَ من قولِ ما يريد، ولن يسأل سبيريدونوف، بوجود أشخاص آخرين، فأمر الحارس باستدعاء

المدير إلى السطح، قائلاً له إن المفوض قد وصل من مقر الجبهة. عندما بقي وحيداً اجتاحه توتّرٌ شديدٌ.

فكّر: «ما الذي فعلتُه؟ اعتقدت أنني شُفيت. أيعقلُ أن الحرب لم تساعد في التعميد؟ ماذا عليَّ أن أفعل؟».

تمتم:

- اهرب، اهرب، اهرب، اخرج، وإلا سوف تهلك!

لكن لم تكن ثمَّةَ قوة للمغادرة، ولا قوة للهرب.

خرج سبيريدونوف من المخبأ.

قال بصوت غير سعيد:

- أنا أستمع إليك أيها الرفيق.

سأل كريموف:

- لم تعرفني، ستيبان فيدوروفيتش؟

قال سبيريدونوف بقلق:

- من هذا؟ - حدَّقَ في وجه كريموف، وصرخ فجأة: - نيقولاي، نيقولاي غريغوريفيتش!

ضَمَّ بيديه المتشنّجتين عنق كريموف، وراحَ يتنهّد:

- عزيزي، نيقولاي.

وأحسَّ كريموف، المأخوذُ بهذا اللقاء بين الأنقاض، بأنَّهُ يبكي. وحيداً، وحيداً على الإطلاق... وأشعرته ثقةُ سبيريدونوف وفرحهُ، بقربه من عائلة يفغينيا نيقولايفنا، وقاس من جديد في هذا القرب مقدارَ آلامه النفسية. لماذا؟ لماذا غادرتْ؟ لماذا جلبتْ لهُ كثيراً من المعاناة؟ كيف يمكن أن تفعل ذلك؟

قال سبيريدونوف:

- ما الذي فعلته الحرب، لقد قضت على حياتي. ماتت ماروسا.

تحدّث عن فيرا، وقال إنها قبل بضعة أيام غادرت أخيراً المحطَّةَ الكهربائية وانتقلت إلى الضفة اليسرى من نهر الفولغا. وقال:

- إنها حمقاء.

سأل كريموف:

- وأين زوجها؟

- ربما ليس في هذا العالم منذ فترة طويلة - إنّه طيار مقاتل.

سأل كريموف، فما عاد قادراً على كبح نفسه:

- ما هو حال يفغينيا نيقولايفنا؟ هل هي على قيد الحياة؟ وأين هي؟

- على قيد الحياة، وهي إمّا في كويبيشيف، وإمّا في كازان.

وأضاف عندما نظر إلى كريموف:

- هذا هو الأهمّ: إنّها على قيد الحياة!

قال كريموف:

- نعم، نعم، بالتأكيد، هذا هو الأمرُ الأهمّ.

لكنه لم يعرف ما هو الأكثر أهميةً. كان يعرف أمراً واحداً فقط - الألمُ في الروح لا يزول. كان يعلم أن كل ما هو مرتبط بيفغينيا نيقولايفنا يؤذيه. سواء كان يعلم أنها في حالة جيدة وهادئة، أم أنها كانت تعاني وفي ورطة، فقد كان كلّ ذلك مؤلماً بالقدرِ نفسه.

تحدث ستيبان فيدوروفيتش عن ألكساندرا فلاديميروفنا وسيريوجا ولودميلا. وكريموف حنى رأسه، وتمتم بهدوء:

- نعم، نعم، نعم... نعم، نعم، نعم...

قال ستيبان فيدوروفيتش:

- تعال يا نيقولاي. تعال إليّ، الآن لم يعد لدي منزل آخر. هذا المكان فقط.

لم تستطعْ أضواءُ المصابيحِ المتدفقة أن تضيء الملاجئ تحت الأرض التي كانت مملوءة بالأسرّة والخزانات والمعدات والزجاجات وأكياس الدقيق.

جلس الناس على المقاعد والأسرّة، والأكياس على طول الجدران. لقد امتلأ الهواء الخانق بدمدمة الحديث.

سكب سبيريدونوف الكحول في الكؤوس والأكواب وأغطية الطناجر. عمّ الهدوء - تابعه الجميع بنظرة خاصة. وكانت هذه النظرة عميقة وجدّية، لا قلقَ فيها، بل ثقة بالعدالة فحسب.

فكّر كريموف وهو ينظر في وجوه أولئك الجالسين: «لو كان غريكوف هنا. لسكبتُ له». لكن غريكوف شربَ من الكؤوس العددَ المخصّصَ له. ولم يعد مسموحاً له الشرب في هذه الدنيا.

نهض سبيريدونوف والكأس في يده، ففكر كريموف: «أيفسد كل شيء، ويلقي خطاباً مثل برياخين؟».

لكن ستيبان فيدوروفيتش رسم رقم ثمانية بالكأس في الهواء وقال:

- حسناً، أيها الرجال، لنشرب. عيداً سعيداً.

قرعت الكؤوس، وأكواب الصفيح، وتأوّه الشاربون، واهتزّت رؤوسهم.

كان الناس هنا مختلفين جداً، وزّعتهم الدولة قبل الحرب على نحوٍ متباين، ولم يلتقوا على مائدة واحدة من قبل، ولم يطبطبوا بعضهم على أكتاف بعض، ولم يقلْ واحدهم للآخر: «لا، اسمع ما سأخبركَ به».

ولكن هنا، تحت الأرض التي وقفت عليها محطةُ الكهرباء المدمَّرة، وكان الحريقُ مشتعلاً فيها، نشأت تلك الأخوة المتواضعة التي لا تأسف أن تقدّم الحياةَ من أجلها، لكم كانت طيّبة!

غنّى الرجلُ العجوزُ - الحارسُ الليليُّ ذو الشعر الرمادي، أغنيةً قديمةً أحبَّ أن يُغنِّيها قبلَ الثورةِ الشبانُ القيصريون من المصنع الفرنسي.

غنى بمهارة، وبرقّة، بصوتِ شبابه، ولأنَّ صوتَ أيام الشبابِ أصبحَ غريباً عليه، فقد استمع لنفسه بشيءٍ من الدهشة الساخرة، كما يستمعُ شاربُ الخمرِ إلى شخص غريب.

استمع الرجل الثاني ذو الرأس الأسود، بجدّ وتجهّم، إلى الأغنية عن الحب ومعاناة الحب.

والحق أنَّ الاستماع إلى الغناء كان جيداً، وكانت ساعة عجيبة ورهيبة، تلكَ التي جمعت المدير مع الحارس الليلي الخارج على زلّاجات من مخبز ميداني، والحارس الأمني، والتي خلطت بطريقة إنسانيَّة الكالميكي والروسي والجورجي.

ما إن أنهى الحارسُ غناءَه عن الحب حتى أخذَ الرجلُ العجوزُ

الأسودُ يقطّب أكثر و أكثر حاجبيه العابسين أصلاً، وبدأ ببطء، وبخفوتٍ وبصوت ضعيفٍ، يُغنّي: «سننبذ العالم القديم، وننفض الغبار عن أقدامنا[1] . . .».

ضحك منظّم اللجنة المركزية، وهزّ رأسه، وضحك سبيريدونوف، وهزّ رأسه.

ابتسم كريموف وسأل سبيريدونوف:

- لقد كان المنشفي رجلاً مسناً، على الأرجح، هاه؟

كان سبيريدونوف يعرف كل شيء عن أندرييف، وبطبيعة الحال، كان سيخبر كريموف بكل شيء، لكنه كان يخشى أن يَسمع نيقولاييف، وانتهى شعور الأخوة البسيطة للحظة، ووقف سبيريدونوف قائلاً:

- بافل أندرييفيتش، هذه ليست من تلك الأوبرا!

صمت أندريه من فوره، ونظرَ، ثم قال:

- فكرتُ أنَّها من تلك. ذلكَ ما بدا لي.

وعَرَضَ الحارسُ الجورجي لكريموف يدَه ممزّقَةَ الجلد قائلاً:

- دفنتُ صديقي سيرغي فوروبيوف.

التمعت عيناه السوداوان، وقال بغصّة، فبدا أنه يصرخ بعنف:

- أنا، أحببتُ سيريوجا، أكثر من أخي.

---

(1) أغنية ثورية روسية على لحن النشيد الفرنسي - أغنية «مارسلييز». واستخدمت الترنيمة في الأشهر الأولى بعد ثورة شباط (فبراير). وهي تُعرف أيضاً باسم «مارسيلييز العاملة» و«نبذ العالم القديم». (المترجمان).

وتحرّش الحارسُ الليليُّ ذو الشعر الرمادي، السكرانُ والمتعرّقُ بغزارة، بمنظم اللجنة المركزية نيقولاييف قائلاً:

- لا، الأفضل أن تستمع إلي. يقول ماكولادزي إنّه أحبَّ سيريوجا فوروبيوف أكثر من أخيه، هل تعرف لو سمحت، أنا عملتُ في منجم أنترتسيتوف، وكم أحبَّني صاحب المنجم! وكم احترمني! شرب الخمر معي، وغنيت له الأغاني. قال لي مباشرة: أنت في مكانِ أخي، على الرغم من أنكَ عامل منجم بسيط. تحدثنا، وتناولنا طعامَ الغداء معاً.

سأل نيقولاييف:

- هل هو جورجيّ؟.

- لماذا أحتاجُ إلى جورجيِّكَ؟ إنّه السيّد فوسكريسينسكي نفسه، صاحب المناجم جميعها. هل تفهم كم كان يحترمني؟ وكان لديه مليون رأس المال، هكذا كان الرجل. هل تفهم؟

تبادل نيقولاييف النظرات مع كريموف، وكلاهما غمز الآخر بروح الدعابة، وهزّا رأسيهما.

قال نيقولاييف:

- حسناً، حسناً، ما أخطأ من قال: عشْ قرناً تتعلّم قرناً.

قال الرجل العجوز، دون أن يلحَظَ السخرية:

- تعلّم إذاً.

غريباً كان ذلك المساء. قالَ سبيريدونوفُ لكريموف في وقت متأخر من الليل، عندما بدأ الناس بالمغادرة:

- نيقولاي، لا تمسك بالمعطف، لن أسمح لك بالمغادرة؛ ستنام عندي.

وضّبَ السريرَ لكريموف ببطء، مُتأمِّلاً في مكان وضعِهِ - بطانيّة، وسترة مبطَّنة، ومعطف واق من المطر. خرج كريموف من المخبأ، وقف في الظلام، نظرَ إلى النار المتمايلة، ونزل مرة أخرى، وكان سبيريدونوف لا يزال يوضّب السرير.

عندما خلع كريموف حذاءه، واستلقى، سأله سبيريدونوف:

- كيف؟ هل السرير مريح؟

ومسّدَ رأسَ كريموف، وابتسم ابتسامة طيبةً مخمورةً.

ذكّر الحريقُ الذي يشتعلُ في الأعلى، كريموف ولسبب ما، بالنيران التي اشتعلت في ليلة كانون الثاني (يناير) عام 1924 في شارع «أوخوتني رياد»، عندما دُفِنَ لينين.

بدا أنَّ كل من بقي تحت الأرض للنوم قد غفا، كانَ الظلامُ دامساً.

استلقى كريموف فاتحاً عينيه، وفكّر، وفكّر، وتذكّر، دون أن يلحظَ الظلام...

كانَ الصقيعُ شديداً طوالَ ذلك الوقت. سماء شتوية مظلمة فوق قباب دير ستراستني المقدس في موسكو، ومئات من الناس يضعونَ أغطيةَ الأذن، وقبّعات الجيش الأحمر القماشيّة، يرتدونَ معاطفَ وستراتٍ جلدية. وابيضَّت ساحةُ ستراستنايا فجأة بآلاف المنشورات - كان بياناً حكوميّاً.

نُقِلَتْ جثّةُ لينين من غوركي إلى محطة السكة الحديدية على زلّاجات الفلاحين. كانت المزالق تصرّ، والخيول تشخر. وسار خلف التابوت كروبسكايا في قبعة فرو مستديرة مربوطة بوشاحٍ

رمادي، وأختا لينين: آنّا وماريا، وأصدقاء، وفلاحون من قرية غوركي. هكذا ودّعه العاملون الفكريون الطيبون، والأطباء الريفيون، والمهندسون الزراعيون إلى الراحة الأبدية.

أصبح الوضع في غوركي هادئاً. ولمعَ قرميدُ الموقدِ الهولندي، وإلى جانب السريرِ الذي فُرشت فوقه بطانيّة صيفية بيضاء، كان ثمّة خزانة مملوءة بالزجاجات كتب على كلٍّ منها طريقة الاستخدام، تعبق منها رائحة الدواء. دخلت امرأة مسنة في ثوب طبي غرفةً فارغة. مشت كالعادة على رؤوس الأصابع. رفعت المرأة وهي تمرّ بجانب السرير خيطاً ثخيناً رُبِطت بهِ قطعةٌ من جريدة، وكانت القطةُ الصغيرة نائمةً على الكرسي، عندما سمعت حفيفَ اللعبةِ المعتادة، سرعان ما رفعت رأسها، ونظرت إلى السرير الفارغ، ثم تثاءبت، واضطجعت مرة أخرى.

استذكرَ الراحِلَ الأقاربُ والرفاقُ المقربون الذين ساروا وراء التابوت. تذكرت الأختانُ الصبيَّ ذا الرأسِ الأبيض، كان طبعُهُ صعباً، ويصبح ساخراً أحياناً، مُتطلّب حتى القسوة، لكنه كان جيداً، أحبَّ والدتَه وأخواتِه وإخوته.

تذكرت الزوجة أنه في زيوريخ كان يجلس القرفصاء ويتحدث مع حفيدة صاحبة الشقة؛ الصغيرة تيلي، وقالت المضيفة بلهجة سويسرية أضحكت فولوديا:

- يجب أن تنجبوا أطفالاً.

فنظر بسرعةٍ ومكرٍ من الأسفل إلى ناديجدا كونستانتينوفا.

وصل عمّال من «دينامو» إلى غوركي، ومشى فولوديا لملاقاتهم، نسي نفسه، وأراد أن يتكلّم، خار مشتكياً ولوّحَ بيده؛ ووقف العمال

حوله وبكوا، وهم ينظرون إليهِ كيف بكى. وكأنّ نظرتهم الخائفة الحزينة، قبل النهاية، كانت نظرة طفل يشتكي لأمّه.

بدت مباني المحطة من بعيد، يسوّدها القطار ذو المدخنة العالية وسط الثلج.

نظر أصدقاءُ لينين العظيم السياسيون الذين كانوا يسيرون خلف الزلاجات وقد شابت لحاهم من الصقيع - ريكوف، وكامينيف، وبوخارين - بذهول إلى الرجلِ المجدورِ أسمرِ الوجه، في المعطف الطويل، والحذاءِ ذي الساق الناعمة. كانوا ينظرون عادة إلى زيِّه القوقازي الرسمي بسخرية مستعلية. لو كان ستالين تكتيكيّاً، لما جاء إلى غوركي، حيث اجتمع الأقارب وأقرب أصدقاء لينين العظيم. لم يفهم هؤلاء أنه هو الوحيد، الذي سيصبح وريثَ لينين، وسيدفعهم كُلّهم بعيداً، حتى الأقرب منهم، وحتى زوجةُ لينين سيقذفها بعيداً عن ميراثِهِ.

لم تكن الحقيقةُ اللينينيةُ عندَ بوخارين وريكوف وزينوفييف، ولم تكن عند تروتسكي أيضاً. لقد كانوا مخطئين. لم يصبح أيٌّ منهم استمراراً لقضية لينين. ولينينُ نفسه حتى أيامه الأخيرة، لم يعرف ولم يفهم أن عَمَلَهُ سيصبح عملاً لستالين.

مر ما يقرب عقدينِ من الزمن على اليوم الذي نُقلتْ فيهِ جثةُ رجلٍ حدّدَ مصيرَ روسيا وأوروبا وآسيا والإنسانية على زلاجاتِ ريفيّةٍ ذات صرير.

امتد فكر كريموف بعناد إلى ذلك الوقت، وتذكر أيام الصقيع من كانون الثاني (يناير) عام 1924، وفرقعةَ المواقد الليلية، وجدرانَ الكرملين الجليدية، ومئاتِ الآلاف من الحشود الباكية، وصفاراتِ

المصانع التي تُمزّق القلب، وصوتَ يفدوكيموف العالي، وهو يقرأ من فوق منصّة خشبية، رسالةً موجّهةً إلى البشرية العاملة، ومجموعةً مُتراصةً من الناس تحمل جُثماناً في خشبٍ، صُنعَ منه تابوتٌ على عجل.

صعدَ كريموف الدرجَ المغطى بالسجاد في بيت اتحاد النقابات، بجانب المرايا المغطاة بشرائط سوداء وحمراء، وكانَ الهواءُ الدافئُ العابقُ برائحةِ الصنوبر طافحاً بالموسيقا الحزينة. رأى عند دخوله القاعةَ الرؤوسَ المحنيّة لأولئك الذين اعتاد رؤيتهم على المنصة، في سمولني، وفي الساحةِ القديمة. ثم هنا، في بيت اتحاد النقابات، رأى مرة أخرى هذه الرؤوس المحنيّة عام 1937. وربما، تذكّر المتهمون وهم يستمعون إلى صوت فيشينسكي اللاإنساني الرنان، كيف ساروا خلف الزلاجات، ووقفوا عند جثمانِ لينين، وصوت اللحن الجنائزي في آذانهم.

لماذا بدأ فجأة **بالتفكير** وهو في محطة ستالينغراد الكهربائية بالذكرى الاحتفالية لأيام كانون الثاني (يناير) تلك؟ لقد تبيّن أن العشرات من الأشخاص الذين أنشؤوا الحزب البلشفي إلى جانب لينين هم محرضون وعملاء مأجورون للمخابرات الأجنبية، ومخرِّبون، والشخص الوحيد فحسب الذي لم يشغل منصباً مركزياً في الحزب البتَّة، ولم يكن معروفاً كمُنظّر، هو المنقذُ لقضية الحزب، وحاملُ الحقيقة. لماذا اعترفوا؟

كان من الأفضل ألّا يُفكِّر في كل هذا. لكن هذه الليلة فكّرَ كريموف في هذا الأمر بالتحديد. لماذا يعترفون؟ ولماذا أنا صامت؟ هأنذا صامت، فَكَّرَ كريموف، لا أملكُ القوّة لأقول: «أشك في أن

بوخارين مخرّب، وقاتل، ومحرّض». وعندَ التصويت رفعتُ يدي. وبعد ذلك وَقَّعتُ. وبعد ذلك ألقيتُ خطاباً، وكتبتُ مقالاً. وحماستي كانت صادقة بالنسبة إليّ. ولكن أين كانت شكوكي في ذلكَ الوقت، وحيرتي؟ ما هذا؟ رجلٌ بوعيين؟ أم هل هما شخصان مختلفان، لكل منهما وعيهُ، الذي يختلفُ عن وعي الآخر؟ كيف نفهم؟ لكن الأمر كان دائماً هكذا وفي كل مكان، وليس معي فحسب، بل عند مُختلفِ الناس.

لقد عبّر غريكوف عما كان يشعرُ به في الخفاء كثيرٌ من الناس، وما يجري في الخفاءِ أزعجَ كريموف وأثارَ اهتمامَه وأحياناً جذبهُ، ولكن بمجرد التعبير عن ذلكَ الخفي، شعر كريموف بالغضب والعداء والرغبة في ثني غريكوف وكسره. وإذا لزم الأمر، لن يتردد في إطلاق النار على غريكوف.

وها هو ذا برياخين قد تحدث رسمياً وببرودةٍ وبكلماتِ موظفين، تحدَّثَ باسم الدولة عن النسبة المئوية لتنفيذ الخطة، وعن عمليات التسليم، وعن الالتزامات. مثل هذه الخطب الرسميّة بلا روح، والناس الموظفين بلا روح الناس، والذين ألقوا هذه الخطب كانوا دائماً غرباء، لم يرتح كريموف لهؤلاء البتّة، لكنه مشى معهم جنباً إلى جنب، وأصبحوا الآن رفاقه الكبار. وتجسّدت قضيةُ لينين، وقضيةُ ستالين في هؤلاء الناس، وفي الدولة. وكان كريموف مستعداً أنْ يقدِّمَ حياته، من دون تردد، لأجلِ مجدِه وقوّته.

وها هو ذا البلشفي العجوز موستوفسكي. ما من مرَّةٍ وقفَ فيها خطيباً يُدافعُ عن الناس الذين كان يؤمن بشرفهم الثوري. لقد صمتَ. لماذا صمت؟

وها هو ذا طالب في الصفوف العليا في الصحافة، حيث درّسَ كريموف ذات يوم، وهو شاب لطيف وصادق اسمه كولوسكوف. حدّث كريموف عند وصوله من القرية، عن عملية الكلخزة، وعن السَفَلةِ الإقليميين، الذين يدرجون في قوائم الكولاك الأشخاصَ الذين يحبونَ منازلهم أو حدائقهم، لأنّهم أعداؤهم الشخصيون. وتحدّث عن المجاعة في القرية، وكيف أخذوا القمح كلّه بقسوة لا ترحم حتى آخر حبة... وأخذ يتحدَّث عن رجلٍ عجوز رائعٍ في القرية، مات لأجل إنقاذ حياة امرأته العجوز وحفيدته، وبكى. وسرعان ما قرأ كريموف في إحدى الصحف الجدارية مقالة كولوسوف نفسه حول الكولاك، أولئكَ الذين يدفنون الحبوب في الأرض، ويتنفّسون الكراهية الوحشية للبراعم الجديدة.

لماذا يكتب كولوسكوف هذا الباكي من جراءِ وجع القلب بهذا الشكل؟ لماذا كان موستوفسكي صامتاً؟ هل بسببِ الجبن وحده؟ كم مرة قال كريموف كلاماً، وفي الروح كان ثمّةَ كلامٌ آخر؟ ولكن عندما تحدّث وكتب، بدا له أن هذا هو بالضبط ما يفكِّر فيه، وكان يعتقدُ أنَّهُ يقولُ ما يفكر فيه. وقال في بعض الأحيان لنفسه: «لا يمكنك فعل أيّ شيء، هذا ما تحتاج إليه الثورةُ كثيراً».

كانت، كانت ثمّة أمورٌ كثيرة. دافع كريموف عن أصدقائه الذينَ كان متأكداً من براءتهم على نحوٍ سيّئ. صمت أحياناً، وأحياناً كان يغمغم، وأحياناً كان ما هو أسوأ: لم يصمت ولم يغمغم. استُدعيَ تارةً إلى لجنة الحزب، أو لجنة المقاطعة، أو لجنة المدينة، أو اللجنة الإقليمية، وأحياناً استدعي إلى الأجهزة الأمنية، وسُئل عن رأيه بأشخاص يعرفهم، من أعضاء الحزب. لم يفترِ أبداً على

أصدقائه، ولم يشهّر بأحد البتّة، ولم يكتب وشاياتٍ وتقاريرَ. . . لكنَّ كريموف دافعَ على نحوٍ سيّئٍ، وضعيف، عن أصدقائه، وعن البلاشفة. كتب توضيحات. . .

حسناً، وماذا عن غريكوف؟ غريكوف - عدوّ. لم يتهاون كريموف أبداً مع الأعداء، ولم يعرف الشفقة عليهم.

لكن لماذا قطع العلاقات مع أسر الرفاق المسجونين اضطهاداً؟ ما عاد يزورهم أو يتصل بهم، لكنّهُ ما كان ينتقل أبداً إلى الرصيف الآخر عندما يمر بأقرباء رفاقهِ السجناء، بل يسلّم عليهم.

ولكن هناك بعض الأشخاص - وهم عادة من النساء المسنّات، وربّات البيوت، والبرجوازيين غير الحزبيين - تُرسَلُ الطرودُ إلى معسكراتِ الاعتقال من خلالهم، وتُتَلَقّى الرسائل من مُعسكرات الاعتقال عبر عناوينهم، ولسبب ما لا يخافون. وتكون هؤلاء النساء المسنّات عاملات بيوت في بعض الأحيان، ومربيات أميّات، مُشبعات بالانحياز الديني، يتبنّين أيتاماً اعتُقِلَ آباؤهم وأمهاتهم، وينقذون الأطفال من الحياة في مراكز الإيواء ودور الأيتام. يخافُ أعضاءُ الحزب هؤلاءِ الأيتام مثل النار. هل هذه البرجوازية القديمة، والعمات، والمربيات الأميّات أكثر صدقاً وشجاعةً من البلاشفة اللينينيين، أمثال موستوفسكي، وكريموف؟

ولكن لماذا، لماذا، أهو الخوف حقّاً؟ أم الجبن فحسب؟

يتمكَّنُ الناسُ من التغلب على الخوف، فيذهبُ الأطفال إلى الظلام، والجنود إلى المعركة، ويخطو الشاب خطوة ويقفز بالمظلّة إلى الهاوية.

وهذا الخوفُ خاصٌّ، ثقيلٌ، لا يمكن لملايينِ الناس التغلب عليه، هذا الخوف مكتوبٌ بأحرفٍ حُمْرٍ شريرة، قزحية اللون في سماء موسكو الشتوية - خوف الدولة. . .

لا، لا! الخوف بنفسه لا يستطيع القيام بمثل هذا العمل الضخم. لقد تحرّر الهدف الثوري باسم الأخلاق، من الأخلاق، وسوَّغَ باسم المستقبل فَريسيي اليوم، والمخبرين، والنصّابين، وأوضح لماذا يُدفع بالأبرياء إلى الحفرة باسم سعادة الناس. وسمحت هذه القوّة، باسم الثورة، بالابتعاد عن الأطفال الذين كان آباؤهم في معسكرات الاعتقال. وأوضحت لماذا تريد الثورة للزوجة التي لم تقدم تقريراً كاذباً عن زوجها البريء، أن تنفصلَ عن أطفالها وتُزجَّ في معسكر اعتقال مدةَ عشر سنوات.

اتحدت قوةُ الثورة بالخوف من الموت، وبالرعب من التعذيب، وبالحنين الذي سيطر على أولئك الذين شعروا بأنفاس المعسكرات البعيدة.

يوماً ما عرفَ الناس الذاهبونَ إلى الثورة أنهم سيواجهون السجن والعمل الشاق وسنوات من التشرد وفقدان المأوى، والنطع.

والشيء الأكثر إثارة للقلق والغموض والسوء الآن هو أن الثورة دفعت اليوم ثمن الإيمان بها، والإخلاص للهدف العظيم حصصَ إعاشةٍ وافية، وغداءاتِ الكرملين، وأكياس مفوّضي الشعب، والسيارات الشخصيّة، والرحلات إلى بارفيخا، والعربات الدولية.

سأل سبيريدونوف من الظلمة:

- نيقولاي غريغوريفيتش، هل نمت؟

أجاب كريموف:

- لقد نمتُ تقريباً، أغفو.

- حسناً، أنا آسف، لن أزعجك.

40

مرّ أكثر من أسبوع على الاستدعاء الليلي لموستوفسكي، من المقدّم ليز.

وتبدّل التوترُ والانتظار المحمومُ بكآبة قاسية.

بدا لموستوفسكي خلالَ دقائق أنَّ الأصدقاءَ والأعداءَ، الذين عَدّوهُ عاجزاً ومغامراً استهلَكَ عقله ولا فائدةَ منه، قد نَسوهُ إلى الأبد.

اقتادوه في صباح صافٍ هادئ إلى الحمام. وجلس المرافقُ من قوات الأمن الخاصّة هذه المرة على السُّلّم، ووضع البندقيَّة الرشاشةَ إلى جانبه، لم يدخل الغرفة، وأشعل سيجارة. كان اليومُ صافياً، والشمسُ دافئةً، ويبدو أن الجندي لم يرغب في دخولِ غرفةِ الاستحمام الرطبة.

اقتربَ أسيرُ حربٍ كان يخدمُ الحمَّام من ميخائيل سيدوروفيتش.

- مرحباً، الرفيق العزيز موستوفسكي.

صرخ موستوفسكي متفاجئاً: حيث وقف أمامه في سترة رسمية عليها ربطة السجن مشدّد الحراسة على الكمّ مفوّضُ اللواء أوسيبوف يلوح بخرقة.

تعانقا، وقال أوسيبوف على عجل:

- تمكنتُ من الحصول على وظيفة في الحمام، واستبدلتُ عاملَ النظافةِ الدائم، أردت أن أراك. أحملُ لك تحيات كوتيكوف والجنرال، وزلاتوكريلتس. أخبرني قبل كلّ شيء، ما يحدث لك، كيف تشعر؟ ماذا يريدون منك؟ اخلع ملابسك وأخبرني.

حدّثه موستوفسكي عن الاستجواب الليلي.

قال أوسيبوف وهو ينظر إليه بعينين سوداوين منتفختين:

- يريدُ هؤلاء الحمقى تطويعك.

- لكن من أجل ماذا؟ ما الهدف؟ ما الهدف؟

- لعلَّ لديهم اهتماماً بنوع من المعلومات التاريخية، في توصيف مؤسسي الحزب وقادته. وربما الأمرُ مرتبطٌ بمتطلبات الإعلانات والنداءات والرسائل.

قال موستوفسكي:

- مخطط ميؤوس منه.

- سوف يعذّبونك، رفيق موستوفسكي.

كرر موستوفسكي:

- مخطط غبيّ وميؤوس منه. وسأل: - أخبرني بما لديك.

قال أوسيبوف هامساً:

- أفضل مما كان متوقعاً. الشيء الرئيسي: تمكنا من التواصل مع العاملين في المصنع، وبدأ يصلنا السلاح - رشاشات وقنابل يدوية. الناس يجلبون القطع، ونُجَمِّعُها، في الوحدات ليلاً. طبعاً، ما زالت الكميات ضئيلة حتى الآن.

قال موستوفسكي:

- هذا ما رتبته يرشوف، لقد أحسنَ! - وخلع قميصه، وفحص صدره وذراعيه، وغضبَ مرة أخرى من تقدّمهِ في السنّ، وهزّ رأسه حزناً.

قال أوسيبوف:

- يجب أن أبلغكم كرفيق حزبي قديم: لم يعد يرشوف في معسكرنا.

- ماذا؟ كيف حصل ذلك؟ لا.

- أخذوه بالسيّارة إلى معسكر بوخينفالد.

صاح موستوفسكي:

- ماذا تقول؟ إنّه شابّ رائع!

- سيبقى رائعاً في بوخينفالد.

- وكيف، لماذا حدث ذلك؟

قال أوسيبوف عابساً:

- اكتُشفَ من فوره انقسامٌ في القيادة حولَ يرشوف، كان هناك كثيرٌ من الانجذاب التلقائي من جانب كثيرين، وهذا ما أثّر عليه سلباً. وكان ثمَّةَ شعور بأنّه لن يطيع المركز. إنه رجل غامض، وغريب. وتعقّد الوضع مع كل خطوة. فالوصيّة الأولى للسرّية هي الانضباط الصلب. وحصلنا على مركزين - غير حزبي وحزبي. ناقشنا الوضع واتخذنا قراراً. ووضعَ الرفيقُ التشيكيُّ الذي يعملُ في الدّيوان بطاقةَ يرشوف في المجموعة المختارة لمعسكر بوخينفالد، وأُضيف تلقائياً إلى القائمة.

قال موستوفسكي:

- لا أسهلَ من ذلك!

قال أوسيبوف:

- كان هذا قراراً بالإجماع للشيوعيين.

وقف أمام موستوفسكي في ملابسه البائسة، ممسكاً خرقة في يده، صارماً، لا يتزعزع، واثقاً بحقِّه الحديديِّ، حقِّهِ الرهيبِ الأعظمِ من حق اللّهِ في ضبط الأمر الذي يخدمه كقاضٍ أعلى مُتَحكِّمٍ بمصائر الناس.

وجلسَ الرجلُ العاري النحيل، أحدُ مؤسسي الحزب العظيم، يرفع كتفيه الرقيقتينِ الذابلتين، حانياً رأسه، وصامتاً.

وبرزَ أمامه مكتب ليز الليلي من جديد.

واستولى عليه الخوف ثانيةً: أيعقلُ أن ليز لم يكذب؟ هل أراد الرجلُ حقاً التحدّثَ إلى رجل من دون هدفٍ أمنيٍّ سرّيٍّ؟

استقام، وكما كانتِ الحالُ دائماً، قبلَ عشر سنوات، أثناء التأميم والتجميع، وتماماً كما حدث أثناء العمليات السياسية التي قادت رفاقَهُ الشباب إلى النطع، وقال:

- أنا أطيع هذا القرار، وأقبله كعضو في الحزب، وسحب من بطانةِ سترته الملقاةِ على المقعد، بضعَ قطع من الورق - المنشورات التي كتبها.

ظهر فجأة أمامه وجهُ إيكونيكوف وعيناه البقريّتان، ورغب ميخائيل سيدوروفيتش من جديد في أن يسمَعَ صوتَ الواعظِ ذا الطيبةِ التي لا معنى لها.

قال ميخائيل سيدوروفيتش:

- أردتُ أن أسأل عن إيكونيكوف التشيكي، لم ينقل بطاقته؟

- أحمق عجوز، لزج، كما كنت تسمّيه؟ أُعدِمَ. لقد رفض الذهاب للعمل في بناء معسكر الإبادة، فأمر ليز بإطلاق النار عليه.

أُلصقت في الليلة نفسها، منشوراتٌ عن معركة ستالينغراد، على جدران مباني المعسكر وتلك التي كتبها موستوفسكي.

41

عُثر بعد وقت قصير من انتهاء الحرب، على مواد تحقيق في قضيةِ منظمةٍ سرّيةٍ في أحد معسكرات الاعتقال في ألمانيا الغربيّة، في أرشيف غيستابو ميونيخ. كُتب في ورقةِ إغلاق القضيّة أنَّ الحكم على المشاركين في المنظمة قد نُفّذ، وأحرقت جثثُ الذينَ أُعدِموا في المحرقة. الاسم الأوّل في القائمة كان اسم موستوفسكي.

لم تسمح دراسة مواد التحقيقِ بإثبات اسم المحرّض الذي خان رفاقه. من الممكن أن يكون الغيستابو قد أعدمه مع أولئك الذين خانهم.

42

كان سكنُ فريق الغيستابو الخاصّ، الذي خدم غرفة الغاز، ومخازن المواد الكيميائية السامة وأفران حرق الجثث، دافئاً وهادئاً.

هُيّئت أيضاً ظروفٌ جيدةٌ للسجناء الذين كانوا يعملون باستمرار في المنشأة رقم- 1. كان لكلٍّ منهم سريرٌ، طاولة، وكانَ ثمّةَ أباريق فيها ماءٌ مغلي، ووضعت سجادة في الممر بين الأسرّة.

كان العمال الذين يخدمون غرفة الغاز غير مقيدين، وتناولوا طعامهم في غرفة خاصّة. وأُطعِمَ الألمانُ من الفريق الخاص، وفقاً لنظامِ المطاعم، ويمكن لكلّ شخص منهم إعداد قائمة طعامه الخاصّة. وتلقى الألمانُ في هذا الفريق الخاص رواتبَ إضافيّة من خارج الفئات - ما يقرب ثلاثةَ أضعافِ ما تتقاضاهُ الرتبةُ المقابلة من الأفراد العسكريين في الوحدات العاملة. واستخدمتْ أسرُهم امتيازاتِ الإسكان والإمدادات الغذائية على أعلى المستويات، وكان لها الحق في أولوية الإخلاء من المناطق المهددة جواً.

كان الجندي روزي يعمل عند نافذة العرض، حتى إذا انتهتِ العمليةُ أعطى روزي الأمرَ بتفريغ الغرفة. إضافةً إلى ذلك، كان يُفترضُ به أن يشاهد فيما إذا كانَ أطباءُ الأسنان يعملون بحسن نية

وبدقة. تحدَّثَ مرات عدة إلى رئيس المنشأة، كالتلوفت، حول صعوبة أداء هاتين المهمتين في وقت واحد؛ فقد حدث في أثناء قيام روزي بمراقبةِ ضخِّ الغاز في الأعلى أن تبدأ في الأسفل الخدعة والسرقة، هناك حيث يعملُ أطباءُ الأسنان، فتُحمّل الجثث على الناقل، ولا رقابةَ على العمال.

اعتاد روزي عمَلَهُ، ولم يعد يشعر بالقلق، كما كانتِ الحالُ في الأيام الأولى، وهو ينظر في الزجاج الكاشف للعملية. لقد ألقي القبض على سلفه ذات مرة بسبب قيامهِ بعمل يناسب صبيّاً يبلغ الثانية عشرة من عمره، وليس جندياً في قوات الأمن الخاصة يضطلعُ بمهمة خاصة. في البداية لم يفهم روزي سببَ تلميح الرفاق إلى أمرٍ ما غير لائق، لقد عرف فقط فيما بعد، ما هو الأمر.

لم يُعجب روزي العملُ الجديدُ، على الرغم من أنه اعتاده. كان روزي قلقاً من الاحترام غير العادي الذي أُحيطَ به. سألته نادلات المطعم لماذا كان شاحباً. والدته كانت تبكي دائماً، ومنذ طفولته. لسبب ما، طُرِدَ والدُه دائماً من العمل، وبدا له أنه عُيّن في العملِ، أقلّ مما طُرد منه. أخذ روزي عن الكبار مشيةً ناعمةً وملهمةً لا ينبغي أن تزعج أي شخص، وتبنّى ابتسامة ودّية ومقلقة موجهة إلى الجيران، ومالك المنزل، وقطة صاحب المنزل، ومدير المدرسة، والحارس على الزاوية. يبدو أن اللطفَ والودَّ كانا الملمحينِ الرئيسين لشخصيته، وقد فوجئَ بمدى الكراهية التي تعيشُ فيه، وكيف تمكّنَ سنواتٍ من إخفائها.

لقد وجد نفسه في الفريق الخاص؛ وفهم الخبير في النفوس البشرية - المدير - شخصيّتَهَ الناعمة الأنثوية.

لم تكن مشاهدةُ اليهودِ جذابةً وهم يتألمونَ في الزنزانة. وكره روزي الجنود الذين أحبوا المنشأة. كان أسير الحرب تشوتشينكو الذي يعمل في نوبة الصباح عند مدخل الغرفة غير مريحٍ على نحوٍ خاص. علت وجهَهُ دائماً ابتسامة طفولية، ولأنَّها كذلكً فقد كانت غير سارّة. لم يحب روزي عمله، لكنه عرف كل الفوائد الواضحة والسرّية له.

كلَّ يومٍ في نهاية العملِ كان يُسلّم روزي رجلٌ محترمٌ طبيبُ أسنانٍ، كيساً ورقيّاً فيه عدّة تيجانٍ ذهبية. وبلغت الأكياس الصغيرةُ نسبةً ضئيلةً من المعدن الثمين، الذي وصل إلى إدارة المعسكر، لكن روزي نقل بالفعل مرتين كيلوغراماً من الذهب إلى زوجته؛ كان ذلكَ هو مستقبلهما المشرق؛ هو تحقيقُ حلم الشيخوخة الهادئة. ذلكَ أنَّهُ كانَ في شبابِهِ ضعيفاً وخجولاً، لم يتمكن من النضال على نحوٍ حقيقي في سبيل الحياة. لم يشك أبداً في أن الحزب كان لديه هدف واحد فحسب - هو مصلحة الضعفاء والصغار. لقد شعر بالفعل بالآثار المفيدة لسياسة هتلر على نفسه - فهو أيضاً كان رجلاً ضعيفاً وصغيراً، لكن معيشتَهُ وأُسرَتُهُ أصبحت أسهل وأفضل على نحو لا يضاهى.

43

في أعماقِ روحهِ كان أنطون خميلكوف يشعرُ بالرعب أحياناً من عمله، وكان في الأمسيات يُحِسُّ وهو يستمع إلى ضحك تروفيم جوتشينكو، راقداً في السرير، بخوف بارد ثقيل.

بدت يدا جوتشينكو بأصابعهما الطويلة والسميكة اللتين غَطّتا المغلاقَ المحكم للزنزانة غير مغسولتين، وكان من غيرِ المريح أخذ الخبز من السلة التي كانت يدا جوتشينكو تصلان إليها.

شعرَ جوتشينكو بتوتّر سعيد، وهو خارج من الوردية الصباحية وينتظر طابور الناس القادم من السكك الحديدية. بدت حركة الطابور له بطيئةً على نحوٍ لا يطاق، وأصدر من حنجرته صوتاً رقيقاً حزيناً، وارتعش فكه قليلاً، مثل قطةٍ، تراقب العصافير عبرَ زجاج النافذة.

أصبحَ هذا الرجلُ مُقلِقاً لخميلكوف. بالتأكيد، يمكن لخميلكوف أيضاً تناول الشرابَ وينغمسُ مخموراً في علاقةٍ مع امرأةٍ تنتظرُ في الطابور. كان ثمَّةَ منفذ يدخل من خلالهِ عمالُ الفريق الخاصّ إلى غرفة الملابس لاختيار امرأة. الرجل يبقى رجلاً. كان خميلكوف يختار امرأة أو فتاة، ويقودها إلى غرفة فارغة من المهجع، وبعد نصف ساعة، يعيدها إلى الحظيرة، ويسلمها إلى الحارس. كانَ

صامتاً، وكانت المرأة صامتة. لم يكن هنا لأجل النساء والخمر، ولا لأجل السراويل ذات الأقمشة الغاباردين، وليس من أجل أحذية القادة المغطاة بالكروم.

أُسر في يوم تمّوزي عام 1941. ضربوهُ بأعقاب البنادقِ على عنقهِ ورأسه، وكان يعاني من الزحار الدموي، اقتادوه بحذاء ممزق فوقَ الثلج، وسقوهُ ماءً أصفرَ ملوّثاً ببقع مازوت، ومزَّقَ قطعاً من اللحم الأسود النتنِ من جثة حصانٍ بأصابعه، وأكلَ لفتاً فاسداً وقشر البطاطا. لقد اختار شيئاً واحداً فقط - الحياة، لم يكن يريد المزيد، نجا عشرَ مرات من الموت - من الجوع والبرد، لم يكن يريد الموت بسبب الإسهال الدموي، لم يكن يريد أن يسقطَ بتسعة غرامات من المعدن في رأسه، لم يكن يريد الانتفاخ والسماحَ لقلبه بالاختناق في المياه المتصاعدة من قدميه. لم يكن مجرماً، كان مصففاً للشعر في مدينة كيرتش، ما فَكَّرَ أحد فيهِ على نحوٍ سيّئ - لا الأقارب، ولا الجيران، ولا الحرفيون في العمل، ولا الأصدقاء الذين شربوا معه الخمر وأكلوا سمك البوري المدخن، ولعبوا الدومينو. فكَّرَ أنْ لا شيءَ مشتركاً له مع جوتشينكو. لكن في بعض الأحيان بدا له أن الاختلافَ بينه وبين جوتشينكو كان في بعض الهراء الضئيل؛ ولكن هل من المهم هناك بالفعل - بالنسبة إلى اللّه والناس - بأي شعور يذهبانِ إلى العمل: واحدٌ مرحٌ، والآخر غير مرح؛ فالعمل واحد.

لكنه لم يفهم أن جوتشينكو أزعجه ليس لأنه مذنب أكثر منه. بل السبب هو أن جوتشينكو كان قبيحاً، فثمَّةَ قبحٌ طبيعيٌّ فظيعٌ يأتي بالولادة. وهو، خميلكوف، لم يكن قبيحاً، لقد كان رجلاً.

لقد علمَ على نحوٍ غامض أنه في زمن الفاشية، ثمَّةَ خيارٌ مُتاحٌ للإنسان الذي يريد أن يبقى إنساناً وهو أكثر سهولة من إنقاذ الحياة – إنَّهُ الموت.

44

أكد رئيس المنشأة، قائد الفريق الخاص، الشتورمبانفيورير كالتلوفت، أن تقدّمَ غرفةُ التحكم المركزية كل مساء جدولاً بوصول القطارات في اليوم التالي. وأعطى كالتلوفت تعليمات لموظفيه مقدماً حول العمل الذي ينتظرهم - العدد الإجمالي للعربات، وعدد الأشخاص القادمين؛ وبناء على البلد الذي يأتي منه القطار، استُدعيتْ فرقُ المساعدة من السجناء: مصففي الشعر، والمرافقين، والحمّالين.

كالتلوفت لم يحب اللهو؛ لمْ يشرب وغَضبَ إذا رأى مرؤوسيه في حالةِ سكر. مرة واحدة فقط، شاهدوه فرحاً وحيويّاً؛ كان يجلس في السيارة أثناء مغادرته إلى الأسرة أيامَ عيد الفصح، نادى شتورمبانفيورير غان، ومضى يعرض له صوراً فوتوغرافية لابنته، وهي فتاة وجهها كبير وعيناها كبيرتان، تشبه والدها.

كان كالتلوفت يحب العمل، ويأسف لإضاعة الوقت عبثاً، لم يذهب إلى النادي بعد العشاء، ولم يلعب الورق ولم يشاهد الأفلام. في عيد الميلاد نُصِبت شجرة من أجل الفريق الخاص وعزفت فرقة الهواة، وقدّموا على العشاء زجاجةً من الكونياك الفرنسي لشخصين مجاناً. دخل كالتلوفت النادي مدة نصف ساعة، ورأى الجميعُ على أصابعه أثراً طازجاً للحبر - كان يعملُ مساءَ عيدِ الميلاد.

عاش يوماً ما في القريةِ في منزل والديه، وبدا أن حياته سوف تمر في هذا المنزل - كان يحب هدوء القرية، لم يكن يخافُ العمل. كان يحلم بتوسيع أعمال والده، وبدا له أنه مهما كان الدخل القادمُ من تربية الخنازير، وبيع اللفت والقمح، فسيعيش طوال حياته في منزل والده الهادئ والمريح. لكن الحياة تحولت على نحوٍ مختلف. التحقَ بالجبهةِ نهايةَ الحرب العالمية الأولى، وسار في الطريق الذي حدّده له مصيره. يبدو أن المصير قَدَّرَ له الانتقال من القرية إلى الجندية، ومن الخندق إلى حراسة المقرّ، ومن الديوان إلى معاون، ومن العمل في الجهاز المركزي للأمن الإمبراطوري إلى العمل في إدارة المعسكرات، وفي النهاية، الانتقال إلى منصب رئيس الفريق الخاص في معسكر الإبادة.

إذا كان على كالتلوفت أن يجيب أمام محكمة سماوية، فسوف يخبر القاضي بصدق كيف دفعه القدرُ إلى طريق الجلاد الذي قتل خمسمئة وتسعين ألف شخص. ما الذي يمكن أن يفعله أمام إرادة القوى العظيمة: الحرب العالمية، والحركة الوطنية الشعبية الضخمة، والحزب القوي، وإكراه الدولة؟ من هو قادر على السباحة بطريقته الخاصة؟ إنه رجل؛ كان يعيش في منزل والده. لم يمشِ، اقتيدَ، لم يكن يريد، بل أُمِرَ، مشى مثل صبي صغير، مصيرُه قادَه من يده. وبالطريقة نفسِها أو شيء من هذا القبيل كان أولئك الذين أرسلهم كالتلوفت إلى العمل وأولئك الذين أرسلوا كالتلوفت إلى العمل، سيبررون ما فعلوهُ ويبرِّؤونَ أنفسهم أمام اللّه.

لكن كالتلوفت لم يقف أمام المحكمة السماوية ليبَرِّئَ نفسه. ولذلك لم يكن على اللّه أن يؤكد لكالتلوفت أنْ لا مُذنبين في العالم...

ثَمَّةَ محكمة سماويّة ومحكمة دولة ومجتمع، لكن هناك محكمة عليا - هي محكمة المذنب على المذنب. قاسَ الشخص المذنبُ قوة الدولة الشمولية - إنها عظيمة بلا حدود. الدعاية، والجوع، والوحدة، ومعسكرات الاعتقال، وتهديد الموت، والغموض والجهل، إنّ هذه القوة الرهيبة تُقيّد إرادةَ الإنسان. ولكن في كل خطوة من خطوات الشخص، التي تُنَفَّذُ تحت تهديد الفقر والجوع ومعسكر الاعتقال والموت، تتجلى دائماً إرادته غير المقيدة إلى جانب الإرادة المفروضة عليه. وفي طريق حياة رئيس الفريق الخاصّ: من القرية إلى الخنادق، ومن اللاحزبيّة ضيّقة الأفق، إلى أحد أعضاء الحزب الاشتراكي الوطني الواعين، كانت إرادته تترك أثراً في كل مكان. المصيرُ يقود الشخص، لكن الشخص يذهب لأنه يريد، وهو حرّ في ألّا يرغب في الذهاب. والمصير يقود الشخص، ويصبح الشخص أداة للقوى المدمّرة، لكنه هو نفسه ينتصر، ولا يخسر. إنّه يعرف ذلك، ويسير إلى الفوز؛ لدى المصير الرهيب ولدى الشخص أهداف مختلفة، ولكن لديهما طريق واحد.

القاضي السماوي ليس رحيماً ومن دون خطيئة، وليست محكمة الدولة العليا حكيمةً وتسترشد بخير الدولة والمجتمع، والشخص الذي تسحقه الفاشية، ليس قدّيساً وصالحاً، بل بائساً وقذراً وخاطئاً، وقد اختبر بنفسه السلطة الفظيعة للدولة الشمولية، وسقط هو نفسه، وانحنى خجولاً، وأطاعَ، وسينطق بالحكم.

سوف يقول:

- هناك مذنبون في العالم الرهيب!! وأنا مذنب!

45

وها هو قد حلّ اليومُ الأخيرُ من الرحلة. صرّت العربات، وقرقعت المكابح، وحلّ هدوء، ثم طقطقت أصواتُ فتح الأبواب، وسُمع أمرٌ باللغة الألمانيّة:

- الجميع إلى الخارج!

بدأ الناسُ يخرجون إلى الرصيفِ المُبَلَّلِ بعد هطول الأمطار الأخيرة.

كم بدت غريبةً الوجوهُ المألوفةُ بعد ظلمة العربة!

لقد تغيّرت المعاطف والشالاتُ أقل من التغيير الذي بدا على الناس. وذكّرت البلوزاتُ والفساتينُ بالمنازل التي ارتُديت فيها، وبالمرايا، التي جربوها أمامها. . .

تجمّع أولئك الذين خرجوا من العربات في تجمهرات، وكانت تجمعات القطعانِ أمراً مألوفاً ومهدّئاً؛ وكانت الرائحةُ مألوفةً، والدِّفءُ مألوفاً، والوجوه والعيون المعذبة مألوفة، تجمّعوا في حشودٍ كثيفةٍ خرجتْ من اثنتين وأربعين عربة شحن. . .

سار ببطء جنديان من دوريات قوات الأمن الخاصة في معطفين طويلين، يرن على الأسفلت كعبا حذاءيهما المُحذّيان. مشيا،

مُتعجرفين وشاردين، لم ينظرا إلى الشبانِ الذينَ حملوا على أيديهم امرأةً عجوزاً ميِّتةً ذات شعر أبيض مبعثر على وجهها الأبيض، وإلى كلبِ البورديل ذي الشعر المجعَّد، الذي وقف على أربع يشربُ من نقعةِ ماء، وإلى المرأة المحدّبة، التي ترفع تنورتها كي تخفي الشريط الممزق من سروالها.

تبادل رجلا قواتِ الأمن الخاصة، من وقت إلى آخر النظرات، وتلفَّظا بكلمتين أو ثلاث كلمات. ذرعا الأسفلت بينما كانت الشمس تغرب في السماء. لا تُراقبُ الشمسُ الريحَ والغيومَ والعواصفَ البحرية وضوضاءَ أوراق الشجر، لكنها بحركتها السلسة تعرف أنَّ كلَّ شيءٍ على وجه الأرض يحصل بفضلها.

صاحَ أشخاصٌ يرتدون سترات زُرقاً، وقبّعات لها حواف أمامية، وأشرطة بيضاء على الأكمام، يستعجلون الواصلينَ بلغة غريبة؛ هي مزيج من الكلمات الروسيّة والألمانيّة والعبريّة والبولندية والأوكرانيّة.

نظم الشبانُ في السترِ الزُّرْق الحشدَ بسرعةٍ وبراعة، واستبعدوا الأشخاص الذين يسقطون ولا تحملهم أرجلهم، وأجبروا الأقوى على تحميلِ أنصافِ الموتى في الشاحنات، وخلقوا قافلةً من فوضى الحركات المتناقضة، وألهموا الحشدَ بفكرة الحركة، وأعطوا لهذه الحركة الاتجاه والمعنى.

نُظّم الطابور بستة أشخاص في كلِّ صفٍّ، وانتشرَ خبرٌ في الصفوفِ: «إلى الحمّام، أولاً إلى الحمّام».

وبدا أن الربَّ الرحيم نفسه لم يكن ليفكّر بما هو أكثر لطفاً لحظتها.

صاح الرجل الذي يعتمرُ قبّعة، وهو المسؤول الأكبر عن تفريغ القطار، ناظراً إلى الحشد:

- هيّا يا يهود، دعونا نذهب الآن.

حمل الرجالُ والنساءُ حقائبهم وصُرَرَهم، وتشبث الأطفال بتنانير أمّهاتهم وأطراف سُتر آبائهم.

«إلى الحمّام... إلى الحمّام...» - هذه الكلمات سحرت الناسَ، وملأت الوعي بمنوّم مغناطيسي.

هناك شيء جذّاب خاصّ في الرجل طويل القامة الذي يرتدي قبعة، ويبدو أنه قريب من العالم البائس، وليس العالم الذي يرتدي معاطف وخوذات رمادية.

وتسأل المرأة العجوز، التي تصلّي بحذر، وتمسّد بأطراف أصابعها كمّ بدلته: « إلى أين يأخذوننا يا بني؟».

وفجأة، صاحَ جامعاً في أمر واحد العبارةَ التي يتبنّاها الجيشان المتحاربان:

- إلى الأمام سرّ. Die Kolonne marsch!

فرغَ الرصيفُ، ومضى الناس الذين يرتدون بزّاتِ العمل يكنسون الأسفلت من قطعِ الخرقِ، وقطعِ الضماداتِ، ومن حذاء ممزقٍ رماه شخصٌ ما، ومن مكعَّبات أطفال تساقطت منهم، وأُغلِقت أبوابُ عرباتِ الشحنِ مقرقعةً. وضربت موجة حديدية ما بين العربات. وتحرّك القطار الفارغ، ذاهباً للتعقيم.

يعود الفريق، بعد انتهاء العمل عبر بوابة الخدمة إلى المعسكر. القطاراتُ القادمةُ من الشرق هي الأسوأ، الأكثرية فيها موتى

ومرضى، وتلتقطُ في تلكَ العرباتِ القمل، وتتنفس روائح كريهة. لا تجد في تلكَ القطارات الهنغارية منها، أو الهولندية أو البلجيكية، زجاجةَ عطرٍ أو كيساً من الكاكاو، أو علبةَ حليبٍ مكثف.

46

افتُتِحت المدينة العظيمةُ أمامَ المسافرين. وكانت أطرافها الغربيةُ تغرقُ في الضباب. وكان الدخانُ الداكن لمداخن المصانع البعيدة ممزوجاً بالضباب، وشبكة شطرنج الأبنية الخشبية المؤقتة مغطاة بالضباب، وبدا أن اتحادَ الضبابِ والاستقامةِ الهندسية للأبنية الخشبية المؤقتة مُدهشٌ.

ارتفعَتْ هالةٌ حمراء سوداءُ عاليةً في الشمال الشرقي، بدا أنها احمرّت بعد أن سخّنتها السماءُ الخريفيّةُ الرطبةُ. وانبثقت أحياناً نار بطيئة، وقذرة، ومخيفة، من تلكَ الهالةِ الرطبة.

خرج المسافرون إلى ساحة واسعة. وكان ثمّةَ عشرات الأشخاص في منتصف الساحة على منصة خشبيةٍ تُرَتَّبُ عادة في أماكنِ الاحتفالات العامة. كان ثَمَّةَ أوركسترا. تمايزَ الناس بحدّة بعضهم عن بعض، تماماً مثل أدواتهم. التفت بعضهم إلى الوراء نحوَ طابور من الناسِ يقترب. لكن رجلاً ذا لون رمادي يرتدي معطفاً خفيفاً قال كلماتٍ ما، فأمسكتِ المجموعة على المنصة بأدواتها. وهُيّئ للناسِ فجأة، أنّ طائراً ما زقا بقوّةٍ وجرأة، وأنَّ الهواء الذي مزقته الأسلاك الشائكة وعواء صفارات الإنذار، العابقِ برائحة

ملوّثة، وشواطٍ دهني، امتلأ بالموسيقا. وكما لو أنَّ كتلةً دافئةً من أمطارٍ غجريّةٍ صيفيَّة، قد أنارتها الشمس، وانثالت، وتلألأت، على الأرض.

إنّ الناس في معسكرات الاعتقال، وفي السجون، والفارونَ من السجون والذاهبون إلى الموت يعرفون قوةَ الموسيقا المذهلةَ.

لا أحد يحسُّ بالموسيقا كأولئك الذين جرّبوا معسكر الاعتقال والسجن، وكالذاهب إلى الموت.

تولّد الموسيقا التي تَمَسُّ فجأة الإنسانَ المُحتَضر ليس الأفكار، ولا الآمال، بل معجزةَ الحياةِ العمياء والخارقة فحسب. سرى النحيبُ في الطابور. وبدا أن كل شيء قد أعاد تشكله، واتحد مُندَغِماً في تشكيلةٍ واحدة، كلّ ما كان مبعثراً - المنزل، العالم، الطفولة، الطريق، طَرَقَاتُ العجلات، العطش، الخوف، وهذه المدينة التي تقف في الضباب، وهذا الفجر الأحمر الباهت، كل شيء توحّد فجأة - ليس في الذاكرة، ليس في الذاكرة، ولا في المشهد، بل في الشعور الخانق، والأعمى، والحارّ، للحياة التي مرّت. هنا، وفي وهج المواقد، وعلى مسرح أحداث المعسكر، شعر الناس أن الحياة كانت أكثر من مجرد سعادة؛ إنّها أيضاً مصيبة. الحرية ليست مفيدة فحسب. الحرية صعبة وأحياناً حسرة؛ إنها الحياة.

تمكنت الموسيقا من التعبير عن صدمة الروح الأخيرة، التي وحّدت في عمقها المظلم كل ما شعرَ به الكائنُ في الحياة، فرحها وحزنها، مع هذا الصباح الضبابي، مع التوهج فوق الرأس. وربما كان الأمرُ ليس كذلك. لعلَّ الموسيقا كانت مجرَّدَ مفتاحٍ لمشاعر

الشخص، فتحت باباً إلى داخله في هذه اللحظة الرهيبة، لكنها ليست هي من مَلأ الشخص.

يحدث أن أغنية أطفال تجعل رجلاً عجوزاً يبكي. لكن الرجل العجوز لا تبكيه الأغنيةُ نفسها، إنها مفتاح فحسب لما وجدته الروح.

عندما رسمَ الناسُ في الطابور ببطء نصف دائرة في الساحة، خرجت سيارة بلون الكريم من بوابة المخيم. ترجَّلَ منها ضابطٌ من قوات الأمن الخاصة يضعُ نظارةً، في معطف ذي ياقة من الفرو، وأومأ بإيماءةٍ مستعجلة، فأنزلَ المخرج الذي يُتابِعهُ يديه في حركة يائسة - وتوقفت الموسيقا.

وتعالى تكرارٌ متعدّد لكلمة: «توقفوا!» «halt!».

سار الضابط بجانب الصفوف. وأشار بإصبعه، واستدعى مرافق الطابور أشخاصاً من الصفوف. نظر الضابط إلى من استُدعوا نظرة غير مبالية، كان مرافق الطابور يسأل بهدوء، حتى لا يزعج تفكيرَ الضابط:

- كم عمركَ؟ ما هي مهنتك؟

عدد الذين اختيروا ثلاثون شخصاً.

سُمِع نداءٌ على طول الصفوف:

- الأطباء والجرّاحون!

لم يُجب أحد.

- الأطباء والجراحون، اخرجوا!

هدوء من جديد.

ذهب الضابط إلى السيارة، فاقِداً الاهتمام بآلاف الأشخاص الواقفين في الساحة.

اصطفّ المختارون خمسةً في كل صف، واستداروا مقابل اللافتة المُثبَّتة على بوابة المعسكر: «Arbeit macht frei!» (العمل يُحرّرك!).

صرخ طفل من الصفوف، وصرخت نساء بحدّة وعنف. وقف الناس المختارون بصمت، وأحنوا رؤوسهم.

لكن كيف تنقلُ شعورَ رجل وهو يضغط على يد زوجته، وتلكَ النظرة السريعة الأخيرة إلى الوجه المحبوب؟ كيف تعيش وأنت تتذكّر بلا رحمة أنّه في لحظة فراق صامتة، تغمض عينيك لجزء بسيط من الثانية للتغطية على شعور بهيج غبي ببقائك حيّاً؟

وكيف تطمس ذكرى وضعِ الزوجة صُرَّةً في يد زوجها، تحوي خاتم الزواج، وعدّة قطع من السكر، والخبز اليابس؟ وهل من الممكن أن يبقى على قيد الحياة، وهو يرى كيف اندلعَت شُعلةٌ في السماء بقوة جديدة؛ وكيف تحترقُ الأيدي التي قبّلَها، والعيون التي كانت تبتهجُ به، والشعر الذي كان يعرف رائحته في الظلام، أولئكَ هم أولاده وزوجته وأمه؟ هل يمكن أن يطلبَ في المهجع لنفسهِ مكاناً أقرب إلى الموقد، ويضع وعاءً تحت المغرفة لسكبِ لترٍ من الحساء الرمادي، وأن يُصلح كعب حذاء مكسور؟ هل من الممكن أن يضرب بالمخل، ويتنفّس ويشرب الماء، وفي أذنيه صرخات الأطفال وبكاء الأمّهات؟

اقتادوا أولئك الذين ما زالوا على قيد الحياة نحو بوابة المعسكر. ووصل إلى أسماعهم الصراخ، وهم أنفسهم أخذوا يصرخون، ويمزّقون القمصان على صدورهم، بينما كانت حياتهم الجديدة تتجه نحوهم: الأسلاك المملوءة بالكهرباء، والرشاشات

على الأبراج الخرسانية، والمهاجع، والفتيات والسيدات ذوات الوجوه الشاحبة يَنْظُرْنَ إليهم من وراء الأسلاك، ويسير الناس في طوابير العمل، وقد خيطتْ على صدورهم خرق حُمْرٌ وصُفْر» وزُرْقٌ.

تعزفُ الأوركسترا من جديد. ويدخل الأشخاص المختارون للعمل في المعسكر إلى المدينة المبنيّة على المستنقع. تشقّ المياهُ الداكنةُ طريقها إلى شقوق الألواح الخرسانية، بين الكتل الحجرية الثقيلة. وتفوح من تلك المياه السوداء - الحمراء رائحةُ العفن؛ وتعلوها بقع من الرغوة الكيميائية الخضراء، وقطع من الخرق القذرة، ومِزَقُ قماش دموية، مقذوفة من غرف عمليات المعسكر. وتسيلُ المياه في الأرض تحت المعسكر، ثم تخرج من جديد إلى السطح، وتغور من جديد تحت الأرض. ولكنّها تُتابعُ دربها، ففيها مع ذلك تعيش موجة البحر وندى الصباح، في مياه المعسكر القاتمة هذه.

أمّا المقدّر لهم أن يموتوا فيمضونَ إلى الموت.

47

سارت صوفيا أوسيبوفنا بخطى مُتَثاقلة ومتساوية، والصبي يمسك بيدها، ويتلمّس باليد الأخرى علبة أعواد ثقاب في جيبه، حيث كان وضعَ عذراء[1] في قطنة بنيّة قاتمة قذرة، وكانت قد خرجت أخيراً في العربة من شرنقة. مشى السمكري لازار يانكيليفيتش بالقرب منهما، يتمتم، وزوجته ديبورا سامويلوفنا تحمل طفلاً بين ذراعيها. وخلفهم كانت ريفيكا بوهمان تهمهم: «أوه، يا إلهي، أوه، يا إلهي، أوه. يا إلهي...». في الصف الخامس على التوالي سارت أمينة المكتبة موسيا بوريسوفنا. كان شعرها مُسَرَّحاً، وبدت ياقتها بيضاء. قدَّمت في الطريق عدّة مرات حصصَ خبزٍ مقابل نصف كوبٍ من الماء الدافئ.

لم تبخل هذه السيدة، موسيا بوريسوفنا، بتقديمِ أيِّ شيءٍ لمن يطلب، عَدُّوها في العربة قديسةً، وقبّلت النساء المسنات، اللائي عرفن الكثير عن الناس، فستَانها. ضَمَّ الصفُّ أمامَهم خمسة أشخاص - في أثناء الاختيارِ، استدعى الضابط اثنين منهم في الحال: الأب والابن؛ سليبيخ، صاحا ردّاً على سؤال حول المهنة:

---

(1) العَذْرَاءُ أو الخَادِرَةُ: الحشرة في طور يعقب اليرقة. (المترجمان).

«Zahnarzt!» [طبيب أسنان (بالألمانية)]. أومأ الضابط قائلاً: «سليبيخ ينفعان، ربحا حياتهما». مشى الثلاثة الباقون في الصف، وقد تدلَّت أياديهم، وتبيّن أن أياديهم غير مطلوبة؛ وسار الرابعُ رافعاً ياقة سترته، ويداه في جيبيه، كانت مشيتُه حرّة، حانياً رأسه. وتميّز أمامهم، في الصف الرابع أو الخامس، رجلٌ عجوزٌ كبيرٌ يرتدي قبعة شتوية من قبعاتِ الجيش الأحمر.

سارت خلفَ صوفيا أوسيبوفنا، موسيا فينوكور، التي أكملت الرابعة عشرة من عمرها في عربة قطار الشحن المدفّأة.

الموت! كان مصاحباً لها، زارت الناسَ بسهولة، في مدخلِ البناية، في ورش العمل، ولاقت ربةَ منزلٍ عائدة من السوق فرافقتها حاملةً عنها كيساً من البطاطا، تدخلت في لعبة الأطفال، ونظرت إلى الورشة، حيث كان خياطو النساء، يغنون، في عجلة من أمرهم يخيطونَ عباءة لزوجة المفوض الإداري الألماني، ووقفت في طابور للخبز، وجلست مع امرأة عجوز ترتق الجوارب. . .

لقد جعلت من الموت عملها اليومي، والناس أصحابها. قدمت أحياناً لشخصٍ ما يُدخّنه، ولآخر ما يأكله، وأحياناً تجاوزت شخصاً بودّ غليظ، وقهقهة غبيّة، وربتت بكفها على ظهره.

يبدو أن الناس بدؤوا في النهاية يفهمونها، فقد فتحت لهم حياتها اليومية، وبساطتها الطفليّة. كان هذا العبورُ سهلاً جداً بالفعل، كما لو كانَ عبورَ غدير صغير - حيثُ تُرمى قطعُ البناء الخشبيّة من الضفة، وحيث تدخن الأكواخ - إلى طرف المرج الصحراوي بخمسِ أو ستِّ خطوات. هذا كل شيء! فما الذي بدا مخيفاً؟ هنا، سار

العجل على طول الجسر الصغير، يطرق بحوافره، وركضَ الأولادُ يضربونَ الأرضَ بكعوبٍ عارية.

سمعت صوفيا أوسيبوفنا الموسيقا. سمعتها لأوّل مرّة طفلةً، واستمعت إليها طالبةً، وطبيبةً شابةً؛ أقلقتها تلكَ الموسيقا دائماً بتوقّعها الحي للمستقبل.

الموسيقا خدعتها. لم يكن لصوفيا أوسيبوفنا أي مستقبل، ما كان سوى حياة مَعيشة.

وقد حجب عنها للحظةٍ شعورُها بخصوصيةِ حياتها المعيشة الحاضرَ - حافة هوّة الحياة.

الأغرب من بينِ الحواسِ كلّها! وهو أمر لا يوصف، ولا يمكن مشاركته حتى مع أقرب شخص؛ الزوجة، الأم، الأخ، الابن، الصديق، الأب، إنه سرّ الروح، والروح حتى لو أرادت أن تكشِفَ سِرَّها وبحماسةٍ شديدة، فلا يمكنها ذلك. وسوف يحملُ الإنسانُ شعور حياته، ولن يشاركه مع أي شخص. إنَّ معجزةَ الإنسان المنفصل، والخاصّ، تتجلّى في أنَّه يجمع في وعيه، وفي لاوعيه كل ما هو جيد، وكل ما هو سيّئ، والمضحك، والحلو، والمخجل، والبائس، والخجول، والحنون، والمدهش الذي كان له من الطفولة إلى الشيخوخة - مُندمجاً وموحّداً في شعورٍ سرّيٍّ وحيدٍ لحياته الوحيدة.

عندما بدأت الموسيقا، أراد دافيد إخراج العلبة من جيبه، وفتحها للحظة فحسب حتى لا تصاب الدمية بالبرد، ويريها الموسيقيين. ولكن بعد بضع خطوات، لم يعد يُلاحِظُ الأشخاص

على المنصة، ولم يتبقَّ سوى توهجٌ في السماء وموسيقا. لحن حزين وقوي، ملأ روحه مثل كوب حتى الحافة بشوق إلى والدته. الأم لم تكن قوية وهادئة، ولكنها تخجل من أن زوجها قد رماها. لقد خاطت قميصاً لدافيد، وضحك الجيران في الممر أنَّ دافيد كان يرتدي قميصاً قطنياً عليه أزهار وله كمان مُلتويان. أمّه كانت دفاعه الوحيد، وكانت أمله. عَلَّقَ آماله عليها بلا كلل وبلا معنى. ولكن ربما فعلت الموسيقا الآتي: توقَّف عن تعليق أمله على والدته. لقد أحبّها، لكنها كانت عاجزة وضعيفة، مثل أولئك الذين كانوا يسيرون بجانبه الآن. وبدت له الموسيقا الناعسة والهادئة، موجاتٍ صغيرةً، رآها في هذيانه يومَ ارتفعت درجةُ حرارته وزحف عن الوسادة الساخنة إلى الرملِ الدافئ والرطب.

صاحَ قائدُ الأوركسترا، وخرج الصوتُ عالياً من بلعومه الضخم الجاف.

الجدارُ المظلمُ، الذي ارتفع من الماء، عندما التهبت لوزتاه، عُلّق أمامه الآن، واحتلَّ السماءَ بأكملها.

إنّ كلّ ما أخاف قلبه اتحدَ واندمج في شيء واحد. الخوف أمامَ الصورة حيث لا تلاحظُ العنزة الصغيرة ظلَّ الذئبِ بين جذوع أشجار التنوب، ورؤوس العجول الميتة ذات العيون الزرقاء في السوق، والجدة الميتة، والفتاة ريفيكا بوخمان المخنوقة، وأول ليلة خوف غير منطقيّة، أجبرته على الصراخ يأساً؛ منادياً والدته. وقف الموت مالئاً حجمَ السماء الضخمة ونظر: سار دافيد الصغير نحوه بساقيه الصغيرتين. ما كان من حوله إلّا الموسيقا، التي من المستحيل إخفاؤها، أو الإمساك بها، وكسر رأسه عليها.

أمّا العذراء فليس لديها أجنحة، ولا أرجل، ولا شوارب، ولا عيون، مستلقية في علبة، غبيَّة، واثقة، تنتظر.

ما دام يهوديّاً[1]، فالأمر أصبحَ منتهياً!

فَأقَ، وضاق تنفّسه. لو استطاع لخنق نفسه. صمتت الموسيقا. استعجلت ساقاه الصغيرتان وعشرات السيقان الصغيرة الأخرى، وعَدَت. لم يكن لديه أيُّ أفكار، لم يستطع الصراخ أو البكاء. ضغطت أصابعُهُ المبتلة بالعرق على العلبة في جيبه، لكنه لم يتذكر العذراء. مشت فقط ساقاه الصغيرتان، مشتا، مشتا، وحثتا الخطى.

لو طالَ الرعبُ الذي سيطر عليه عدّة دقائق أخرى، لسقط من جراء تمزّق قلبه.

مسحت صوفيا أوسيبوفنا دموعها، حينما توقفت الموسيقا وقالت غاضبة:

- هكذا قال المسكين!

ثم نظرت إلى وجه الصبيّ، لقد كان مخيفاً، حتّى إنّه هنا تميّز بتعبيره الخاصّ.

صرخت صوفيا أوسيبوفنا وهزّت يده بحدة:

- ما بك؟ ما الذي حصل لك؟ ما بك؟ ما الذي حصل لك؟ نحن ذاهبون لنغتسل في الحمام.

---

(1) يعودُ الروائي ليخص اليهود بالظلم الذي وقعَ على الناسِ جميعاً والأديان كلها من النازيّة؛ متناسياً أن ضحايا النازيّة تجاوزوا في الاتحاد السوفييتي الذي كتبَ فيهِ روايته وحده 27 مليون إنسان، وهذا ما يُضعفُ الرواية. (المترجمان)

عندما أخذوا ينادون الأطباءَ الجراحيين، قاومت القوة التي كرهتها، بصمت.

كانت زوجة السمكري تسير بجانبها، والطفلُ الرضيعُ كبير الرأس والمثير للشفقة بين ذراعيها ينظر إلى المحيطين به، نظرة متفكّرةً حسنة المحيّا. زوجة السمكري هذه، سرقت لأجلِ طفلها حفنةً من السكّر من إحدى النساء في العربة ليلاً. الضحية كانت ضعيفة جداً. دافع عنها رجل عجوز اسم عائلته لابيدوس، لم يكن أحد يريد الجلوس بالقرب منه، لأنه تبول كثيراً تحته.

وها هي ذي الآن ديبورا، زوجة السمكري، تسير حاملةً الطفل على يديها وتفكّر. والطفل الذي كان يصرخ طوال الليل صمت الآن. جعلت عينا المرأة الداكنتان الحزينتان، وشفتاها اللينتان الشاحبتان، قبحَ وجهها القذر غير ملحوظ.

فكرت صوفيا أوسيبوفنا: «يا أمّ الربّ».

لقد بدت يوماً ما، قبل عامين من الحرب، وكأنها شمس تشرق من خلف أشجار صنوبر جبال تيان شان[1]، وتضيء السناجب الثلجية، والبحيرة المستلقية عند الغسق، كما لو أنّها تحولت من زرقة مكثفة حتى كثافة الحجر؛ واعتقدتْ حينها أنه لا وجودَ لشخص في العالم لا يحسدها، وهنا، وبقلبها البالغ من العمر خمسين عاماً والذي أحرقها، شعرت بقوّة، أنها يمكن أن تتخلى عن كل شيء، مقابل أن تضُمَّها يدا طفلٍ في غرفة فقيرة مظلمة ذات سقف منخفض.

---

(1) تيان شان: هي مجموعة جبال تقع في آسيا الوسطى، تمتد لأكثر من 2,400 كم، شمال شرق البامير. وهذه المجموعة هي أعلى مجموعة جبال في شمال التيبت. (المترجمان).

أثار فيها دافيد الصغيرُ حناناً خاصّاً، لم تشعر به البتّة تجاه الأطفال، على الرغم من أنها كانت تحب الأطفال دائماً. أعطته جزءاً من خبزها في العربة، استدار وجهه نحوها في نصف العتمة، وأرادت أن تبكي، وتعانقه، وتقبّله قُبَلاً متكررة وسريعة كما تُقبّل الأمهات عادة أطفالهنَّ الصغار؛ وكرّرت همساً حتى لا يسمعها:

- كُلْ يا بني، كُل.

لقد تحدثت إلى الصبي قليلاً، ودفعها الخجل الغريب إلى إخفاء شعور الأمومة الذي نشأ فيها. لكنها لاحظت أن الصبي كان دائماً يراقبها بقلق، ويشعر بالهدوء عندما تستدير بوجهها إلى الجانب الآخر من العربة، وكانت بالقرب منه.

لم تكن تريدُ أن تعترفَ لنفسها لماذا لم تستجب عندما نادوا الأطباءَ الجراحينَ، وبقيت في الطابور، ولماذا استحوذ عليها شعور الهيجان العاطفي في تلك اللحظة.

سار الطابور على طول الأسوار السلكيّة، والأبراج الخرسانية المزوّدة بالرشاشات، وعلى طول الخنادق، وبدا للناس الذين نسوا حريتهم، أنّ الرشاشات والأسلاك ليس لمنع المعتقلين من الهرب، بل لمنع المحكومين بالموت من اللجوء إلى معسكر الأعمال الشاقة.

انفصل الطريقُ عن أسلاك المعسكر، واتجه نحو مبانٍ عشوائية منخفضة لها أسقف مسطّحة؛ لقد ذكّرت دافيد هذه المستطيلات ذات الجدران الرمادية ومن دون نوافذ، بمكعّباتِ ألعابٍ ضخمة، انسلخت عنها الصور.

رأى الصبي الضوءَ المتشكل خلف الصفوف الملتوية، المباني

المفتوحة أبوابها، أخرجَ العلبة التي فيها العذراء من جيبه، ودون أن يعرف السبب، ودون أن يودّعها، ألقاها جانباً؛ فلتعشْ!

قال الرجل الذي يسيرُ في الأمام:

- الرأسماليون الألمان!- كان في إمكان عناصر الحراسة أن يسمعوا تماماً ويقدّروا لُطفَهُ.

كان الرجل ذو الياقة المرتفعة غريباً إلى حد ما، وكان يمكن رؤية ذلك بطريقةٍ خاصّة، من الجانب، نظر إلى اليمين، وإلى اليسار وأصبح كبيراً، طويلَ القامة، وفجأة قفز بسهولة، كما لو كان ينشرُ جناحيه، ولكَمَ وجه حارس قوات الأمن الخاصّة، وألقاه على الأرض. صرخت صوفيا أوسيبوفنا بغضب، واندفعت وراءه، لكنها تعثرت وسقطت. أمسكتها عدّة أيدٍ في وقت واحد، وساعدتها في النهوض. ودفعها إلى الأمام أولئك الذين يمشون في الخلف، وكان دافيد يتلفَّتُ من حوله خائفاً أن يسقطوهُ أرضاً، وألقى نظرةً على الحراس الذين كانوا يسحبون الرجل جانباً.

نسيت صوفيا أوسيبوفنا الصبي لحظةَ اندفاعها نحو الحارس. والآن أمسكت بيده مرة أخرى. لقد رأى دافيد إلى أي مدى يمكنُ أن تصبحا جميلتين عينا الرجل الغاضبتان الرائعتان وهو يشعر لجزء من الثانية بالحرّية.

وفي هذه الأثناء، دخلت الصفوف الأولى إلى الساحة المعبّدة أمام مدخل الحمام، وسُمعت خُطى الأشخاص الذين يمشون نحو الأبواب المفتوحة على مصراعيها، بطريقة جديدة.

48

كان ثمّة عتمة هادئة في غرفة الملابس الدافئة الرطبة، المضاءة بنوافذ مستطيلة صغيرة.

ضاعت المقاعدُ الخشبيّةُ المصنوعة من ألواح سميكة غير مصبوغة، مُرقَّمة بالدهان الزيتي، في الظلام. كان ثمَّةَ حاجز صغير في منتصف القاعة، على الجدار المقابل للمدخل. خلع الرجال ملابسهم على طرف، والنساء مع الأطفال على الطرف الآخر.

لم يسبب هذا الانفصال قلق الناس، حيث استمروا يرى بعضُهم بعضاً، وسُمعت نداءات: «مانيا، مانيا، أنتَ هنا؟»، «نعم، نعم، أراك». ونادت إحداهنّ: «ماتيلدا، تعالي مع كيس الحمّام، وافركي ظهري!» اجتاح شعور بالاطمئنان الجميع تقريباً.

سار الأشخاص جادّين يرتدون برانس بين الصفوف، وحافظوا على النظام وقالوا كلمات معقولة مفادها أنه يجب وضع الجوارب والجوارب اللحمية وأغطية القدمين في الأحذية، ويجب أن تتذكر رقم الصفّ ورقم المكان.

صدرت الأصوات هادئة، ومكتومة.

عندما يخلع الرجلُ ملابسه ويصبح عارياً، يقترب من نفسه.

يا رب أصبح الشعر على الصدر أكثر صلابة، وكم من شعرٍ شائب! يا لها من أظافر قدمينِ قبيحة! لا يستخلصُ الرجلُ العاري نتائج وهو ينظر إلى نفسه، سوى نتيجة واحدة: «هذا أنا». إنه يتعرف إلى نفسه، ويعرف «الأنا» - إنها دائماً واحدة. ينظر الولد، وهو يضع ذراعيه النحيلتينِ على أضلاع صدره إلى جسده الضفدعي - «هذا أنا»، وبعد مرور خمسين عاماً، يتعرّفُ، وهو يتفحَّص الأوردةَ الزُّرْق المعقدة على ساقيه، والصدر الدهني المترهل إلى نفسه: «هذا أنا».

لكن صوفيا أوسيبوفنا أدهشها شعورٌ غريب؛ في عُري الأجسام الشابة والهرمة: الصبي الصغير ذو الأنف الكبير، الرقيق، والذي قالت العجوز عنه وهي تهزّ برأسها: «أوه، الرقيق البائس»، والفتاة البالغة من العمر أربعة عشر عاماً، التي نظرت إليها بإعجاب مئات العيون، وأثارت بقبحها وضعفها، احتراماً صلاواتيّاً لدى النساء المسنّات والمسنّين، وقوة ظهور الذكور غزيرةِ الشعر، وسيقان الإناث نافرةِ الأوردة، والأثداء الكبيرة - لقد تَعرّى جسدُ الشعب المخبّأ تحت قطعة قماش. هُيّئ لصوفيا أوسيبوفنا أنها شعرت بهذا، ليس بالنسبة إليها وحدها، بل بالنسبة إلى الشعب: «هذا أنا». كان ذلك هو الجسد العاري للشعب، وفي الوقت نفسه - الشباب والكبار، والحي، والذي ينمو، القوي والمتلاشي، وذو الرأس المجعد والشائب، والجميل والقبيح، والقوي والضعيف. نظرت إلى كتفيها البيضاوين السمينتين، لم يقبّلهما أحد، أمّها فقط فعلت ذلك يوماً ما في طفولتها، ثم حوّلت عينيها بشعور لطيف إلى الصبي. أيُعقل أنها نسيته قبلَ بضع دقائق، واندفعت بغضب مخمور نحوَ رجل قوات الأمن الخاصة. . . : «شابّ يهودي أحمق، وتلميذه الروسي

القديم، وعظا بعدم مقاومة الشر بالعنف. لم يكن عندهم فاشيّة حينها». لم تعد تشعر بالخجل من أن يستيقظ عندها وهي بنت شعورُ الأمومة، وأخذت صوفيا أوسيبوفنا، وهي تنحني، وجهَ دافيد الضيق في راحة يدها العاملة الكبيرة، وبدا لها أنها ضمَّت عينيه الدافئتين في يدها، وقبّلته.

وقالت له:

- نعم، نعم، يا صغيري وصلنا إلى الحمّام.

في شبهِ العتمة بدا لها أن عيني ألكساندرا فلاديميروفنا شابوشنيكوفا قد ومضتا. هل هي على قيد الحياة؟ لقد ودّعا بعضهما بعضاً، ومضت صوفيا أوسيبوفنا، وها هي قد وصلت، ووصلت أيضاً آنيا شتروم...

أرادت زوجة العامل أن تُري زوجها ابنها الصغير العاري، لكن زوجها كان وراء الحاجز، فمدّت الطفل نحوَ صوفيا أوسيبوفنا، نصفَ مغطىً بحفاضات، وقالت بفخر:

- ما إن خلعنا ثيابه، حتى توقف عن البكاء.

وصاح رجل، أطال لحيته السوداء من وراء الحاجز، وكان يرتدي سروالَ منامةٍ ممزّقاً بدلاً من الكلسون الداخلي، ولمعت عيناهُ وأسنانه الذهبيّة الصناعية:

- مانيشكا، هنا يباعُ طقم سباحة، هل تشترينه؟

ابتسمت موسيا بوريسوفنا للنكتة، وهي تُغطي بيدها ثديها، الذي برز من خلال الشق العريض في القميص.

عرفت صوفيا أوسيبوفنا أنّ في هذه الكلمات الذكية الصادرة عن

المحكومين، لم تظهر قوة الروح، ولم يكن الخوف بالنسبة إلى الضعفاء والخجولين، رهيباً إلى تلك الدرجة طالما أنهم يسخرونَ منه.

حوّلت ريفيكا بوخمان، ذات الوجه الرائع المنهك والمضطرب، عينيها الكبيرتين الدافئتين عن الناس، ونفضت جدائلها القوية، وأخفت خاتمها وأقراطها بداخلها.

تملّكتها قوةُ الحياة العمياءُ والقاسيةُ. لقد رفعتها الفاشيّة، على الرغم من أنها كانت غير سعيدة وعاجزة، إلى مستواها - لا شيء يمكن أن يوقفها عن محاولة إنقاذ حياتها. والآن، وهي تخبئ الخاتم، لم تتذكر أن يديها ضغطتا على حنجرة طفلها خشية أن يفضح بُكاؤهُ الملجأ على السقيفة.

ولكن عندما تنهدت ريفيكا بوخمان ببطء، كما لو أن حيواناً قد وصل أخيراً إلى الغابة الآمنة، رأت امرأةً في مريلةٍ تَجُزُّ بمقصّ ضفائرَ موسيا بوريسوفنا. وفي الجوار آلةُ قص شعرٍ تقصُّ شعرَ فتاة، وتيارات الحرير الأسود تتدحرج بصمت إلى الأرضية الخرسانية. كان الشعر منثوراً على الأرض، وبدا كما لو أن النساء كنّ يغسلن أقدامهنّ في ماءٍ مظلم ولامع.

أزاحت الامرأةُ التي ترتدي مريلةً على مهل يدَ ريفيكا التي كانت تغطي بها رأسها، وأمسكت شعرَها من مؤخرة رأسها، ولمست نهاياتُ المقصِّ الخاتمَ المخفي في شعرها، قالت المرأة، من دون أن تتوقف عن العمل وهي تلتقط الخاتم والأقراط المتشابكة في شعرها ببراعة: «كل شيء سيعود إليك»، وهمست بصوت منخفض أكثر: «الألماني هنا، يجب أن تهدأي يا أوزّة». لم تتذكر ريفيكا

وجه المرأة في البرنس، فلم تكن لها عينان ولا شفتان، لا شيء سوى يد صفراء ذات عروق زرقاء.

ظهر على الجانب الآخر من الحاجز رجلٌ ذو شعر رمادي اللون يضعُ نظَّارة، تتوضّع على نحوٍ ملتوٍ على أنفه المائل، بدا وكأنه شيطان مريض، وحزين. نظرَ إلى المقاعد على نحوٍ منفصل، وكتب أحرفاً، بصوتِ رجل اعتاد التحدُّث إلى الصم، وسأل:

- ماما، ماما، كيف حالك؟

أجابت امرأة عجوز صغيرة مجعّدة، عندما سمعت صوت ابنها فجأة وسط طنين مئات الأصوات، أجابت عن السؤال المعتاد وهي تبتسمُ له بلطف:

- جيّد، النبض جيّد، لا انقطاع، لا تقلق.

وقال شخص بجانب صوفيا أوسيبوفنا:

- هذا هو غيلمان، طبيب الأمراض الداخلية المشهور.

وصاحت شابّة عارية، وهي تحمل فتاةً غليظة الشفتين في سروالٍ داخليٍّ أبيض، بصوت عال:

- سيقتلوننا، سيقتلوننا، سيقتلوننا!

قالت النساءُ:

- اصمتي، اصمتي، هدّئوا المرأة المجنونة - ونظرن من حولهنّ، وكان الحراس غير مرئيين. ارتاحت الآذان والعيون في العتمة والصمت. يا لها من نعمة لم تُجرَّب منذ عدّة أشهرٍ، أن تنزعَ عن جسدكَ الملابس المشبعة بالأوساخ والعرق والجوارب النتنة والجوارب اللحميّة وأغطية القدمين. وخرجت النساءُ بعد أن قصّوا لهنَّ شعورهنَّ، وتنهّد الناس بحرية أكبر. نام بعضهم، ونظر آخرون

إلى مواضع التمزّق في ملابسهم، بينما تحدث آخرون بهدوء. قال أحدهم:

- مؤسفٌ أن لا وجود لقطعةٍ من جذع شجرة، كنّا لعبنا «الرمية».

رفع في هذه اللحظات رئيس الفريق الخاصّ، الذي كان يُدخّن سيجاراً، سمّاعة الهاتف، وحمّلَ أمينُ المستودع على عربة ذات مُحرّك علبَ: «تسيكلون» عليها ملصقات حمراء، كما على علب المربّى، ونظر مناوبُ الفريق الخاصّ، الجالس في مكتب العمل إلى الجدار - إنّ مصباح الإشارة الحمراء على وشك أن يُضيء.

وعلا أمر فجأة من مختلفِ نهايات غرفة تبديل الملابس «وقوف!».

هناك حيث انتهت المقاعد، وقف الألمان في بدلات سوداء. دخل الناس ممراً واسعاً، مضاءً بأضواء خافتة موضوعة في السقف، مغطاة بزجاج بيضاوي سميك. هنا كانت مرئية القوة الخرسانة ببطء وسلاسة، التي تستوعب في داخلها التيّار البشري. كان ثمَّة هدوء، فقط حفيفُ خطوات الناس الذين يمشون حفاة.

قالت صوفيا أوسيبوفنا ذات مرة، قبل الحرب، ليفغينيا نيقولايفنا شابوشنيكوفا: «إذا كان من المقدَّر أن يُقتلَ شخصٌ ما على يد شخص آخر، فمن المثير للاهتمام متابعة كيف تقترب طرقُ لقائهما تدريجياً: أولاً، ربما يكونان بعيدين أحدهما عن الآخر على نحوٍ رهيب - مثلاً أنا في باميرا أجمع الورود الألبية، وألتقطُ الصور بكاميرا «كونتاكس»، أمّا هو، موتي، ففي ذلك الوقت على بعد ثمانية آلاف ميل عنّي - يصطاد سمك اليرش على شاطئ النهر، بعد المدرسة. أنا

أجهِّزُ نفسي للذهابِ إلى حفلة موسيقية، وهو في ذلك اليوم يشتري تذكرة من المحطة، ويسافر إلى حماته، ولكن على أي حال، سنلتقي، سيتحقق الأمر». والآن تذكرت صوفيا أوسيبوفنا هذا الحديث الغريب. نظرت إلى السقف: لم تعد تسمع العواصفُ الرعديَّةُ من خلال هذهِ السماكة الخُرسانية فوق رأسها، ولم تعد تشاهد الدلو المقلوبَ للدب الأكبر... كانت تمشي حافية القدمين نحو منعطفِ الممرّ، والممر يزحف نحوها خلسة. سارت الحركة بلا عنف، وبالتأكيد، كنوع من الزحف نصف النائم، كما لو أن كل شيء من حولهم وفي داخلهم قد طُلي بالغليسرين فانزلقوا من تلقاء أنفسهم.

فُتِحَ مدخلُ الغرفة على نحوٍ مفاجئ، تدريجيّاً. انزلق ببطء تيارُ الناس. المرأة العجوز والرجل العجوز، اللذان عاشا معاً خمسينَ عاماً، وانفصلا عند خلع ملابسهما، سارا معاً مرة أخرى، زوجة العامل التي تحمل الطفل المستيقظ، نظرت مع ابنها إلى رؤوس أولئك الذين يمشون، لم ينظرا إلى المكان، بل إلى الزمان. ومض وجه طبيب الأمراض الداخلية، وإلى جواره تماماً تراءت عينا موسيا بوريسوفنا اللطيفة، ونظرةُ ريفيكا بوخمان المليئة بالرعب. وكان من المستحيل كتمُ جمالِ لوسيا سترينتال، أو التقليل من جمال هاتين العينين الصغيرتين، والأنف الذي يتنفّس بسهولة، والعنق، والشفتينِ نصف المفتوحتين، وبجانبها سارَ الرجل المسن لابيدوس بفمه الأزرق المتجعّد. وضمّت صوفيا أوسيبوفنا إليها مرة أخرى كتفي الصبي. هذا اللطف نحو الناس لم يكن من قبل في قلبها.

كان صراخ ريفيكا التي سارت بجانبها مخيفاً على نحوٍ لا يطاق، صرخة إنسان يتحول إلى رماد.

وقف عند مدخل غرفة الغاز، رجل يحملُ قطعة من أنبوبِ مياه في يده. كان يرتدي قميصاً بنياً ذا سحّاب مغلق، وأكمام قصيرة إلى المرفقين. صرخت ريفيكا بوخمان بصورةٍ مرعبة وهي ترى ابتسامته الغامضة، الطفوليّة الثملة المجنونة.

انزلقت عيناه على وجه صوفيا أوسيبوفنا: إنَّهُ هو نفسه، التقيا أخيراً!

شعرت أن أصابعها يجب أن تُمسك بهذه العنق، التي تزحف من البوابة المفتوحة. لكنّه ابتسم ابتسامة قصيرة، ولوّح بسرعة بالعصا. وسُمعت من خلال رنين الأجراس وتكسّر الزجاج: «لا ترضخ للقذارة».

تمكَّنت من الوقوف على قدميها وبخطوة ثقيلة وبطيئة، جنباً إلى جنب مع دافيد، عبرت عتبة الصلب.

49

مرّر دافيد كفه على طول إطار الباب الصلب، وشعر ببرودة سلسة. رأى بقعة ضبابية رمادية فاتحة في المرآة الفولاذية؛ كانت انعكاساً لوجهه. حدّدَ باطنُ قدميه العاريتين أن الأرضية في غرفة الغاز كانت أبرد من الممر، وقد غُسِلت ورشّت بالماء أخيراً.

مشى بخطوات صغيرة بطيئة على طول الصندوق الخرساني ذي السقف المنخفض. لم ير المصابيح، ولكن كان ثمَّةَ ضوء رمادي في الغرفة، كما لو أن الشمس اخترقت السماء المغطاة بالخرسانة، وبدا أن ضوء الحجر ليس للكائنات الحيّة.

تناثر الناسُ الذين كانوا معاً، وفقدَ بعضُهم بعضاً. ومض وجه لوسيا ستيرنتال. كان دافيد قد تأمَّلها في عربةِ القطارِ وشعر بحبّ حلو وحزين. بعد لحظة ظهرت امرأة قصيرة بلا عنق مكان لوسيا. وفوراً في المكان نفسه ظهر رجل مسن ذو عينين زرقاوين ورأسٍ يعلوهُ زغب أبيض. وهنا سَبَحتْ بسرعةٍ نظرةُ رجلٍ شابٍّ واسعةً وثابتةً.

كانت حركة غير عاديّة للناس. كانت حركة غير عادية للكائنات الحية الدنيا. ما من معنىً وهدف لها، لم تظهر إرادة الأحياء فيها. تدفقٌ بشريٌّ إلى الغرفة، ودفعت الأجسامُ الجديدة الأجسامَ التي

قبلها، ودفع الجميعُ جيرانهم، ومن هذه الدفعات الصغيرة التي لا تعد ولا تحصى بالكوع والكتف والبطن، ولدت حركة لا تختلف عن الحركة الجزيئية التي اكتشفها عالم النبات براون.

بدا لدافيد أنهم كانوا يقودونه، وكان عليه أن يتحرك. وصل إلى الجدار، ولمس بساطتهُ الباردة بركبتيه، ثم بصدره، لم يعد هناك طريق. صوفيا أوسيبوفنا وقفت مستندةً إلى الحائط.

نظرا لبضع لحظات إلى الناس يتحركون من الباب. كان البابُ بعيداً، وكان من الممكن أن نفهم ذلك من حيث البياض السميك للأجسام البشرية، المضغوطة والمكثّفة عند المدخل، والتي تتناثر في مساحة غرفة الغاز.

رأى دافيد وجوه الناس. صباحاً رأى بمجرد تفريغ العَرَبة ظُهورَهم، والآن يبدو أن القطار كله يتحرك نحوه وجهاً لوجه. أصبحت صوفيا أوسيبوفنا فجأة غير عادية؛ صدر صوتُها في المكان الخرساني بطريقة مختلفة، تغيّرت كلها بعد دخولها إلى الغرفة. عندما قالت: «تمسّك بي بقوّة، يا فتى»، شعرَ أنَّها تخشى أن يفلت منها، كي لا تبقى وحيدة. لكنهما لم يتمكنا الثبات عند الجدار، وانفصلا عنه وأخذا يتحركان بخطوات صغيرة. شعر دافيد أنه يتحرّك أسرع من صوفيا أوسيبوفنا. يدها ضغطت على يده، وشدّته إليها. لكن قوّة خفيفة أخذت تبعده تدريجياً، وبدأت أصابعُ صوفيا أوسيبوفنا ترتخي.

أصبح الحشدُ في الغرفة أكثر كثافة، وأصبحت الحركاتُ أبطأ وخطوات الناس أقصر. لا أحد كان يقود الحركة في الصندوق الخرساني. أصبح الألمان غير مبالين سواء وقف الناس بلا حراك في غرفة الغاز أو قاموا بتعرّجات من دون معنى أو أنصاف دوائر. وخطا

الولد العاري خطواتٍ صغيرةً جداً لا معنى لها. توقف التواء حركة جسمه الصغير الخفيف عن التوافق مع التواء حركة الجسم الكبير والثقيل لصوفيا أوسيبوفنا، وانفصلا الآن. ما كان عليها أن تتمسكَ بيده، وكان ينبغي أن تفعل تماماً مثل هاتين الامرأتين - الأم وابنتها - على نحوٍ حميمي، وعناد حبّ شرس، تضغط الخد على الخد، والصدر على الصدر، ليصبحا جسماً واحداً لا ينفصل.

أصبح هناك المزيد والمزيد من الناس، وتراجعت الحركة الجزيئية، حسب الكثافة والسماكة عن نمط ثابت أفوغادرو[1]. بعد أن فقد يد صوفيا أوسيبوفنا، صرخ الصبي. ولكن صوفيا أوسيبوفنا كانت قد انتقلت إلى الماضي. كان هناك الحاضر الآن فقط. تنفست أفواه الناس بالقرب منه، وأجسادهم تلامست، وبدأت أفكارُهم ومشاعرهم تتوحّد، وتتشابك.

أصبحَ دافيد في ذلك الجزء من الدوران، الذي انعكس عن الجدار، وعاد نحو الباب. رأى دافيد ثلاثةَ أشخاص يتحدون بعضهم ببعض: رجلان وامرأة عجوز، هي كانت تحمي الأطفال، وهما ساندا الأم. وفجأة نشأت حركة جديدة بطريقة أخرى إلى جانب دافيد. كان الضجيج جديداً أيضاً، اختلف عن الحفيف والتمتمة.

- ابتعدوا عن الطريق!- شق رجلٌ من خلال كتلة الأجساد الواحدة، طريقه بيدينِ قويتين متوترتين ورقبة ثخينة ورأس منحنٍ. لقد أراد الخروج من الإيقاع الخرساني المنوّم، فقام جسده بأعمال شغب

---

(1) ثابت أفوغادرو (NA) (نسبة إلى العالم الإيطالي أميديو أفوغادرو) هو ثابت كبير يستخدم في الكيمياء والفيزياء. وهو عدد الذرات المحتواة في 12 غرام من الكربون-12. (المترجمان).

مثل جسم سمكة على طاولة المطبخ، عمياء، من دون تفكير. وسرعان ما صمت واختنق وبدأ يبدّل رجليه، ويفعل ما يفعله الجميع.

تغيرت منحنيات الحركة، بسبب الانتهاك الذي قام به، وأصبح دافيد بجانب صوفيا أوسيبوفنا من جديد. عانقت الصبي بتلك القوة التي اكتشفها العاملون في معسكرات الإبادة وقاسوها - عندما قاموا بتفريغ غرفة الغاز، ولم يحاولوا مطلقاً فصل جثث الأشخاص المقربين الذين احتضنَ بعضهم بعضاً.

سُمع صراخ من جهة الباب. عندما رأى الناس، الكتلة البشرية الكثيفة تملأ غرفة الغاز، رفضوا عبور الأبواب المفتوحة.

رأى دافيد كيف أغلق الباب: وكأنّ مغناطيساً جذب حديد الباب، فاقترب بخفّة وسلاسة من حديد الإطار، ثم اندمج به، وأصبحا واحداً.

لاحظ دافيد أن شيئاً ما حيّاً كان يتحرك في الجزء العلوي من الجدار، خلف شبكة معدنية مربعة، بدا له فأراً رمادياً، لكن دافيد فهم أن مروحة أقلعت. وشُعر برائحة حلوة ضعيفة.

هدأ حفيف الخطوات، وسُمعت أحياناً كلمات مبهمة، وأنين، وسُمع صراخ. لم يعد الكلام يخدم الناس، كان الفعل لا معنى له - لقد كان موجهاً نحو المستقبل، لكن لم يكن ثمّة مستقبل في غرفة الغاز. حركة رأس دافيد وعنقه لم تولّد رغبة عند صوفيا أوسيبوفنا للنظر إلى المكان الذي كان ينظر إليه كائن حي آخر.

عيناها، كانت تقرأ هوميروس، وجريدة «إزفيستيا»، وهاكلبري فين، ومين ريد، ومنطق هيجل، وترى أهل الخير والشر، وترى

الأوز على مروج كورسك الخضراء، والنجوم في تلسكوب بولكوفو، وبريق الأدوات الفولاذية الجراحية، والجوكوندا في متحف اللوفر، لم تعد ثمّة حاجة إلى البندورة واللفت على رفوف السوق، ولا اللون الأزرق لبحيرة إسّيك كول. ولو أعماها شخصٌ ما في هذه اللحظة لما شعرت بالخسارة.

كانت تتنفّس، لكن التنفّسَ أصبحَ عملاً شاقاً، خارت قواها، وهي تحاول التنفس. أرادت التركيز على الفكرة الأخيرة وهي تسمع رنين الأجراس الصماء. لكن الفكرة لم تولد. وقفت صوفيا أوسيبوفنا عمياء، من دون أن تغلق عينيها التي لا ترى.

ملأتها حركة الطفل بالشفقة. كان شعورها نحو الفتى بسيطاً جداً؛ لم تكن بحاجة إلى الكلمات والعينين. كان الصبيُّ نصفُ الميت يتنفّس، لكن الهواء الذي أعطي له لم يطل الحياة، بل كان يختطفها. استدارَ رأسُه، وكان ما يزال يريد أن يراقب. رأى أولئك الذين استقروا على الأرض، ورأى أفواهاً مفتوحةً بلا أسنان، وأفواهاً ذات أسنان بيضاء وذهبية، وشاهدَ مجرى دم رفيعاً ينفذ من فتحة الأنف. رأى عيوناً غريبة تحدِّقُ في الكاميرا من خلال الزجاج. التقت عينا روز التأمليتان للحظة بعيني دافيد. كان بحاجة إلى صوت، ليسأل العمّة سونيا عن عيون الذئاب هذه. وكان بحاجة إلى أفكاره. لقد خطا في هذا **العالم** خطوات قليلة، ورأى آثارَ كعوب الأطفال العارية على أرض حارّة ومتربة، عاشت أمّه في موسكو، ونظر القمر إلى الأسفل، ومن الأسفل نظرت إليه العيون، وكان إبريق الشاي يغلي على موقد الغاز؛ **والعالم** حيث تركض الدجاجة مقطوعة الرأس؛ العالم حيثُ الضفادع التي أجبرها على

الرقص، ممسكاً بقائمتيها الأماميتين، وحليب الصباح - هذا العالم استمرَّ يشغله.

يدانِ قويّتان وحاميتان ضمّتا دافيد طوال الوقت، لم يفهم الصبي أنّ الظلام حلّ في عينيه، وتجوّف وفراغ في قلبه، مللٌ وعمى في دماغه. لقد قتلوه، لم يعد موجوداً.

أحسَّت صوفيا أوسيبوفنا ليفينتون كيفَ تسجّى جسدُ الصبي في يديها. تخلَّفتْ مرة أخرى عنه. الطيورُ والفئرانُ - تموت من فورها في الفتحات الموجودة تحت الأرض بالهواء المُسَمَّمِ بأجهزةِ ومؤشرات الغاز -، لديها أجسادٌ صغيرة، والصبي بجسمه الصغير، الذي يشبه جسم طيرٍ ضئيلٍ، مضى قبلها.

فكّرت - «لقد أصبحتُ أمّاً».

كانت هذه فكرتها الأخيرة.

في قلبها كانتِ الحياة ما تزال: لقد انقبضت وتألّمت وشعرت بالأسف عليكم أنتم الأحياء والموتى؛ أصابها الغثيان، وضمّت صوفيا أوسيبوفنا دافيد، الدميةَ، إليها، وأصبحت ميّتةً، دميةً.

50

يموتُ الإنسانُ وينتقل من عالم الحرية إلى مملكة العبودية. الحياة هي الحرية، وبالتالي فالموت هو التدميرُ التدريجي للحرية: في البدايةِ يضعفُ الوعي ثم يتلاشى. تستمر عمليات الحياة لبعض الوقت في جسم الكائن الحيّ ذي الوعي الذي يخفت - تحدث الدورة الدموية والتنفس والتمثيل الغذائي. لكن يبقى التراجع الحتمي نحو العبودية - ينطفئ الوعي، وتنطفئ نار الحرية.

تنطفئ النجوم في سماء الليل، ويختفي درب التبانة، وتنطفئ الشمس، وينطفئ كوكب الزهرة، والمريخ، وكوكب المشتري، وتتجمّد المحيطات، وتتجمد ملايين الأوراق، وتتجمّد الرياح، وتفقد الزهور اللون والرائحة، ويختفي الخبز، ويختفي الماء، برودةٌ واحتقانٌ في الهواء. ويختفي الكون الموجود في الإنسان. إنّ هذا الكون يشبه على نحوٍ لافت للنظر، الكون الموجود خارج إرادة الإنسان. هذا الكون يشبه على نحوٍ لافت للنظر، الكون الذي لا يزال ينعكس في ملايين الرؤوس الحية. لكن هذا الكون كان مذهلاً على نحوٍ خاص لأنَّ فيهِ ما يميزُ ضجيجَ محيطه، ورائحةَ أزهاره، وحفيفَ أوراق أشجاره، وظلال الغرانيت، وحزن حقوله الخريفية،

من كل ما وُجد ويوجدُ في البشر، ومما هو موجود إلى الأبد خارج البشر. في تَفَرُّدِهِ وفي وحدةِ روح الحياة المنفصلة - تكمن الحريّة. إن انعكاس الكون في العقل البشري هو أساس القوة البشرية، لكن السعادة والحرية، تصبحانِ أعلى معاني الحياة، عندما يمسي الشخصُ كما لو أنَّه العالم، ما من أحدٍ وفي أيٍّ وقتٍ هو فردٌ صمد لا يتكرَّرُ في الزمنِ اللانهائي. إنّه يختبر فحسب سعادةَ الحريةِ والخيرَ، حينما يجدُ في الآخرين ما وجده في نفسه.

51

أُرسِلَ السائقُ سيمينوف، الذي أُسرَ مع موستوفسكي وصوفيا أوسيبوفنا ليفينتون، بعد عشرة أسابيع من جوعٍ معسكر اعتقالٍ في منطقة الجبهة، ومجموعةً كبيرةً من جنود الجيش الأحمر المأسورين، في اتجاه الحدود الغربية.

لم يُضرب البتّة في معسكر منطقة الجبهة، بقبضة يد، أو عقب بندقية، أو حذاء.

كان ثمّة مجاعة في المخيم.

المياهُ تخرّ في القناة، وتتدفّق، وتتنهّد، وتصخب بالقرب من الشاطئ، وهنا ترعدُ المياهُ وتهدُرُ، وتسحبُ الكتلَ الحجريّة مثل القش، وتندفعُ الجذوعُ الضخمةُ بسرعة، ويشعرُ القلبُ بالبرودة عند النظرِ إلى النهر يهزُّ الصخور، ويضغطُها وسط الضفاف الضيقة، لكأنّها ليست مياهاً، بل كتل ثقيلة من الرصاص الشفّاف؛ تُحيي وتخيفُ وتشبُّ إلى أعلى.

الجوعُ، مثلُ الماء، مرتبطٌ على نحوٍ مُستمرٍّ وطبيعيٍّ بالحياة، وفجأة يتحوَّلُ إلى قوةٍ تدمّرُ الجسمَ وتكسِّرُ وتشوّه الروح، وتبيد الملايين من الكتل الحيّة.

الجوعُ والصقيعُ والانهيارات الثلجيّةُ، جفاف الغابات والسهوب، والفيضانات، والأوبئة التي تقضي على قطعان المواشي والخيول، وتقتل الذئاب والطيور والثعالب والنحل البري والجمال وأفراخ الطير والأفاعي. ويصبح الناس خلال الكوارث الطبيعية في معاناتهم مساوين للحيوانات.

إن الدولة قادرة بإرادتها على أن تضغط على نحوٍ مقصودٍ، وقسري، وتُحَطِّم سدودَ الحياة، وحينها، مثلها مثل المياه بين الشواطئ الضيقة، تُمسي القوة الرهيبة للجوع تهزّ، وتشوّه، وتكسر، وتقضي على الشخص، والقبيلة، والشعب.

يعصرُ الجوعُ الجزيءَ بعد الجزيء والبروتين والدهون من خلايا الجسم، والجوع يخففُ العظام، ويلوي سيقان الأطفال المتهالكة، ويخفف الدم، ويجعل الرأس يدور، ويجفف العضلات، ويأكل الأنسجة العصبية، الجوع يضطهد الروح، ويطرد الفرح والإيمان، ويدمر قوة التفكير، ويولّد الخضوع، والدناءة، والقسوة، واليأس واللامبالاة.

والإنسانيةُ تموت أحياناً تماماً في الإنسان، ويصبح المخلوقُ الجائع قادراً على القتل وأكل الجثث وأكل لحوم البشر.

الدولةُ قادرةٌ على بناء سد يفصل القمحَ والجاودار عن أولئك الذين يزرعونه، وبالتالي تُسببُ آفة فظيعة مماثلة للآفة التي قتلت الملايين من سكان لينينغراد خلال الحصار النازي، وأسفرت عن مقتل الملايين من أسرى الحرب في حظائر معسكرات الاعتقال الهتلرية.

الطعام! الغذاء! الأكل! الأغذية! التزوّد وإعادة التزوّد! الأكل

والاجترار! الخبز والشواء! التغذيةُ؛ الدسمة، واللحمية، وطعام تخفيف الوزن، والمائدة الفقيرة، والمائدة الغنية والسخية، والأنيقة، والبسيطة، والريفية! الأطباق. والعلف. العلف. . .

قشور البطاطا، والكلاب، والضفادع، والقواقع، وأوراق الملفوف الفاسدة، والشوندر الفاسد، ولحم الخنزير المتعفّن، ولحم القطط، ولحم الغربان، والحبوب المحترقة النّيْئة، وجلود أحزمة الخصر المجانية، وعُرى الأحذية، والغراء، ومياه الغسيل المسكوبة من مطابخ الضباط - كل هذا علف. هذا ما يتسرَّبُ من خلال السدّ.

يحصلون على هذا الطعام، ويقتسمونه ويتبادلونه فيما بينهم، ويسرقونه بعضهم من بعض.

في اليوم الحادي عشر من الرحلة، عندما كان القطار في محطة خوتور ميخائيلوفسكي، سحبَ حرّاس الأمن سيمينوف، وقد سقط في حالة غيبوبة، أخرجوه من العربة وسلّموه إلى سلطات المحطة.

حدَّقَ القائدُ الألماني المسنُّ عدّة لحظاتٍ برجل الجيش الأحمر نصف الميت الجالسِ بجانب جدار الساراي المحترق.

ثمَّ قال للمترجم:

- دعوه يزحف إلى القرية، سيموتُ في الزنزانة خلال يوم واحد، وهو لا يستحق إطلاق النار عليه.

تجوّل سيمينوف في القرية الواقعة بجانب المحطة.

لم يسمح له بدخول الكوخ الأول.

أجابه صوت امرأة عجوز من خلف الباب: «لا شيء عندنا، امضِ في طريقك».

وطرق على بابِ الكوخ الثاني فترة طويلة، لم يجب أحد. إما أن أحداً لم يكن في الكوخ، وإمّا إنَّه مغلق من الداخل.

البابُ في الكوخ الثالث كان نصفَ مفتوحٍ، فدخل سيمينوف المظلة ولم يجبه أحد، ثمَّ دخل الغرفة.

طالَعَهُ دفء من الداخل، شعرَ بالدوار، فجلسَ على مقعد بجانب الباب.

تنفّس سيمينوف بصعوبةٍ وبسرعة، ونظر حوله إلى الجدران البيض والأيقونات والطاولة والموقد. كل هذا أدهشه بعد حظائر المخيم.

ومضَ ظلٌّ في النافذة، ودخلت امرأة الكوخ، فرأت سيمينوف وصرخت:

- من أنت؟

لم يجب. كان واضحاً من هو.

في ذلكَ اليوم ليست القوى التي لا ترحم للدول الجبارة، من قرّر حياته ومصيره، بل شخص، هو العجوز خريستيا تشونياك.

حدقت الشمس من خلالِ الغيوم الرمادية بأرض الحرب، ومشتِ الريح فوقَ الخنادق والمخابئ، وفوق أسلاك المعسكر الشائكة، وفوق المحاكم والإدارات الخاصة - صفرت تحت نوافذ الأكواخ.

قدّمت المرأة لسيمينوف كوباً من الحليب، فبدأ يشرب بشغف وصعوبة في البلع.

وسرعان ما أخذ يتقيّأ. عذّبه القيء، وبكت عيناه، وكما لو أنه انتهى، استنشقَ الهواء مُعوِلاً، وتقيأ مراراً وتكراراً.

حاولَ الامتناع عن التقيؤ، ولم يكن في رأسه سوى فكرة واحدة - ستطردهُ صاحبة الكوخ، هو النجس والقذر.

رأى بعينين ممتلئتين بالدم، أنها أحضرت قطعة قماش، وبدأت تمسح الأرض.

أرادَ أن يخبرها أنَّه سينظف كل شيء، ويغسله، وأن عليها أن تبقيه ولا تطرده. لكنَّه تمتم فحسب، وأشار بأصابع مرتجفة.

مرّ الوقت. دخلت المرأة العجوز الكوخ أحياناً وخرجت منه أحياناً أخرى. ولم تطرد سيمينوف. لعلَّها طلبت من الجارة إحضار دورية ألمانية، واستدعاء الشرطة؟

وضعت المضيفةُ قِدراً معدنيّةً مملوءةً بالماء في الفرن. أصبحَ الجو حارّاً، وكان البخار يتصاعدُ فوق الماء. بدا وجه المرأة العجوز عبوساً غير لطيف.

فكّر - «سوف تطردني وستُطهّر الكوخ ورائي».

أخرجت المرأةُ من الصندوق ثياباً داخليةً، وسروالاً. وساعدت سيمينوف على خلع ملابسه، وطوت ثيابه الداخلية في صرّة. شعر برائحة جسده القذر المتشرّب بولاً، وثيابه الداخلية المشبعةِ برازاً دموياً.

ساعدت سيمينوف على الجلوس في الحوض الصغير، وشعر جسدُه، الذي أكله القمل، بلمسة كفّيها الخشنة القوية، وبالماء الدافئ والصابون يتدفق على كتفيه وصدره. شَرقَ فجأة، ارتجف، وصرخ وهو يئنّ ويبتلع المخاط: «ماما... أمّاه... أمّاه».

نشّفت عينيه الدامعتين وشعرَه والكتفين بمنشفة قماش رمادية.

أمسكت سيمينوف من الإبطين، وأجلسته على المقعد، ثم انحنت، ونشّفت ساقيه اللتين تشبهان العصي، وألبسته قميصاً وثياباً داخليةً، وربطت الأزرار البيض التي خاطتها أمّها.

أفرغت المياه السوداء القذرة من الحوض في الدلو وحملته خارجَ الكوخ.

فرشت جلد غنمٍ فوقَ الموقد، وغطّته بغطاء قماشيٍّ مخطط، وأخذت وسادة كبيرة من السرير ووضعتها تحت الرأس.

ثم رفعت سيمينوف بسهولة، كما ترفعُ دجاجة، وساعدته في الصعود إلى سطح الموقد.

وكان سيميونوف في حالةِ نصفِ هذيان. أحسَّ جسدُه بتغيّر لا يُصدَّق:

توقفت عن العمل رغبةُ العالم الذي لا يرحم بالقضاء على الماشية المُعذّبة.

لكنّه لم يعانِ في معسكرِ الاعتقال ولا في القطار ما يُعانيه الآن: فقد وهنت رجلاه، وتألّمت أصابعه، وتكسّرت عظامه، وأخذ يشعر بالغثيان، وكان رأسُه طافحاً بالعصيدة النّيْئة السوداء، وأحياناً يُصبحُ خفيفاً وفارغاً فجأة، بدأ يشعر بالدوران، وبالحكّة في الجفون. ولبضع دقائق شعرَ بألمٍ في القلب، وتجمّد، وكان داخله ممتلئاً بالدخان، وهُيّئ له أنّ الموت قد وصل.

مرّت أربعة أيام. نزل سيمينوف عن سطحِ الموقد، وبدأ يتجوّل في الغرفة. أدهشه أنّ العالم مملوء بالطعام. لم يكن في حياة المخيم سوى اللفت الفاسد. وبدا لهُ يومها أن لا شيءَ على سطح الأرض

سوى رواسب حساء - حساء المعسكر، رواسب الحساء الذي تفوح منه رائحة العفن.

والآن رأى القمحَ والبطاطا والملفوف وشحم الخنزير، وسمع صياح الديك.

تراءى لهُ، كطفل، أن ثمّةَ ساحرين اثنين في العالم: طيّبٌ وشرّيرٌ، وكان خائفاً من أن يتغلبَ ساحر الشرّ على الساحر الطيّب مرة أخرى، وسيختفي العالم الدافئ الطيب المُتخم، وسيعلك مرة أخرى قطعة من حزام خصره بأسنانه.

شغلته الطاحونةُ اليدويَّةُ، حيث كانت إنتاجيتها مزرية - ابتلّ جبينه حتى تمكّن من طحن بضع حفنات من الدقيق الرمادي الطازج.

نظّف سيمينوف بالمبرد والورقة الصخرية ناقل الحركة، وشدّ البرغي الذي ربط الآليّة بالرحى المصنوعة من الأحجار المسطحة. لقد فعل كل شيء كما كان من المفترض أن يفعله الميكانيكي المسكوفي المختص، وصَحَّحَ العمل البدائي الذي قام به عامل الصيانة في القرية. لكنّ الطاحونة بعدَ ذلك عملت على نحوٍ أسوأ.

استلقى سيمينوف فوق الموقد وفكّر بطريقة أفضل لطحن القمح.

قام في الصباح بتفكيك الطاحونة مرة أخرى، وأدخل عجلات وأجزاء من ساعة الجدار القديمة في العملية.

- يا عمة كريستيا، انظري - قال بتباهٍ وأشار كيف يعمل ناقل الحركة المزدوج الذي رَكَّبَهُ.

لم يتحدثا تقريباً أحدهما إلى الآخر. وهي لم تحدثه عن زوجها الذي توفي عام 1930، وعن أبنائها المفقودين، وعن ابنتها، التي

غادرت إلى بريلوكي ونسيت والدتها. لم تسأله كيف أُسِرَ؟ من أين أتى؟ ريفي هو أم ابن مدينة؟

خشيَ الخروجَ من الكوخ، نظر من النافذة فترةً طويلة قبل خروجهِ إلى الفناء، ودائماً ما كان يسرعُ عائداً إلى الكوخ. كان يجفل إذا انطبق البابُ وأصدرَ صوتاً عالياً، أو سقطَ كوبٌ على الأرض، ويهُيّأ له أن الخيرَ قد انتهى، وتوقفت قوة كريستيا شونياك العجوز عن التأثير.

عندما تزورُ الجارة كوخَ كريستيا، يصعد سيمينوف إلى سطح الموقد، ويرقد، محاولاً ألّا ينشق، أو يعطس. لكن الجيرانَ نادراً ما كانوا يأتون.

الألمان ليسوا في القرية؛ كانوا في منطقة السكن التابع للسكك الحديدية بالقرب من المحطة.

لم تكن فكرةُ أنْ يعيشَ سيمينوف في دفء وسلام، وهناك حرب تدور حوله، تثير الندم عنده، فقد كان خائفاً جدا من أن يعود إلى عالم المعسكرات والجوع مرة أخرى.

عندما كان يستيقظُ صباحاً؛ كان يخشى أن يفتحَ مقلتيه؛ لعلَّ السحر قد اختفى خلال الليل وسيرى من جديد أسلاك المعسكر، والحرّاس، ويسمع رنين القصعة الفارغة.

كان يتابعُ استلقاءَه بعينين مغلقتين، يُنصتُ فيما إذا كانت كريستيا قد اختفت.

لم يفكر إلا قليلاً في تلكَ الأوقاتِ القريبةِ الماضية، ولم يتذكر المفوض كريموف، وستالينغراد، والمعسكر الألماني، والقطار. لكنَّهُ كان كلَّ ليلة يصرخ ويبكي في نومه.

ذاتَ ليلةٍ نزل عن سطحِ الموقد وزحف على الأرض، واختبأ تحت السرير، ونام هناك حتى الصباح. وفي الصباح لم يستطع أن يتذكَّرَ ما تخيّله في المنام.

رأى عدّة مرات كيف أن الشاحنات المحملة بالبطاطا وأكياس الحبوب تسير في شارع القرية، ورأى ذات مرّة سيارة «أوبّل - كابيتان» صغيرة. ذات محرِّكٍ قويٍّ، لا تنزلق عجلاتُها في طين القرية.

تجمّد قلبه عندما تخيّل أنّه سيسمع الآن أصواتاً تلثغ في الأروقة، وتدخل دورية ألمانية إلى الكوخ.

سأل العمة كريستيا عن الألمان.

أجابته[1]:

- هناك ألمان جيدون. كان عندي، عندما مرّ خطُّ الجبهة من هنا، رجلان: الأول طالب، والآخر فنان. لعبا مع الأطفال. وعرفتُ سائقاً كان يمرُّ بي، يجلب معه النبيذ. وعندما يعود من السفر يحضر نبيذاً، وزيتاً، ودهن خنزير. وعلمتُ أنّه يُحضر هذه الأشياء من الخارج. يجلس إلى الطاولة. ويقدم الخمرَ لي، كان جيداً، كان يحضر الحطب، وأحياناً يجلب كيساً من الدقيق. لكنَّ هناك ألماناً يقتلون الأطفال، لقد قتلوا جدّ جارتنا، وهؤلاء لا ينظرونَ إلينا كبشر، يوسّخون في الكوخ، ويمشون عراة أمام النساء. قريتنا هنا من قرى التزلج، وعدد رجال الشرطة فيها يفوق عدد الناس.

قال سيمينوف:

---

(1) المقطع التالي باللغةِ الأوكرانيّة، وهي لغة صاحبة البيت العجوز كريستيا.

- ليس عندنا وحوش كهؤلاء الذين عند الألمان - ثم سأل - ألست خائفة يا عمة كريستيا، أنني أعيش عندك؟

هزّت رأسها وقالت إنَّ في القرية كثيراً من السجناء الذين أُطلقوا إلى منازلهم، ولكنَّهم في الحقيقة من الأوكرانيين الذين عادوا إلى قراهم الأصلية. ويمكنها أن تقول إن سيمينوف هو ابن أختها، التي غادرت إلى روسيا مع زوجها.

أصبح سيمينوف يعرف وجوه الجيران، وعرف المرأة العجوز التي لم تسمح له بدخول منزلها في اليوم الأول. كان يعلم أنّ الفتيات يذهبن مساء إلى السينما في المحطة، وأنَّ «الأوركسترا تعزف» في أيّام السبت وتُنظَّمُ حفلاتُ رقص. كان مهتماً كثيراً بالأفلام التي يعرضها الألمان في السينما. لكن كبار السن الذين جاؤوا إلى العمة كريستيا، لم يشاهدوا تلكَ الأفلام، ولم يكن هناك من يسأله.

أحضر أحد الجيران رسالة من ابنتها التي جُنّدت وسافرت إلى ألمانيا. لم يفهم سيمينوف بعض المواضعِ في الرسالة، وقد شرحوها له. كتبت الفتاة: «هبطَ فانكا وغريشكا بالطائرة: «وتكسّر الزجاج». خدم فانكا وغريشكا في سلاح الطيران. هذا يعني أن الطائرات السوفييتية أغارت على المدينة الألمانية.

كتبت الفتاة في مكان آخر: «الطائرات أغارت في بداية الحرب، وكانت هناك غارات قوية على محطة باخماخ».

جاء في ذلك المساء بالتحديد، رجل عجوز طويل القامة إلى كريستينيا. نظر حول سيمينوف وقال بلغة روسية بحتة:

- من أين، هذا البطل؟

أجاب سيمينوف:

- أنا أسير.

- نحن جميعاً أسرى.

خدم في الجيش أثناء حكم نيقولاي، وكان مدفعياً، وبذاكرة مذهلة أخذ يكرّر إيعازات المدفعية أمام سيمينوف. كرّر الأوامر بصوت أجشّ، باللغة الروسية، وأدّى الأوامر بصوت عال، صوت شاب بلكنة أوكرانية، تذكر على ما يبدو تجويدات صوت قائده التي ردّدها قبل سنوات عديدة.

ثم أخذ يشتم الألمان.

قال لسيمينوف:

- في البداية، كان الناسُ يأملون أن «يُلغي» الألمان الكولخوزات، لكن اتضح أنهم عرفوا ما للمزارع الجماعية من أهميّةٍ بالنسبة إليهم. أسّسوا مزارع خمسة أكواخ، وعشرة أكواخ، بالروابط والفرق نفسها. وقالت العمّة كريستينيا بصوت طويل حزين:

- أوه، الكولخوزات، الكولخوزات!

قال سيمينوف:

- الكولخوزات، عمل معروف، لدينا كولخوزات في كل مكان.

وهنا قالت العجوز تشونياك:

- اصمت. أنت تعرف كيف وصلت في العربةِ إليَّ؟ هكذا كانت أوكرانيا كلّها في العربات في الثلاثينيات. أخذوا كل شيء، حتى القرّاص كلّه أكلوه، واستولوا على الأرض... وأخذوا القمح حتى آخر حبة. مات زوجي، وتعذّبت وحدي! تورّمتُ، وفقدت صوتي، ولم أستطع المشي.

دهش سيمينوف من أن العجوز كريستينيا جاعت مثله. بدا له أن الجوع، والوباء عاجزين أمام صاحبة الكوخ الطيّبة.

سألها:

- ربّما كنتم من الكولاك[1].

- أيّ كولاك؟ ضاع الشعب كلّه، الوضع كان أسوأ مما في الحرب.

سأله العجوز:

- هل أنت ريفيّ؟

أجاب سيمينوف:

- لا أنا من مواليد موسكو، وأبي من مواليد موسكو.

قال الرجل العجوز متفاخراً:

- إذاً، لو كنت هنا أثناءَ التأميم لهلكتَ يا بن المدينة، واختفيت مباشرة. لماذا بقيت أنا على قيد الحياة في ظنِّكَ؟ أنا أفهم الطبيعة. هل تعتقد أن في إمكانك معرفة البلوط، وورق الزيزفون، والقرّاص، والتّم؟ أيمكنك تحديد هذه الأشياء مباشرة؟ أنا أعرف ستة وخمسين نوعاً من النبات يمكن أن يأكلها المرء. لذلك بقيت على قيد الحياة. كان قد حلّ الربيع للتو، ولا توجد ورقة حتى ذلك الوقت، بدأتُ أحفر على الجذور في الأرض. أنا أعرف كل شيء، يا أخي، كل جذر، ولحاء وزهر، وأعرف كلّ عشبة. البقرة والخروف والحصان

---

(1) الفلاحون أو المزارعون، ولكنَّ الكلمة أصبحت مُصطلحاً يعني أولئكَ الذينَ رفضوا الكولخوزات. (م).

- كل ما يخطر ببالك يمكن أن يموت من الجوع، وأنا لن أختفي، فأنا أفضلُ الحيوانات العاشبة.

أعادت كريستيا السؤال ببطء:

- أنت من سكان موسكو؟ أنا لم أعرف أنّك موسكوفي.

مضى الجار، واضطجعَ سيمينوف للنوم، أمّا كريستيا فجلست، وأسندت عظام وجنتها إلى يديها ونظرت عبر النافذة الليلية السوداء.

كان المحصولُ غنياً في ذلك العام. وقف القمحُ جداراً كثيفاً، عالياً، وصل إلى كتف زوجها فاسيلي، وغطّى رأس كريستيا.

خيّم أنينٌ هادئٌ طويلٌ على القرية، وزحفت هياكل عظمية حيّة، وأطفال على الأرض، كان يُسمع نشيجهم الخافت؛ تجوّل رجال بأقدامٍ رطبةٍ في الفناءات، بلهاثٍ جائعٍ عاجز. بحثت النساء عن شيء يطبخنَه للطعام - أُكِلَ كل شيء، أو طُبخ: القراص، والبلوط، وأوراق الزيزفون، المرميّة خلف الحوافر، والعظام، والقرون، وجلود الغنم غير المنتوفة... أمّا الرجال الذين أتوا من المدن، فقد ساروا عبر الفناءات، بجانب الموتى وأنصافِ الموتى، وفتحوا الأرضيات، وحفروا الحفر في الحظائر، وغرزوا القضبان الحديدية في الأرض، وفتشوا، وصادروا حبوب الفلاحين.

هَمَدَ في أحد أيام الصيف الخانقة فاسيلي تشونياك، لم يعد يتنفَّس. ودخل في هذه الساعة رجالٌ قادمون من المدن، وتحدث أحدهم؛ ذو العينين الزرقاوين، قال ساخراً باللكنة الروسية، تماماً مثل «لكنة» سيمينوف، وهو يقترب من الميّت:

- اتكأ الفلّاح، لم يرحم نفسه.

تنهّدت كريستيا، ورسمت إشارة الصليب وأخذت تُرتّب السرير.

52

اعتقد شتروم أن دائرة ضيّقة من علماء الفيزياء النظرية فحسب ستُقَدِّرُ عملَه. لكن اتضح أنَّ الأمر ليس كذلك. ليس علماء الفيزياء المعروفون فحسب، بل اتصلَ به أخيراً أيضاً علماءُ الرياضيات والكيمياء وطلب بعضُهم توضيحات - فقد كانت الاستنتاجات الرياضيَّة صعبة.

حضر إلى المعهد مندوبون عن مجتمع الطلاب، وطلبوا إليه تقديمَ تقريرٍ لطلاب الفيزياء والرياضيات، في السنوات المتقدمة. حاضَرَ مرتين في الأكاديمية. وأخبره ماركوف و سافوستيانوف أن عمله قيد المناقشة في كثير من مختبرات المعاهد.

سمعت لودميلا نيقولايفنا في متجر ذي أسعار محدودة، كيف سألت زوجة أحد العلماء امرأةً أخرى: «وراء من تقفين في الطابور؟» فأجابت تلك: «هنا خلف زوجة شتروم»، وعَقَّبت السائلة: «ذلك نفسه؟».

لم يُظهر فيكتور بافلوفيتش للآخرين أن الاهتمام الواسع بعمله يسرّه. لكنه في المُقابل لم يكن غير مبالٍ بالمجد. لقد رُشّح عملُه في مجلس المعهد العلمي لنيلِ جائزة ستالين. شتروم لم يذهب إلى ذلكَ

الاجتماع، ولكنهُ نظر طوال الوقت في المساء إلى الهاتف - انتظر اتصالاً من سوكولوف. لكنَّ أوّل من اتصل به بعد الاجتماع هو سافوستيانوف.

إنّ سافوستيانوف الساخرُ عادة، بل المشكّك قالَ لهُ الآن على غيرِ عادَتِهِ:

- إنه انتصار، - وكرَّرَ عبارتَه - انتصار حقيقي!

تحدَّثَ عن خطاب الأكاديمي براسولوف. قال الرجل العجوز إنه منذ زمن صديقه الراحل ليبيديف، الذي درسَ الضغطَ الضوئيَّ، لم يولد أي عمل بهذه الأهمية داخل جدران معهد الفيزياء.

تحدث البروفيسور سفيتشين عن الطريقة الرياضية لشتروم، وأثبت أن الطريقة نفسها تنطوي على عناصر مبتكرة. وقال إن الناس السوفييت فقط هم القادرونَ على تكريس طاقاتهم لخدمة الشعب على نحوٍ غير أناني في ظروف الحرب.

وتحدث كثيرونَ، ومنهم ماركوف، لكن ألمع وأقوى كلمة كانت كلمة غوريفيتش.

- لقد أحسنَ، - قال سافوستيانوف - قال كلماتٍ في محلّها، تكلّم من دون تقييد. سمّى عملك عملاً كلاسيكياً وقال إنه يجب أن يوضَع بجانب أعمال مؤسسي الفيزياء الذرية: بلانك، بور، فيرمي.

فكّر شتروم: «كلمة قويّة».

اتصل سوكولوف، بعد فترة وجيزة من مكالمة سافوستيانوف.

وقال:

- لا يمكنُ الوصولَ إليكَ اليوم، أتصلُ منذ عشرين دقيقة، والهاتف مشغول دائماً.

وكان سوكولوف متحمساً وسعيداً أيضاً.

قال شتروم:

- لقد نسيت أن أسأل سافوستيانوف عن التصويت.

قال سوكولوف إن البروفيسور غافرونوف، الذي يبحث في تاريخ الفيزياء، صوَّتَ ضد شتروم - كان عمل شتروم في رأيه، غير علمي، ومأخوذاً من وجهات النظر المثاليّة للفيزيائيين الغربيين، وليس له آفاق تطوّر من الناحية العمليّة.

قال شتروم:

- إنّه حتى لأمر جيّد أن يكونَ غافرونوف ضد العمل.

وافق سوكولوف قائلاً:

- نعم، ربّما.

كان غافرونوف رجلاً غريباً، وكان يُطلق عليه على سبيل المزاح اسم: «الأخوان السلافيون»، ذلكَ أنَّهُ كان يثبت بعناد شديد أن جميع إنجازات الفيزياء مرتبطة بأعمال العلماء الروس، ووضع أسماء: بيتروف، أوموف، ياكوفليف غير المعروفة بدلاً من أسماء: فاراداي، ماكسويل، آينشتاين.

قال سوكولوف مازحاً:

- أترى؟ فيكتور بافلوفيتش، ها هي ذي موسكو تعترفُ بأهمية عملك. ستدعونا إلى وليمة عندك قريباً.

وأخذت ماريا إيفانوفنا سمّاعة الهاتفِ، وقالت:

- مبارك لك فيكتور بافلوفيتش، هنِّئ لودميلا نيقولايفنا عني، أنا سعيدة لأجلكما.

قال شتروم:

- كل هذا غمغمة، إنّها غمغمة.

لكن الغمغمة التي تغمغم أفرَحتهُ وأقلقته.

ليلاً، عندما كانت لودميلا نيقولايفنا على وشك أن تنام، اتصل ماركوف. كان خبيراً في الوضع الرسمي، وتحدَّث عن المجلس الأكاديمي بطريقة مختلفة عن طريقةِ سافوستيانوف وسوكولوف. قال كوفتشينكو، بعد خطاب غوريفيتش خلالَ موجةِ ضحك عام:

- ها هم أولاء في معهد الرياضيات يقرعون الأجراس، ويثيرونَ ضجيجاً حول عمل فيكتور بافلوفيتش. صحيح أنَّ موكباً صُلبانيّاً لم ينطلق، لكن اللافتات قد رُفعت.

شعر ماركوف المشبوه في نكتة كوفتشينكو، بالتذمّر. ومتابعاته اللاحقة كانت تخصّ شيشكوف. أليكسي أليكسييفيتش لم يعرب عن موقفه تجاه عمل شتروم. وعند الاستماع إلى المتحدثين، هز برأسه، إما بالموافقة، وإمّا بمعنى: «اطحن يا إيميل، هذا هو أسبوعك».

دافع شيشكوف عن ترشيح بروفيسورٍ شاب هو مولوكانوف للجائزة؛ وهو الذي كرّس عمله لتحليل الفولاذ بالأشعة السينيّة، وكان له أهمية عمليَّة ضيقة لكثيرٍ من المصانع التي تنتج المعادن عالية الجودة فحسب.

ثم قال ماركوف إنَّ شيشكوف صعد بعد الاجتماع إلى غافرونوف وتحدث إليه.

قال شتروم:

- أنت، يا فياتشيسلاف إيفانوفيتش، يجب أن تعمل في الجهاز الدبلوماسي.

أجاب ماركوف الذي لا يستطيعُ المزاح:

- لا، أنا فيزيائي تجريبي.

ذهب شتروم إلى غرفة لودميلا وقال لها:

- رشحوني لجائزة ستالين. وقالوا كثيراً من الأمور الممتعة عنّي.

وأخبرها عن خطب المشاركين في الاجتماع.

- كل هذا النجاح الرسمي هراء. لكن تعلمين، سئمتُ من عقدة الدونيَّة الأبديّة. يدخلُ المرءُ غرفةَ الاجتماعات - الصف الأول فارغ، لكنني لا أجرؤ على الجلوس، أذهب إلى كامتشاتكا. لكن شيشكوف، بوستوييف، لا يترددان في الجلوس في رئاسة الاجتماع. أنا لا أهتم بهذا الكرسي، لكن داخلياً، على الأقل، أشعر بحقي في ذلك.

قالت لودميلا نيقولايفنا:

- كم كان توليا سيبتهج.

- وأنا لن أكتب عن ذلك لأمي.

قالت لودميلا نيقولايفنا:

- فيتيا، الساعة الآن الثانية عشرة، ولم تأت ناديا بعد. وصلت أمس في الحادية عشرة.

- وما الغرابة في ذلك؟

- قالت إنها عند صديقتها، لكن هذا يقلقني. وقالت: لدى والد مايكا تصريح ليلي للسيارة وسيوصلها إلى منطقتنا.

قال فيكتور بافلوفيتش:

- ولماذا تقلقين؟ ثمَّ فكّر: «يا رب، نحن نتحدث عن نجاح كبير، عن جائزة ستالين الحكوميَّة، لماذا تقطَعُ هذه الحديثَ بتفاهاتٍ حياتيّة؟».

صمت لفترة من الوقت، وأخذ نفساً قصيراً.

اتصل شتروم بشيشكوف على هاتف المنزل في اليوم الثالث بعد اجتماع المجلس العلمي، أراد أن يطلب منه قبول عالم فيزياء شاب لاندزمان في العمل. فقد أخّرت الإدارة وقسم شؤون الموظفين إجراءات معاملة القبول. وأراد في الوقت نفسه، أن يطلب من أليكسي أليكسييفيتش التعجيل باستدعاء آنّا نعومنا فايسبابير من كازان. فالآن حيث يجري قبول موظفينَ جُدد في المعهد، لا معنى في إبقاء العاملين المؤهلين في كازان.

أراد منذ فترة طويلة التحدث عن كل هذا إلى شيشكوف، لكن بدا له أن شيشكوف قد لا يكون لطيفاً بما فيه الكفاية، ويقول: «اتصل بنائبي». واستمر شتروم في تأجيل هذا الحديث.

والآن رفعته موجة النجاح عالياً. فإذا كان قبل عشرة أيام من غير المريح له أن يدخل لمقابلة شيشكوف، فاليوم من الطبيعي وببساطة الاتصال به إلى المنزل.

أجابه صوت أنثوي:

- من يسأل؟

أجاب شتروم، وكان مسروراً لسماع صوته، ذكرَ اسمه على مهل وبهدوء.

ترددت المرأة على الهاتف، ثم قالت بمودّة: «دقيقة من فضلك»، وبعد دقيقة قالت بالمودّة نفسها:

- يرجى الاتصال بالمعهد غداً في تمام الساعة العاشرة صباحاً.

قال شتروم:

- المعذرة، من فضلك.

شعرَ بحرج حارق في كامل جسمه وبشرته.

خمّن بحزن أنَّ هذا الشعور لن يتركه حتى في الليل في المنام، عندما يفكر في الصباح: «لماذا هو مريض؟» سيتذكر: «أوه نعم، إنَّهُ ذلكَ الاتصال الغبيّ».

دخلَ الغُرفةَ وحكى لزوجته عن الحديث الذي لم يحصل مع شيشكوف.

- نعم، نعم، لستُ الورقة الرابحة، كما تقول والدتك عني.

وأخذ يوبخ المرأة التي أجابته.

- اللعنة، كلبة، لا أستطيع تحمل تلكَ الطريقة البشعة في معرفة من يسأل، ثم الإجابة: السيد النبيل مشغول.

كانت لودميلا نيقولايفنا تستاء عادة في مثل هذه الحالات، وأراد الاستماع إليها.

قال:

- تذكرين، لقد رأيت أن لامبالاة شيشكوف ترجع إلى حقيقة أنه لا يستطيع جمع رأس مال من عملي. والآن يبدو لي أنه يستطيع كسب رأس المال، ولكن بطريقة مختلفة: تشويه سمعتي. إنّه يعرف: أنّ سادكو لا يحبني.

قالت لودميلا نيقولايفنا:

- يا إلهي، إلى أي درجة أنت شكّاك، كم الساعة الآن؟

- الساعة التاسعة والربع.

- رأيت، وناديا لم تأت بعد.

قال شتروم:

- أيّها الرب، إلى أيّ درجة أنت شكّاكة.

قالت لودميلا نيقولايفنا:

- بالمناسبة، سمعت اليوم في متجر الأسعار المحدودة: أنّهم رشّحوا أيضاً سفيتشين للجائزة.

- قولي لي من فضلك، هو لم يخبرني. لقاء ماذا يرشّحونه؟

- أعتقد لقاء نظرية الانتشار.

- هذا غير مفهوم. لقد نُشرت قبل الحرب.

- وماذا في الأمر؟ ويمنحون الاكتشافات السابقة أيضاً. هو سيحصل عليها، أمّا أنت فلا. سترى. إنّكَ تفعل كل شيء من أجل هذا.

- أنت غبيّة يا لودا. سادكو لا يحبني!

- أنت تحتاجُ إلى أمّك. لقد ساندتك دائماً.

- لا أفهم سبب توتّرك. لو أنَّكِ أظهرتِ لأمي حينها على الأقل جزءاً بسيطاً من الدفء الذي كنتُ أقدّمُهُ لألكساندرا فلاديميروفنا.

قالت لودميلا نيقولايفنا:

- آنّا سيمينوفنا لم تحب توليا أبداً.

قال شتروم:

- هذا غير صحيح، غير صحيح - وبدت له زوجته غريبةً عنه، تبعثُ الخوفَ بعنادها الظالم.

53

عرفَ شتروم صباحاً في المعهد خبراً، من سوكولوف. دعا شيشكوف في الليلة السابقة، كثيراً من موظفي المعهد لزيارته. فيما يخصُّ سوكولوف فإنَّ كوفتشينكو مرّ به واصطحبَه بالسيارة.

وكان من بين المدعوين رئيس قسم العلوم في اللجنة المركزية؛ الشاب بادين.

شعر شتروم بالحرج؛ من الواضح الآن أنه اتصل بشيشكوف في الوقت الذي اجتمع فيه الضيوف.

قال لسوكولوف مبتسماً:

- هل كان بين الضيوف الكونت سان جيرمان[1]؟ عمَّ تحدَّث السادة؟

تذكَّرَ كيفَ اتصلَ بشيشكوف، وكيف ذكرَ اسمَهُ بصوت مخملي، وكان واثقاً بأنّ أليكسي أليكسييفيتش وبعد أن يسمع اسم «شتروم»، سيهرع بفرح إلى الهاتف. حتّى إنّه تجمّدَ عند هذا الاستذكار، وفكّر أن الكلاب كانت تئن مشتكية، حينما تمشّط عبثاً وبرها من البراغيث الشرسة التي لا تطاق.

---

(1) ناشط اجتماعي فرنسي في عصر النهضة. (المترجمان).

وقال سوكولوف:

- بالمناسبة، رُتِّبَ ذلك ليس على الطريقة العسكرية أبداً. قهوة ونبيذ «غورجاني» مِزّ. وكانَ عددُ الأشخاص قليلاً، نحو عشرة أشخاص.

قال شتروم:

- إنه لأمر غريب، - وفهم سوكولوف ما يقصدهُ شتروم بكلمتهِ التأمّليّة «غريب» وقال متأمّلاً أيضاً:

- نعم، ليس واضحاً تماماً، أو بالأحرى، غير مفهوم البتّة.

سأل شتروم:

- هل كان معكم ناتان سامسونوفيتش؟

- لم يكن غوريفيتش، أعتقد أنّهم اتصلوا به، وكان مع طلاب الدراسات العليا.

قال شتروم:

- نعم، نعم، نعم- ونَقَرَ بإصبعه فوقَ الطاولة. ثم سأل سوكولوف، على نحوٍ لم يتوقّعه من نفسه: - بيوتر لافرينتييفيتش، ألم يقولوا شيئاً عن عملي؟

تردّد سوكولوف، وقال:

- هناك شعور، فيكتور بافلوفيتش، أن الذين يمدحونك وأنصارك يسبّبون لك الضرر؛ القيادة تتحسّس من ذلك.

- وماذا أيضاً؟ لماذا تصمت؟

قال سوكولوف إن غافرونوف تحدث عن حقيقة أنَّ عمل شتروم يتناقض مع آراء لينين حول طبيعة المادة.

قال شتروم:

- حسناً؟ وماذا بعد؟

- نعم، كما ترى، إن ما قاله غافرونوف هو حماقة، لكن الشيء غير السارّ، أنّ بادين وافقه في بأن عملك، على الرغم من عبقريته، يتناقض مع المواقف المقدمة في هذا الاجتماع الشهير.

نظر إلى الباب، ثم إلى الهاتف وقال بصوت خافت:

- أتعرف؟ تراءى لي: ألا يفكر رؤساء معهدنا في اختيارك كبش فداء فيما يتعلق بحملةِ حزبيّة العلم. أنت تعرف كيف تتم حملاتُنا. يختارون الضحية؛ وهيّا نطحنها. هذا سيكون فظيعاً. إنّ عملك رائع، وذو خصوصيّة!

- حسناً، ألم يعترض أحد؟

- ربّما لا.

- وأنت، بيوتر لافرينتييفيتش؟

- رأيتُ أنه من غير المجدي الكلام. لا جدوى من دحض الديماغوجيّة.

ارتبك شتروم، وشعر بارتباك صديقه، وقال:

- نعم، بالتأكيد، بالتأكيد. أنت على حق.

صمتا، لكن صمتهما لم يكن سهلاً. برودةُ الخوفِ لمست قلب شتروم، ذلكَ الخوف الذي عاشَ دائماً سرّاً في قلبه، خوف غضب الدولة، وخوف من أن يصبح ضحية لهذا الغضب، الذي يحوّل الشخص إلى غبار.

قال مفكّراً:

- نعم، نعم، نعم، أنا لا آمل بالغنيمة، بل أن أبقى على قيد الحياةِ فحسب.

قال سوكولوف بصوت خافت:

- كم كنت أريد أن تفهم هذا!

سأل شتروم أيضاً بصوت منخفض:

- بيوتر لافرينتييفيتش، وماذا عن مادياروف؟ هل هو آمن؟ هل يكتب لك؟ أشعر بقلق شديد في بعض الأحيان، ولا أعرف ما السبب.

وكأنّهما بهذا الحديث المفاجئ همساً، قد عبّرا عن أن للناس علاقاتهم الخاصة والإنسانية غير الحكومية.

أجاب سوكولوف بهدوء وعلى نحوٍ منفصل:

- لا، ليس لدي شيء من كازان.

وكأنّ صوته الهادئ الصامت يقول، إنهما لا يحتاجان الآن إلى هذه العلاقات الخاصة والإنسانية المنفصلة عن الدولة.

دخل ماركوف وسافوستيانوف المكتب، وبدأ حديثٌ مختلف تماماً. وأخذ ماركوف يقدِّمُ أمثلة عن الزوجات اللواتي يُفسِدنَ حياة الأزواج.

قال سوكولوف:

- لكل شخص زوجة يستحقها. ونظر إلى ساعته وغادر الغرفة.

قال له سافوستيانوف، ضاحكاً وهو خارج:

- إذا كان ثمَّةَ في الحافلة الكهربائية مقعد واحد فارغ فإنَّ ماريا إيفانوفنا تقف ويجلس بيوتر لافرينتييفيتش. وإذا قرع البابَ شخص ما

في الليل، فلن ينهضَ من السرير، بينما تركضُ ماشا في البرنس وتسأل من هناك. واضح: إنّ الزوجة صديق للإنسان.

قال ماركوف:

- أنا لست من المحظوظين. - يقولونَ لي: هل أنت أصمّ؟ افتح الباب.

قال شتروم فجأة، بغضب:

- ما بكم؟ أين نحن؟... بيوتر لافرينتييفيتش زوج ملائكي!

قال سافوستيانوف:

- وماذا يعنيكَ أنت؟ فياتشيسلاف إيفانوفيتش، أنت الآن لأيام ولياليها في المختبر، إنكَ بعيد المنال.

سأل ماركوف:

- هل تعتقد أنني بعيد المنال لهذا السبب؟

أجابَ سافوستيانوف:

- أرى - ولعق شفتيه، تحسّباً لحدّته الجديدة - أن أجلس في البيت! وكما يقولون، بيتي هو قلعة بتروبافلوفسك[1].

ضحك ماركوف وشتروم، وخوفاً من أن يطولَ الحديث المضحك، نهض ماركوف وقال لنفسه:

- فياتشيسلاف إيفانوفيتش، لقد حان وقت العمل.

عندما خرج، قال شتروم:

- هذا الرجل الجدّي، الذي يقيس حركاته، أصبح كالسكران. يمضي فعلاً أياماً بلياليها في المختبر.

---

(1) قلعة في مدينة سانت بطرسبورغ. (المترجمان).

أكّد سافوستيانوف قائلاً:

- نعم، نعم، إنّه مثل طائر يبني عشّاً. انغمس كلّه تماماً في العمل!

ضحكَ شتروم قائلاً:

- حتى إنّه الآن لا يلاحظُ الأخبار النيِّرة، وتوقف عن نقلِها. نعم، نعم، تُعجبني هذه الجملة: مثل طائر يبني عشاً.

استدار سافوستيانوف بحدة نحو شتروم.

كان وجهه الشاب ذو الحاجبين الشقراوين جدّياً.

وقال:

- بالمناسبة، عن الأخبار النيِّرة، يجب أن أقول لك، فيكتور بافلوفيتش، إنّ تجمّع الأمس عند شيشكوف، الذي لم تدع إليه، هو، أتعلم؟ شيء فظيع، ووحشي جداً...

استاءَ شتروم، وبدا له هذا التعبير عن التعاطف، مهيناً.

قال بحدّة:

- دعك من هذا، توقف عن هذا الكلام.

قال سافوستيانوف:

- فيكتور بافلوفيتش، طبعاً، لا يهمّ أن شيشكوف لم يدعُك. لكن ألم يخبرك بيوتر لافرينتييفيتش عن تلكَ النذالة التي تحدَّثَ بها غافرونوف؟ يجب أن يكون المرءُ نذلاً، ليقول إن روح اليهودية تتجلّى في عملك وإن غوريفيتش أطلق عليه صفة كلاسيكي وأشاد به فقط لأنك يهودي. وأن يقول كل هذا الرجس وبينما تبتسمُ القيادةُ ابتساماتها الصامتة. هذا هو «الأخوان السلافيون».

لم يذهب شتروم إلى المطعم خلال استراحة الغداء، ذرعَ المكتبَ من زاوية إلى زاوية. أكانَ يعتقد أن كل هذهِ القمامة موجودة في الناس؟ لكن أحسنَ سافوستيانوف! الذي بدا وكأنه صغير فارغ، ذو نكاتٍ أبديةٍ وصورٍ فوتوغرافية لفتياتٍ في سراويل السباحة. نعم، كل هذا هراء، عموماً. ثرثرة غافرونوف تافهة - فهو مختل عقلياً، وحسود صغير. لم يعترض عليه أحد، لأن ما قاله كان سخيفاً جداً ومضحكاً.

مع ذلك عذّبته ووتّرته هذه التفاهات، والأشياء الصغيرة. كيف استطاع شيشكوف ألّا يدعو شتروم؟ في الواقع، هذا غباء ووقاحة. ومما يثير الإهانة على نحوٍ خاص أن شتروم غيرُ مبال تماماً بشيشكوف الغبي وحفلاته، ويؤلم شتروم - كما لو أن مصيبة لا يمكن تعويضها قد حدثت في حياته - أنَّه يفهم أن هذا غباء، لكنه لا يستطيع فعل شيء حيالَ ذلكَ مع نفسه. نعم، نعم، وأراد أيضاً أن يحصلَ ضمن الوجبةِ الغذائيّة على بيضة أكثر مما يحصل عليه سوكولوف. يا لي من تافه!

ولكن ثمَّةَ شيئاً واحداً حقاً أحرق قلبَهُ جدّياً. أراد أن يقول لسوكولوف: «لماذا لا تخجل يا صديقي؟ كيف يمكنك أن تخفي عني أن غافرونوف رماني بالقذارة؟ بيوتر لافرينتييفيتش، لقد كنت صامتاً هناك، وكنت صامتاً معي. عار عليك، عار عليك! »

لكن وبغض النظر عن توتره، فقد قال لنفسه من فوره: «لكن أنت أيضاً قد صمتَّ. أنت لم تخبر صديقك سوكولوف بما يشتبه به قريبك كريموف و مادياروف؟ لم تقل شيئاً! بسبب الإحراج؟ بسبب الحساسيّة؟ أنت تكذب! خوفاً على يهوديتك. . . ».

شاءَ قدرُه على ما يبدو أن يكون يومُه هذا صعباً كله.

دخلت آنّا ستيبانوفنا المكتب، فسألها شتروم وهو ينظر إلى وجهها المضطرب:

- ماذا حصل، عزيزتي آنّا ستيبانوفنا؟- وفكّر: «أيعقل أنّها سمعت مشاكلي؟».

قالت:

- ما هذا، فيكتور بافلوفيتش؟ هكذا ومن دون علمي، لماذا؟ هل أستحق ذلك؟

طُلب من آنّا ستيبانوف الذهاب إلى قسم شؤون الموظفين أثناء استراحة الغداء، حيث اقترحوا عليها كتابة طلب استقالة. تَلَقّوا أمراً من المدير يقضي بإقالة المخبريّين الذين لايملكونَ تعليماً عالياً.

قال شتروم:

- هراء، ليس عندي أي فكرة عن هذا؛ سأصلح الأمر، صدقيني.

أزعجت آنّا ستيبانوفا على نحوٍ خاص كلمات دوبنيكوف بأن الإدارة ليس لديها أي شيء ضدها شخصيّاً.

- فيكتور بافلوفيتش، ماذا يمكن أن يكون ضدي؟ وسامحني، كرمى للّه، فقد أعقتُك عن العمل.

ألقى شتروم المعطف على كتفيه ومشى عبر الفناء إلى مبنى مكون من طابقين، يوجد فيه قسم شؤون الموظفين.

«حسناً، حسناً - فكَّر - حسناً، حسناً». لم يفكر في أي أمرٍ آخر. لكنّهُ وضع الكثيرَ في هذه «ال حسناً، حسناً».

وقال دوبنيكوف وهو يرحّب بشتروم:

- كنت على وشك الاتصال بك.

- فيما يتعلق بآنّا ستيبانوفنا؟

- لا، لماذا؟ يجب على كبار الموظفين في المعهد، وارتباطاً ببعض الظروف، ملء هذه الاستمارة.

نظر شتروم إلى كومة من الاستبيانات وقال:

- آها! تحتاج إلى أسبوع من العمل.

- ما الذي تقولهُ فيكتور بافلوفيتش؟ لكن لا تضع من فضلك، في حالة الإجابة السلبيَّة شخطة، بل اكتب: «لا، لم أكن؛ لا، لم أنظم؛ لا، ليس لدي» وما إلى ذلك.

قالت شتروم:

- اسمع ما أقوله يا عزيزي، يجب إلغاء الأمر المضحك الذي يقضي بإقالة مخبريَّتنا الأقدم آنّا ستيبانوفنا لوشاكوفا.

قال دوبنيكوف:

- لوشاكوفا؟ فيكتور بافلوفيتش، كيف يمكنني إلغاء أمر الإدارة؟

- الشيطان يعرف ما الذي يحدث! أنقذت المعهد، وحرسته بطيبة تحت قصف القنابل. ويسرّحونها على أسس شكلية.

وقال دوبنيكوف بفخر:

- لا يطردون أحد عندنا، إلا على أسس شكلية.

- آنّا ستيبانوفنا ليست مجرد شخص رائع، بل هي واحدة من أفضل العمال في مختبرنا.

قال دوبنيكوف:

- إذا كانت لا يمكن الاستغناء عنها بالفعل، فعليك أن تتوجّه إلى كاسيان تيرنتييفيتش. وبالمناسبة، نسّق معه بشأنِ مسألتين أخريين تخصّان مختبرك.

وقرَّبَ من شتروم ورقتين مثبّتتين معاً.

- هنا حول إشغالِ منصب الباحث العلمي في المسابقة - نظر إلى الورقة وقرأ ببطء: - لانديسمان إيميلي بينخوسوفيتش.

قال شتروم بعد أن عرف الورقة بين يدي دوبنيكوف:

- نعم، أنا من كتبَ ذلك.

- انظر هنا قرار كاسيان تيرنتييفيتش: «لا يتوافق مع المتطلَّبات».

سأل شتروم:

- كيف لا يتوافق؟ أنا من يعلم أنه يتوافق. وكيفَ لكوفتشينكو أن يعرفَ من يتوافق معي؟

قال دوبنيكوف:

- إذاً ناقش الأمر مع كاسيان تيرنتييفيتش. - ونظر إلى الورقة الثانية وقال: - هذا طلبُ موظفينا الذين بقوا في كازان، وهنا عريضتكم.

- حسناً وما النتيجة؟

- يكتب كاسيان تيرنتييفيتش: غير مجدٍ، لأنهم يعملون عملاً إنتاجيّاً في جامعة كازان، يُؤجَّلُ النظر في القضية حتى نهاية العام الدراسي.

تحدَّثَ بهدوءٍ وبخفّة، كما لو أنّهُ يرغب في تخفيف الأخبار غير

السارّة بالنسبة إلى شتروم بصوته العاطفي، ولكن لم تكن في عينيه أيّ عاطفة، بل فضولٌ خبيث.

قال شتروم:

– شكراً لك، رفيق دوبنيكوف.

سار شتروم مرة أخرى في الفناء وكرّر من جديد: «حسناً، حسناً». إنه لا يحتاج إلى دعم رؤسائه، ولا يحتاج إلى حبِّ الأصدقاء، والتوافق الروحي مع زوجته، فهو يعرف كيف يحارب وحده. بعد عودته إلى المبنى الرئيسي، صعد إلى الطابق الثاني.

خرج كوفتشينكو من المكتب، في سترة سوداء وقميص أوكراني مُطرّز، بعد أن أبلغته السكرتيرة بقدوم شتروم وقال:

– تفضّل، تفضّل، فيكتور بافلوفيتش، إلى كوخي.

دخل شتروم «الكوخ»، المؤثث بكراسيَّ وأرائك حُمر. أجلسَ كوفتشينكو شترومَ على الأريكة وجلس بجانبه.

ابتسم أثناء استماعه إلى شتروم، وذكّرَ ودُّهُ بطريقةٍ ما، ما أظهرَ دوبنيكوف من ودٍّ. وربما ابتسم بالطريقة نفسها عندما ألقى غافرونوف كلمته عن اكتشاف شتروم.

قال كوفتشينكو بحزن وفتح يديه:

– ماذا نفعل؟ لسنا نحن من اخترع كلّ هذا. هي كانت تحت القصف؟ الآن لا تعدّ هذه مَزِيّة، فيكتور بافلوفيتش؛ كل إنسانٍ سوفييتي اليوم يسيرُ تحتَ القصف، إذا أمره وطنه.

ثم فكر كوفتشينكو وقال:

– هناك إمكانيّة، مع أن ذلك بالتأكيد، سيشكِّلُ خللاً. أن ننقل

أوشاكوفا إلى وظيفة مُعدّة لمستحضرات. ونحفَظُ إضبارتها. هذا ما أستطيع أن أعد به.

قال شتروم:

- لا، هذه إهانة لها.

سأل كوفتشينكو:

- فيكتور بافلوفيتش، ماذا تريد - أن يكون لدى الدولة السوفييتيَّة قوانينُ معيَّنةٌ، وفي مختبر شتروم قوانين أخرى؟

- على العكس من ذلك، أريد أن تطبق القوانين السوفييتيَّة بالتحديد على مختبري. وبموجب القانون السوفييتي، لا ينبغي فصل لوشاكوفا.

وسأل:

- كاسيان تيرنتييفيتش، إذا تحدثنا عن القوانين، فلماذا لم توافق على الشاب الموهوب لانديسمان في مختبري؟

مضغ كوفتشينكو شفتيه قائلاً:

- هل تعلم؟ فيكتور بافلوفيتش، ربما سيكون قادراً على العمل بنجاح وفقاً لتعليماتك، ولكن لا تزال هناك ظروف، ينبغي على قيادة المعهد أن تأخذها في الاعتبار.

قال شتروم:

- جيد جداً - وكرّر مرة أخرى: - جيد جداً.

ثم سأل:

- هل هي تلك الاستمارة، صحيح؟ أقاربه في الخارج؟

نشر كوفتشينكو ذراعيه بطريق غامضة.

وتابعَ شتروم:

- كاسيان تيرنتييفيتش، إذا واصلنا هذا الحديث اللطيف، لماذا تُبطئُ عودة موظفتي آنّا نعومنا فايسبابير من كازان؟ هي، بالمناسبة، مرشحة في العلوم. ما التناقض هنا بين مختبري والدولة؟

قال كوفتشينكو بوجه متألّم:

- فيكتور بافلوفيتش، بماذا تستجوبني؟ أنا المسؤول عن الموظفين، افهم هذا.

قال شتروم:

- جيد جداً، جيد جداً- قال شتروم ذلك، وشعر أنه قد نضج أخيراً لإجراء حديث فجّ. فقال: - اسمع ما سأقوله أيّها المحترم. لا يمكنني الاستمرار في العمل بهذه الطريقة. العلمُ موجودٌ ليس لدوبنيكوف، وليس لك. أنا موجود هنا أيضاً من أجل العمل، وليس لأجلِ مصالحِ قسم الموظفين غير الواضحة بالنسبة إليّ. سأكتب إلى أليكسي أليكسييفيتش - أن يُعيِّنَ دوبنيكوف مديراً للمختبر النووي.

قال كوفتشينكو:

- فيكتور بافلوفيتش، ما الذي تقوله؟ اهدأ.

- لا، أنا لن أعمل بهذه الطريقة.

- فيكتور بافلوفيتش، لا تتصوّر، كيف تقدّر الإدارة عملك، ولا سيّما أنا.

قال شتروم وقد رأى في وجه كوفتشينكو، ليس غضباً، بل متعة مُفرحة:

- أنا لا يهمّني، إذا كنتم تقدّرون عملي أم لا.

قال كوفتشينكو:

- فيكتور بافلوفيتش، لن نسمح لك بأي حال من الأحوال أن تتركَ المعهد،- وعبس وأضاف-: ليس لأنّك لا تُعوّض على كل حال. وهل تعتقد حقاً أن لا وجودَ لأحد يحل محل فيكتور بافلوفيتش شتروم؟- واختتم بلطف:- هل حقاً لا يوجد أحد في روسيا يحل محلك إذا كنتَ لا تستطيع أن تمارس العلم من دون لانديسمان وفايسبابير؟

نظر إلى شتروم، وأحسَّ فيكتور بافلوفيتش - أنَّ كوفتشينكو على وشك أن يقول الكلمات التي كانت طوال الوقت، مثل ضبابٍ خفيٍّ، تجول بينهما، ولمست عينيه ويديه ودماغه.

أحنى شتروم رأسه، ولم يعد هناك بروفيسور أو دكتور في العلوم، أو عالم شهير قدَّمَ اكتشافاً رائعاً، وعرف كيف يكون متعجرفاً ومتسامحاً ومستقلاً وحادّاً.

زرَّرَ الرجلُ المتراخي ضيّقُ الكتفين، محنيُّ الأنف، أجعد الشعر، عينيه كما لو كان يتوقَّعُ ضربة على خده، ونظرَ إلى الرجل الذي يرتدي قميصاً أوكرانياً مطرزاً وانتظر.

نَطَقَ كوفتشينكو بهدوء:

- فيكتور بافلوفيتش، لا تقلق، لا تقلق، حقاً لا تقلق. ما بك باللّه عليك، ترفع مزمار القربة، بسبب هذه التفاهة؟

54

ليلاً عندما ذهبت الزوجة والابنة إلى النوم أخذ شتروم يملأ الاستمارة. كانت الأسئلة هي نفسها تقريباً، التي كانت قبل الحرب. ولأنّها كانت نفسها، فقد بدت لفيكتور بافلوفيتش غريبة وأقلقته بطريقة جديدة.

لم يُقْلِقِ الدولةَ ما إذا كان الأسلوبُ الرياضي الذي استخدمه شتروم في عمله كافياً، وما إذا كانت محطَّة التجارب التي رُكِّبت في المختبر تتوافق مع التجارب المعقدة التي ستنفَّذُ عليها، وما إذا كانت الحماية من الإشعاع النيوتروني جيدة، وما إذا كانت صداقة سوكولوف وماركوف وعلاقتهما العلمية مع شتروم كافيتين، وما إذا كان الموظفون المبتدئون مستعدين لإنتاج حسابات مملّة، وهل يفهمون أن الكثير يعتمد على صبرهم ويقظتهم وتركيزهم.

كانت هذه الاستمارة - الملك، استمارة الاستمارات. أرادت أن تعرف كل شيء عن والد لودميلا، وعن والدتها، وعن جدّ فيكتور بافلوفيتش وجدّته، وعن المكان الذي عاشوا فيه، ومتى ماتوا، وأين دُفنوا. ولأي أمرٍ سافر والد فيكتور بافلوفيتش، بافل يوسيفوفيتش، إلى برلين في عام 1910؟ كان قلقُ الدولةِ جدّيّاً وكئيباً. عندما نظر

شتروم إلى الاستبيان أُصيبَ هو نفسُه بعدم اليقين بشأن موثوقيته وأصله.

1. العائلة، الاسم، اسم الأب... من هو، هذا الشخص الذي يُوَصَّفُ في الاستمارة في هذا الليل: شتروم، فيكتور بافلوفيتش؟ والأرجحُ أن الأم والأب كانا في زواج مدني، وأنّهما انفصلا عندما كان عمرُ فيتا عامين، وتَذكَّرَ أنّ اسم بينخوس كان في أوراق والده وليس بافل. لماذا إذاً أنا فيكتور بافلوفيتش؟ من أنا، وهل عرفت نفسي، وقد أكون في الأساس: غولدمان، وربما ساغايداتشني؟ أو الفرنسي ديفورج، وهو نفسه دوبروفسكي؟

وبدأ وهو طافحٌ بالشكوك الإجابةَ عن السؤال الثاني.

2. تاريخ الميلاد... السنة... الشهر... اليوم... اكتب في التقويم الجديد والقديم. ماذا عرف عن هذا اليوم المظلم في شهر ديسمبر، هل يمكن أن يؤكد بثقة أنه في هذا اليوم ولد؟ ألا يشير، من أجل تخفيف نفسه عن المسؤولية، «نقلاً عن...».

3. الجنس... كتب شتروم بجرأة: «رجل». وفكّرَ: «حسناً، أيّ رجل أنا، الرجل الحقيقي ما كان ليصمت بعد طرد تشيبيجين».

4. مكان الميلاد القديم (المقاطعة، المنطقة، القضاء والقرية) والجديد (المقاطعة، الإقليم، المنطقة والقرية) تقسيم المناطق... كتب شتروم: خاركوف. أخبرته والدته أنه وُلد في باخموت، وقد صوّبت قيد النفوس إلى خاركوف، حيث انتقلت بعد شهرين من ولادة ابنها. وهنا هل يستحق الأمرُ كتابة ملاحظة؟

5. الجنسية... وهذا هو البند الخامس. البسيط، الذي لم يكن له معنى قبل الحرب والذي أصبحت له خصوصيّة قليلة الآن.

كتب شتروم، بأحرف حاسمة، وهو يضغط على الريشة: «يهودي»[1]. لم يكن يعلم ما الذي ستعنيه قريباً لمئات الآلاف من الأشخاص الإجابة عن السؤال الخامس من الاستمارة: كالميكي، بلغاري، شيشاني، تتار القرم، يهودي. . .

لم يكن يعلم أن المشاعر القاتمة ستتكثّف من عام إلى آخر حول هذا البند الخامس، وهي الخوف والغضب واليأس والدم الذي يتدفق، وينتقل إليه من البند السادس التالي: «الأصل الاجتماعي»، حيث سيملأ الكثير من الناس في غضون عدّة سنوات، البند الخامس من الاستبيان بذلك الشعور المصيري، الذي أجاب به أطفال ضباط القوزاق والنبلاء وأصحاب المصانع وأبناء الكهنة على البند السادس، في العقود الماضية.

لكنَّهُ شعرَ بالفعل وتوقَّع كثافة خطوط السلطة حول البند الخامس من الاستبيان. اتصل به لاندسمان في الليلة السابقة، وأخبره شتروم أن لا شيءَ قد حدثَ في مسألة توظيفه. قال لاندسمان غاضباً ولائماً شتروم: «هذا ما توقَّعته». سأله شتروم: «هل لديك مشكلة في

---

(1) هذا ما حاولت الحركة الصهيونيّة العالميّة أن تغرسه في أذهان اليهود؛ من أنهم يشكلونَ قوميّة، وأنّ اليهوديّة هي جنسيّة، وليست ديناً مثلهُ مثل المسيحيّة والإسلام والبوذيّة والزردشتيّة وغيرها؛ فلنتصور إنكليزيّاً أو ألمانيّاً أو فرنسيّاً يُسألُ عن جنسيته فيقول: جنسيتي مسيحي! أو مسلم مصري يُسأل عن جنسيته فيقول: مسلم وليسَ عربيّاً؟ أو مصريّاً؛ وهذا ما جعل كثيراً من اليهود الذين جرفتهم تلك البروباغاندا يكوِّنون مجتمعاتٍ داخل المجتمع، وقوميّةً داخل القوميّة ويدفعون ثمن ذلك أحياناً كما حدثَ في ألمانيا زمن كتابة الرواية. (المترجمان)

الاستبيان؟»، تأوّه في سماعة الهاتف قائلاً: «المشكلة في الاستبيان هي الكنية».

قالت ناديا في أثناء احتساء الشاي مساء:

- أتعلم، بابا؟! قال والد ميكين إنَّهُ لن يُقبَل أيُّ واحدٍ يهودي العامَ المقبلَ في معهد العلاقات الدولية.

فكّر شتروم: «اليهودي هو يهودي، لا يمكن أن يفعلَ المرءُ شيئاً».

6. المنشأ الاجتماعي... إنَّهُ جذعُ شجرةٍ عظيمة، وجذوره عميقة في الأرض، وفروعهُ منتشرة على نطاق واسع في الاستبيان الشاسع: الأصل الاجتماعي للأم والأب، ولوالدي الأم والأب... والأصل الاجتماعي للزوجة، ولوالدي الزوجة.... وإذا ما كانت مطلَّقة؛ فالخلفية الاجتماعية للزوجة السابقة، ماذا فعل والداها قبل الثورة؟

كانت الثورة العظيمة ثورة اجتماعية، ثورة للفقراء. بدا دائماً لشتروم أنَّ في البند السادس ما يعبرُ على نحوٍ طبيعي، عن عدم ثقة الفقراء العادلة الذي نشأ على مدى آلاف السنين من حكم الأغنياء.

كتب «من البرجوازيّة الصغيرة». برجوازي صغير! وأيّ برجوازي هو؟ وفجأةً وربّما بتأثير الحرب شكّك في حقيقة الهاوية بين المسألة السوفييتية العادلة فيما يتعلّق بالأصل الاجتماعي والسؤال الدموي للألمان حول الجنسية. لقد تذكر أحاديث كازان المسائيّة، وحديث مادياروف حول موقف تشيخوف من الإنسان.

فكَّرَ: «تبدو لي الدلالةُ الاجتماعيَّةُ أخلاقيّةً وعادلةً. لكن بالنسبةِ إلى الألمان تبدو بلا جدال الدلالةُ أو الميزةُ الوطنيّةُ أخلاقيّةً. لكن

الأمر واضح بالنسبة إليّ: إنه لأمر فظيع أن يقتل اليهودُ لأنهم يهود. فهم بشر؛ كل منهم إنسان: جيد، شرير، موهوب، غبي، مضحك، لطيف، متعاطف، جشع. يقول هتلر: كل هذا غير مهم، المهم أنهم يهود. وأنا بكل كياني أحتج على هذا. لكن لدينا المبدأ نفسه الذي عند الألمان- من المهم أن المَرءَ من النبلاء، ومن المهم أنَّهُ من الفلاحين، ومن المهم أنَّهُ من البرجوازيين: أما أنهم جيدون، وشرّيرون، وموهوبون، لطيفون، وأغبياء، ومضحكون - فليسَ مهمّاً؟ كيف الأمرُ إذاً؟ ففي هذه الاستمارات، الحديثُ حتى لا يدورُ عن البرجوازيين الصغار والكهنة والنبلاء. بل عن أولادهم وأحفادهم. حسناً، هل يحملونَ النبالةَ في دمائهم مثل اليهود؟ وهل هم تجَّار أو كهنة بالدم؟ إنّه هراء. صوفيا بيروفسكايا كانت ابنة جنرال، وليسَ أي جنرال، بل محافظ. اقتادوها! ولو كتب كوميساروف، رجل الشرطة الذي أمسك بكاراكوزوف، مُجيباً عن البند السادس: «من البرجوازيّة الصغيرة». فسيُقبَلُ في الجامعة، ويعتمدونه في المنصب. أما قالَ ستالين: «الابن غير مسؤول عن الأب». ولكن ستالين قد قال أيضاً: «التفاحة لا تسقط بعيداً عن شجرة التفاح». حسناً، من البرجوازيّة الصغيرة وليكن من «البرجوازيّةِ الصغيرة».

7. الوضع الاجتماعي... موظف؟ الموظف: هو المحاسب، وعامل الديوان. لكن الموظف شتروم أثبت رياضيّاً آليّة انشطارِ أو انهيار النوى الذرية، والموظف ماركوف يريد إثبات النتائج النظرية للموظف شتروم بمساعدة محطّة تجارب جديدة.

«ولكن صحيح، - فكّر - موظّف بالتحديد».

ضغط كتفيه، ونهض، مشى في الغرفة، وأزاحَ أحداً ما من أمامهِ بحركةٍ من كفِّهِ. ثم جلس إلى الطاولة يجيب عن الأسئلة الباقية.

29. هل قُدِّمتَ أنت أو أقرباؤك إلى المحاكمة أو التحقيق؟ هل أُلقيَ القبضُ عليك؟ أو هل عوقبتَ بطريقة قضائيّة أو إداريّة؟ متى؟ وأين؟ ولماذا؟ إذا ما أُزيلَ السجلُّ الجنائي، فمتى؟

السؤال نفسه موجّه إلى زوجة شتروم. انتشر البرد في صدره. لا مجالَ للنقاش، لا يمزحون هنا. ومَضَتْ أسماءٌ في رأسه. أنا واثقٌ بأنّهُ غير مُذنبٍ على الإطلاق... إنسان ليس من هذا العالم كلّه... اعتُقِلَت زوجتُه لعدم إبلاغها عن زوجها، ويبدو أنها حُكمت بثماني سنوات، لا أعرف بالتأكيد، لا رسائل بيننا. تعرّف مصادفةً على تيمنيكا؛ قابل ابنتها في الشارع... لا أتذكر بالضبط، يبدو أنه قُبض عليه في مطلعِ السنة الثامنة والثلاثين، نعم، حُكم عليه بالسجن عشر سنوات، دون أن يكون له الحق في المراسلة...

شقيقُ زوجتي كانَ عضواً في الحزب، ونادراً ما قابلته؛ لا نوافقهُ الرأي لا أنا ولا زوجتي؛ أعتقد أن والدة زوجته سافرت إليه، نعم، قبل الحرب بفترة طويلة، نُفيت زوجته الثانية لعدم الإبلاغ عن زوجها، وتوفيت أثناء الحرب. ابنه مشاركٌ في الدفاع عن ستالينغراد، ذهبَ إلى القتالِ مُتطوِّعاً... أمّا زوجتي فقد انفصلت عن زوجها الأول، الابن من الزواج الأول؛ وهو ابني بالتبنّي. استشهد ابن زوجتي على الجبهة، وهو يدافع عن ستالينغراد... سُجن زوجها الأوّل، ومنذ لحظة الطلاق، لا تعرفُ الزوجةُ شيئاً عنه... لأيّ سبب أدين؟ لا أعرف، سمعتُ بطريقة غامضة - خبراً مثل الانتماء إلى المعارضة التروتسكيّة، لكنني لست متأكداً، لأنّني لم أكن مهتماً على الإطلاق...

اجتاح شتروم شعورٌ يائسٌ بالذنب، والنجاسة؛ لقد تذكر عضو

الحزب التائب الذي قال في الاجتماع: «أيها الرفاق، أنا لست من جماعتكم».

وفجأة اجتاحه الاحتجاج. أنا لست من المسالمين والمطيعين! سادكو لا يحبني - فليكُن! أنا وحيد، ولم تعد زوجتي مهتمة بي - فليَكُن! ولكنني لا أتنكَّر للضحايا الأبرياء البائسين الذين أُعدموا.

إنه لأمر مخزٍ، أيها الرفاق، أن أتطرق إلى كل هذا! فالناس أبرياء، حتى الأطفال، والزوجات، ما ذنبهم؟ يجب أن تتوبوا أمام هؤلاء الناس، وأن تطلبوا منهم المغفرة. هل تريدون أن تثبتوا عدم أهليّتي، وأن تحرموني من الثقة، لأنني قريبُ ضحايا أبرياء؟ إذا كُنتُ مُذنِباً، فذنبي أنني لم أساعدهم في محنتهم.

أمّا المسار الثاني لتفكيره، فكانَ مُعاكِساً على نحوٍ لافت للنظر، وسار جنباً إلى جنب في دماغهِ نفسه.

أنا لم أكن على اتصال بهم. لم أتراسل مع الأعداء، ولم أتلقَّ رسائلَ من مُعسكراتِ الاعتقال، ولم أمدَّهم بالدعم المادي، وكانت لقاءاتي بهم نادرة ومُصادفةً...

30. هل يعيش أي من أقاربك في الخارج (أين، منذ متى، ولأيّ أسباب غادروا)؟ هل أنت على تواصل معهم؟

عزّز السؤال الجديد كآبته.

أيها الرفاق، أيُعقلُ أنّكم لا تفهمون حقاً أنّ الهجرة في زمن روسيا القيصرية كانت أمراً لا مفر منه! الفقراءُ ومُحبّو الحرية هم الذين هاجروا، عاش لينين في لندن، وزيوريخ، وباريس. لماذا تغمزون وأنتم تقرؤون عن خالاتي وأعمامي وعن بناتهم وأبنائهم في نيويورك وباريس وبوينس آيرس؟.. مَنْ مِن هؤلاء المعارف قالَ

نُكتةً: «الخالة في نيويورك... اعتقدتُ من قبل - أنّ الجوع هو الخالة، لكن اتضح أن الخالة - هي الجوع».

لكن تبيّن بالفعل أن قائمة أقاربه الذين يعيشون في الخارج لم تكن أقل بكثير من قائمةِ أعماله العلميّة. فكيف إذا ما أضفنا قائمة ضحايا القمع السياسي؟!

ها هم قد قطّعوا الرجل. وسيرسلونه إلى مكبّ النفايات! هذا الغريب! ولكنّها كذبة، كذبة! العلم يحتاج إليهِ بالتحديد، وليس إلى غافرونوف ودوبنيكوف؛ إنّه يقدّم حياته من أجل بلده. وهل هم قلائل أولئكَ الناس من أصحاب الاستمارات الرائعة، القادرين على الخداع، والخيانة؟ وهل قلائلُ أولئكَ الذينَ كتبوا في الاستمارات: الأب - كولاك، الأب - مالك أرض سابق - وقدموا حياتهم في المعركة، وانضموا إلى مُقاتلي الأنصارِ، ويسيرونَ إلى النطع؟

ما هذا إذاً؟ كان يعلم: طريقة رياضيّة إحصائية! الاحتمالات! ثمّة احتمال لمصادفة العدو بين أشخاصٍ لهم ماضٍ غير عُمّالي أكبر منهُ فيما يتعلّق بالناسِ من الوسط البروليتاري العُمَّالي. ولكن الفاشيين الألمان، وتأسيساً على الاحتمال الأكبر والأصغر، يدمرون الشعوب والأمم. هذا المبدأ غير إنساني. إنه غير إنساني وأعمى. نحن نفكر للناس بنهج واحدٍ فحسب - النهج الإنساني.

سيكتبُ فيكتور بافلوفيتش استمارةً أُخرى، لقبول الأشخاص في المختبر، استمارة إنسانيّة.

لا يهمه الشخص الذي سيعمل معه - إن كان روسيّاً، أم يهوديّاً، أم أوكرانيّاً، أم أرمنياً؛ عاملاً، أم عامل مصنع، سواء كان جدّه كولاكاً أم غير ذلك؛ لا يعتمد موقفه من زميله في العمل على ما إذا

كانت سلطات الأمن الداخلي قد اعتقلت شقيقه؛ ولا يهتم إن كانت أخوات زميلِهِ في العمل يعشنَ في كوستروما أو جنيف.

سوف يسأل، منذِ أي عمر تهتم بالفيزياء النظرية؟ ما هو شعورك حيال انتقادات آينشتاين لبلانك العجوز؟ هل أنت ميّال إلى التفكير الرياضي فقط، أو يهمّك العمل التجريبي أيضاً؟ ما هو شعورك تجاه هايسنبرغ؟ هل تؤمن بإمكانية إنشاء معادلة الحقل الواحد؟ الأمرُ الرئيسي، الرئيسي هو الموهبة، والنار، والشرارة الإلهيّة.

ولكان سألَ إذا ما رغبَ زميلُهُ في العمل طبعاً في الإجابة؟ عما إذا كان يحب التنزّه مشياً على الأقدام؟ وهل يشرب الخمر، أو يذهب إلى الحفلات السيمفونية؟ وهل أحبَّ كُتُبَ سيتون طومسون في طفولته؟ ومن أقربُ إليه - تولستوي أم دوستويفسكي؟ هل هو مهتم بالحدائق؟ هل هو صياد؟ ما هو موقفه من بيكاسو؟ وأيّ قصَّةٍ من قصص تشيخوف يراها الأفضل؟

ولكان مهتمّاً فيما إذا كان زميل المستقبل صامتاً أو ممن يحب الحديث، وإن كان لطيفاً، أو ذكياً، أو طموحاً، أو سريعَ الانفعال، وفيما إذا كان سيدبّر الألاعيب مع فيروتشكا بوناماريوفا الجميلة.

لقد تحدَّثَ مادياروف عن ذلك على نحوٍ مُدهِش، من الجيّد أن الجميع يفكّر فيما إذا كان مُحرِّضاً أم لا.

أيّها الربّ، يا إلهي...

أخذ شتروم الريشة وكتب: «إستير سيمينوفنا داشيفسكايا، خالة من طرف الأم، تعيش في بوينس آيرس منذ عام 1909، وهي مدرّسة موسيقا».

55

دخل شتروم إلى مكتب شيشكوف بنيّة أنّ يضبط نفسه، وألّا ينطق كلمةً قاسيةً واحدةً.

لقد فهم: إنه من الغباء أن يغضب وأن يستاء لأن شتروم وعمله، كانا في رأس الأكاديمي البيروقراطي في أسوأ الأماكن.

ولكنَّهُ ما إن نظرَ في وجهِ شيشكوف حتّى شعر بتوتّر لا يقاوم.

وقال:

- أليكسي أليكسييفيتش، كما يقولون، لن تكون لطيفاً بالقوة، لكنك لم تهتم أبداً بتركيب محطَّةِ الاختبار.

قال شيشكوف بلهجة سلميّة:

- سأحضر إليكم بالتأكيد قريباً.

وعد المدير بلطف أن يُسعد شتروم بزيارته.

وأضاف شيشكوف:

- أعتقد أن الإدارة عموماً تهتم باحتياجاتك كلها بما فيه الكفاية.

- وبخاصّة قسم شؤون الموظفين!

سأل شيشكوف طافِحاً بالسِّلم:

- بمَ تَعُوقُكَ إدارة شؤون الموظفين؟ أنت أوّل مدير مختبر يدلي بمثل هذا التصريح.

- أليكسي أليكسييفيتش، أطلب منك بلا طائل استدعاء فايسبابير من كازان، إنّها اختصاصيّة لا بديل عنها في التصوير النووي. وأنا أعارض بشدة طرد لوشاكوفا. إنها عاملة رائعة، إنها إنسانة رائعة. لا أستطيع أن أتخيل كيفَ تُطرد لوشاكوفا. هذا عمل غير إنساني. وأخيراً، أطلب منك الموافقة على قبول مرشح العلوم لانديسمان الذي تقدم إلى المسابقة. إنه رجل موهوب. أنتم لا تزالون تقللون من أهمية مختبرنا. وإلّا ما اضطُررتُ إلى إضاعة الوقت في مثل هذه الأحاديث.

أجابَ شيشكوف:

- وها أنذا أضيّع الوقت على هذه الأحاديث.

قال شتروم، وقَد سُرَّ لأن شيشكوف توقف عن التحدث إليه بلهجةٍ مُحبَّةٍ للسلام، وهو ما منعَهُ من التعبير عن غضبه:

- أنا منزعج جداً من أن هذه النزاعات تنشأ أساساً حول أشخاص يحملون كنية يهودية.

قال أليكسي أليكسييفيتش:

- إذاً هذه هي المسألة - وانتقل من اللهجة السلميّة إلى الحربيّة، فقال: - فيكتور بافلوفيتش، لقد حُدّدت للمعهدِ مهامٌّ مسؤولة. لا حاجة إلى أن نقول لك في أيّ الأوقات الصعبة حُدّدت هذه المهام. وأعتقد أن مختبرك لا يمكنه الإسهام على نحوٍ كامل في تحقيقِ هذه المهام في هذا الوقت. ثم حول عملك الذي كان بلا شك مثيراً

للاهتمام، فبالقدر نفسه أثارت هذه الضوضاء المفرطة حوله، الشكوك والجدل.

وقال على نحوٍ لافت:

- هذه ليست وجهة نظري فحسب. الرفاق يعتقدون أن هذا الضجيج يشوّش العاملين في المجال العلمي. بالأمس، تحدثوا بالتفصيل إليَّ عن هذا. أُعربَ عن وجهة نظر مفادها أنَّ عليك التفكير في استنتاجاتك، فهي تتناقض مع التصوّرات المادية حول طبيعة المادة، ويجب أن تتحدث أنت نفسك عن هذا الأمر. بعض الأشخاص، ولأسباب غير واضحة بالنسبة إليّ، مهتمون بإعلان النظريات المثيرة للجدل باعتبارها الاتجاه العام للعلوم، في وقت ينبغي فيه تحويل قوانا جميعها إلى المهام التي حدّدتها الحرب. كل هذا خَطِرٌ جداً. لقد جئتني بادعاءاتٍ حول هذه التي تُدعى لوشاكوفا. آسف، لكنني لم أعرف أبداً أن لوشاكوفا هي كنية يهودية.

ارتبك شتروم، وهو يستمع إلى شيشكوف. لم يعرب له أحدٌ مباشرة في وجهه عن موقف عدائي تجاه عمله. الآن وللمرة الأولى سمع هذا من الأكاديمي، رئيس المعهد الذي يعمل فيه.

وهكذا، غير خائفٍ من العواقب، قال كل ما فكر فيه، وما لا ينبغي أن يقوله.

قال ليسَ من شأن الفيزياء أن تؤكِّدَ الفلسفةَ أو لا. وقال إن منطق الاستنتاجات الرياضيّة أقوى من منطق إنجلز ولينين، وليَقمْ بادين في قسم العلوم في اللجنة المركزية بتكييف وجهات نظر لينين مع الرياضيات والفيزياء، وليس الفيزياء والرياضيات مع آراء لينين. وقال إن التطبيق العملي ضيق الأفق يدمِّر العلم، بغض النظر، من كان

الذي عبّر عنه «حتى ولو كان الربّ نفسه»؛ النظرية العظيمة هي التي تُولّد تطبيقاً عمليّاً عظيماً. إنه مقتنع بأن القضايا الفنيَّة الأساسيَّة، وليس فقط المسائل التقنيّة، سَتُحَلُّ في القرن العشرين فيما يتعلق بنظرية العمليّات النووية. إنه سيعبّر عن طيب خاطر بهذه الروح إذا كان الرفاق، الذين لا يريد أن يسمّيهم شيشكوف، يَعُدُّونَ خطابه ضرورياً.

وقال:

- أما بالنسبة إلى الأشخاص الذين يحملون كنية يهودية، أليكسي أليكسييفيتش، فيجب ألا تمزح بهذا الشأن إذا كنتَ حقّاً مثقَّفاً روسيّاً. وفي حال رفضك لطلباتي، سأضطر إلى ترك المعهد من فوري. لا أستطيع العمل بهذه الطريقة.

أخذ نفساً، نظر إلى شيشكوف، فكر وقال:

- من الصعب عليَّ العمل في ظل هذه الظروف. أنا لست فيزيائياً فقط، لكنني إنسان. أشعر بالخجل من الناس الذين ينتظرون المساعدة مني والحماية من الظلم.

قال الآن «إنه من الصعب العمل في مثل هذه الظروف»، لم يكن لديه الحماس لتكرار الكلمات حول ترك المعهد الفوري للمرة الثانية. رأى شتروم في وجه شيشكوف أنه لاحظ هذه الصيغة المخفَّفة.

وربما لهذا السبب ضغط شيشكوف قائلاً:

- لا يعقلُ أن نواصل الحديث بلغة الإنذارات. بالتأكيد، أنا مُجبر على مراعاة رغباتك.

تملّك شتروم شعورٌ غريب، وفي الوقت نفسه كئيب وفرح طوال

اليوم. الآلات في المختبر، والجهاز الجديدُ أوشك تركيبه على الانتهاء، بدا له ذلك جزءاً من حياته، ودماغه، وجسده. كيف يمكنه العيش مُنفصلاً عن هذهِ الأشياء؟

كان أمراً فظيعاً أن يتذكر الكلمات الهرطقيّة التي لفَظها على مسامعِ المدير. وفي الوقت نفسه شعرَ بالقوة. كان عجزه في الآنِ نفسه قوته. لكن هل استطاع التفكير، أنه في أيام انتصاره العلمي، بعد عودته إلى موسكو، كان سيتعيَّن عليه خوض مثل هذا الحديث؟

لم يستطع أحد أن يعرف عن صدامِهِ مع شيشكوف، ولكن بدا له أن الموظفين كانوا ودودين معه خصوصاً اليوم.

أخذت آنّا ستيبانوفنا يدَهُ وضغطت عليها.

وقالت:

- فيكتور بافلوفيتش، لا أريد أن أشكرك، لكنني أعرف أنك أنت؛ إنما هو أنت.

وقف بصمت إلى جوارها، مُتحمساً وسعيداً تقريباً.

«ماما ماما، - فكّر فجأة - أرأيت، أرأيت».

قرّر وهو في طريقه إلى المنزل، ألّا يقول شيئاً لزوجته، لكنه لم يستطع التغلب على عادة التشارك معها في كل ما يحدث له، وقال وهو يخلع معطفه عند المدخل:

- تعلمين؟ سأترك المعهد.

انزعجت لودميلا نيقولايفنا وغضبت، لكنّها قالت له من فورها كلمات لم تَسرّه:

- أنت تتصرف وكأنك لومونوسوف أو منديليف. إذا تركت،

فسيحلّ مكانك سوكولوف أو ماركوف - رفعت رأسها عن الخياطة وتابعت:- دع صاحبك لانديسمان يذهب إلى الجبهة. وإلّا فسيترسَّخُ بالفعل، في تصوّر الناس المنحازين: أنَّ يهوديّاً يُشغّل يهودياً في معهد للدفاع.

قال:

- حسناً، حسناً، هذا يكفي. لا تعنّفيني لوديشكا، وارحميني. أتذكرين ماذا قال نيكراسوف؟ «فكّرَ المسكينُ في الدخول إلى معبد المجد، وكان سعيداً لأنّه وصل إلى المستشفى». لقد اعتقدت أنني سوَّغتُ الخبز الذي أكلته، لكنهم يطالبونني بالتوبة عن الخطايا والبدع. لا، فكّري أنت فحسب: أقدّم التوبات. هذا هراء! وهنا يرشحونني جميعهم لنيلِ الجائزة، والطلاب يزورونني. هذا كلّه بسبب بادين! ولكن أيّ بادين هنا؟ سادكو لا يحبني!

اقتربت لودميلا نيقولايفنا منه، ورتَّبت ربطة عنقه، وسحبت سترته، وسألته:

- لم تتناول الغداء على الأغلب، إنّك شاحب جداً.

- أنا لا أريد أن آكل.

- تناول الخبز والزبدة، بينما أسخّن الغداء.

ثم سكبت في كوبٍ قطراتٍ من دواء القلب، وقالت:

- اشربها، لا يعجبني مظهرك، اسمح لي أن أتحقق من نبضك.

دخلا المطبخ، مضغ شتروم الخبز، ونظر إلى المرآة، التي علقتها ناديا بالقرب من عداد الغاز.

قال:

- كم الأمرُ غريبٌ، ووحشيّ! هل فكرت في كازان أنني سأضطر إلى ملء استماراتٍ من مئة طبقة، والاستماع إلى ما سمعته اليوم؟ يا لها من قوة! الدولة والإنسان. . . إما أن ترفعه عالياً، أو ترميه في الهاوية من دون عناء.

قالت لودميلا نيقولايفنا:

- فيتيا، أريد أن أتحدث إليكَ بشأن ناديا. كل يوم تقريباً، تعود إلى المنزل بعد بدء حظر التجوّل.

قال شتروم:

- لقد أخبرتني بالفعل عن ذلك منذ أيّام.

- أذكر أني قلت لك. الليلة الماضية، اقتربتُ مصادفة من النافذة، أزحت الستارة ورأيتها؛ كانت ناديا تمشي مع رجل عسكري، وتوقّفت بالقرب من متجر الحليب، وبدأت بتقبيله.

توقف فيكتور بافلوفيتش عن المضغ بسبب الدهشة، وقال:

- هكذا إذاً.

ناديا تبادلتِ القُبلَ مع عسكريٍّ. جلس شتروم بصمت بضع لحظات، ثم بدأ يضحك. ربما يمكن لهذه الأخبار المذهلة وحدها أن تصرف انتباهه عن الأفكار الصعبة وتنزَع مخاوفه. للحظة تقابلت عيونهما، وضحكت لودميلا نيقولايفنا أيضاً على نحوٍ غير متوقع. نشأ في تلك اللحظةِ ذلك التفهّم الكامل بينهما، الذي لا يمكن تحقيقه إلا في لحظات نادرةٍ من الحياة، والذي لم يكن في حاجة إلى كلمات وأفكار.

وما كان مُفاجِئاً بالنسبة إلى لودميلا نيقولايفنا أن يبدأ شتروم بقولِ كلامٍ ليس في مكانه:

- عزيزتي، عزيزتي، وافقيني أنني تصرفت على نحوٍ صحيح، في صدامي وجهاً لوجه مع شيشكوف؟

كان مساراً بسيطاً للأفكار، لكن لم يكن من السهل فهمه. هنا توحّدت الأفكارُ معاً: عن الحياة المعيشة، وعن مصير توليا وآنّا سيمينوفنا، وعن أنّ الحربَ وربّما الشيخوخةُ لا محالة ستدمّر الحياة، ومهما كان مقدار الشهرة والثروة اللتين اكتسبهما الشخص الذي تقدّم في السنّ، فسوف يغادر، ويموت، وسيحلُّ محلَّهُ الشباب، وربما الأمر الأهم أن تمرّ بالحياة صادقاً.

وسأل شتروم زوجته:

- أليسَ صحيحاً ما فعلتُه؟

هزت لودميلا نيقولايفنا رأسها بالنفي. عقود من التشارك، وتماسك الحياة كانت قادرة أيضاً على التقسيم.

قال شتروم، مُصالحاً:

- أتعرفين، لودا، الأشخاص الذين هم على صواب في الحياة لا يعرفون في الغالب كيف يتصرفون - إنهم ينفجرون، وقحون، وغير لبقين، وغير متسامحين، وعادة ما يتم إلقاء اللوم عليهم في اضطرابات العمل والأسرة كلّها. وأولئك الذين ليسوا على حق، الظالمون، يعرفون كيفية التصرف، بمنطق، وبهدوء، وبلباقة، ويبدونَ دائماً على حق.

وصلت ناديا في الساعة الحادية عشرة. وعند سماع صوت المفتاح في القفل، قالت لودميلا نيقولايفنا لزوجها:

- تحدث إليها.

قال فيكتور بافلوفيتش:

- الأفضل أن تفعلي ذلك أنت، لن أفعل أنا، لكن عندما دخلت ناديا غرفة الطعام، وشعرها مشعّث وأنفها مُحمَرٌّ، قال: مع من تبادلتِ القُبل أمام الباب الأمامي؟

تَلَفَّتت ناديا فجأة حولها، كما لو أنّها على وشك الهرب، فاتِحةً فمها نصفَ فتحة، ونظرت إلى والدها.

بعد لحظةٍ، هزَّت كتفيها وتكلمت بلا مبالاة:

- ها... أندريوشا لوموف، وهو الآن في مدرسة الملازمين.

- حسناً، هل تنوين الزواج به؟ - سأل شتروم، دَهِشاً من صوت ناديا الواثق بنفسه. والتفت إلى زوجته؛ هل ترى ناديا؟

ضيّقت ناديا عينيها وكأنّها كبرت، وألقت كلماتٍ مُنزَعِجةً.

- زواج؟ - أعادت السؤال، أدهشت شتروم هذه الكلمة التي نطقتها ابنته، - ربمّا أنوي!

ثم أضافت:

- أو ربّما لا، لم أقرر نهائيّاً.

سألت لودميلا نيقولايفنا، التي بقيت صامتة طوال الوقت:

- ناديا، لماذا كذبت عليَّ بشأن والد ميكين والدروس؟ أنا لم أكذب على أمي إطلاقاً.

وتَذكَّرَ شتروم أنه في وقت غزله بلودميلا، قالت له ذات مرَّة عندما أتت إلى الموعد:

- تركت توليا عند أمّي، كذبت عليها وقلت لها إنني ذاهبة إلى المكتبة.

عادت ناديا فجأة إلى طبيعتها الطفولية، وقالت بصوت باكٍ وغاضب:

- وهل من الجيّد التجسس عليّ؟ هل تجسّست أمّك عليك أيضاً؟

قال شتروم غاضباً:

- أيّتها الحمقاء، لا تتجرّئي أن تتعاملي بصفاقة مع والدتك!

نظرت إليه بملل وصبر.

- وهكذا، ناديجدا فيكتوروفنا، إذاً، لم تقرري بعد ما إذا كنت ستتزوجين أو تصبحين عشيقةَ عقيدٍ شاب؟

أجابت ناديا:

- لا، لم أقرر بعد، وثانياً هو ليس عقيداً.

أيعقل أن شاباً في معطفٍ عسكريٍّ يُقبِّلُ شفتي ابنته الصغيرة؟ هل من الممكن حقاً أن يَقع في حبّ فتاة صغيرة: نادكا، الحمقاء، الذكية، وينظر في عينها؛ عيني الجرو الصغير؟

لكن هذه قصة أبدية. . .

سكتت لودميلا نيقولايفنا، مدركةً أن ناديا الآن ستغضب وتصمت. وعرفت أنه عندما تبقيانِ وحدهما، ستداعب رأسَ ابنتها وتمسّد شعرها، تتنهّد ناديا، دون أن يُعرفَ لماذا، وتأسفُ لودميلا نيقولايفنا لأجلها بشّدة دونَ أن يُعرَفَ أيضاً لماذا، لأنه في النهاية ليسَ أمراً مخيفاً أن تتبادلَ فتاةٌ القُبلَ مع ولد. وسوف تخبرها ناديا بكل شيء عن هذا اللوموف، وستمسّد شعر ابنتها وتتذكر هي كيف قبّلت للمرة الأولى، وسوف تفكر في توليا، لأن كل ما يحدث في الحياة له صلة بتوليا. وتوليا غير موجود.

كم هو محزن حب هذه الفتاة على حافة هاويةِ الحرب. توليا، توليا. . .

أمّا فيكتور بافلوفيتش فقد خلقَ ضّجَّةً، من جرّاء القلق الأبوي الذي سيطرَ عليه.

سأل:

- أين يخدم هذا المعتوه؟ سأتحدث إلى قائده، وسوف يُريهِ كيفَ يقيمُ علاقات غرامية مع الفتيات الصغيرات.

صمتت ناديا، وصمت شتروم، مسحوراً بغرورها، صمت لاإراديّاً، ثم سأل:

- ما بك تنظرين إليّ، وكأنّك جنس سامٍ يُحدِّقُ في الأميبا[1]؟

ذكَّرته نظرة ناديا، بطريقة غريبة ما، بحديثه اليوم مع شيشكوف؛ ساعةَ نظر أليكسي أليكسييفيتش الهادئ والواثق بالنفس إلى شتروم من ذروة عظمته الحكوميّة والأكاديميّة. شعر شتروم غريزياً، أمام نظرة عيني شيشكوف المضيئتين، بعدم جدوى احتجاجاته كلها وإنذاراته النهائية واضطراباته. إنّ قوة نظام الدولة ارتفعت ككتلةً بازلتيةً، ونظر شيشكوف لامبالياً وهادئاً إلى ضجيج شتروم - لن يرفع ذلك البازلت.

إنه أمر غريب، لكن الفتاة التي كانت تقف أمامه الآن، بدت مُدركةً أيضاً أنه يريدُ متوتراً وغاضباً تحقيقَ ما هو مستحيل؛ إيقاف مجرى الحياة.

وفكر شتروم ليلاً أنه إذا ما قطع علاقته مع المعهد فسيدمر حياته.

---

(1) أبسط كائن حي وحيد الخلية. (المترجمان).

سيُعطونَ رحيله عن المعهد طابعاً سياسياً، وسيقولون إنه أصبح مصدراً لأمزجة معارضة غير صحيّة؛ والآن حرب، ويحظى المعهد بتأييد ستالين. وفوقَ كل ذلك تلكَ الاستمارة المخيفة. . .

وهنا يأتي الحديث المجنون مع شيشكوف، وأيضاً الأحاديث في كازان. ومادياروف. . .

فجأة شعر بخوفٍ شديد إلى درجة أنه أراد أن يكتب رسالة تصالحيّة إلى شيشكوف ويلغي فيها أحداث اليوم كلّها.

56

رأت لودميلا نيقولايفنا، بعد عودتها من عندِ الموزِّع، في فترة ما بعد الظهر، أن رسالة تلوحُ ببياضها في صندوق البريد. راحَ قلبها الذي ينبض بعنف بعد تسلق السُّلَّم، ينبض بقوة أكبر. حملت الرسالة في يدها، ومضت إلى غرفة توليا، وفتحت الباب، كانت الغرفةُ خاليةً: لم يرجع اليوم أيضاً.

نظرت لودميلا نيقولايفنا إلى الصفحات المكتوبة بخط يد والدتها المألوف لها منذ الطفولة. رأت أسماء جينيا، فيرا، ستيبان فيدوروفيتش، اسم ابنها لم يكن في الرسالة. انحسرَ الأملُ مرَّة أخرى في زاويةٍ ميِّتةٍ، ولكنّه لم يستسلم.

لم تكتب ألكساندرا فلاديميروفنا شيئاً تقريباً عن حياتها، بل بضع كلمات فحسب عن أن نينا ماتيفنا، مالكة الشقة في كازان، أظهرت بعد رحيل لودميلا، كثيراً من الميزات غير السارّة. لا توجد أخبار من سيريوجا وستيبان فيدوروفيتش وفيرا. تُقلق ألكساندرا فلاديميروفنا، جينيا؛ يبدو أنها تواجه بعض الأحداث الجدّية في حياتها. تُلمّح جينيا في رسالة إلى ألكساندرا فلاديميروفنا، إلى متاعب ما، وقد تضطر إلى الذهاب إلى موسكو.

لم تعرف لودميلا نيقولايفنا كيف تحزن. كانت تعرف الحداد. توليا، توليا، توليا.

ها هو ذا ستيبان فيدوروفيتش يصبحُ أرملَ... فيرا يتيمة بلا مأوى. هل سيريوجا على قيد الحياة؟ هل يرقد مشوّهاً في مستشفى ما؟ تعرَّضَ والده لإطلاق النار أو مات في المعسكر، وتوفيت والدته في المنفى... منزل ألكساندرا فلاديميروفنا احترق، تعيش وحدها، ولا تعرف عن ابنها، وعن حفيدها شيئاً.

لم تكتب الأمُّ عن حياتها في كازان، وعن صحتها، وهل الغرفة دافئة، أو ما إذا تحسّن التموين.

عرفت لودميلا نيقولايفنا لماذا لم تذكر والدتها كلمةً واحدة عن كلّ هذا، وكانت هذه المعرفة مؤلمة لها.

أصبح منزل لودميلا فارغاً وبارداً. وكأنّ قنابل رهيبة ومروّعة قد ضربته، انهار كل شيء فيه، وخرجت الحرارة منه، وآلَ إلى خراب.

فكرت كثيراً هذا اليوم في فيكتور بافلوفيتش. علاقتهما مخلخلة. فيكتور منزعج منها، وأصبح بارداً معها، ومن المحزن على نحوٍ خاص أنها لا تهتم. إنها تعرفه جيّداً. من بعيد يبدو كلُّ شيءٍ رومانسيّاً وسامياً. إنّها بوجه عام ليس لديها موقف شاعري وحماسي تجاه الناس، أمّا ماريا فيكتوروفنا مثلاً فترى في فيكتور بافلوفيتش طبيعةً مضحّيةً وساميةً وحكيمةً. ماشا تحب الموسيقا، حتى إنّها تشحب عندما تسمع البيانو، وفيكتور بافلوفيتش يعزف أحياناً بناءً على طلبها. من الواضح أن طبيعتها كانت بحاجة إلى موضِعِ أو أنموذجِ إعجاب، وقد خلقت لنفسها ذلك الأنموذج المرموق، اخترعت لنفسها شيئاً غير موجود في حياة شتروم. ولو راقبت ماشا

فيكتور كل يوم، فستصاب بخيبة أمل سريعاً. أدركت لودميلا نيقولايفنا أن الأنانية وحدها هي التي تحرك تصرفات فيكتور، فهو لا يحب أحداً. والآن، وهي تفكر في مقابلته مع شيشكوف، امتلأت قلقاً وخوفاً عليه، وظلَّت تعاني في الوقت نفسه من التوتر المعتاد: فهو مستعد للتضحية بعلمه وسلامة أقاربه من أجل المتعة الأنانيّة، ولعب دور المدافع عن الضعيف.

لكنَّهُ بالأمس، نسيَ أنانيّته قَلِقاً على ناديا، نسي الأنانية. هل يمكن لفيكتور أن ينسى عمله الشاق كلّه، ويقلق بشأن توليا؟ لقد ارتكبت خطأً أمس. لم تكن ناديا صريحة معها؛ ماذا كان الأمر: هل هو صبيانيَّة عابرة أم قدرها؟

أخبرتها ناديا عن المجموعة، حيث قابلت لوموف هذا. لقد تحدثت بطريقة مفصلة إلى حد ما عن الشباب الذين يقرؤون القصائد التقليديّة غير الحديثة، وعن خلافاتهم حول الفن القديم والجديد، وعن موقفهم المزدري والساخر لأشياء بدا للودميلا أنه لا ينبغي أن يكون هناك موقف ازدراء ولا سخرية حيالها.

أجابت ناديا عن طيب خاطر عن أسئلة لودميلا، وعلى ما يبدو، كانت تقول الحقيقة: «لا، نحن لا نشرب الخمر، مرة واحدة شربنا فقط، عندما ودّعنا صبيّاً إلى الجبهة»، «يتحدثون في بعض الأحيان في السياسة. لكن، بالتأكيد، ليس كما يُقالُ في الصحف، ولكن ذلك في حالات نادرة جداً، حدثَ ربما مرة أو مرتين».

ولكن بمجرد أن بدأت لودميلا نيقولايفنا تسألها عن لوموف، أجابت ناديا بفظاظة: «لا، إنه لا يكتب الشعر»، «كيف يمكنني أن أعرف من والداه؟ بالتأكيد، لم أرهما مرّةً، لماذا هذا غريب؟ هو

أيضاً، ليس لديه أدنى فكرة عن أبي، وربما يعتقد أنه بائع في متجر للمواد الغذائية».

هل هذا هو مصير ناديا أم أنَّ كل شيءٍ سيُنسى خلال شهر؟

فكرت وهي تُحضّر الغداء، وتغسل، في والدتها، وفي فيرا وجينيا، وفي سيريوجا. اتصلت بماريا إيفانوفنا هاتفيّاً، لكن أحداً لم يُجب على الهاتف، اتصلت ببوستوييفا، فأجابت العاملة أن صاحبة البيت ذهبت للتسوق، واتصلت بمكتبِ إدارة المبنى لاستدعاء السمكري لإصلاح الحنفية، فقالوا لها إنّه لم يأتِ إلى العمل.

جلست لتكتب إلى والدتها، - بدا أنها ستكتب رسالةً مطوّلةً، تطلب المغفرة، لكونها لم تستطع تهيئة الظروف المعيشية الضرورية لألكساندرا فلاديميروفنا، ففضّلتِ العيش في كازان وحدها. ومن المعروف أنَّهُ منذ أوقات ما قبل الحرب، لم يزرْ لودميلا نيقولايفنا أحد من أقاربها، ولم ينم عندها أحد. والآن، لا يذهب أقرب الناس إليها، إلى شقتها الكبيرة في موسكو. الرسالةُ لم تكتبها بل مزقت أربع أوراق فحسب.

اتصل فيكتور بافلوفيتش قبل نهاية يوم العمل هاتفيّاً، وقال إنه سيتأخر في المعهد؛ في المساء سيصل الفنيّون الذين استدعاهم من المصنع العسكري.

سألت لودميلا نيقولايفنا:

- هل هناك من جديد؟

قال:

- آه، بهذا المعنى؟- لا، لا جديد.

مساء، قرأت لودميلا نيقولايفنا مرة أخرى رسالة والدتها، واقتربت من النافذة.

كان القمرُ ساطعاً، والشارعُ مهجوراً. ومرة أخرى رأت ناديا تتأبّط ذراع العسكري؛ كانا يسيران على الرصيف قادمين إلى البيت. ثم ركضت ناديا، بينما وقفَ الشاب في معطفهِ العسكريّ وسط الرصيف المقفر، ينظر وينظر. لكأنّ لودميلا نيقولايفنا وحّدت في قلبها، كل ما بدا أنَّهُ لا يمكن توحيده؛ حبّها لفيكتور بافلوفيتش، وقلقها عليه وحقدها عليه. وتوليا الذي غادر الحياة دون أن يقبّل شفتي فتاة، والملازم الذي كان واقفاً على الجسر؛ وفيرا التي تصعدُ الآن درجَ بيتها في ستالينغراد، وألكساندرا فلاديميروفنا التي بلا مأوى...

عَبَّأَ روحها الإحساسُ بالحياة التي كان الفرح الوحيد للإنسان فيما مضى وحزنه الرهيب يملآنِها.

57

اصطدم شتروم بشيشكوف، الذي خرج من السيارة عند مدخل المعهد.

ألقى شيشكوف التحية، ورفع قبعته، ولم يظهر رغبة في التوقف والتحدث إلى فيكتور بافلوفيتش.

فكر شتروم «أشعر بالسوء».

نظر البروفيسور سفيتشين أثناء الغداء نحوه، وهو يجلس إلى الطاولة المجاورة، ولم يتحدث إليه. تحدث غوريفيتش السمين، الذي كان يخرج من المطعم، مع شتروم بحفاوة خاصة اليوم، وصافحه لفترة طويلة، ولكن عندما فُتِحَ باب مكتب المدير قال غوريفيتش فجأة وداعاً وسار بسرعة في الممر.

ماركوف، الذي كان شتروم يتحدث إليهِ عن إعداد معدات للتصوير المرتقب للجزيئات النووية في المختبر، رفع رأسه عن دفتر ملاحظات وقال:

- فيكتور بافلوفيتش، أخبروني أنّه دار حديث صعب جداً عنك في مكتب لجنة الحزب. لقد طرّز لك كوفتشينكو محفظة، فهو «لا يريد لشتروم العمل في فريقنا».

- طرّز، فليطرّز - قال ذلك شتروم، وشعر بجفنه يرتجف.

شعر شتروم، أثناء حديثه مع ماركوف حول الصور النووية، بشعور أنه ليس هو نفسه، بل ماركوف، المسؤول عن المختبر. وكان صوت ماركوف صوت المسؤول المتعجّل، وجاء إليه نوزدرين مرتين، يطرح أسئلة حول تركيب المعدات.

لكن فجأة أصبح وجه ماركوف مشتكياً راجياً، وقال بهدوء لشتروم:

- فيكتور بافلوفيتش، من فضلك لا تستند إليّ إذا دار الحديث عن اجتماع لجنة الحزب هذا، وإلا فسوف أواجه بعض المشكلات: خيانة أسرار الحزب.

قال شتروم:

- بالتأكيد، ما بك؟

قال ماركوف:

- كل شيء سوف يستقر.

قال شتروم:

- آه، سيكملون من دوني. والتلميحات الغامضة حول مشغّل، هراء قطط وكلاب!

قال ماركوف:

- أعتقد أنك مخطئ بالأمس تحدثت إلى كوتشكوروف، وأنت تعرف، إنّه لا يرتفع في الغيوم. قال لي: «في عمل شتروم، تتفوق الرياضيات على الفيزياء، لكن الشيء الغريب، أنه يومض بالنسبة إليّ، وأنا شخصياً لا أفهم السبب».

فهم شتروم ما كان ماركوف يلمح إليه - كان كوتشكوروف الشاب متحمِّساً للعمل المتعلِّق بتأثير النيوترونات البطيئة على نوى الذرّات الثقيلة، وأكّد أن هذه الأعمال مرتبطة بآفاق عمليَّة مستقبليّة.

قال شتروم:

- الكوتشكوريون لا يقرّرون أي شيء. الباديون يقرّرون، ويعتقد بادين أنني يجب أن أتوب لكوني أسحب الفيزيائيين إلى التجريد التلمودي.

على ما يبدو أنّ كل شخص في المختبر على دراية بخلاف شتروم مع رؤسائه، وباجتماع لجنة الحزب بالأمس. نظرت آنّا ستيبانوفنا إلى شتروم بعينين تعانيان.

أراد شتروم التحدث إلى سوكولوف، لكن سوكولوف غادر إلى الأكاديمية في الصباح، ثم اتصل هاتفياً بأنه سيتأخر، ومن غير المرجح أن يعود إلى المعهد.

كان سافوستيانوف ولسبب ما في مزاج ممتاز، ومزح من دون انقطاع.

وقال:

- فيكتور بافلوفيتش، إن غوريفيتش الجليل، عالم بارع ومتميز - ومسَّد بيده على رأسه وبطنه، ملمِّحاً إلى رأس غوريفيتش الأصلع وبطنه.

التقى شتروم مساءً عند عودته سيراً على الأقدام من المعهد، في شارع كالوغا، وعلى نحوٍ غير متوقع ماريا إيفانوفنا.

نادته هي أولاً. كانت ترتدي معطفاً لم يره فيكتور بافلوفيتش من قبل، ولم يتعرف إليها مباشرة.

قال:

- إنه لأمر مدهش، ما الذي أوصلك إلى شارع كالوغا؟

صمتت لبضع لحظات، نظرت إليه. ثم هزّت رأسها قائلة:

- هذا ليس مصادفة، أردت أن ألتقي بك، لذلك وجدتني في شارع كالوغا.

شعر بالحرج، وفتح يديه قليلاً.

سقط قلبُه للحظة، بدا له - أنّها ستخبره الآن بشيء مخيف جداً، وتحذّره من الخطر.

قالت:

- فيكتور بافلوفيتش، أردت أن أتحدث إليك. لقد أخبرني بيوتر لافرينتييفيتش بكل شيء.

قال شتروم:

- آه، عن نجاحاتي الرائعة.

سارا جنباً إلى جنب، وكان يمكن الاعتقاد أنّ شخصين غريبين يسيران.

أحرج شتروم صمتُها، وقال وهو ينظر جانبيّاً إلى ماريا إيفانوفنا:

- لقد وبّختني لودميلا بسبب هذه القصة. فهل تريدين حقاً أن تغضبي مني أيضاً؟

قالت:

- لا، لست غاضبة. أعرف ما الذي جعلك تفعل ذلك.

نظر بسرعة إليها.

قالت:

- لقد فَكَّرتَ في أمّك.

هزّ رأسه.

ثم قالت:

- لا يريد بيوتر لافرينتييفيتش إخبارك... لقد حدَّثوه أن الإدارة والتنظيم الحزبي اجتمعا ضدك، سمع بادين يقول: «هذه ليست مجرد نوبة غضب. هذه هيستيريا سياسيّة مناهضة للاتحاد السوفييتي».

قال شتروم:

- يا لها من هيستيريا عندي! لكنني شعرت: أنَّ بيوتر لافرينتيفيتش لا يريد أن يقول لي ما يعرفه.

- نعم لم يفعل. وأنا تألّمت من أجله.

- يخاف؟

- نعم خائف. إضافة إلى ذلك، يعتقد أنك مخطئ مبدئيّاً.

قالت بهدوء:

- بيوتر لافرينتييفيتش جيّد، لقد عانى كثيراً.

قال شتروم:

- نعم، نعم، هذا مؤلم: إنّهُ عالم عريق شجاع، ولكنَّ له روحاً غير شجاعة.

كرّرت ماريا إيفانوفنا قائلة:

- لقد عانى كثيراً.



قال شتروم:

- لكن ليس أنت، بل كان ينبغي أن يخبرني هو بذلك.

أخذ ذراعها وقال:

- أَسْمَعُ ماريا إيفانوفنا، أخبريني ما الذي حدث مع مادياروف؟ «لا أفهم على الإطلاق - ماذا حدث هناك؟»

أصبحت تقلقه الآن باستمرار فكرة أحاديث كازان، وغالباً ما يتذكر عبارات وكلمات منفصلة، والتحذير المشؤوم لكاريموف، وفي الوقت نفسه شكوك مادياروف. بدا له أن غيوم موسكو فوق رأسه، ستلتقي حتماً مع أحاديث كازان.

قالت:

- أنا شخصياً لا أفهم ما حدث. الرسالة المسجلة التي أرسلناها إلى ليونيد سيرغييفيتش عادت إلى موسكو. هل غيّر العنوان؟ هل غادر؟ هل حدث الأسوأ؟

تمتم شتروم وارتبك للحظة:

- نعم، نعم، نعم.

من الواضح أن ماريا إيفانوفنا اعتقدت أن سوكولوف أخبر شتروم بالرسالة المرسلة وعودتها. لكن شتروم لم يكن لديه أي فكرة عن هذه الرسالة، ولم يقل سوكولوف أي شيء له. سألها شتروم عما حدث، قاصداً خلاف مادياروف مع بيوتر لافرنتييفيتش.

قال لها:

- هيّا نذهب إلى حديقة نيسكوشني.

- لكننا نسير ليس في ذلك الاتجاه؟

قال:

- هناك مدخل من شارع كالوغا.

أراد أن يسألها بالتفصيل عن مادياروف، وعن شكوكه حول كاريموف، ويحدثها عن شكوكه هو في كاريموف. لن يزعجهما أحد في حديقة نيسكوشني المهجورة. ستفهم ماريا إيفانوفنا من فورها أهمية هذه الحديث. وشعر أنه يستطيع التحدث إليها بحرية وثقة حول كل ما يزعجه، وأنها ستكون صريحة معه.

بدأ ذوبانُ الجليد، منذ فترة قصيرة على سفوح التلال في حديقة نيسكوشني، وأخذت تنظر مُطلَّةً برؤوسها من هنا وهناك من تحت الثلج الذائب الأوراق الفاسدة المبللة، لكن الثلج كان سميكاً في الوديان. ووقفت السماء الغائمة المملّة، فوق الرأس.

قال شتروم وهو يتنفس في الهواء البارد الرطب:

- يا له من مساء جيّد.

- نعم، جيّد، لا وجود لأحد، وكأنّنا خارج المدينة.

مشيا على الطرق القذرة. وعندما اعترضت دربهما نقعة ماء، مد يده إلى ماريا إيفانوفنا وساعدها في العبور.

سارا صامتين فترةً طويلة، ولم يكن يرغب أن يبدأ حديثاً؛ لا عن الحرب ولا عن شؤون المعهد، ولا عن مادياروف، ولا عن مخاوفهما، ولا عن توقعاتهما، وشكوكهما، أراد أن يسير بصمت إلى جانب امرأة صغيرة تخطو خطوات غير مريحة، وفي الوقت نفسه أن يحسَّ بخفةٍ طائشةٍ وهدوء، ليس من الواضح لماذا جاءت إليه.

هي لم تتحدث عن أي شيء، ومشت ورأسها منخفض قليلاً.

وصلا إلى الضفة، وكان على النهر جليد عاتم.

قال شتروم:

- المكان جيّد.

أجابت:

- نعم، جداً.

كان طريق الأسفلت على الضفة جافاً، وسارا بسرعة، مثل اثنين من المسافرين على طريق طويل. قابلا عسكريّاً مصاباً، ملازماً، وفتاةً قصيرة عريضة الكتفين في بدلة تزلّج. مشيا متعانقين وتبادلا القبل من وقت إلى آخر. وعندما أصبحا بموازاة شتروم وماريا إيفانوفنا، قبّلَ كلٌّ منهما الآخر مرة أخرى وتلفّتا حولهما وضحكا.

فكّر شتروم: «ربما سارت ناديا هكذا هنا مع ملازمها».

نظرت ماريا إيفانوفنا إلى الوراء وقالت:

- يا له من منظر محزن! - وأضافت مبتسمة - أخبرتني لودميلا نيقولايفنا عن ناديا.

قال شتروم:

- نعم، نعم، وهذا غريب مدهش.

ثم قال:

- قررت الاتصال بمدير المعهد الكهروميكانيكي أعرض نفسي للعمل. وإذا لم يقبلوني، فسوف أغادر إلى مكان ما، إلى نوفوسيبيرسك، أو كراسنويارسك.

قالت:

- ما العمل؟ على ما يبدو يجب فعل ذلك. لا يمكنك أن تفعل خلاف ذلك.

قال:

- كم هو محزن كلّ هذا!

أراد أن يخبرها، بأيّ قوّة خاصّة يشعر بحبه للعمل، وللمختبر، وأنه عندما ينظر إلى الجهاز الجديد، الذي سيخضع قريباً للاختبارات الأولى، يفرح ويحزن، ويبدو له أنه سيقصد المعهد ليلاً، لينظر من النوافذ. فكّر أن ماريا إيفانوفنا ستشعر من خلالِ كلماته بالحاجة إلى المرح، ولم يقل شيئاً.

اقتربا من معرض الغنائم. أبطآ في خطواتهما، وأمعنا النظر إلى الدبابات الألمانيّة المطليّة باللون الرمادي، والبنادق، ومدافع الهاون، وطائرة يعلوها صليب معقوف أسود فوقَ أجنحتها.

قالت ماريا إيفانوفنا:

- مخيف أن تنظر إليها حتى وهي خرساء لا تتحرّك.

قال شتروم:

- لا بأس، يجب على المرء أن يُهدّئ نفسه بحقيقة أنّه في الحرب المستقبليّة، سيبدو كل هذا بدائيّاً، مثل المسكيت[1] والمطرد[2].

عندما اقتربا من أبواب الحديقة، قال فيكتور بافلوفيتش:

---

(1) المسكيت هو سلاح ناري ذو تجويف أملس يلقم عبر الفوهة ويُطلق من الكتف. (المترجمان).

(2) المِطرَد سلاح أبيض يُركَّبُ من رمح وفأس، وهو سلاح قديم استخدم في الصين منذ أمدٍ بعيد، ونقله الألمان والإسكندينافيون إلى أوروبا حوالي القرن الرابع عشر. (المترجمان).

- إذاً انتهت جولتنا، من المؤسف أن تكون حديقة نيسكوشني صغيرة جداً. هل أنت متعبة؟

قالت:

- لا، لا، لقد اعتدت ذلك، أمشي كثيراً.

إمّا أنها لم تفهم كلماته، وإمّا تظاهرت بعدم فهمها.

قال:

- تعلمين، و لسبب ما، تعتمد لقاءاتي معك دائماً على لقاءاتِك مع لودميلا، ولقاءاتي مع بيوتر لافرينتييفيتش.

قالت:

- نعم، نعم. - وكيف خلاف ذلك؟

غادرا الحديقة، واجتاحتهما ضوضاء المدينة، مخرّبةً سحر المشي الصامت. مضيا إلى الساحة غير البعيدة عن المكان الذي التقيا فيه.

نظرت إليه كفتاة إلى شخص بالغ، وقالت:

- ربما تشعرُ الآن بحبٍّ خاصٍّ لعملك ومختبرك ولأجهزتك. لكن لم يكن في إمكانك التصرف على نحوٍ مختلف، بينما كان في مقدور شخص آخر التصرف بطريقة أخرى، وربما قلت لك أموراً سيّئة، لكن يبدو لي أنَّ من الأفضل دائماً معرفة الحقيقة.

قال شتروم مصافحاً يدها:

- شكراً لك، ماريا إيفانوفنا. شكراً ليس فقط على ذلك.

بدا له أن أصابعها ارتجفت في يده.

قالت:

- إنه لأمر غريب، نحن نودّع بعضنا بعضاً، في المكان نفسه الذي التقينا فيه.

قال مازحاً:

- ليس مصادفة أنَّ القدماء قالوا: وفي النهاية تتثبّتُ البداية.

قطّبت جبهتها، تفكّر على ما يبدو في كلماته، ثم ضحكت، وقالت:

- لم أفهم.

نظر شتروم إليها وهي تغادر: إنّها امرأة نحيفة، وقصيرة، من تينكَ النساء، اللواتي لا يلتفت إليهنّ الرجالُ المارّون بجانبهنّ أبداً.

58

نادراً ما تحمل دارينسكي أسابيع كئيبة مثلما حدثَ في أثناء رحلته إلى سهوب كالميكيا. بعث برقية إلى قيادة الجبهة، مفادها أن وجوده في الجناح الأيسر، حيث يسود الهدوء التام، لم يعد ضروريّاً، وأنّه أكمل مهمته. لكن السلطات عاندت ولم تسحبه بصورةٍ غير مفهومة له.

ساعاتُ العمل كانت الأسهل، ووقت الراحة كان الأصعب.

من حولهم كان الرملُ الهشّ والجاف، يخشخش. بالتأكيد، كانت الحياة هنا أيضاً: سحالٍ وزواحفُ تخشُّ في الرمال، تاركة آثارَ ذيولها على الرمل المتناثر، ونما الشوكُ الجافُ بلون الرمل في بعض الأماكن، وحوَّمتِ الحدأة في الجو بحثاً عن جثث الطيور والقمامة، وركضت العناكب بسيقان طويلة.

بدا أن فقرَ الطبيعة القاسية، والرتابة الباردة لصحراء نوفمبر (تشرين الثاني) الخالية من الثلج، قد دمّرا الناس؛ ليس فقط في طريقة حياتهم، ولكنَّ أفكارَهم كانت سيئة وكئيبة ورتيبة.

بالتَّدرُّجِ أطاع دارينسكي هذا الرمل المملّ ذا النمط الواحد. كان دائماً غير مبال بالطعام، وهنا كان يفكر دائماً في تناول الغداء. خليطُ

الدقيق الحامض للوجبة الأولى وخليط البرغل مع الطماطم للوجبة الثانية، كانا في منزلة كابوس في حياته. شعرَ بالكآبة وهو يجلس في سقيفة مظلمة إلى طاولة خشبية تُغطّيها بقعُ من الحساء، ناظِراً إلى الأشخاص الذين يرتشفونه من الأواني المعدنية، فيرغبُ في مغادرة المطعم في أسرع وقت ممكن، ليتوقف عن سماع صوت الملاعق، ولا يشم الرائحة التي تبعثُ على الإقياء. لكنه وعندما يخرج إلى الهواء، يجذبه المطعم مرة أخرى، ويفكر في ذلك، ويحسب الساعات حتى غداء يوم الغد.

كان الجو بارداً في الأكواخ في الليل، ونام دارينسكي على نحوٍ سيّئ؛ تجمّد ظهرُه وأُذناه وساقاه وأصابعه، وخدّاه. كان ينام دون أن يخلع ملابسه، ولف اثنتين من الربطاتِ القماشيّة على رجليه، ولفّ رأسَه بمنشفة.

فوجئ في البداية بأن الأشخاصَ الذين كان يتعامل معهم هنا لا يبدو أنهم يفكرون في الحرب، ورؤوسهم كانت مملوءة بمسائل الأكل والتدخين والغسيل. ولكن سرعان ما لاحظ دارينسكي، متحدثاً إلى قادة الفرق والبطاريات حول إعداد السلاح لفصل الشتاء، وعن زيوت محاور الدوران، وعن التزويد بالذخيرة، أن رأسه كان ممتلئاً بكل أنواع المخاوف اليوميّة والآمال والأحزان.

بدا أن المقر الرئيسي بعيد المنال، وكان يحلم بالقليل - السفر ليوم واحد إلى مقر الجيش، بالقرب من إيليستا. لكن، لم يكن يتخيل وهو يفكر في هذه الرحلة، اللقاء مع آلّا سيرغييفنا ذات العينين الزرقاوين، لكنّه فكر في الحمام، والملابس المغسولة، والحساء مع الشعيريّة البيضاء.

حتى قضاء ليلة مع بوفا بدا لطيفاً له، لم يكن الوضع سيّئاً جداً في كوخ بوفا. والحديث مع بوفا لم يكن عن الغسيل، وليس عن الحساء.

لقد عذّبه القملُ على نحوٍ خاص.

لم يدرك لفترة طويلة، لماذا أخذ يحكّ في كثير من الأحيان، ولم يلاحظ ابتسامةَ مُحدِّثه التي تشي بفهم الأمر، عندما أخذ يحك بشدة تحت الإبط أو الفخذ، أثناء الحديث العملي. وأصبحَ من يوم إلى آخر، يحكُّ جسدَهُ بصعوبة أكبر. وأصبحَ الحرقُ والحكّة قربَ عظم الترقوة وتحت الإبطين مألوفاً.

أحسَّ أنه بدأ يعاني من الأكزيما، وما فسّر ذلك، أن بشرته أصبحت جافة وتهتاج بالغبار والرمال.

كانت الحكّة تعذّبه في بعض الأحيان حتّى إنه يتوقف فجأة، وهو يمشي في الطريق، ويبدأ بحكّ ساقه وبطنه وعصعصه.

كان جسمه يحكّه بخاصة آناءَ الليل. يستيقظ دارينسكي لفترة طويلة يمزّق بأظافره الجلد على صدره. رفع ساقيه ذات مرة، وهو مستلقٍ على ظهره، إلى أعلى وبدأ يئن ويحك جسمَه بالأعشاب المفرومة. تفاقمت الأكزيما بسبب الحرارة، وقد لاحظ ذلك. فتحت الأغطية، يحكّه جسمه ويحرقه على نحوٍ لا يطاق. فإذا ما خرجَ إلى الهواء الجليدي ليلاً، هدأتِ الحكة. فكّر في الذهاب إلى مستوصف طبي، لطلب مرهم للأكزيما.

صباحَ أحد الأيام فتح ياقةَ قميصه، ورأى على طول خط الخياطة صفّاً من أمّهات القمل النعسانة. عددها كان كبيراً. التفت دارينسكي

من الخوف إلى النقيب المستلقي بجواره، وكان النقيب قد استيقظ، وجلس على سريره، وكان وجهه المفترس يسحقُ القملَ على ملابسه الداخلية المفتوحة أيضاً. وكانت شفتا النقيب تهمسان بلا صوت، يبدو أنه يجري حساباً قتالياً.

خلع دارينسكي قميصَه وأخذَ يمارسُ العملَ نفسه.

كان الصباحُ هادئاً، ضبابياً. لم يُسمع أي إطلاق نار، والطائرات لم تهدر، وبالتالي ينبغي أن تكون فرقعة القمل الذي يموت تحت أظافر القادة مسموعاً بوضوح.

نظر النقيب إلى دارينسكي نظرة عابرة وتمتم:

- آخ، يا لها من كبيرة! يجب أن تكون دبّة! خنزيرة.

قال دارينسكي، دون أن يرفع عينيه عن ياقة قميصه:

- أيُعقل أنّهم لا يقدّمون هنا مسحوقاً؟

قال النقيب:

- إنهم يقدمون. ولكن ما الفائدة؟ نحن في حاجة إلى حمّام، وهنا المياه المخصصة للشرب غير كافية. في المطعم لا يغسلونَ الأواني تقريباً، يوفرون الماء. فأين يمكن أن تجدَ حمّاماً؟

- والتعقيم من القمل؟

- ليذهبوا إلى الجحيم. يحرقون البزّةَ العسكرية فقط، والقملُ يزداد تورّداً فقط. إيه، عندما كنّا في بينزا - في الاحتياط، عشنا على نحوٍ رائع! لم أذهب حتى إلى المطعم. أطعمتني صاحبةُ السكن، لم تكن عجوزاً تماماً، إنّها مثيرة. الحمّام مرتان في الأسبوع، والبيرة يوميّاً.

ولفظَ «بينزا» بتحريفٍ خاص.

- ما العمل إذاً؟ - سأل دارينسكي - بينزا بعيدة.

نظر النقيبُ إليه بجدّية، وقال بسرّية:

- هناك طريقة واحدة جيدة، أيّها الرفيق المقدم. تبغ الشمّ! تُحضّر حجرَ الطوب وتخلطه مع تبغ الشمّ. وترشه على الثياب الداخلية؛ فيبدأ القملُ بالعطس، ثم يقفز ويتقلّب، ويكسر رأسه على حجر الطوب.

كان وجهه جدّياً، ولم يدرك دارينسكي من فوره أن النقيب استعان بالفولكلور.

سمع دارينسكي بعد بضعة أيام، عشرات القصص حول هذا الموضوع. وتبيّن أن الفولكلور مشغولٌ بغنىً.

كان رأسه مسكوناً الآن ليلاً ونهاراً، بكثير من المسائل: الطعام، وغسيل الثياب الداخلية، وتبديل الملابس الرسميّة، والمسحوق، وكيّ القمل بزجاجة ساخنة، وتجميد القمل، وحرق القمل. لقد توقف عن التفكير في النساء، وتذكر المثل الذي سمعه من المجرمين في المعسكر: «ستعيش، لكنك لن تشتهي امرأة».

59

أمضى دارينسكي يوماً كاملاً في مواقع فوج المدفعية. لم يسمع خلال النهار طلقة واحدة، ولم تظهر طائرة واحدة في الجوّ.

قال له قائد الفوج، وهو شاب قوزاقي، بكلمات روسيّة بحتة:

- هنا، في اعتقادي، سأقوم في العام المقبل بإنشاءِ مزرعة للبطيخ. تعال لأكل الشمّام.

كان قائد الفوج مرتاحاً هنا، يمزحُ مظهِراً أسنانه البيض، مشى بسهولة وسرعة على رجلينِ مُقوَّستين، وساقين قصيرتين في الرمال العميقة، ونظر برفق إلى الجمال التي وقفت مربوطة بالقرب من الأكواخ، المغطاة بقطع القماش المشمّعة.

لكن المزاج الجيّد للكازاخستاني الشاب أزعج دارينسكي، الذي رغب في الوحدة، وذهب في المساء إلى مواقع إطلاق البطارية الأولى، مع أنه كان هناك في النهار.

ارتفع القمرُ ضخماً على نحوٍ لا يصدق، وغلبَ السوادُ على اللون الأحمر. نهضَ مُحمرّاً من الجهد، في سواد السماء الشفاف، وكان في ضوئه الغاضب، شيءٌ خاصّ تماماً، وبدت الصحراء الليلية، والمدافع ذات السبطانات الطويلة والمدافع المضادة للدبابات

ومدافع الهاون، قلقة وحذرة. امتدت على طول الطريقِ قافلةٌ من الجمال، تسحب عربات قرويّة تصرّ، محملة بصناديق القذائف والقشّ، كلُّ ما لا يمكن توحيده توحّد؛ الجراراتُ، وعربة مع معدات الطباعة لإحدى الصحف العسكرية، وصاري رفيع لجهاز اتصال لاسلكي، ورقاب الجمال الطويلة. كانت مشية الجمال متموِّجةً كما لو أنَّ عظماً صلباً واحداً لم يكن موجوداً في جسد الإبل كُلّه، بل صُبَّ من الكاوتشوك.

مرت الجمال، وفاحت رائحة القش القروي في الهواء الجليدي. ها هو ذا اللونُ الأحمرُ الذي يطغى عليهِ السواد للقمر الضخم نفسه الذي سبح فوق الأرض الصحراوية، حيث قاتلت حملة إيغور[1]. كان ذلك القمر في السماء هو نفسه، الذي سارت تحته جحافل الفرس نحو اليونان، وغزت الجحافل الرومانية الغابات الألمانية، وتحته عندما التقت كتائب القنصل الأول ليلاً عند الأهرامات.

يطرَحُ الوعي الإنساني جانباً، بالرجوع إلى الماضي، وعبر منخل شحيح، الكتل السيّئة من الأحداث الكبرى، ليزيل معاناة الجنود، وارتباكهم، وكآبتهم. ولتبقى قصة فارغة في الذاكرة؛ كيف بُنيت القواتُ المنتصرة وكيف بُنيت القوات المهزومة، وعدد العربات، والمجانيق، والفيلة أو المدافع والدبابات والقاذفات التي شاركت في المعركة. وتبقى في الذاكرة قصةُ قيامِ قائد حكيم وسعيد بربط المركز وضرب الجناح، وكيف ظهرت الاحتياطيات فجأة من وراء التلال، وحسمت نتائج المعركة. وهذا كل شيء، وتُنسى القصة المعتادة أن

---

(1) إيغور بن روريك، أمير كييف (من عام 912 حتى 945). جَرَّدَ حملته الشهيرة على بلاد الروم عام 941 لإخضاعها. (المترجمان).

القائد السعيد، وعندما يعود إلى وطنه، يُشتبه في نيّته الإطاحة بالحاكم المقدّس، ويدفع رأسه ثمناً لإنقاذ الوطن الأم، أو يهرب بسعادة إلى المنفى.

وهذه لوحة المعركة الماضية التي ابتكرها الفنان: قمر خافت ضخم معلق فوق حقل المجد - نائمون؛ أذرعهم مفتوحةً على اتساعها، والقادة تلفّهم القمصان المعدنية، عربات مدمّرة جاثمة، أو دبابات مقطّعة جنازيرها، وها هم المنتصرون يحملون الرشاشات، بمعاطف من القماش المشمّع، وخُوذ رومانيّة ذات نسور النحاسيّة، وفي قبعات مصنوعة من الفراء.

جلس دارينسكي متكدّراً، على صندوق قذائف في مواقع إطلاق النار لبطارية المدفعية واستمع إلى محادثة جنديين من الجيش الأحمر مستلقيين تحت معطفيهما بجانب الأسلحة. مضى قائد البطارية مع القائد السياسي إلى مقر الفصيل، ونام المقدّم، ممثل قيادة الجبهة؛ الذي عرفَ المدفعيون من هو، من ضابط الاتصال. دخّن جنديّا الجيش الأحمر السجائر بسعادة، ونفثَا الدخان الدافئ.

يبدو أنهما صديقان يربطهما ذلك الشعورُ الذي يميز دائماً الأصدقاء الحقيقيين من سواهم: الاعتقاد بأن كل شيء تافه فارغ حدث في حياة أحدهما، هو دائماً مثيرٌ لاهتمام الآخر.

سأل أحدهما، كما لو كان ساخراً ولامبالياً:

- وماذا في ذلك؟

أجابه الثاني، كأنَّهُ يفعلُ على مضض:

- ماذا، ماذا، وكأنّك لا تعرفه؟ الرجل تؤلمه ساقاه، ولا يستطيع المشي مُنتَعلاً هذا الحذاء.

- وماذا في ذلك؟

- لذلك بقي الحذاء في رجليه، فحافياً لا يمكن المشي أيضاً.

- نعم، هذا يعني أنّه لم يُسلِّم الحذاء - قال الثاني، ولم يكن في صوته أي أثر للسخرية واللامبالاة، كان ممتلئاً بالاهتمام بالحدث.

ثم تحدثا عن البيت.

- ماذا كتبت المرأة؟ هذا الشيء ليس موجوداً، وذلك أيضاً، الصبيّ مريض، والبنت مريضة. أنت تعرف المرأة.

- امرأتي تكتبُ لي صراحةً: ماذا عندكم في الجبهة؟ لديكم حصص غذائية، أما هنا فسنموتُ تماماً بسبب الصعوبات العسكرية.

قال الأوّل:

- إنّه عقل المرأة، تجلس في العمق الداخلي، ولا يمكنها أن تفهم ماذا يحصل على الجبهة. إنّها ترى حصتك الغذائية.

وأكد الثاني:

- بالضبط، هي لم تحصل على الكيروسين، وتعتقد أن لا شيءَ أسوأ من ذلك في هذا الكون.

- واضح أن الوقوف في طابور، أكثر صعوبة من محاربة الدبابات بالزجاجات في هذه الرمال.

ذكرَ الدبابات والزجاجات، على الرغم من أنّه هو ومحاوره، يعلمان أن الألمان لم يسمحوا للدبابات بالدخول إلى هذه المنطقة ولو مرة واحدة.

ومباشرة، وقبل إنهاء الحديث العائلي الأبدي الذي نشأ هنا في الصحراء العسكرية الليلية، بدأ حديثٌ آخر: من يعاني أكثر في الحياة، الرجل أو المرأة؟ قال أحدهما متردِّداً:

- زوجتي بالمناسبة، مريضة، تعاني من مشكلة في العمود الفقري، ترفع شيئاً ثقيلاً، فتستلقي في الفراش بعد ذلك أسبوعاً.

ثم تغيّر على ما يبدو الحديث تماماً، مرة أخرى، تحدثا عن أيّ الأماكن الملعونة الكثيرة الخالية من المياه في محيطهم.

قال الذي يستلقي أقرب إلى دارينسكي:

- وهل تكتب فقط للأذى؟ إنّها ببساطة لا تفهم.

وأضافَ المدفعيُّ الأوّل، مُحاولاً رفض الكلمات الشريرة التي قالها عن زوجات الجنود، وفي الوقت نفسه عدم التخلي عنها:

- تماماً. الغباء هو السبب فحسب.

ثم دخّنا وصمتا وتحدثا عن شفرات الحلاقة الآمنة وآلات الحلاقة الخطرة، عن سترة القائد الجديدة، وعن أنّهما مهما كان الوضع صعباً، فإنّهما يرغبان في العيش في هذا الكون.

- انظر، يا لها من ليلة! أتعرف عندما كنت لا أزال في المدرسة، رأيتُ هذا المنظر: القمر فوق الحقل، والأبطال الذين قُتلوا يفترشونَ الأرض.

ضحك الثاني قائلاً:

- وما وجهُ الشبه هنا؟ أولئك أبطال، ونحن ماذا؟ جنس عصافير، إنَّ عملنا عمل عجول.

60

سُمع صوتُ انفجارٍ إلى اليمين من دارينسكي كاسراً الصمت. «مئة وثلاثة ملليمترات»؛ حددت ذلكَ الأذن المعتادة. ودارت في الدماغ أفكار، ترتبط عادةً بالتفجيرات الناتجةِ من ألغام العدو وقذائفه: «هل الأمرُ مصادفة، عشوائي؟ وحيد؟ إطلاقُ نار؟... ماذا لو كانَ قصفاً مدفعيّاً؟ هل حرّك الدبابات؟»

فكَّرَ الناس الذين سمعوا ممن اعتادوا الحرب مثلما فَكَّرَ دارينسكي تماماً.

إنّ الناس الذين اعتادوا الحربَ قادرونَ على تمييز الصوت الوحيد المقلق من مئات الأصوات، مباشرة، وبغض النظر عما يكون الجندي مشغولاً به، سواء كان يحمل ملعقة، أو ينظف بندقية، أو يكتب رسالة، أو ينقِّبُ أنفَهُ بإصبعه، أو يقرأ صحيفة، أو يغرقُ في اللاتفكير، هذا يحدث أحياناً للجندي في أوقات فراغه، فيدير رأسه من فوره ويمدُّ أذنه الذكية والبخيلة.

وأتى الجواب فوراً. سُمعت عدّة انفجارات على اليمين، ثم على اليسار، تحرّك كل شيء في المحيط، ودوّى، ورعد، ودخّن.

لقد كان قصفاً مدفعيّاً!

اندلعت نيران الانفجارات من خلال الدخان والغبار والرمال.

ركضَ الناسُ، وسقطوا على الأرض.

سُمع في الصحراء صراخٌ متقطّع. وأخذت القذائفُ تنفجر بالقرب من الإبل، الحيوانات قلبت العربات، وفرَّت، تجرّ وراءها قطع سروجها. وقف دارينسكي منتصباً، متجاهلاً القذائف والقنابل المتفجرة، مصدوماً من المنظر الرهيب.

ومَضَ في رأسه، وبسطوع غير عادي، أنه يرى الأيام الأخيرة لوطنه. واجتاحه الشعور بالقدر المحتوم. هذا الصراخ الرهيب للجمال الذي اندفعت بين الرمال، وهذه الأصوات الروسية المقلقة، وهؤلاء الناس الراكضون إلى الملاجئ! لقد ماتت روسيا! ماتت هنا، مدفوعة إلى الرمال الآسيوية الباردة، لاقت حتفها تحت القمر المتجهِّم وغير المبالي، واندمج الخطاب الروسي اللطيف، الذي أحبَّهُ بلا حدود، مع صيحات الرعب واليأس للجمال التي تشوّهت بسبب القذائف الألمانية.

لقد اختبر في لحظة مريرة، ليس الغضب، ولا الكراهية، بل الشعور بأخوَّة الضعفاء والفقراء جميعاً، الذين يعيشون في العالم؛ ولسبب ما، ظهر الوجه القديم المظلم للكالميكي الذي التقى به في السهوب، وبدا قريباً منه، ومألوفاً منذ فترة طويلة.

فكّر «ما العمل، هذا مُقدّر»، وأدرك أنه لا يحتاج إلى العيش في العالم إذا حصلت الهزيمة.

نظر إلى المقاتلين، الذين جلسوا في الشقوق، واتخذ موقفاً مهمّاً، استعداداً لتولي قيادة البطارية في معركة غير سارّة، وصرخ:

- هيه، مشغل الهاتف، إلى هنا! إليّ!

وفجأة توقف دويّ الانفجارات.

أصدر قادة الجبهة الثلاثة - فاتوتين وروكوسوفسكي وإريمينكو، في تلك الليلة، وبتوجيه من ستالين، أوامرَ إلى القوات بالهجوم، الهجومُ الذي قرَّرَ خلال مئة ساعة مصيرَ معركةِ ستالينغراد، ومصيرَ جيشِ باولوس البالغ قوامه 300 ألف جندي، الهجومُ الذي حدد نقطة التحوّل الحاسمة في مسار الحرب.

انتظرت برقيةٌ دارينسكي في المقرّ: طُلبَ إليهِ الذهاب إلى فيلق دبابات العقيد نوفيكوف وإبلاغ مجموعة الأركان العامة بالأعمال القتالية في الفيلق.

61

شن الطيران الألماني مرة أخرى غارة واسعة النطاق على محطة ستالينغراد الكهربائيّة، بعد فترة وجيزة من الاحتفال بثورة أكتوبر. حيث ألقت ثماني عشرة قاذفة قنابل ثقيلة على المحطة.

غطّت سحبُ الدخان الأنقاض، وأوقفت القوّة القاذفة للطيران الألماني عملَ المحطةِ تماماً.

بدأت يدُ سبيريدونوف ترتعشُ بشدّة، بعد هذه الغارة؛ يرفع الكوب إلى فمه، فينسكبُ الشايُ عن حوافه، فيجبرُ أحياناً على إعادة وضع الكوب على الطاولة، أحسَّ أن أصابع اليد المهتزّة لا يمكن أن تمسكه. بعد أن شربَ شيئاً من الفودكا فقط توقفت الأصابع عن الارتعاش.

بدأت الإدارةُ تسمَحُ للعمال بالرحيل، فغادروا بوسائل النقلِ المُتاحة عبرَ نهر الفولغا ووتوماك - وتركوا السهب إلى أختوبا الوسطى ولينينسك.

اتصل قادة المحطة بموسكو، وطلبوا إذناً بالمغادرة، بعدَ أن فقد وجودُهم على خط الجبهة بين الورش المدمّرة معناه. تردّدت موسكو في الإجابة، وكان سبيريدونوف متوتراً جداً. استُدعي القائد الحزبي

نيقولاييف مباشرة بعد الغارة، من اللجنة المركزية وتوجّه على متنِ طائرة «دوغلاس» إلى موسكو.

تجوّل سبيريدونوف وكاميشوف بين أنقاض المحطة، وأقنع كُلٌّ منهما الآخر أنْ ليس ثمَّةَ ما يفعلانه هنا، وكان عليهما التراجع. لكن موسكو كانت صامتة.

ما أقلق ستيبان فيدوروفيتش على نحوٍ خاص، هو مصير فيرا. فقد ساءت صحّتُها بعد عبور الضفة اليسرى من نهر الفولغا، ولم تستطع التوجه إلى لينينسك. كان من المستحيل تماماً بالنسبة إليها، وهي الحامل في الشهور الأخيرة، أن تقطع نحو مئة كيلومتر على طول طريق مُحفّر في الصندوق الخلفي للشاحنة التي تتقافز وهي سائرة على أكوام الطين المتجمدة والمتحجرة.

أخذها بعضُ معارفها من العمال إلى بارجةٍ متجمدة في الجليد قبالة الشاطئ، تحوّلت إلى سكن جماعي.

أرسلت فيرا بعد وقت قصير من قصف المحطة مرَّة ثانية، رسالة إلى والدها مع ميكانيكي القارب. وطلبت إليهِ ألّا يقلق - فقد وجدوا لها مكاناً في الموضع المخصّص للانتظار بين الطابقين، في زاوية مريحة خلف الحاجز. بين الأشخاص الذين تم إجلاؤهم هناك ممرضة من مستوصف بيكيت وقابلة عجوز. وثمّةَ مستشفى ميداني على بعد أربعة كيلومترات من البارجة، وفي حالِ حدوث أي مضاعفات، يمكن دائماً الاتصال بالطبيب. ويوجد سخّانُ ماءٍ على البارجة وفرن، ويُحضِّرونَ الطعام معاً من المواد الغذائية التي ترسلها لجنة الحزب الإقليمية.

على الرغم من أن فيرا طلبت من والدها ألا يقلق، فإن كل كلمة

في رسالتها ملأت ستيبان فيدوروفيتش بالقلق. ربما ارتاح لأمرٍ واحدٍ فحسب: كتبت فيرا أنَّ البارجة لم تقصف خلال المعارك. وإذا ما انتقل ستيبان فيدوروفيتش إلى الضفة اليسرى، فسيكون قادراً، بالتأكيد، على إيجاد سيارة ركابٍ أو سيارة إسعاف، ينقل فيرا إلى أختوبا الوسطى على الأقل.

لكن موسكو ما زالت صامتة، ولم تسدعِ المديرَ وكبيرَ المهندسين، مع أنَّ محطة ستالينغراد الكهربائية المدمرة لا تحتاجُ الآن إلى أكثر من مفرزة صغيرة من الحراس شبه العسكريين. لم يرغب العمال والموظفون الفنيّون في التسكع في المحطة من دون عمل، وخرج الجميع مباشرة إلى المعبر، بعد أن حصلوا على إذن من سبيريدونوف.

لم يرغب فقط أندريه العجوز في الحصول على تصريح من المدير على ورقة رسميّة عليها ختم دائري.

عندما اقترح ستيبان فيدوروفيتش على أندرييف بعد الغارة، الذهاب إلى لينينسك، حيث تعيشُ زوجة ابنه وحفيده، قال أندرييف:

- لا، سأبقى هنا.

بدا له أنه على ساحل ستالينغراد سيحفَظُ علاقته بحياته السابقة. ربما بعد فترة من الوقت سيتمكن من الوصول إلى قرية مصنع الجرارات. وسيتجوّل بين المنازل المحترقة المدمّرة، ويبلُغ الحديقةَ التي زرعتها زوجته، ويرفع، ويسوّي الشجيرات المكسورة، ويتحقق من وجود الأشياء المدفونة في مكانها، ثم يجلس على الحصى بالقرب من السياج الخشبي.

- ها هي ذي. يا فارفارا، إذاً، ماكينة الخياطة مكانها، وحتى إنّها لم تصدأ، واختفت شجرةُ التفاح عند السياج تماماً، قَطعتها شظيّة، وفي القبو تَعفَّن الملفوفُ المخلّل في الحوض من الأعلى فحسب.

أراد ستيبان فيدوروفيتش التشاور حول شؤونه مع كريموف، ولكن كريموف بعد الاحتفال بذكرى ثورة أكتوبر، لم يظهر في محطة ستالينغراد الكهربائية.

قرر سبيريدونوف وكاميشوف الانتظار حتى 17 تشرين الثاني (نوفمبر) ثم يغادران - لم يكن لديهما ما يفعلانه في المحطة الكهربائية. الألمان واصلوا قصف المحطة من وقت إلى آخر، وقال كاميشوف المتوتِّر عصبيّاً بعد غارة واسعة النطاق:

- ستيبان فيدوروفيتش، ذهب استطلاعُهم إلى الجحيم، فهم يواصلون القصف. طيرانهم يمكن أن يقصف مرّة أخرى في أي ساعة. أنت تعرف الألمان يصبحون مثل الثور، يضربُ بقوائمهِ في أماكن فارغة.

غادر ستيبان فيدوروفيتش محطة ستالينغراد الحراريّة، من دون انتظار الحصول على إذن رسمي من موسكو في الثامن عشر من تشرين الثاني (نوفمبر)، وبعد وداع الحرّاس، قبّل أندرييف، ونظر إلى أنقاض المحطة للمرة الأخيرة.

عملَ كثيراً وبصعوبة وبنزاهة في محطة ستالينغراد الكهربائية، خلال معارك ستالينغراد. وكلّما كان عملُهُ أكثر صعوبة وإتقاناً، خافَ الحربَ، ولم يكن معتاداً على ظروف الجبهة، وكان جباناً دائماً عند

التفكير في الغارات، ولكنّه أصبحَ في حال انتشاءٍ في أثناء القصف - ومع ذلك كان يعمل.

سار حاملاً حقيبةً وصُرَّةً على كتفه ونظر حوله، لوّح بيده لأندرييف، الذي كان واقفاً عند البوابة المُهدَّمة، ونظر إلى البيت التقني ذي النوافذ المحطَّمة، وإلى جدران ورشة التوربينات القاتمة، وإلى الدخان الخفيف فوق العوازل النفطية التي استمرت بالاحتراق.

غادرَ محطَّةَ ستالينغراد الكهربائية، عندما لم يعد ثمّة حاجة إليه، غادر قبل يوم واحد من بدء هجوم الجيوش السوفييتية.

لكن هذا اليوم، الذي لم يصل إليه، محا في أعين كثيرٍ من الناس جميع أعماله الصادقة والصعبة - أولئكَ الناس الذين كانوا على استعداد لتسميته بطلاً، وبدؤوا بوصفه جباناً وفارّاً.

وظل هو نفسه يحافظُ على شعور العذاب في أعماقه فترةً طويلةً، ويتذكر كيف مشى، ونظر حوله، ولوَّح بيده، والعجوز الوحيد العابس يقف عند بوابة المحطة ويُشيّعه بنظره.

62

أنجبت فيرا ولداً.

كانت مستلقية في عنبر البارجة على سرير مكون من ألواح خشنة، ووضعت النساء خرقاً من القماش عليها للدفء، وبجانبها كان طفل ملفوفٌ بشرشف سرير، وعندما دخل إليها شخصٌ ما، مُزيحاً الستارة، رأت الرجال والنساء، والأشياء التالفة المُتَدلّيَة من فوق الأسرّة، ووصلت إليها أصوات مزعجة، وصراخ أطفال وضجيج. وخيّم الضباب على رأسها، وانتشر في الجوّ المعكر.

كان الجوّ خانقاً في العنبر وبارداً، تسللَ الصقيع من بعض الأماكن في الجدران الخشبية. ونام الناس في الليل، من دون خلع أربطة أرجلهم وأحذيتهم اللبادية الشتوية، والتفَّت النساءُ طوال اليوم بالشالات والبطانيّات الممزّقة، تنفخن على أصابعهن المتجمّدة.

كان الضوء يمرّ بصعوبةٍ عبر نافذة صغيرة، مقصوصةٍ على مستوى الجليد تقريباً، وفي النهار كانت الظلمةُ تكادُ تُخيِّمُ في العنبر. وفي المساء، أشعلوا المصابيح الزيتية؛ مصابيح لا زجاجَ لها. كانت وجوه الناس سوداء، من السخام. عندما فُتحت نوافذُ سُلَّم البارجة، اندفعت نفثات من البخار في العنبر، كالدخان الناتجِ من قذيفة تنفجر.

كانت العجائز الشعثاوات، يُمشِّطنَ شعورهنّ الرماديّة الشائبة، وجلسَ الرجال كبار السنّ على الأرض مع أكواب الماء المغلي وسط الوسائد الملوّنة، والصُّرر، والحقائب الخشبية، التي كان الأطفال يزحفون فوقها ويلعبون بالأوشحة.

ولأن الطفل كان يرقد على صدرها، بدا لفيرا، أنّ أفكارها قد تغيّرت، وموقفها من جميع الناس قد تغيّر، وجسدها بدورِه تغيّر.

فكرت في صديقتها زينا ميلنيكوفا، وفي المرأة العجوز سيرغييفنا، التي كانت تعتني بها، وفي الربيع، وفي والدتها، وفي القميص الممزق، وفي البطانية القطنية، وفي سيريوجا وتولا، وفي غسل الصابون، وفي الطائرات الألمانية، وفي مخبأ محطة ستالينغراد الحرارية، وفي شعرها غير المغسول - وكل ما تبادر إلى ذهنها كان يتغذى من خلال شعورها بطفلها المولود، وارتبط به، وسواء كان مهمّاً أم غير مهم فقد ارتبطَ به.

نظرت إلى يديها، وساقيها، وصدرها، وأصابعها. لم تعد هاتان اليدان تلعبان كرة الطائرة، وتكتبان المؤلفات، وتتصفّحان الكتاب. لم تكن هاتان هما ساقيها اللتين تنزلان مسرعتين على درجات سلّم المدرسة، وتضربان مياه النهر الدافئة، محروقتين بالقرّاص، الساقان اللتان ينظر إليهما المارة في أثناء عبور فيرا الشارع.

وفي أثناء تفكيرها في الطفل، فكرت فيرا في الوقت نفسه في فيكتوروف.

تقع المطارات خلف الفولغا، وفيكتوروف قريبٌ منها، لم يعد نهر الفولغا يفصل بينهما.

سيدخلُ الطيارون الآن إلى العنبر، وستسأل: «هل تعرفون النقيب فيكتوروف؟» وسوف يقول الطيارون: «نعم نعرفه». «أخبروه إذاً - ها هوذا ابنه وهذهِ زوجته هنا».

دخلت النساء إليها من خلف الستار، وهززن رؤوسهن، وابتسمن، وتنهّدن، وبدأ بعضهنّ بالبكاء، وهنّ ينحنين فوق الصغير.

بكين على أنفسهن وابتسمنَ للوليد، ولم تكن ثمَّة حاجة إلى الكلمات لفهمهنّ.

وإذا ما طرحن الأسئلة على فيرا، فإن تلكَ الأسئلة كانت تدورُ فحسب حولَ ما يتعلق بما يمكن للأم أن تخدم به الطفل - هل يوجد حليب في صدرها، هل بدأ ثدياها يؤلِمانها، أو ألا تشعرُ بالاختناقِ من جرّاء الهواء الرطب.

وصلَ إليها والدها، في اليوم الثالث بعد الولادة. لم يعد يشبه مدير محطة كهرباء ستالينغراد، يحملُ حقيبة، وصُرَّة، غير حليق، بمعطف مرفوعة ياقته، وربطة عنق مربوطة، وخدَّينِ وأنف محترق بالهواء الجليدي.

عندما اقترب ستيبان فيدوروفيتش من سريرها، رأت أن وجهه المتوهج في اللحظة الأولى لم يتوجّه نحوها، بل نحو الكائن الذي كان يرقد بالقرب منها.

استدار عنها، ورأت بالنظرِ إلى ظهره وكتفيه أنه كان يبكي، وأدركت أنه يبكي لأن الزوجة لن تعرف أبداً بأمرِ حفيدها، ولن تنحني عليه مثلما انحنى هو.

ولكنَّهُ قالَ بصوت انهار من جرّاءِ الصقيع غاضباً فيما بعد من دموعه، وخجلاً منها، فقد رآه العشرات من الناس:

- ها أنا قد أصبحتُ جدّاً بسببك، انحنى على فيرا، وقبّل جبهتها، ومسّد كتفها بيده الباردة والمتّسخة.

ثم قال:

- كان كريموف في محطة ستالينغراد الكهربائية، في الذكرى السنوية لثورة أكتوبر. لم يكن يعلم أنّ ماما لم تعد موجودة. ظل طوال الوقت يسأل عن جينيا.

قال عجوز غير حليق، يرتدي سترة زرقاء، تخرج منها قطعٌ من الصوف القطني المنسدل، بضيق نفس:

- أيُّها الرفيق سبيريدونوف، هنا يُعطونَ وسام كوتوزوف ووسام لينين، ونجمة البطل لمن يقمع الناس أكثر من غيره. وكم جمعَ منها كلٌّ من جماعتنا وجماعتهم! فأيّ نجمةٍ - من عيار الكيلو أو الاثنين، يجب أن يُعطى لابنتك فهي قد جلبت حياة جديدة في مثل هذا الوضع الشاق.

كان هذا أول شخص تحدّث عن فيرا بعد ولادة طفل.

قرّر ستيبان فيدوروفيتش البقاء في البارجة، والانتظار حتى تصبح فيرا أقوى، فيذهب إلى لينينسك معها. كان هذا في طريقه إلى كويبيشيف، حيث سيذهب لمنصب جديد. وعندما رأى أن وضع الطعام سيّئٌ جداً على البارجة، كان لا بدّ من مساعدة ابنته وحفيده فوراً، توجّه ستيبان فيدوروفيتش، بعد أن حصل على قسطٍ من الدفء، للبحث عن موقعِ قيادة لجنة الحزب الإقليمية، الواقع في مكان ما قريب في الغابة. هناك، كان يأمل في الحصول على الدهن والسكر من خلال أصدقائه.

63

كان هذا اليوم صعباً جداً في العنبر. خيّمت الغيومُ فوق نهر الفولغا. لم يلعب الأطفالُ على القذارة، في القمامة والنقع المظلمة، والجليد، ولم تغسل النساء ملابسهن في الثقب الجليدي، فقد مزقت الريحُ السفلية قطعاً من الخرق المتجمدة في الجليد، ودخلت العنبر من خلال الشقوق في الفتحات، وملأت البارجة بالصفير والصرير.

جلسَ الناسُ المخدّرونَ الملفوفونَ في الأوشحة، والسترات المبطنة، والبطانيات. والتزمَ معظم الجدات الثرثارات الصمت، واستمعن إلى صفير الرياح، وصرير الألواح.

حلّ الظلام، وبدا أنَّهُ جاءَ من الكآبة الإنسانية التي لا تطاق، ومن البرد الذي عذّب الجميع، من الجوع، والأوساخ، من العذابِ المُسْكِرِ الذي لا نهاية له.

استلقت فيرا المغطاة بسترة مبطنة إلى ذقنها، وشعرت بحركة الهواء الباردة على خديها، وهو دخل العنبر عند كل هَبَّةِ ريح.

بدا كل شيءٍ في تلك اللحظةِ سيئاً ميؤوساً منه؛ لم يكن في استطاعة ستيبان فيدوروفيتش إخراجها من هنا، ولن تنتهي الحرب

أبداً، وسيزحف الألمان على جبال الأورال وسيبيريا في الربيع، وستظل طائراتهم دائماً في السماء، ودويّ انفجارات القنابل سيبقى.

شكّت لأول مرة في أن يكونَ فيكتوروف قريباً منها. فثمّةَ جبهاتٌ كثيرة، وربما لم يعد موجوداً في الجبهة كلها، ولا في الخلف.

أزاحت الشرشف جانباً، ونظرت إلى وجه الطفل. لماذا يبكي؟ يجب أن تكون كآبتها قد انتقلت إليه، مثلما يُنْقَلُ إليه دفؤُها، وحليبُها.

ضغطت على الجميع في هذا اليوم شدَّةُ البرد، وقسوة الرياح الصقيعيّة، وضخامة الحرب على السهول والأنهار الروسيّة العظيمة.

هل يمكن للإنسان تحمّل مثل هذا الجوع والحياة الباردة الرهيبة لفترة طويلة؟

اقتربت العجوز سيرغييفنا من فيرا، التي كانت تحمل طفلها، وقالت:

- لا تُعجبينني اليوم، لقد كنت أفضل في اليوم الأول.

قالت فيرا:

- لا يهم، أبي سيأتي غداً، ويحضر موادَّ غذائية.

وعلى الرغم من أن سيرغييفنا كانت سعيدة لأنَّ أحداً سيُحضرُ للولّادة الدهن والسكر، إلا أنها قالت غاضبة وبوقاحة:

- أنتم المسؤولون، متخمون دائماً، يحضرون لكم الطعام من كل مكان. ونحن لدينا احتياطي واحد؛ البطاطا المجمّدة.

صاح أحد ما:

- الصمت! الصمت!

سُمع صوت غامض في الطرف الآخر من العنبر.

وفجأة دوّى صوت عال، طغى على جميع الأصوات الجانبية.

قرأ شخص ما على ضوء المصباح الزيتي:

«في الساعة الأخيرة... هجومٌ ناجحٌ لقواتنا في منطقة مدينة ستالينغراد... ومنذ أيّام، شنت قواتنا، الواقعة على أطراف ستالينغراد، هجوماً ضد القوات الفاشية - الألمانية. بدأ الهجوم في اتجاهين: من الشمال الغربي ومن جنوب ستالينغراد...».

وقف الناس بصمت وبكوا. ونشأت علاقة رائعة غير مرئية بينهم وبين هؤلاء الرجال الذين كانوا يغطون وجوههم من الريح، ويسيرون على الثلج الآن، وأولئك الذين كانوا يرقدون على الثلج، ملطخين بالدماء، ويودعون الحياة بنظرة قاتمة.

وقف كبار السن من الرجال والنساء، وبكى العمال، ووقف الأطفالُ ذوو التعبير غير الطفولي بجانب البالغين واستمعوا إلى القراءة.

وقال القارئ: «قواتنا حرّرت مدينة كالاتش على الضفة الشرقية لنهر الدون ومحطة كريفوموزغينسكي ومحطة ومدينة أبغاساروفو...».

فيرا بكت مع الجميع. وشعرت بالصلة بين أولئكَ الذين ساروا في ظلام الشتاء الليلي، وسقطوا، ونهضوا مرة أخرى، وسقطوا مرة أخرى، كي لا ينهضوا ثانيةً، وهذا العنبر، حيث استمع الناس المنهكون الأخبار حول الهجوم.

يسيرون هناك إلى الموت، من أجلها، ومن أجل ابنها، ومن

أجل النساء ذوات الأيدي المتشققة بسبب الماء المثلَّج، وكبار السن والأطفال الذين يلتفون بأوشحة الأمهات الممزَّقة.

وفكّرت بكل سرور، باكية، أن زوجها سيأتي إليها هنا، والنساء، والعمال المسنون سيحيطون به، ويقولون له: «بنيّ».

وقال الشخص الذي قرأ رسالة مكتب الإعلام السوفييتي: «هجوم قواتنا مستمر».

64

أبلَغَ الضابطُ المناوبُ قائدَ الجيش الجوي الثامن بمعلومات حول العملية القتالية للأفواج المقاتلة خلال يوم الهجوم.

نظر الجنرال إلى الأوراق الموضوعة أمامه وقال للضابط المناوب:

- زكابلوك ليس محظوظاً، أمس أسقطوا له المفوض، واليوم أسقطوا طيارين.

قال الضابط المناوب:

- اتصلت بمقر الفوج هاتفياً، أيّها الرفيق القائد، سيُدفنُ الرفيقُ بيرمان غداً. وعدَ عضو المجلس العسكري بالسفر إلى الفوج، لإلقاء كلمة.

قالَ القائدُ مبتسماً:

- يحبُّ عضو مجلسنا إلقاء الكلمات.

- وفيما يتعلَّقُ بالطيارين، الرفيق القائد: سقطَ الملازمُ أوّل كورول على موقع الحرس الثامن والثلاثين، وقائد الوحدة النقيب فيكتوروف، أحرقتهُ طائرات «ميسير» فوق المطار الألماني، قبل أن يصل إلى خط الجبهة، وسقط من ارتفاع عال، على منطقة محايدة. رآه المشاة، وحاولوا الاقتراب منه، ولكن الألماني لم يسمح لهم.

قال القائد وهو يحكّ أنفه بقلم رصاص:

- نعم، يحصل ذلك. عليك أن تفعل ما يأتي: اتصل بمقر الجبهة وذكِّرهم بأن زاخاروف وعدنا باستبدال «الجيب»، وإلّا لن يكون هناك شيء نركبه قريباً.



استلقى الطيار الميّت طوال الليل فوقَ تل ثلجي؛ كان ثمَّةَ صقيع قاس، وكانت النجوم تتألق بألوان زاهية جداً. وعند الفجر، تحوّل التل إلى اللون الوردي تماماً، والطيار ظلَّ مُستلقياً على تلٍّ وردي. ثم هبّت الريح، وبدأ الثلجُ يُغطّي الجسد.

"واحدة من الروايات الروسية القليلة في القرن العشرين التي تُقارن بأسلافها العظيمة".

صحيفة ديلي إكسبرس

★★★★★

"رواية الحياة والمصير مزيجٌ من تصوير البسالة في المعارك، ورؤى نفسية ثاقبة، مُعضلات مبرّحة وتأملات فلسفية عميقة عن الطبيعة، والخير، والشر. إنها معاً مضحكة ومروعة، تراجيدية وثرية بالمعلومات، حالمة ومحيّرة".

مجلة الإيكونوميست

★★★★★

"يتضح في رواية الحياة والمصير أن غروسمان لم يشترك فقط مع تشيخوف، قدوته المبجلة، في عدم الثقة بالأفكار المتفائلة عن سعادة الجنس البشري، بل أخذ منه الأسلوب الموجز، والحوار الدقيق، والتعليقات المقتصدة لمشاهد الطبيعة".

مجلة دير شبيغل الألمانية

الحياة والمصير
فاسيلي غروسمان
ISBN 9786148020834





www.darsoual.com
dar_souaal@outlook.com
@darsoual2014
Dar Soual
@darsoual